كليلة ودمنة

لبيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمه ونقله إلى العربية: عبد الله بن المقفع

تحقيق وتعليق

محمد إبراهيم سليم

مكتبة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع والتصدير

٧٦ شارع محمد فريد - جامع الفتح - مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٣٧٩٨٦٣ - ٦٣٨٩٣٧٢ فاكس : ٦٣٨٠٤٨٣

IBN SINA BOOKSHOP *Printing - Publishing - Distributing - Exporting*

76 Mohamed Farid St., Heliopolis, Cairo Tel. : (202) 6379863 - 6389372 - Fax : (202) 6380483

اسم الكتـــاب : كليلة ودمنة
اســم المــؤلــف : الفيلسوف الهندى بيدبا
اسم النـاشـــر : مكتبة ابن سينا
تصميم الغلاف : جلال عبادة
رقـــم الإيـــداع : ٤٣١٤ / ١٩٩٢

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أى جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن كتابى سابق من الناشر .

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without written permission of the publisher.

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من وكيلنا الوحيد **مكتبة الساعى للنشر والتوزيع**

الرياض - هاتف : ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ فاكس ٤٣٥٥٩٤٥ جدة هاتف : ٦٥٣٢٠٨٩ - ٦٥٢٤٠٩٥ فاكس : ٦٥٢٤١٨٩

طبع بمطابع ابن سينا القاهرة ت : ٣٢٠٩٧٢٨

Web site : www.ibnsina-eg.com E-mail : info@ibnsina-eg.com

بسم الله الرحمن الرحيم

«كتاب كليلة ودمنة» قال عنه برزويه - الذي نقله من الهندية إلى الفارسية في حضرة كسرى وخاصته :

هو أصل كل أدب .. ورأس كل علم .. والدليل على كل منفعة ..

ومفتاح عمل الآخرة وعلمِها، ومعرفة النجاة من أهوالها!

والمقوِّي على جميع الأمور.. والمعينُ على ما تحتاج إليه الملوك في تدبيرهم لأمور ممالكهم، وآداب السُّوقة فيما يَرْضون به ملوكهم ويصلحون به معايشَهم.

وكتاب هذا شأنه من حقك أن تعرف كيف وصل إلينا ، ولماذا ظل حيًا متألقًا على مر العصور والقرون ؟!!

تعال نتابع قصة تأليفه وترجمته ومسيرة حياته ..

هذا الكتاب ..

هذا الكتاب ألفه الفيلسوف الهندي «بَيْدبا» للملك «دَبشليم» .

وفي أوائل القرن السادس الميلادي أرسل «كسرى أنُوشِرْوان» ملك الفرس الطبيب الفارسي «بَرْزَوِيه» ليقوم بنقله إلى اللسان الفهلوي : (الفارسية القديمة) . ثم في منتصف القرن الثاني الهجري نقله الأديب العربي «عبد الله ابن المقفع» عن الفهلوية إلى العربية وكان أوله «باب الأسد والثور» .

ولكنك تجد في أوله أربعة أبواب : ثلاثة منها مزيدة في اللغة البهلوية ، أما الرابع فقد زاده عبد الله بن المقفع عند تعريبه للكتاب في عهد الخليفة المنصور.

وهذه الأبواب الأربعة المزيدة على الكتاب تشكل رُبُعَه تقريبًا، لكن لا بد لمن يريد الانتفاع بالكتاب أن يقرأها :

١ - ففي مقدمة الكتاب نجد «بـهنود بن سحوان» الذي يعرف بعلي بن الشاه الفارسي يذكر السبب الذي من أجله عمل بيدبا الفيلسوف هذا الكتاب لملك الهند .

٢ - أما الباب الثاني فيسلط الأضواء على بعثة برزويه الطبيب الفارسي إلى الهند لتحصيل هذا الكتاب بأمر من الملك كِسرى أنُوشروان.

٣ - وفي الباب الثالث يعرض عبد الله بن المقفع ما تضمنه الكتاب، وقد تضمنت مقدمته مبادئ تربوية على جانب كبير من الأهمية ، لم يتعرض لها بيدبا، ولا برزويه؛ فرأى أن يسجلها.

٤ - ويأتي الباب الرابع تخليدًا لبرزويه ، ومكافأة له على ما قام به، وقد طلب برزويه أن يكون قبل «باب الأسد والثور» أول أبواب كليلة ودمنة، وقد كتبه الوزير الفارسي «بُزَرْجُمـهر» بأمر الملك مكافأة لصنيع برزويه، وتخليدًا لذكراه.

ويشاء الله أن تكتسب النسخة العربية شهرة عالمية بعد فقد الأصل الهندي، واختفاء الترجمة الفارسية .

وكأنما حملت النسخة العربية مسئولية الحفاظ على هذا الكتاب، وتقديمه إلى طلاب المعرفة، ومتذوقي الفن القصصي، وعلماء الأخلاق والسياسة عبر

العصور.

وتمر السنون فإذا الناس لا يذكرون إلا عبد الله بن المقفع، وينسبون إليه «كليلة ودمنة» وإذا كان هذا الكتاب يحمل ملامح ثلاث حضارات هي : الهندية، والفارسية، والعربية؛ فإن بصمات ابن المقفع صاحب «الأدب الكبير» و«الأدب الصغير» تبدو واضحة جلية؛ فلا شك أنه نموذج راق للنثر، ترك أثره في أساليب الكتابة العربية على مر السنين.

إنه مثل يُحتَذى تتراءى لنا من خلاله مدرسة ابن المقفع وطريقته التي أبدعها في النثر الفني.

وقد يقول قائل : أهناك ما يدعو إلى هذا الكتاب في عصرنا الحديث ؟

ويجيب واحد ممن يـــهمهم أمر التراث[1] العربي بقوله :

«إن كتاب كليلة ودمنة قضية حاضرة ما دامت أخلاق الأفراد، وسلوك الجماعات، وعلاقات القوى الفاعلة في أي تكوين بشري موضع درس وتحليل من الفلاسفة وعلماء الاجتماع، والنفسانيين وستظل حاضرة مادام اهتمام النقاد والدارسين باللغة الفنية».

ومما يميز الكتاب عن غيره من الكتب أنه وضع لمستويات ثلاثة :

فالبسطاء ، وهواة التسلية يجدون فيه الجانب الترفيهي، ويسعدهم ذلك ويمتعهم.

أما الحكماء : فيختارونه لحكمته ؟ ليستخلصوا منه دوافع السلوك ، وأسرار النفس، وآداب الحياة الاجتماعية بين طوائف الشعب المختلفة، وقادته وأولي الأمر فيه .

وهناك المستوى الثالث : وهم المتعلمون ؛ فإنـــهم يجدون فيه المعلومات الكثيرة، وتروقهم لغته الصافية في سلاسة وعذوبة!

«وهكذا تتدرج مستويات المعرفة مع مستويات الخبرة، وتنمية الدُّرْبة، فيكفي الصبي أن يعي الحوادث التي قرأها، حتى إذا اكتمل عقله، ونمت خبرته، وصل بنفسه إلى المستوى الأعلى في إدراك ما قد وعى وحفظ»[2].

ومن يتصفح مقدمة ابن المقفع يجد أنـــها قد تضمنت مبادئ تربوية على

---

(١) التراث : رؤية عصرية للدكتور محمد حسن عبد الله.

(٢) المصدر السابق بتصرف .

جانب عظيم من الأهمية :

إنه يركز على جودة القراءة، والتثبت من المعاني، وتنظيم المعلومات في كل مرحلة بحيث لا يجاوزها إلى ما يليها حتى يتقن ما بدأ به.

ثم هو يؤكد على ضرورة وضع المعرفة النظرية موضع التطبيق، بحيث تتحول الخبرة إلى سلوك ، وهو ما ينادي به علماء التربية اليوم، وبخاصة في مجال الأخلاق والدين!

ويطلب من كل قارئ أن يحدد هدفه لكل عمل، ولا شك أن تحديد الهدف يحمي العمل من الانحراف وضياع الجهد.

وينصح بضرورة وضع حدود ومعالم لكل عمل، وهو ما يسميه التربويون «المنهج» بينما يسميه الإداريون «الخطة» وكم توقفت مشروعات بسبب سوء التخطيط . وإلى جانب هذه المبادئ الأربعة نجده يشير باستخدام القياس والتنظير في تنمية المعرفة، وتوجيه السلوك. وتنشيط العقل لاستخدام القياس هو بذاته بناء للقوة التي هي أعز قوى الإنسان وأشرفها.

الحق أقول : إن هذا الكتاب ثروة أدبية : فكرية، ولغوية.

ولذا نراه ترجم إلى معظم لغات العالم : إنه كتاب عالمي بكل المقاييس !

وأخيرًا فسوف تعرف من مقدمة الكتاب قصة غزو الإسكندر بلاد الهند، وثورة الشعب عليه، وتولّي الملك الهندي دبشليم مقاليد الحكم، وغروره وظلمه، مما دفع الفيلسوف بيدبا إلى نصحه، فيقوم الملك بسجنه، ولكنه يندم على فعلته فيقربه إليه، ويجعله وزيرًا له، يستشيره في كل الأمور، ويطلب منه أن يضع خبرته ونصائحه في كتاب هو : كتاب «كليلة ودمنة».

وكليلة ودمنة : كلاهما من الفصيلة الكلبية، ولكنهما أصغر حجمًا من الذئب! والحديث على ألسنة الحيوانات ليس إلا من قبيل «الأدب الرمزي» الذي ينطبق على عالم الإنسان، وتُسْتَخْرَج منه الحكمة والموعظة الحسنة.

ومن أجل هذا كله قمت بتحقيقه، وبذلت جهدي في العناية به ليظهر في هذه الصورة الجميلة شكلا ومضمونا، والله حسبي.

شخصيات الحوار

كليلة : حيوان من الفصيلة الكلبية ، وهو أصغر حجما من الذئب : (ابن آوى) . وكذلك "دمنة" .

دبشليم : الملك الهندي الذي طلب وضع هذا الكتاب .

بيدبا : الفيلسوف الهندي الذي قام بوضع الكتاب .

برزويه : الطبيب الفارسي الذي سافر إلى الهند لنقل هذا الكتاب .

كسرى أنوشروان : ملك الفرس الذي كلف برزويه نقل هذا الكتاب .

أرزويه : صديق برزويه في الهند وقد ساعده على أداء مهمته .

بهنود بن سحوان : كتب مقدمة الكتاب ويعرف بعلي بن الشاه .

بُزَرْجُمْهر بن البَخْتَكان : وزير كسرى، بوّب الكتاب وكتب بابا عن برزويه تكريما له قبل "باب الأسد والثور" .

إيلاز : وزير الملك وصاحبه وكان ناسكا متعبدا .

بلاز : أحد الملوك .

كال : صاحب سر الملك وسيفه .

كباريون : الحكيم الفاضل ، العالم بالأمور .

إيراخت : الملكة المحمودة أمّ جُوير .

جوير : ابن الملك .

حورقناه أكرم نساء الملك .

شتربة : الثور .

نسخ الكتاب التي اعتمدت عليها :

" أ " المخطوطة :

تضم دار الكتب المصرية "الهيئة العامة للكتاب" أربع مخطوطات هي :

الفن والرقم	عدد الأوراق	رقم الميكروفيلم
١ – أدب : ٩٥٩٩	٢٠٥	٣٢٦٤٤
٢ – أدب تيمور : ٨٢٤	٣٤٦ صفحة	٢٧٨٥٤ [وقد تم نسخها سنة ١٠٣٠هـ]
٣ – أدب تيمور : ٩٦٧	١٤٢ صفحة	٢٨٢٤٧
٤ – أدب طلعت : ٤٦١٦	١٠٣ ورقات	[وقد نسخت سنة ٧٢١ هـ]

وهي تختلف فيما بينها في متن القصص ، وعدد الأبواب وترتيبها .

وتكاد هذه الظاهرة تشمل النسخ غير العربية كما ذكر العلامة سلفستر دي ساسي حيث أشكل عليه اختيار نسخة يعتمدها في الطبع .

"ب" النسخ المطبوعة :

ولقد ساعدني على اختيار هذه النسخة على هذا الوجه تلك النسخ الثلاث المطبوعة وهي :

(١) طبعة بيروت المطبعة الأدبية سنة ١٨٨٤ تحقيق الشيخ خليل اليازجي.

(٢) طبعة بولاق التي قررتها وزارة المعارف المصرية ١٩٠٢ م وكان قد تم اختيارها في عهد محمد علي وراجعها الشيخ حسن العطار ، بعد أن شهد لمصححها بالألمعية ، واتفق الناس على صحتها .

(٣) طبعة المطبعة العلمية ليوسف إبراهيم صادر في بيروت سنة ١٩٠٢م.

وعلى الرغم مما بين هذه النسخ المطبوعة من اختلاف شأنها شأن المخطوطة فقد تيسر لي اختيار هذه النسخة، وقد علقت عليها، وضبطت ألفاظها بالشكل الكامل تيسيرا على الناشئين من طلاب العلم.

وسوف يلمس القارئ الكريم أن هذه النسخة جاءت جامعة لمحاسن ما رجعت إليه من نسخ مخطوطة ومطبوعة مهذبة مما في بعضها من شوائب التحريف والتصحيف معنونة بما يساعد القارئ على الاستفادة من قصصها ، والانتفاع بمغزاها، مفهرسة بما يتضمن ذكر كل باب وما وضع من أجله .

وها هي ذي بين يديك لتحكم لها أو عليها .

محمد إبراهيم سليم

الثروة اللغوية

من يقرأ "**كليلة ودمنة**" يعش مع ابن المقفع في أساليبه وعباراته التي بلغت القمة !

وإذا كان للناشئين فيه نصيبهم ، فمن حقهم علينا أن نتوقف معهم عند الكلمات الصعبة نجلو غامضها حتى يتاح لهم معايشة ابن المقفع في ترجمته العربية للكتاب .

وحتى لا تزدحم الصفحات بأرقام الكلمات قصرنا الترقيم في كل صفحة على فقرات طويلة تضم كل واحدة منها ما تضمنته من ألفاظ وأساليب ليرجع إليها من شاء من القراء .

وسوف يلمس الجميع مدى الجهد المبذول .

نسأل الله أن ينفع به أبناءنا وبناتنا إنه أكرم مسئول .

بابُ
مُقَدِّمةِ ٱلكِتابِ

قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحوانَ وَيُعْرَفُ بِعَلّي بْنِ الشَّاهِ الْفارِسِيِّ. ذَكَرَ فِيها السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بَيْدَبا الْفَيْلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ رَأْسُ الْبَراهِمةِ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتابَهُ الَّذي سَمَّاهُ «كَلِيلَةَ وَدِمْنةَ» وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسُن الْبَهائِمِ وَالطَّيْرِ؛ صِيانةً لِغَرَضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوامِّ، وَضَنًّا بِما ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغامِ، وَتَنْزِيهًا لِلْحِكْمةِ وَفُنُونِها وَمَحاسِنِها وَعُيُونِها ؛ إِذْ هِيَ لِلْفَيْلَسُوفِ مَنْدُوحةٌ ، وَلِخاطِرِهِ مَفْتُوحةٌ ، وَلِمُحِبِّيها تَثْقِيفٌ ، ولِطالِبِيها تَشْرِيفٌ[1].

وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنُوشِرْوانُ بْنُ قَبّاذَ بْنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الْفُرْسِ بَرْزَوَيْهِ رَأْسَ أَطِبّاءِ فارِسَ إِلَى بِلادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتابِ كَلِيلةَ وَدِمْنةَ؛ وَما كانَ مِنْ تَلَطُّفِ بَرْزَوَيْهِ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ ؛ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لهُ سِرًّا مِنْ خِزانةِ الْمَلِكِ لَيْلاً مَعَ ما وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَماءِ الْهِنْدِ[2].

وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كانَ مِنْ بَعْثِةِ بَرْزَوَيهِ إِلَى مَمْلَكةِ الْهِنْدِ لِأَجْل نَقْل هٰذا الْكِتابِ؛ وَذَكَرَ فِيها ما يَلْزَمُ مُطالِعَهُ مِنْ إِتْقانِ قِراءَتِهِ، وَالْقِيامِ بِدِراستِهِ، وَالنَّظَرِ إِلَى باطِنِ كَلامِهِ؛ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الْغايةِ مِنْهُ.

وَذَكَرَ فِيها حُضُورَ بَرْزَوَيْهِ وَقِراءةَ ٱلْكِتابِ جَهْرًا وَقَدْ ذَكَرَ السَّبَبَ ٱلَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بُزُرْجُمهرُ بابًا مُفْرَدًا يُسَمَّى «بابَ بَرْزَوَيْهِ ٱلطَّبِيبِ» ، وَذَكَرَ فيهِ شأْنَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ ، وَآنِ مَوْلِدِهِ إِلَى أَنْ بَلَغَ ٱلتَّأْدِيبَ ، وَأَحَبَّ ٱلْحِكْمةَ وَٱعْتَبَرَ فِي أَقْسامِها . وَجَعَلَهُ قَبْلَ «بابِ ٱلْأَسَدِ وَٱلثَّوْرِ» ٱلَّذِي هُوَ أَوَّلُ ٱلْكِتابِ[3] .

قالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفارِسِيُّ : كانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بَيْدَبا الْفَيْلَسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتابَ كَلِيلةَ وَدِمْنةَ : أَنَّ ٱلْإِسْكَنْدَرَ ذا ٱلْقَرْنَيْنِ ٱلرُّومِيَّ ، لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ ٱلْمُلُوكِ ٱلَّذِينَ كانُوا بِناحِيةِ ٱلْمَغْرِبِ، سارَ يُرِيدُ مُلُوكَ ٱلْمَشْرِقِ مِنَ ٱلْفُرْسِ وَغَيْرِهِم ؛ فَلَمْ يَزَلْ يُحارِبُ مَنْ نازَعَهُ

---

(١) رأس البراهمة : البراهمة : خَدَمةُ إله الهنود . ورأسهم : كبيرهم ومفردها : بَرَهْمنْ . والفيلسوف : المحب للحكمة . ضَنًّا : بخلا . الطَّغَام : أراذل الناس وأوغادهم . عيونها : نفائسها . والعين : النفيس من كل شيء ويقال : هذه القصيدة من عيون الشعر .

(٢) أنفذ : بعث وأرسل . الرأس : من كل شيء أعلاه ، وسيد القوم . تلطف : ترفق واحتيال . استنسخه : طلب منه نسخه .

(٣) الحِكمة : معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم . اعتبر : بحث ونظر واتعظ .

ويُواقِعُ مَنْ واقَعَهُ؛ وَيُسالِمُ مَنْ وادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ، وَهُمُ الطَّبَقَةُ الْأُوْلَى، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَهَرَ مَنْ ناوَأَهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حارَبَهُ، فَتَفَرَّقُوا طَرائِقَ وَتَمَزَّقُوا حَزائِقَ[1].

فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلادِ الصينِ؛ فَبَدأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ، وَالدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلايَتِهِ. وَكانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذٰلِكَ الزَّمانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِراسٍ، يُقالُ لَهُ «فُوْرٌ».

فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحارَبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِمُجاذَبَتِهِ؛ وضَمَّ إِلَيهِ أَطْرافَهُ؛ وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ عَلَيهِ، وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ الفِيَلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ، وَالسِّباعِ الْمُضَرَّاةِ بِالْوُثُوبِ؛ مَعَ الْخُيُولِ الْمُسْرَجةِ، وَالسُّيُوفِ الْقَواطِعِ، وَالْحِرابِ اللَّوامِعِ[2].

فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُوْرٍ الْهِنْدِيّ، وَبَلَغَهُ ما قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ، الَّتِي كَأَنَّها قِطَعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كانُوا فِي الْأَقالِيمِ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ تَقْصِيرٍ يَقَعُ بِهِ إِنْ عجَّلَ الْمبارَزَةَ.

وَكانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا ذا حِيَلٍ وَمكايِدَ، مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبةٍ، فَرأَى إِعْمالَ الْحِيلةِ والتَّمَهُّلَ، واحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ، وَأَقامَ بِمَكانِهِ لِاسْتِنْباطِ الْحِيلةِ وَالتدْبِيرِ لِأَمْرِهِ؛ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقْدِمَ عَلَى الْإِيقاعِ بِهِ. فَاسْتَدْعَى بِالْمُنَجِّمِينَ[3].

وَأَمَرَهُمْ بِالْاِخْتِيارِ لِيَوْمٍ مُوافِقٍ تَكُونُ لَهُ فِيهِ سَعادةٌ لِمُحارَبَةِ مَلِكِ الْهِنْدِ وَالنُّصْرةِ عَلَيْهِ؛ فَاشْتَغَلُوا بِذٰلِكَ.

وَكانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ لا يَمُرُّ بِمَدِينةٍ إِلَّا أَخَذَ الصُّنَّاعَ الْمَشْهُورِينَ مِنْ صُنَّاعِها بِالْحِذْقِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ. فَنَتَجتْ لَهُ هِمَّتُهُ وَدَلَّتْهُ فِطْنَتُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الصُّنَّاعِ الَّذِينَ مَعَهُ، أَنْ يَصْنَعُوا حَيْلًا مِنْ نُحاسٍ مُجَوَّفةً، عَلَيْها تَماثِيلُ مِنَ الرِّجالِ عَلَى بَكَرٍ تَجْرِي، إِذا دُفِعَتْ مَرَّتْ سِراعًا. وَأَمَرَ إِذا فَرَغُوا مِنْها

---

(١) تجد قصته في سورة الكهف من ٨٣ - ٩٨ ، وفي الأربعة الذين ملكوا العالم: مؤمنان وكافران من إصدار مكتبة ابن سينا. يواقع: يحارب. وتسمى المعركة: موقعة. وادعه: سالمه، وصالحه، وهادنه، وتاركه. ظهر عليهم: غلبهم. ناوأه: عاداه. الطرائق: الفرق المختلفة الأهواء. حزائق: قطعا وجماعات. والجزقة: الجماعة من كل شيء وجمعها جِزَق. يقال: تتابعوا كأنهم حَزِق الجراد.

(٢) مِراس: جَلَد، وَقُوَّة، وممارسة للأمور. مجاذبته: منازعته ومقاتلته. ضم أطرافه: استجمع كل قواه. التألب عليه: التحريض والتضافر. العُدَّة: المال والسلاح وما يلزم للحرب. السباع المضَرّاة بالوثوب: الحيوانات المدَرّبة على الافتراس والمعودة عليه و الهجوم على من تراه، والفتك به. الحراب: جمع حربة.

(٣) استنباط الحيلة: استخراجها والبحث عن حيلة. الإيقاع به: البطش والفتك. فاستدعى المنجمين: وكانت تلك عادتهم، ولا يعلم الغيب إلا الله، ولعلك قد سمعت القول المشهور: «كذب المنجمون وإن صدقوا».

أَنْ تُحْشَى أَجْوافُها بِالنِّفْطِ وَالْكِبْرِيتِ؛ وَتُلَبَّسَ وَتُقَدَّمَ أَمامَ الصَّفِّ فِي الْقَلْبِ وَوَقْتَمَا يَلْتَقِي الْجَمْعانِ تُضْرَمُ[1] فيها النِّيرانُ؛ فَإِنَّ الْفِيَلَةَ إِذَا لَفَّتْ خَراطِيمَها عَلَى الْفُرْسانِ وَهِيَ حامِيَةٌ وَلَّتْ هارِبَةً.

وَأَوْعَزَ إِلَى الصُّنَّاعِ بِالتَّشْمِيرِ وَالْانْكِماشِ وَالفَراغِ مِنْها؛ فَجدُّوا فِي ذٰلِكَ وَعَجِلُوا وَقَرُبَ أَيْضًا وَقْتُ اخْتِيارِ الْمُنَجِّمِينَ؛ فَأَعادَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رُسُلَهُ إِلَى فُورٍ بِما يَدْعُوهُ إِلَيْهِ مِنْ طاعَتِهِ وَالْإِذْعانِ لِدَوْلَتِهِ؛ فَأَجابَ جَوابَ مصِرٍّ عَلَى مُخالَفَتِهِ، مُقِيمٍ عَلَى مُحارَبَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمتَهُ سارَ إِلَيْهِ بِأُهْبَتِهِ وَقَدَّمَ فُورٌ الْفِيَلَةَ أَمامَهُ وَدَفَعَتِ الرِّجالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَماثِيلَ الفرسان[2]؛ فَأَقْبَلَتِ الْفِيَلَةُ نَحْوَها وَلَفَّتْ خَراطِيمَها عَلَيْها؛ فَلَمَّا أَحَسَّتْ بِالْحَرارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كانَ عَلَيْها، وَداسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِها، وَمَضَتْ مَهْزُومةً هارِبةً، لا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَلا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا وَطِئَتْهُ. وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجَمعُهُ، وَتَبِعَهُمْ أَصْحابُ الْإِسْكَنْدَرِ؛ وَأَثْخَنُوا فِيهِمُ الْجِراحَ، وَصاحَ الْإِسْكَنْدَرُ : يا مَلِكَ الْهِنْدِ ، ابْرُزْ إِلَيْنا، وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيالِكَ، وَلاَ تَحْمِلْهُم إِلَى الْفَناءِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ بِعُدَّتِهِ فِي الْمَهالِكِ الْمُتْلِفة وَالْمَواضِعِ الْمُجْحِفةِ؛ بَلْ يَقِيهِم بِمالِهِ وَيَدْفَعَ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ، فَابْرُزْ إِلَيَّ وَدَعِ الْجُنْدَ، فَأَيُّنا قَهَرَ صاحِبَهُ فَهُوَ الْأَسْعَدُ[3].

فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ذٰلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى مُلاقاتِهِ طَمَعًا فِيهِ، وظَنَّ ذٰلِكَ فُرْصَةً، فَبَرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَنْدَرُ فَتَجاوَلَا عَلَى ظَهْرَيْ فَرَسَيْهِما ساعاتٍ مِنَ النَّهارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُما مِنْ صاحِبِهِ فُرْصَةً، وَلَمْ يَزالَا يَتَعارَكانِ.

فَلَمَّا أَعيَى الْإِسْكَنْدَرَ أَمْرُهُ، وَلَمْ يَجِدْ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً، أَوْقَعَ ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَيْحَةً عَظِيمةً، ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ والْعَساكِرُ؛ فالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَما سَمِعَ الزَّعْقَةَ وَظَنَّها مَكِيدةً فِي عَسْكَرِهِ. فَعاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبةٍ أَمالَتْهُ عَنْ سَرْجِهِ، أَتْبَعَها بِأُخْرَى فَوَقَع عَلَى الْأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَتِ الْهُنُودُ مَا نَزَلَ بِهِمْ، وَمَا صارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ؛ حَمَلُوا عَلَى الْإِسْكَنْدَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتالًا أَحَبُّوا مَعَهُ الْمَوْتَ[4]. فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الإِحْسانَ، وَمَنَحَهُ اللهُ أَكْتافَهُمْ؛ فَاسْتَوْلَى عَلَى بِلادِهِمْ وَمَلَّكَ

---

(١) الحذق : المهارة والإجادة والإتقان . فِطنته : حذقه ومهارته . تُلَبَّس : تُغَطَّى بحيث لا يفتضح أمرها . تُضرم : تُشْعَل.

(٢) أوْعَزَ : أشار، والتشمير : الجِدّ والانكماش : الإسراع . الإذعان : الخضوع والامتثال والانقياض . الأهْبَة : العُدّة.

(٣) لا تلوي على شيء: لا تتوقف ، ولا تنتظر . ووطنته: داته . تقطع : تمزق وتفرق . أثخنوا فيهم الجراح : بالغوا في قتلهم . عيالك : من يتولى أمرهم من شعبه . المروءة: كمال الرجولية، أو الآداب النفسية التي تكسب صاحبها محاسن الأخلاق وجميل العادات . المجحفة : المهلكة . قهره: غلبه وهزمه.

(٤) تجاولا : تطاردا وتصاولا . أعيي : أعجز . أوقع : أنزل فيهم صيحة كان لها وقعها . والسّرج : رَحْل الدابة . حملوا عليه : كرّوا، وهجموا.

عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ. وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ حَتَّى اسْتَوْثَقَ لَهُ ما أَرَاد مِنْ أَمرِهِمْ وَاتِّفاقِ كَلِمَتِهِمْ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذٰلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ ما قَصَدَ لَهُ.

فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ، تَغَيَّرَتِ الْهُنُودُ عَمَّا كانُوا عَلَيْهِ مِنْ طاعةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَّفَهُ عَلَيْهِمْ؛ وَقالُوا لَيْسَ يَصْلُحُ لِلسِّياسَةِ وَلا تَرْضَى الْخاصَّةُ والْعامَّةُ أَنْ يُمَلِّكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بُيُوتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ لا يَزالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهم[1]. وَاجْتَمَعُوا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلادِ مُلوكِهِمْ؛ فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقالُ لَهُ: دَبْشَلِيمُ، وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كانَ خَلَّفَهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْكَنْدَرُ. فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُ الْأَمْرُ، واسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ، طَغَى وَبَغَى وتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ، وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ. وَكَانَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفرًا مَنْصُورًا فَهابَتْهُ الرَّعِيَّةُ. فَلَمَّا رأَى ما هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ عَبِثَ بِالرَّعِيَّةِ، وَاسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ، وأَساءَ السِّيْرَةَ فِيهِمْ، وَكَانَ لا يَرْتَقِي حالُهُ إِلَّا ازْدادَ عُتُوًّا؛ فَمَكَثَ عَلَى ذٰلِكَ بُرْهةً مِنْ دَهْرِهِ[2].

وَكَانَ فِي زَمانِهِ فَيْلَسُوفٌ مِنَ الْبَراهِمةِ فاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ، وَيُرْجَعُ فِي الْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ، يُقَال لَهُ: بَيْدَبا. فَلَمَّا رأَى الْمَلِكَ، وَمَا هُو عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ، فَكَّر فِي وَجْهِ الْحِيلةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وَرَدِّهِ إِلى الْعَدْلِ والْإِنصافِ؛ فَجَمَعَ لِذٰلِكَ تَلامِذتَهُ، وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ ما أُرِيدُ أَنْ أُشاوِرَكُمْ فِيهِ؟ اعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرةَ فِي دَبْشَلِيمَ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ، وَلُزُومِ الشَّرِّ، وَرَدَاءَةِ السِّيرَةِ، وَسُوءِ العِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ[3]. وَنَحْنُ ما نَرُوضُ أَنْفُسَنا لِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَلُزُومِ الْعَدْلِ. وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذٰلِكَ وَأَهْمَلْناهُ لَزِم وُقُوعِ الْمَكْرُوهِ بِنا، وَبُلُوغِ الْمَحْذُوراتِ إِلَيْنا إِذ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ وَفِي الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ!.

وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِيَ الْجَلاءَ عَنِ الْوطَنِ، وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنا إِبْقاؤُهُ عَلَى ما هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرةِ، وَقُبْحِ الطَّرِيقةِ، وَلَا يُمْكِنُنا مُجاهَدتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنا، وَلَوْ ذَهَبْنا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيرِنا لَمْ تَتَهيَّأْ لَنَا مُعانَدَتُهُ.

---

(١) منحه الله أكتافهم : مكنه منهم. والثقات : جمع ثقة وهو المؤتمن. واستوثق له ما أراد : أصبح على ثقة ويقين وأخذ الثقة. يستقلهم: يحتقرهم.

(٢) استوثق له الأمر : اجتمع وانضمّ وانتظم. مُظفرًا: منتصرا. والرّعية : الشعب. وهابته : خافته. عبث بالرعية : أساء حكمها ومعاملتها. والسّيرة: السلوك والمعاملة. والعُتُوّ: الاستكبار والتجبّر والطغيان. وبُرهة من دهره: فترة من الزمان.

(٣) الحكيم : الفيلسوف، والمحب للحكمة ، ويرجع في الأمور إليه: يُستَشار، ويؤخذ رأيه. الخارج عن العدل: يكون ظالما. ورداءة السيرة : قبح المعاملة .

وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخالَفتِه وَإِنْكارِنا سُوءَ سِيرَتِهِ كانَ في ذٰلِكَ بَوارُنا[1].

وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجاوَرَةَ السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضارةِ الْعَيْشِ غَدْر بِالنَّفْسِ، وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفةً إِلَى ما يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوازِلِ الْمَكْرُوهِ، وَلَواحِقِ الْمَحْذُورِ، وَيَدْفعُ الْمَخُوفَ لِاسْتِجْلابِ الْمَحْبُوبِ.

وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَب إِلَى تِلْمِيذِهِ يَقُولُ : إِنَّ مُجاوِرَ رِجالِ السُّوءِ وَالمُصاحِبَ لَهُمْ كَراكِبِ الْبَحْرِ: إِنْ هُوَ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ، لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَخاوِفِ؛ فَإِذا هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوارِدَ الْهَلَكاتِ، وَمَصَادِرَ الْمَخُوفاتِ عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ الَّتِي لا نَفْسَ لَهَا؛ لِأَنَّ الْحَيَواناتِ الْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبائِعِها بِمَعْرِفَةِ ما تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوه[2].

وَذٰلِكَ أَنَّنا لَمْ نَرَها تُورِدُ أَنْفُسَها مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُها، وَأَنَّها مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مالَتْ بِطَبائِعِها الَّتِي رُكِّبَتْ فِيها شُحًّا بِأَنْفُسِهَا، وَصِيانَة لَها إِلَى النُّفُورِ وَالتَّباعُدِ عَنْهُ. وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا الْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أُسْرَتِي، وَمَكَانُ سِرِّي، وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي، وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ، وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ؛ فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِه حَيْثُ كانَ فَهُوَ ضائِعٌ، وَلا ناصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ الْعاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ ما لا يَبْلُغُ بِالْخَيْلِ وَالْجُنُودِ[3].

وَالْمَثَل فِي ذٰلِكَ : أَنَّ قُبَّرَةً اتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً وَباضَتْ فِيها عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ؛ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ، فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ؛ فَوَطِئَ عُشَّ الْقُبَّرَةِ، وَهَشَمَ بَيْضَهَا، وَقَتَلَ فِراخَهَا ؛ فَلَمَّا نَظَرَتْ ما ساءَها عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نالَها مِنَ الْفِيلِ لا مِنْ غَيْرِه!؛ فَطارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ باكِيَةً ثُمَّ قالَتْ : أَيُّها الْمَلِكُ ، لِمَ هَشَمْتَ بَيْضِي، وَقَتَلْتَ فِرَاخِي ، وَأَنا فِي جِوارِكَ؟! أَفَعَلْتَ هذا اسْتِصْغارًا مِنْكَ لِأَمْرِي، وَاحْتِقارًا لِشَأْنِي؟! قالَ : هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ؛ فَتَرَكَتْهُ وَانْصَرَفَتْ إِلَى جَماعةِ الطَّيْرِ ؛ فَشَكَتْ إِلَيْها ما نالَها مِنَ الْفِيلِ[4]. فَقُلْنَ لَهَا: وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ

---

(١) نَرُوضُ أنفسَنا : نُذَلِّلُها ونجعلها تخضع وتصبر إلى حين. والمحذورات: جمع مَحْذُور، وهو ما يُتَّقى وَيُحْتَرز. الجلاء : النزوح والهجرة والفرار. ومجاهدته : محاربته ومقاتلته. بغير ألسنتا : وتغيير المنكر يكون باليد، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان. ومعاندته : مقاتلته، والوقوف في وجهه. بوارنا: هلاكنا.

(٢) نضارة العيش : رغده ، ونعيمه وحسنه . لحقيق : لجدير به . النوازل : جمع نازلة وهي المصيبة الشديدة. ولواحق المحذور: المصائب المتلاحقة المتتابعة . واستجلاب المحبوب : طلبه وجلبه .

(٣) أورد نفسه موارد الهلكات : دفعها إلى أن تذوق الهلاك. والمخوفات: كل ما نخافه ونتقيه ونحذَرُه. والنفس: الروح. والموارد: جمع مورد وهو المنهل، والطريق، ومصدر الرزق. شُحًا بأنفسها: ضنًّا بها وحِفاظًا عليها. النفور: البُعد. أعتضد : أستعين وأتقوى.

(٤) القُبَّرَة : واحدةُ القُبَّر وهو جنس من الطيور مخروطية المناقير ، سمر في أعلاها، ضاربة إلى بياض في أسفلها ، وعلى صدرها بقعة سوداء. أُدْحِيَّة : موضع بيض النعام وتفريخه وكذلك الأدحُوّة. مشرب: الموضع الذي يشرب منه.

وَنَحْنُ طُيُورٌ؟! فَقالَتْ لِلْعَقاعِقِ وَالْغِرْبانِ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَيْهِ، فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ، فَإِنِّي أَحْتالُ لَهُ بَعْدَ ذلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى! فَأَجَبنها إِلَى ذلِكَ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيلِ فَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقُرْنَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبْنَ بِهِما، وَبَقِيَ لا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ إِلاَّ ما يَقُمُّهُ مِنْ مَوْضِعِهِ! فَلَمَّا عَلِمَتْ ذلِكَ مِنْهُ جاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفادِعُ كَثِيرةٌ ؛ فَشَكَتْ إِلَيْها ما نالَها مِنَ الْفِيلِ[1].

قالت الضَّفادِعُ : ما حِيلَتُنا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ وَأَينَ نَبْلُغُ مِنْهُ؟! قالَتْ: أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ ؛ فَتنقِقْنَ فِيها وَتَضجِجْنَ، فَإِنَّهُ إِذا سَمِعَ أَصْواتَكُنَّ لَمْ يَشُكَّ فِي الْماءِ فَيَهْوِي فِيها؟ فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ؛ وَاجْتَمعنَ فِي الْهاوِيةِ؛ فَسَمِعَ الفيل نَقِيقَ الْضَّفادِعِ وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ؛ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي الْوَهْدَةِ فَارْتَطَمَ فِيها. وَجاءَتِ الْقُبَّرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ؛ وَقالَتْ : أَيُّهَا الطَّاغِي الْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَقِرُ لأَمْرِي، كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ[2]؟!.

فَلْيُشِرْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ بِما يَسْنَحُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ. قالُوا بأَجْمعِهِمْ : أَيُّها الْفَيْلَسُوفُ الْفاضِلُ، وَالْحَكِيمُ الْعادِلُ، أَنْتَ الْمُقَدَّمُ فِينا، وَالْفاضِلُ عَلَيْنا، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ، وَفَهْمِنا عِنْدَ فَهْمِكَ؟! **غَيْرَ أَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّ السِّباحةَ فِي الْماءِ مَعَ التِّمْساحِ تَغْرِيرٌ، وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ، وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السُّمَّ مِنْ نابِ الْحَيَّةِ فَيَتَعَلَّلُهُ لِيُجَرِّبَهُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِلْحَيَّةِ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الأَسَدِ فِي غابَتِهِ لَمْ يأْمَنْ وَثْبَتَهُ** . وَهذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْزِعْهُ النَّوائِبُ ، وَلَمْ تُؤَدِّبْهُ التَّجارِبُ[3]. وَلَسْنا نأْمَنُ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ ، وَمُبادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذا لَقِيتَهُ بِغَيْرِ ما يُحِبُّ. فَقالَ الْحَكِيمُ بَيْدَبا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ، **لكِنَّ ذا الرَّأْيِ الْحازِمَ لا يَدَعُ أَنْ يُشاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ ، أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخاصَّةِ، وَلا يُنتَفَعُ بِهِ فِي الْعامَّةِ .** وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقاءِ دَبْشَلِيم. وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ؛ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ، وَالإِشْفاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ! غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا، وَعَزَمْتُ عَزْمًا، وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ، وَمُجاوَبَتِي

---

(١) وما عسى أن تبلغ منه : كيف ننال منه ، ونتقم لك ؟! العقاعق : جمع عقعق، وهو طائر من الفصيلة الغرابية، وهو صَخّاب، له ذنب طويل، ومنقار، والعرب تتشاءم به. يَقُمُّه: يتناوله بخرطومه مما يجده على وجه الأرض ليأكله. غدير: نهر صغير .

(٢) وهدَة : مُنْخفض من الأرض وهُوَة . فتنقق : فتحدثن صوتًا وضجة . وصوت الضفدع: نقيق. فيهوي: فيسقط. والهاوية : الحفرة. أجهده: أصابه بالتعب الشديد. ارتطم : تردى وسقط في الوحل. الطاغي: الظالم .

(٣) يسنح له : يتيسر له ، ويعرض . تغرير : تعريض النفس للهلاك. وثبته: انقضاضه وهجومه وافتراسه. النوائب: المصائب. جمع نائبة.

إِيَّاهُ ، فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُروجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ. وَصَرَفَهُمْ، وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلامةِ[1].

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبا اخْتارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ . حَتَّى إِذا كانَ ذلِكَ الْوَقْتُ أَلْقَى عَلَيْهِ مُسُوحَهُ، وَهِيَ لِباسُ الْبَراهِمةِ ، وَقَصَدَ بابَ الْمَلِكِ ، وَسَأَلَ عَنْ صاحِبِ إِذْنِهِ، وَأُرْشِدِ إِلَيْهِ، وَسَلَّم عَلَيْهِ وَأَعْلَمَهُ، وَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ، فَدَخَلَ الآذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ ، وَقَالَ : بِالْبابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَراهِمةِ يُقالُ لَهُ بَيْدَبا ذَكَر أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً. فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَكَفَّرَ، وَسَجَدَ لَهُ، وَاسْتَوَى قائِمًا، وَسَكَتَ[2]. وَفَكَّرَ دَبْشَلِيمُ فِي سُكُوتِهِ، وَقَالَ: إِنَّ هذَا لَمْ يَقْصِدْنا إِلا لأَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُصْلِحُ بِهِ حالَهُ، أَوْ لأَمْرٍ لَحِقَهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طاقَةٌ. ثُمَّ قالَ : إِنْ كانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِها ، فَإِنَّ لِلْحُكَماءِ فَضْلاً فِي حِكْمَتِها أَعْظَمَ؛ لأَنَّ الْحُكَماءَ أَغْنِياءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ، وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِياءَ عَنِ الْحُكَماءِ بِالْمَالِ! وَقَدْ وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحَياءَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لا يَفْتَرِقانِ: مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُما لَمْ يُوجَدِ الآخَرُ؛ كَالْمُتَصافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُما أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صاحِبُهُ نَفْسًا بِالْبَقاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفًا عَلَيْهِ[3].

وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مِنَ الْحُكَماءِ، وَيُكْرِمْهُمْ وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَيَصُنْهُمْ عَنِ الْمَواقِفِ الْواهِنَةِ، وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ الْمَواطِنِ الرَّذْلَةِ كانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ، وَخَسِرَ دُنْياهُ، وَظَلَمَ الْحُكَماءَ حُقُوقَهُمْ، وَعُدَّ مِنَ الْجُهَّالِ!. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبا وَقالَ لَهُ: نَظَرْتُ إِلَيْكَ يا بَيْدَبا ساكِتًا لا تَعْرِضُ حاجَتَكَ، وَلاَ تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ؛ فَقُلْتُ : إِن الَّذِي أَسْكَتَهُ هَيْبَةٌ ساوَرَتْهُ؛ أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ. وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذلِكَ فِي طُولِ وُقُوفِك، وَقُلْت : لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبا أَنْ يَطْرُقَنا عَلَى غَيْرِ عادَةٍ إِلاَّ لأَمْرٍ حَرَّكَهُ إِلَى ذلِكَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمانِهِ، فَهَلاَّ نَسأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ[4]؟! فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَيْمٍ نالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَسارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ، وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرادِهِ وَإِعْزازِهِ، وَإِنْ كانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْراضِ الدُّنْيا أَمَرْتُ بِإِرْضائِهِ مِنْ ذلِكَ فِيما أَحَبَّ؛وإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ، وَمِمَّا لا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَلاَ يَنْقادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُقُوبَتِهِ؛ عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخالِ نَفْسِهِ فِي بابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ؛ وَإِنْ كانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ

---

(١) سورته : حدته وغضبه . مبادرته: مسارعته وسبقه. لعَمْري : العَمْر: مدة الحياة. وهو قسم. من هو دونه : أقل منه. صحت عزيمتي: قرّرت وصمّمت.

(٢) مُسوحه : جمع مِسْح، وهو ثوب من صوف. صاحب إذنه: الحاجب الذي يأذن للوافدين عليه. وهو أيضا الآذن. كفّر لسيده : انحنى ووضع يده على صدره وطأطأ رأسه كالركوع تعظيما له. واستوى قائما: نهض.

(٣) يلتمس منا : يطلب منا . إلْفين : حبيبين. كالمتصافيين: من بينهما صفاء ومودة .

(٤) الواهنة : الضعيفة التي لا تناسب منزلتهم. وينزههم : يبعدهم. والرَّذْلة: الرديئة الخسيسة. بُغْيَتك: ما تطلبه وتبغيه وتريده. ساورته: صارعته. ويقال: ساورته الهموم والهواجس والأفكار. والهيبة: الإجلال والتعظيم، وقدتكون الهيبة حذرا وخوفا. يطرقنا: يفد علينا ويأتينا.

الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ أَنْ أَصْرِفَ عِنايَتِي إِلَيْهِمْ؛ نَظَرْتُ ما هُوَ؛ **فَإِنَّ الْحُكَماءَ لا يُشيرُونَ إِلاَّ بِالْخَيرِ، وَالْجُهَّال يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ**، وَأَنا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلامِ[1].

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبا ذَلِكَ مِنَ الْمَلِكِ أَفْرَخَ رُوعُهُ، وَسُرِّي عَنْهُ ما كانَ وقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ، وَكَفَّرَ لَهُ، وَسَجَدَ ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : أَوَّلُ ما أَقُولُ أَنِّي أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الأَبَدِ، وَدَوامَ مُلْكِهِ عَلَى الأَمَدِ؛ لأَنَّهُ قَدْ مَنَحَنِي الْمَلِكُ فِي مَقامِي هذا مَحَلاً جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَذِكْرًا باقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ[2]. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ مُسْتَبْشِرًا بِهِ، فَرِحًا بِما بَدا لَهُ مِنْهُ ، وَقالَ : قَدْ عَطَفَ عَلَيَّ الْمَلِكُ بِكَرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَالأَمْرُ الَّذِي دَعانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى الْمُخَاطَرَةِ فِي كَلامِهِ، وَالإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، نَصِيحةٌ اخْتَصَصْتُهُ بِها دُونَ غَيْرِهِ . وَسَيَعْلَمُ مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّرْ عَنْ غايةٍ فِيما يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى الْحُكَماءِ. فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلامِي وَوَعاهُ عَنِّي، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ، وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ، فَقَدْ بَلَغْتُ ما يَلْزَمُنِي، وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي! قالَ الْمَلِكُ : يا بَيْدَبا تَكَلَّمْ مَهْما شِئْتَ، فَإِنَّنِي مُصْغٍ إِلَيْكَ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ، وَسَامِعٌ مِنْكَ، حَتَّى أَسْتَفْرِغَ ما عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ، وأُجازِيَكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ[3]. قالَ بَيْدَبَا : إِنِّي وَجَدْتُ الأُمُورَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سائِرِ الْحَيَوانِ أَرْبَعَةَ أَشْياء، وَهِيَ جُمَّاعُ ما فِي الْعَالَمِ ، وَهِيَ : الْحِكْمةُ وَالْعِفَّةُ ، وَالعَقْلُ ، وَالْعَدْلُ .

وَالْعِلْمُ وَالأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ داخِلةٌ فِي بابِ الْحِكْمةِ .

وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقارُ داخِلةٌ فِي بابِ الْعَقْلِ .

والْحَياءُ وَالْكَرَمُ وَالصِّيانَةُ وَالأَنَفَةُ ، داخِلَةٌ فِي بابِ الْعِفَّةِ .

وَالصِّدْقُ وَالإِحْسانُ وَالْمُراقَبةُ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ داخِلةٌ فِي بابِ الْعَدْلِ .

وَهَذِهِ هِيَ ٱلْمَحاسِنُ، وَأَضْدادُها هِيَ ٱلْمَساوِئُ. فَمَتَى كَمُلَتْ هَذِه فِي وَاحِدٍ لَمْ يُخْرِجْهُ ٱلنَّقْصُ فِي نِعْمَتِهِ إِلَى سُوءِ ٱلْحَظِّ مِنْ دُنْياهُ، وَلا إِلَى نَقْصٍ مِنْ عُقْباهُ، وَلَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى ما لَمْ يُعِنِ ٱلتَّوْفِيقُ بِبَقائِهِ، وَلَمْ يُحْزِنْهُ ما تَجْرِي بِهِ ٱلْمَقادِيرُ فِي مُلْكِهِ، وَلَمْ يُدْهَشْ عِنْدَ مَكْرُوهٍ[4] .

---

(١) ضَيْم : ظُلم وإذلال. مسألة : سؤال. فسحت لك في الكلام : أذنت لك.

(٢) أفرخ رَوْعُه وسُرِّي عنه : ذهب فزعه وخوفه. والأصح أن تقول : أفرخَ رُوعه : ومعناه : خرج الروع والفزع من رُوعه وهو القلب موضع الرَّوع وسُرِّي عنه : زال عنه الخوف .

(٣) وعاه عني : حفظه . حقيق : جدير وأهل. أستفرغ ما عندك : أسمع كل كلامك وتفرغ منه. بما أنت أهله : بما تستحقه. جُمّاع: كُلّ وجميع.

(٤) الرَّوِيّة : إعمال الفكر. الوقار : الحلم والرزانة والعظمة. والصيانة: وقاية النفس مما يعيبها. الأنفة: الترفع عن الصغائر والدنايا. المراقبة: التقوى. يدهش: يتحير.

فَٱلْحِكْمةُ كَنْزٌ لا يَفْنَى عَلَى ٱلْإِنفاقِ، وَذَخِيرةٌ لا يُضْرَبُ لَهَا بِٱلْإِمْلاقِ، وحُلَّةٌ لا تَخْلَقُ جِدَّتُها، وَلَذَّةٌ لا تُصْرَمُ مُدَّتُها. وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مُقامِي بَيْنَ يَدَي ٱلْمَلِكِ، أَمْسَكْتُ عَنِ ٱبْتِدائِهِ بِٱلْكَلامِ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَٱلْإِجْلالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يُهابُوا، وَلا سِيَّما مَنْ هُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ ٱلَّتِي جَلَّ فِيها ٱلْمَلِكُ عَنْ مَنازِلِ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ[1].

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعُلَماءُ : ٱلْزَمِ ٱلسُّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ ٱلسَّلامَةَ، وَتَجَنَّبِ ٱلْكَلامَ ٱلْفَارِغَ فَإِنَّ عاقِبَتَهُ ٱلنَّدامةُ. وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعةً مِنَ ٱلْعُلَماءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ، فَقالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِكَلامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ؛ فَقَالَ أَحَدُهُم: أَفْضَلُ خَلَّةٍ ٱلْعُلَماءِ ٱلسُّكُوت. وَقَالَ ٱلثَّانِي: إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ ٱلْأَشْياءِ لِلْإِنْسانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ. وَقالَ ٱلثَّالِثُ: أَنْفَعُ ٱلْأَشْياءِ لِلإِنْسانِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِمَا لا يَعْنِيهِ. وَقالَ ٱلرَّابِعُ : أَرْوَحُ ٱلْأُمُورِ لِلْإِنْسانِ ٱلتَّسْلِيمُ لِلْمَقادِيرِ[2]. وَٱجْتَمَعَ فِي بَعْضِ ٱلزَّمانِ مُلُوكُ ٱلْأَقالِيمِ مِنَ ٱلصِّينِ، وَٱلْهِنْدِ، وَفارِس، وَٱلرُّومِ، وَقالُوا: يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلٌّ مِنَّا بِكَلِمةٍ تُدَوَّنُ عَنْهُ عَلَى غابِرِ ٱلدَّهْرِ.

قالَ مَلِكُ ٱلصِّينِ : أَنا عَلَى ما لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ ما قُلْتُ .

قالَ مَلِكُ ٱلْهِنْدِ : عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِٱلْكَلِمةِ فَإِنْ كانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ، وَإِنْ كانَتْ عَلَيْهِ أَوْبَقَتْهُ.

قالَ مَلِكُ فارِس : أَنا إِذا تَكَلَّمْتُ بِٱلْكَلِمةِ مَلَكَتْنِي، وَإِذا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِها مَلَكْتُها.

قالَ مَلِكُ ٱلرُّومِ : ما نَدِمْتُ عَلَى ما لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى ما تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا.

وَٱلسُّكُوتُ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْهَذَرِ ٱلَّذِي لا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ، وَأَفْضَلُ ما ٱسْتُضِلَّ بِهِ ٱلْإِنْسانُ لِسانُهُ[3]. غَيْرَ أَنَّ ٱلْمَلِكَ - أَطالَ ٱللهُ مُدَّتَهُ - لَمَّا فَسَحَ لِي فِي ٱلْكَلامِ، وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ، كانَ أَوْلَى ما أَبْدَأُ بِهِ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ تَكُونَ ثَمَرَةُ ذٰلِكَ لَهُ دُونِي، وَأَنْ أَخْتَصَّهُ بِٱلْفائِدَةِ قَبْلِي. عَلَى أَنَّ ٱلْعُقْبَى هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلامِي لَهُ، وَإِنَّما نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ، وَأَكُونُ أَنا قَدْ قَضَيْتُ فَرْضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ:

أَيُّها ٱلْمَلِكُ : إِنَّكَ فِي مَنازِلِ آبائِكَ وَأَجْدادِكَ مِنَ ٱلْجَبابِرَةِ ٱلَّذِينَ أَسَّسُوا ٱلْمُلْكَ قَبْلَكَ،

---

(١) يُضرَبُ لها : يُسْعَى إليها لتستنفد؛ فالحكمة ذخيرة لا تنفد على كثرة الإنفاق. لا تخلقُ: لا تبلى؛ فهي متجددة باقية. لا تُصرَم: لا تُقْطَع؛ فهي دائمة. مُقامي : وقوفي .

(٢) الخلة : الخَصْلَة والصِّفة. أرْوَح الأمور : أكثرها راحة للإنسان. للمقادير : للأقدار؛ أي الرضا بقضاء الله وقدره.

(٣) أوبقته : أهلكته. الهَذَر : مالا يلائم من الكلام، وسقَط القول. وأفضل ما استضل : أي أن لسان الإنسان هو مشكلته التي توقعه في الضلال والهلاك. وفي نسخة : وأفضل ما استظل به الإنسان لسانه؛ فهو يحميه من الوقوع في الخطأ.

وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ، وَبَنُوا ٱلْقِلاعَ وٱلْحُصُونَ، وَمَهَّدُوا ٱلْبلادَ، وَقادُوا ٱلْجُيُوشَ، وَٱسْتَجاشُوا ٱلْعُدَّةَ[1]، وطَالَتْ لَهُمُ ٱلْمُدَّةُ، وَٱسْتَكْثَرُوا مِنَ ٱلسِّلاحِ وَٱلْكراعِ، وَعاشُوا ٱلدُّهُورَ فِي ٱلْغِبْطَةِ وَٱلسُّرُورِ؛ فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذٰلِكَ مِن ٱكْتِسابِ جَمِيلِ ٱلذِّكْرِ، وَلا قَطَعَهُمْ عَنِ ٱغْتِنامِ ٱلشُّكْرِ، وَٱسْتِعْمالِ ٱلْإِحْسانِ إِلَى مَنْ خُوِّلُوهُ، وَٱلرِّفْقِ بِمَنْ وُلوهُ، وَحُسْنِ ٱلسِّيْرةِ فِيما تَقَلَّدُوهُ، مَعَ عِظَمِ ما كانُوا فِيهِ مِنْ غِرَّةِ ٱلْمُلْكِ، وَسَكْرةِ ٱلاقْتِدارِ. وَإِنَّكَ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلسَّعِيدُ جَدُّهُ، ٱلطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ، قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَمَنازِلَهُمُ ٱلَّتِي كانَتْ عُدَّتَهُمْ، فَأَقَمْتَ فِيما خُوِّلْتَ مِنَ ٱلْمُلْكِ، وَوَرِثْتَ مِنَ ٱلْأَمْوالِ وَٱلْجُنُودِ، وَلَمْ تَقُمْ فِي ذٰلِكَ بِحَقِّ ما يَجِبُ عَلَيْكَ، بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ ، وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ، وَأَسَأْتَ ٱلسِّيرةَ، وعَظُمَتْ مِنْكَ ٱلْبَلِيَّةُ[2].

وَكَانَ ٱلْأَوْلَى وَٱلْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسلُكَ سَبِيلَ أَسْلافِكَ ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَكَ، وَتَقْفُوَ مَحاسِنَ ما أَبْقَوْهُ لَكَ، وَتُقْلِعَ عَمَّا عارُهُ لازِمٌ لَكَ، وَشَيْنُهُ واقِعٌ بِكَ، وَتُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ، وتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ، وَيُعْقِبُكَ ٱلْجَمِيلَ فَخْرُهُ، وَيكُونُ ذٰلِكَ أَبْقَى عَلَى ٱلسَّلامةِ، وَأَدْوَمَ عَلَى ٱلاسْتِقامةِ[3]؛ فَإِنَّ ٱلْجاهِلَ ٱلْمُغْتَرَّ مَنِ ٱسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ ٱلْبَطَرَ وَٱلْأُمْنِيَّةَ، وَٱلْحازِمَ ٱللَّبِيبَ مَنْ ساسَ ٱلْمُلْكَ بِٱلْمُداراةِ وَٱلرِّفْقِ؛ فَٱنْظُرْ أَيُّها ٱلْمَلِكُ ما أَلْقَيتُ إِلَيْكَ، وَلا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ، فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهٰذا ٱبْتِغاءَ غَرَضٍ تُجازِينِي بِهِ، وَلا أَلْتِماسَ مَعْرُوفٍ تَسُوقُهُ إِلَيَّ. وَلٰكِنِّي أَتَيْتُكَ ناصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ[4].

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبا مِنْ مَقالَتِه، وَقَضَى مُناصَحَتَهُ ، أَوْغَرَ قَلْبَ ٱلْمَلِكِ، فَأَغْلَظَ لَهُ فِي ٱلْجَوابِ ٱسْتِصْغارًا لِأَمرِه؛ وَقالَ: لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلامٍ ما كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ، وَلا يُقدِمُ عَلَى ما أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ. فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ، وَضعْفِ مُنَّتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ؟! وَلَقَدْ أَكْثَرتَ إِعْجابِي مِنْ إِقْدامِكَ عَلَيَّ، وَتَسَلُّطِكَ بِلِسانِكَ فِيمَا جاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ! وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ ٱلتَّنْكِيلِ بِكَ!؛ فَذٰلِكَ عِبْرةٌ وَمَوعِظَةٌ لِمَنْ عَساهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُومَ

---

(١) العُقْبى: العاقبة والنهاية. استجاشوا العدة: جمعوا.

(٢) الكُراع: الخيل والدواب. الغِبْطَة: أحسن حال. خُوِّلوه: ملكوه. والرفق: حسن المعاملة وهو ضد العُنف. وَلّوه: تولوا عليه. تقلدوه: احتملوه من مسئولية. غِرّة المُلْك: غفلته. الجَدّ: الحظ. خُوِّلت: وُلِّيت: طَغيت: جاوزت حد العدل. بغيت: ظلمت واعتديت. عُتَوْتَ: استكبرت وجاوزت الحد. البَلية: المصيبة التي ابتليت بها شعبك.

(٣) الأشبه: الأليق والمناسب لك. أسلافك: آبائك الماضين. تقفو: تتبع. تُقلِع: تَعِفّ وتمتنع. شينه: عيبه وهو ضد الزين. يُعقِبك: يورثك.

(٤) البطر: عدم القيام بحق النعمة وشكرها. والأمْنِيّة. التعلق بالآمال والتلهي بها دون عمل. المداراة: الملاطفة والملاينة والرفق. مشفقا عليك: خائفا عليك عطوفًا.

ما رُمْت أَنْتَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إذا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجالِسِهِمْ. ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ[1]. فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيما أَمَرَ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ ، فَأَحْجَمَ عَنْهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ، فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ ٱلْمَلِكُ فِي طَلَبِ تَلامِذَتِهِ، وَمَنْ كانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ، فَهَرَبُوا فِي ٱلْبِلادِ، وَٱعْتَصَمُوا بِجَزائِرِ ٱلْبِحارِ، فَمَكَثَ بَيْدَبا فِي مَحْبَسِهِ أَيَّامًا لا يَسْأَلُ ٱلْمَلِكُ عَنْهُ، وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ. حَتَّى إِذا كانَ لَيْلَةٌ مِنَ ٱللَّيالِي، سَهِدَ ٱلْمَلِكُ سُهْدًا شَدِيدًا، وَطالَ سُهْدُهُ، فَمَدَّ إِلَى ٱلْفَلَكِ بَصَرَهُ، وَتَفَكَّرَ فِي تَفَلُّكِ ٱلْفَلَكِ، وَحَرَكَاتِ ٱلْكَواكِبِ، فَأَغْرَقَ ٱلْفِكْرَ فِيهِ، فَسَلَكَ بِهِ إِلَى ٱسْتِنْباطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ ٱلْفَلَكِ، وَٱلْمَسأَلَةِ عَنْهُ، فَذَكَرَ عِنْدَ ذٰلِكَ بَيْدَبا، وَتَفَكَّرَ فِيما كَلَّمَهُ فِيهِ؛ فَٱرْعَوَى لِذٰلِكَ[2].

وَقالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيما صَنَعْتُ بِهٰذا ٱلْفَيْلَسوفِ، وَضَيَّعْتُ واجِبَ حَقِّهِ، وَحَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ . وَقَدْ قالَتِ ٱلْعُلَماءُ: أَرْبَعَةٌ لا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي ٱلْمُلُوكِ: ٱلْغَضَبُ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ ٱلْأَشْياءِ مَقْتًا، وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ صاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذاتِ يَدِهِ؛ وَٱلْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجاوِرَهُ؛ وَٱلْعُنْفُ فِي ٱلْمُحاوَرَةِ فَإِنَّ ٱلسَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِها. وَإِنِّي أُتِيَ إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ مُبَلِّغًا، فَعامَلْتُهُ بِضِدِّ ما يَسْتَحِقُّ، وَكافَأْتُهُ بِخِلافِ ما يَسْتَوْجِبُ[3]. وما كانَ هٰذا جَزاءَهُ مِنِّي؛ بَلْ كانَ ٱلْواجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلامَهُ، وأَنْقاد لِمَا يُشِيرُ بِهِ. ثُمَّ أَنْفَذَ فِي ساعَتِهِ مَنْ يأْتِيهِ بِهِ. فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قالَ لَهُ : يا بَيْدَبا، أَلَسْتَ ٱلَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصيرِ هِمَّتِي، وَعَجَّزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا؟! قالَ لَهُ بَيْدَبا: أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِحُ ٱلشَّفِيقُ، وَٱلصَّادِقُ ٱلرَّفِيقُ، إِنَّما نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ، وَدَوامُ مُلْكِكَ لَكَ .

قالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ : يا بَيْدَبا أَعِدْ عَلَيَّ كَلامَكَ كُلَّهُ، وَلاَ تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ. فَجَعَلَ بَيْدَبا يَنْثُرُ كَلامَهُ، وَٱلْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ دَبْشَلِيمُ كُلَّما سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُتُ ٱلْأَرْضَ بِشَيْءٍ كانَ فِي يَدِهِ، ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى بَيْدَبَا، وَأَمَرَهُ بِٱلْجُلُوسِ[4].. وَقالَ لَهُ : يا بَيْدَبا، إِنِّي قَدِ ٱسْتَعْذَبْتُ كَلامَكَ، وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ فِي قَلْبِي، وَأَنا ناظِرٌ فِي ٱلَّذِي أَشَرْتَ بِهِ ، وَعامِلٌ بِما أَمَرْتَ. ثُمَّ أَمَرَ بِقُيُودِهِ فَحُلَّتْ،

---

(١) مناصحته: تقديم النصيحة له. أوغر قلب الملك: ملأه غيظًا. مُنّتِك: قوتك. يقال: ليس لقلبه مُنّة: أي قوة. التنكيل بك: عقابك بما يروعك، ويروع غيرك من إتيان مثل صنيعك. ويروم ما رمت: ويطلب ما طلبت.

(٢) أحجم عنه: رجع فيما أمر به من قتله. اعتصموا: التجئوا وتحصنوا. يَجْسُر: يجرؤ. سَهد: أرق وطار النوم عنه. الفَلَك: المدار يسبح فيه الجرم السماوي. وتَفَلُّك: استدارة. فأغرق: تعمق وسبح بخياله مع النجوم والأفلاك. استنباط: استخراج. المسألة عنه: السؤال عنه. ارعوى لذلك: كفّ وارتدع.

(٣) مقتا: بُغضًا. ذات يده : غِناه. العنف: الخشونة وعدم الرفق.

(٤) أنفَذَ: أرسل. مَثَل: وقف. وعجّزت رأيي: جعلته رأيا عاجزا ووصفته بالعجز. نبّأتك: اخترتك. ينثر كلامه: يلقيه على مسامعه. ينكت الأرض: يقلب فيها بعود ونحوه مفكرا. طرفه: نظره.

وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِباسِهِ ، وَتَلَقَّاهُ بِٱلْقَبُولِ. فَقالَ بَيْدَبا: أَيُّها ٱلْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ ما كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ. قالَ : صَدَقْتَ أَيُّها ٱلْحَكِيمُ ٱلْفاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذا إِلَى جَمِيعِ أَقاصِي مَمْلَكَتِي[1].

فَقالَ لَهُ : أَيُّها ٱلْمَلِكُ ، أَعْفِنِي مِنْ هٰذا ٱلْأَمْرِ؛ فَإِنِّي غَيْرُ مُضْطَلِعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ فَأَعْفاهُ مِنْ ذٰلِكَ. فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ ٱلَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ؛ فَبَعَثَ فَرَدَّهُ وَقالَ : إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفائِكَ مِمَّا عَرَضْتُهُ عَلَيْكَ، فَوَجَدْتُهُ لا يَقُومُ إِلَّا بِكَ، وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ، وَلا يَضْطَلِعُ بِهِ سِواكَ، فَلا تُخالِفْنِي فِيهِ، فَأَجابَهُ بَيْدَبا إِلَى ذٰلِكَ[2].

وَكَانَ عادةُ ذٰلِكَ ٱلزَّمانِ إِذا ٱسْتَوْزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رأْسِهِ تاجًا، وَيَرْكَبَ فِي أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ، وَيُطافَ بِهِ فِي ٱلْمَدِينةِ؛ فَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذٰلِكَ؛ فَوُضِعَ ٱلتَّاجُ عَلَى رأْسِهِ، وَرَكِبَ فِي ٱلْمَدِينةِ، وَرَجَعَ فَجَلَسَ بِمَجْلِسِ ٱلْعَدْلِ وَٱلْإِنصافِ: يَأْخُذُ لِلدَّنِيءِ مِنَ ٱلشَّرِيفِ، وَيُساوِي بَيْنَ ٱلْقَوِيِّ وَٱلضَّعِيفِ، وَرَدَّ ٱلْمَظالِمَ، وَوَضَعَ سُنَنَ ٱلْعَدْلِ، وَأَكْثَرَ مِنَ ٱلْعَطاءِ وَٱلْبَذْلِ. وٱتَّصَلَ ٱلْخَبَرُ بِتَلامِذَتِهِ فَجاءُوا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فَرِحِينَ بِما جَدَّدَ ٱللهُ لَهُ مِنْ جَدِيدِ رَأْيِ ٱلْمَلِكِ فِيهِ، وَشَكَرُوا ٱلله تَعالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبا فِي إِزالةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ ٱلسِّيرَةِ، وَٱتَّخَذُوا ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ عِيدًا يُعَيِّدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى ٱلْيَوْمَ عِيدٌ يُعَيِّدُونَهُ فِي بِلادِ ٱلْهِنْدِ[3].

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِن ٱشْتِغالِهِ بِدَبْشَلِيمَ، تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ ٱلسِّياسةِ، وَنَشِطَ لَهَا؛ فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرةً فِيها دَقائِقُ ٱلْحِيَلِ، وَمَضَى ٱلْمَلِكُ عَلَى ما رَسَمَ لَهُ بَيْدَبا مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرةِ وَٱلْعَدْلِ فِي ٱلرَّعِيَّةِ، فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ ٱلْمُلُوكُ ٱلَّذِينَ كانُوا فِي نَواحِيهِ، وَٱنْقادَتْ لَهُ ٱلْأُمُورُ عَلَى ٱسْتِوائِها، وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ[4].

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبا جَمَعَ تَلامِذَتَهُ ، فَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ، وَوَعدَهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا، وَقالَ لَهُمْ: لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقْتَ دُخُولِي عَلَى ٱلْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبا قَدْ ضاعَتْ حِكْمَتُهُ، وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ، إِذْ عَزَمَ عَلَى ٱلدُّخُولِ عَلَى هٰذا ٱلْجَبَّارِ ٱلطَّاغِي. فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَتِيجةَ رَأْيِي، وَصِحَّةَ فِكْرِي،

---

(١) استعذبت كلامك: استحليته. من لباسه: منحه ملابس ملكية. دون ما كلمتك: أقل منه فمثلك يكفيه ما قل ودل. نُهيَة: ما يجعلك تنتهي وتترك مالا يرضاه شعبك. وليتك: جعلتك واليا. أقاصي: أطراف.

(٢) غير مضطلع بتقويمه: غير قادر على النهوض بإصلاحه، ولا أقوى على ذلك بدونك.

(٣) استوزروا: اتخذوا لهم وزيرا وكلفوه. الدنيء: الحقير. المظالم: ما أخذ ظلما ، والمفرد: مَظْلِمة وكذلك الظُلامَة. وهي ما يطلبه المظلوم. سنن العدل: جمع سنة وهي الشريعة والقانون.

(٤) أخلى فكره: أراح ضميره. نَشِط لها: أقبل عليها مسرعا. فرغبت إليه الملوك: مالت.

وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ؛ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ ٱلْحُكَماءِ قَبْلِي تَقُولُ : إِنَّ ٱلْمُلُوكَ لَهَا سَكْرَةٌ كَسَكْرَةِ ٱلشَّرابِ. فَٱلْمُلُوكُ لا تُفِيقُ مِنَ ٱلسَّكْرَةِ إِلَّا بِمَواعِظِ ٱلْعُلَمَاءِ، وَأَدَبِ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْواجِبُ عَلَى ٱلْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَواعِظِ ٱلْعُلَماءِ[1].

وَٱلْواجِبُ عَلَى ٱلْعُلَماءِ تَقْوِيمُ ٱلْمُلُوكِ بِأَلْسِنَتِهَا، وَتَأْدِيبُها بِحِكْمَتِها، وَإِظْهارُ ٱلْحُجَّةِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱللَّازِمَةِ لَهُمْ لِيَرْتَدِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ ٱلاعْوِجاجِ وَٱلْخُرُوجِ عَنِ ٱلْعَدْلِ؛ فَوَجَدْتُ ما قالَتِ ٱلْعُلَماءُ فَرْضًا واجِبًا عَلَى ٱلْحُكَماءِ لِمُلُوكِهِمْ؛ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سَكْرَتِهِمْ. كَٱلطَّبِيبِ ٱلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِناعَتِهِ حِفْظُ ٱلْأَجْسادِ عَلَى صِحَّتِهَا، أَوْ رَدُّها إِلَى الصِّحَّةِ. فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ ، أَوْ أَنْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كانَ بَيْدَبَا ٱلْفَيْلَسُوف فِي زَمانِ دَبْشَلِيمَ ٱلطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كانَ عَلَيْهِ! فَإِنْ قالَ قائِلٌ : إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ، قالُوا: كانَ ٱلْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوارِهِ أَوْلَى بِهِ[2].

وَٱلانْزِعاجُ عَنِ ٱلْوَطَنِ شَدِيدٌ[3] فَرَأَيْتُ أَنْ أُجُودَ بِحَياتِي ، فَأَكُونَ قَدْ أَتَيْتُ فِيما بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْحُكَماءِ بَعْدِي عُذْرًا فَحَمَلْتُها عَلَى ٱلتَّغْرِيرِ أَو ٱلظَّفْرِ بِما أُرِيدُهُ ، وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُم مُعاينُوهُ فَإِنَّهُ يُقالُ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاثٍ: إِمَّا بِمَشَقَّةٍ تَنالُهُ فِي نَفْسِهِ، وَإِمَّا بِوَضِيعةٍ فِي مالِهِ، أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ،وَمَنْ لَمْ يَرْكَبِ ٱلْأَهْوالَ لَمْ يَنَلِ ٱلرَّغائِبَ. وَإِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتابًا فِيهِ ضُرُوبُ ٱلْحِكْمَةِ؛ فَلْيَضَعْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شاءَ، وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُر مِقْدَار عَقْلِهِ، وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ فَهْمُهُ؟! قالُوا : أَيُّها ٱلْحَكِيمُ ٱلْفاضِلُ، وَٱللَّبِيبُ ٱلْعاقِلُ، وَٱلَّذِي وَهَبَ لَكَ ما مَنَحَكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلْفَضِيلَةِ: ما خَطَرَ هٰذا بِقُلُوبِنا ساعةً قَطُّ. وَأَنْتَ رَئِيسُنا وَفاضِلُنا، وَبِكَ شَرُفْنا، وَعَلَى يَدِكَ ٱنْتَعَشْنا. وَلٰكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنا فِيما أَمَرْتَ. وَمَكَّنَ ٱلْمَلِكُ عَلَى ذٰلِكَ مِنْ حُسْنِ ٱلسِّيرةِ زَمانًا يَتَوَلَّى لَهُ ذٰلِكَ بَيْدَبا وَيَقُومُ بِهِ[4].

ثُمَّ إِنَّ ٱلْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا ٱسْتَقَرَّ لَهُ ٱلْمُلْكُ، وَسَقَطَ عَنْهُ ٱلنَّظَرُ فِي أُمُورِ ٱلْأَعْداءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ

---

(١) أحسن صلتهم: أمدهم بمساعدته وعونه. سَكْرة: فقدان العقل والصواب. والشراب : الخمر التي تذهب بالعقول.
(٢) ليرتدعوا: ليكفوا ويتركوا. سِنَة: غفلة. (٣) الانزعاج عن الوطن: تركه والتحول عنه إلى غيره.
(٤) أجود بحياتي: أضحي بها. التغرير: تعريض النفس للهلاك. معاينوه: رأيتموه ومشاهدوه. وضيعة في ماله: خسارة. وَكْس: نقصان. يركب الأهوال: يواجه المخاوف المفزعة ويخوضها. الرغائب: كل ما يرغب فيه. والمفرد: رَغِيبة. بسط لساني: أعطاني حرية الكلام. ضُروب الحكمة: أصناف وأنواع وألوان جمع ضرب. والذي وهب لك: قسم بالله واهب النعم. ما منحك: ما أعطاك. انتعشنا: نهضنا من عثرتنا.

ذٰلِكَ بَيْدَبا، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي وَضَعَتْها فَلاسِفَةُ ٱلْهِنْدِ لآبائِهِ وَأَجْدادِهِ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيضًا كِتابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ، وَتُذْكَرِ فِيهِ أَيَّامُهُ، كَمَا ذُكِرَ آباؤُهُ وَأَجْدادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذٰلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لا يَقُومُ إِلَّا بِبَيْدَبا. فَدَعاهُ، وَخَلاَ بِهِ وَقالَ لَهُ : يا بَيْدَبا ، إِنَّكَ حَكِيمُ ٱلْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُها. وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَزائِنِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلَّتِي كانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ أَحدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ، وَيُنْبِئُ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ[1].

فَمِنْهُ ما وَضَعَتْهُ ٱلْمُلُوكُ لِأَنْفُسِها، وَذٰلِكَ لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيها، وَمِنْهُ ما وَضَعَتْهُ حُكَماؤُها. وَأَخافُ أَنْ يَلْحَقَنِي ما لَحِقَ أُولٰئِكَ مِمَّا لا حِيلَةَ لِي فِيهِ، وَلا يُوجَد فِي خَزائِنِي كِتابٌ أُذْكَرُ بِهِ بَعْدِي، وَأُنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذُكِرَ مَنْ كانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ، يَكُونُ ظاهِرُهُ سِياسَةَ ٱلْعامَّةِ وَتَأْدِيبَها، وَباطِنُهُ أَخْلاقَ ٱلْمُلُوكِ وَسِياسَتَها لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طاعَةِ ٱلْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ؛ فَيَسْقُطَ بِذٰلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي مُعاناةِ ٱلْمُلْكِ[2]، وَأُرِيدُ أَنْ يُبْقِيَ لِي هٰذا ٱلْكِتابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غابِرِ ٱلدُّهُورِ.

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبا كَلامَهُ خَرَّ لَهُ ساجِدًا ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقالَ : أَيُّها ٱلْمَلِكُ ٱلسَّعِيدُ جَدُّهُ، عَلا نَجْمُكَ ، وَغابَ نَحْسُكَ، وَدامَتْ أَيَّامُكَ ، إِنَّ ٱلَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ ٱلْمَلِكُ مِنْ جَوْدَةِ ٱلْقَرِيحَةِ، وَوُفُورِ ٱلْعَقْلِ، حَرَّكَهُ إِلَى عالِي ٱلْأُمُورِ، وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهِمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ ٱلْمَراتِبِ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدِها غايَةً؛ وَأَدامَ اللهُ سَعادَةَ ٱلْمَلِكِ وَأَعانَهُ عَلَى ما عَزَمَ مِنْ ذٰلِكَ ، وَأَعانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرادِهِ[3].

فَلْيَأْمُرِ ٱلْمَلِكُ بما شاءَ مِنْ ذٰلِكَ؛ فَإِنِّي صائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي. قالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ : يا بَيْدَبا، لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ ٱلرَّأْيِ، وَطاعَةِ ٱلْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ. وَقَدِ ٱخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذٰلِكَ، وَٱخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هٰذا ٱلْكِتابَ، وَتُعْمِلَ فِيهِ فِكْرَكَ ، وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغايَةِ ما تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى ٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ، وَٱللَّهْوِ وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ. فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا، وَسَجَدَ، وَقالَ: قَدْ أَجَبْتُ ٱلْمَلِكَ أَدامَ اللهُ أَيَّامَهُ إِلَى ما أَمَرَنِي بِهِ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا. قالَ: وَكَمِ ٱلْأَجَلُ؟ قالَ: سَنَةٌ. قالَ : قَدْ أَجَّلْتُكَ، وَأَمَرَ لَهُ بِجائِزَةٍ سَنِيَّةٍ، تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ ٱلْكِتابِ. فَبَقِيَ بَيْدَبا مُفَكِّرًا فِي

---

(١) فوقع في نفسه : أي خطر بباله . خزائن الحكمة : المكتبات .

(٢) لفضل حكمة : لحكمة زائدة . وأخاف أن يلحقني إلخ : يريد الموت، لأنه لا حيلة لأحد فيه . تستفرغ فيه عقلك : تسجل فيه كل ما في عقلك من أفكار . معاناة الملك : معالجته، وبيان كيف تساس الشعوب وكيف تحكم .

(٣) على غابر الدهور : على باقي الزمن . جَدُّه : حظه . جودة القريحة : طبيعته التي جُبل عليها، وملكته التي يستطيع بها ابتداع الكلام وإبداء الرأي .

الْأَخْذِ فِيهِ، وفِي أَيِّ صُورةٍ يَتَبَدِئُ بِها فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ[1].

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبا جَمَعَ تَلامِذَتَهُ وَقالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي إِلَى أَمرٍ فِيهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ؛ وَفَخْرُ بِلادِكُمْ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهذا الْأَمْرِ. ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ ما سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتابِ، وَالْغَرَضِ الَّذِي قَصَدَ فِيهِ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ ما يُرِيدُهُ، فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ أَنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ إِنَّما يَتِمُّ بِاسْتِفْراغِ الْعَقْلِ وَإِعْمالِ الْفِكْرِ[2]، وَقالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَها، وَإِنَّما تَسْلُكُ اللُّجَّةَ بِمُدَبِّرِهَا الَّذِي تَفَرَّد بِإِمْرَتِها، وَمَتَى شُحِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ، وَكَثُرَ مَلَّاحُوها لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْها مِنَ الْغَرَقِ[3].

وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيما يَعْمَلُهُ فِي بابِ الْكِتابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْانْفِرادِ بِنَفْسِهِ مَعَ رَجُلٍ مِنْ تَلَامِيذِهِ كانَ يَثِقُ بِهِ؛ فَخَلا بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ الَّذِي كانَتْ تُكْتَبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا، وَمِنَ الْقُوتِ ما يَقُومُ بِهِ وَبِتِلْمِيذِهِ تِلْكَ الْمُدَّةَ وَجَلَسَا فِي مَقْصُورةٍ، وَرَدَّا عَلَيْهِما الْبابَ ثُمَ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتابِ، وَتَصْنِيفِهِ، وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي ، وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ، وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتابُ عَلَى غايَةِ الْإِتْقانِ وَالْإِحْكامِ. وَرَتَّبَ فِيهِ خمسة عَشَرَ بابًا كُلُّ بابٍ مِنْها قائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ مِنَ التَّبْصِرَةِ وَالْهِدَايَةِ، وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوابَ كِتابًا واحِدًا وَسَمَّاهُ كِتابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ. ثُمَّ جَعَلَ كَلامَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهائِمِ، وَالسِّباعِ، وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ ظاهِرُهُ لَهْوًا لِلْخَواصِّ وَالْعَوامِّ، وَباطِنُهُ رِياضَةً لِعُقُولِ الْخاصَّةِ[4]. وَضَمَّنَهُ أَيْضًا ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسانُ مِنْ سِياسَةِ نَفْسِهِ ، وأَهْلِهِ وَخاصَّتِهِ، وَجَمِيعِ ما يَحْتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَأُولاهُ وَيَحُضُّهُ عَى حُسْنِ طاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ، وَيُجَنِّبُهُ ما تَكُونُ مُجانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ. ثُمَّ جَعَلَهُ باطِنًا وَظاهِرًا كَرَسْمِ سائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ، فَصارَ الْحَيَوانُ لَهْوًا، وَمَا يَنْطِقُ بِهِ حِكمَةً وَأَدَبًا[5]. فَلَمَّا ابْتَدأَ بَيْدَبا بِذٰلِكَ، جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتابِ وَصْفَ الصَّدِيقِ، كَيْفَ يَكُونُ الصَّدِيقانِ، وَكَيْفَ تُقْطَعُ الْمَوَدَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهمَا بِحِيلَةِ ذِي النَّمِيمَةِ، وَأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسانِ بَيْدَبا مِثْلَ ما كانَ الْمَلِكُ شَرَطَهُ فِي أَنْ يَجْعَلَهُ لَهْوًا وَحِكْمَةً. فَذَكَرَ بَيْدَبا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَها كَلامُ النَّقَلَةِ

---

(١) صائر إلى غرضه : ممتثل أمره ومحقق هدفه . وتُعملَ فيه فكرك : تبذل كل جهدك العقلي . أجلاً : موعدًا . جائزة سَنِيّة : رفيعة .

(٢) ندبني : دعاني وكلفني . فلم يقع لهم الفكر فيه : لم يتهيأ فكرهم للاشتراك في تأليفه .

(٣) الملاحين : البحارة والنوتية . اللجة : معظم البحر وتردد أمواجه . بإمرتها : بإرادتها وقيادتها .

(٤) مقصورة : حجرة . حظ : نصيب . التبصرة : تبين ما يأتيه من خير أو شر . البهائم : ذوات الأربع مما عدا السباع . رياضة لعقول الخاصة : تدريبا وتمرينا .

(٥) سياسة نفسه : تعهدها وتقويمها وتهذيبها . وخاصته : حاشيته . وأولاده : حياته . يحضّه : يدعوه ويحثه . كرسم : مثل كتابة كتب الحكمة .

أَفسَدَها وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا. فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلانِ الْفِكْرَ فِيما سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُما الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلامُهُما عَلَى لِسانِ بَهِيمَتَيْنِ[1] فَوَقَعَ لَهُما مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْهَزْلِ بِكَلامِ الْبَهَائِمِ، وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ ما نَطَقَا بِهِ؛ فأَصْغَتِ الْحُكَماءُ إِلَى حِكَمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهائِمَ وَاللَّهْوَ، وَعَلِمُوا أَنَّها السَّبَبُ فِي الَّذِي وُضِعَ لَهُمْ وَمَالَتْ إِلَيْهِ الْجُهَّالُ عَجَبًا مِنْ مُحاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ ، وَلَمْ يَشُكُّوا فِي ذٰلِك، وَاتَّخَذُوهُ لَهْوًا، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلامِ أَنْ يَفْهَمُوه، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ الَّذِي وُضِعَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ إِنَّما كانَ غَرَضُهُ فِي الْبابِ الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَواصُلِ الْإِخْوانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّة بَيْنَهُمْ عَلَى التَّحَفُّظِ مِنْ أَهْلِ السِّعايةِ، وَالتَّحَرُّزِ ممَّنْ يُوقِعُ الْعَداوةَ بَيْنَ الْمُتَحابَّيْنِ لِيَجُرَّ بِذٰلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ[2].

فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبا وتلْميذُه فِي الْمَقْصُورةِ حَتَّى اسْتَتَمَّ عَمَلَ الْكِتابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ.

فَلَمَّا تَمَّ الْحَوْلُ، أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جاءَ الْوَعْدُ فماذا صَنَعْتَ؟ فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيْدَبا : إِنِّي عَلَى ما وَعَدْتُ الْمَلِكَ ، فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِراءَتِي هٰذا الْكِتابَ بِحَضْرَتِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سُرَّ بِذٰلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا ما يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ الْمَمْلَكةِ؛ ثُمَّ نَادَى فِي أَقاصِي بِلادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِراءَةَ الْكِتابِ؛ فَلَمَّا كانَ ذٰلِكَ الْيَوْمُ أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ، وَكَراسِيُّ لِأَبْناءِ الْمُلُوكِ والْعُلَماءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ[3].

فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ قامَ فَلَبِسَ الثِّيابَ الَّتِي كانَ يَلْبَسُها إِذا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ، وَهِيَ الْمُسُوحُ السُّودُ، وَحَمَّلَ الْكِتَابَ تِلْمِيذَهُ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ، وَقَامَ الْمَلِكُ شاكِرًا، فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ، وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : يا بَيْدَبا، ارْفَعْ رَأْسَكَ؛ فَإِنَّ هَذا يَوْمُ هَناءٍ وفَرَحٍ وَسُرُورٍ، وَأَمَرَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَجْلِسَ[4].

فَحِينَ جَلَسَ لِقِراءَةِ الْكِتابِ سَأَلَهُ الْمَلِك عَنْ مَعْنَى كُلِّ بابٍ مِنْ أَبْوابِ الْكِتابِ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ؟ فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ، وَفِي كُلِّ بابٍ، فَازْدادَ الْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا ، فَقالَ لَهُ : يا بَيْدَبا، ما عَدَوْتَ الَّذِي فِي نَفْسِي، وَهٰذا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ، فَاطْلُبْ ما شِئْتَ، وَتَحَكَّمْ؛ فَدَعَا لَهُ بَيْدَبا بالسَّعادَةِ، وَطُولِ الْجَدِّ، وَقالَ: أَيُّها الْمَلِكُ ، أَمَّا المالُ فَلا حاجةَ لِي فِيهِ، وَأَمَّا الْكُسْوةُ فَلا

(١) النميمة : نقل الكلام بين الأصدقاء بقصد الإفساد . يعملان الفكر : يفكران . فتق لهما العقل : كشف وأبرز .
(٢) تواصل الإخوان : اتصالهم وترابطهم بروابط المحبة . التحفظ : الحذر والاحتياط . أهل السعاية : النمامين .
(٣) استتم : كمل وتمّ . الحول : السنة . بحضرتهم : أمامهم . سرير الملك : العرش الذي يجلس عليه . أنفذ : بعث وأرسل .
(٤) المسوح : جمع مِسْحة وهي ثياب من شعر أو صوف . وثب الخلائق : نهضوا ووقفوا مسرعين .

أَخْتارُ عَلَى لِباسِي هٰذا شَيْئًا ، وَلَسْتُ أُخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حاجةٍ: قالَ الْمَلِكُ : يا بَيْدَبا، ما حاجَتُكَ ؟ فَكُلُّ حاجةٍ لَكَ قِبَلَنا مَقْضِيَّةٌ[1].

قَالَ : يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتابِي هٰذا كَما دَوَّنَ آباؤُهُ وَأَجْدادُهُ كُتُبَهُمْ، وَيَأْمُرُ بِالْمُحافَظةِ عَلَيْهِ فَإِنِّي أَخافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلادِ الْهِنْدِ فَيَتَناوَلَهُ أَهْلُ فارِس إِذا عَلِمُوا بِهِ ، فَالْمَلِكُ يَأْمُرُ أَلَّا يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ الْحِكْمةِ. ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلامِذَتِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوائِزَ !

ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوانُ وَكَانَ مُسْتَأْثِرًا بِالْكُتُبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبارِ الْأَوائِلِ وَقَعَ إِلَيْهِ خَبَرُ الْكِتابِ ، فَلَمْ يَقِرَّ قَرارُهُ حَتَّى بَعَثَ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيبَ، وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلادِ الْهِنْدِ فَأَقَرَّهُ فِي خَزائِنِ فارِسَ[2].

بابُ

بَعْثَةِ المَلِكِ كِسْرَى أَنُوشِرْوانَ بْنِ قَبَاذَ بَرْزَوَيْهِ بْنَ أَزْهَرَ ٱلطَّبِيبَ إِلَى بِلادِ ٱلْهِنْدِ فِي تَحْصِيلِ هٰذا ٱلْكِتابِ

ٱلْحَمْدُ لِلهِ ٱلَّذِي بِيَدِهِ مَفاتِيحُ غَيْبِهِ ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى كُلِّ عِلْمٍ وَغايةٍ. ٱلدَّالِّ عَلَى ٱلْخَيْرِ، ٱلْمُسَبِّبِ كُلِّ فَضِيلةٍ، أَلْهَمَ عِبادَهُ كُلَّ ما يُقَرِّبُهُمْ إِلَيْهِ مِنْ نَوافِلِ ٱلْخَيْراتِ، وَنَوامِي ٱلْبَرَكاتِ؛ لِما أَمَرَ اللهُ تَعالَى عِبادَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمةِ إِذ أَمَرَهُمْ بِالشُّكْرِ لَهُ، لِيَسْتَوْجِبُوا بِذٰلِكَ المَزِيدَ مِنْهُ ، وَيُسارِعُوا فِيما يُرْضِيهِ عَنْهُمْ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ[3].

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ مُسَبَّبٍ عِلَّةً، وَلِكُلِّ عِلَّةٍ مَجْرًى يُجْرِيها ٱللهُ تَعالَى بِهِ عَلَى يَدِ عَبْدٍ مِنْ عَبِيدِهِ، وَيُقَدِّرُها لَهُ عَلَى أَيَّامِ دَوْلَتِهِ وَأَيامِ عُمْرِهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ عِلْمِ ٱنْتِساخ هذا ٱلْكِتابِ، وَنَقْلِهِ مِنْ أَرْضِ ٱلْهِنْدِ إِلَى مملكةِ فارِسَ إِلْهامٌ أَلْهَمَهُ اللهُ تَعالَى كِسْرَى أَنُوشِرْوانَ لِلْبَعْثِ فِي نَقْلِهِ وَنَسْخِهِ؛ لِأَنَّهُ كانَ أَكْبَرَ مُلُوكِ الْفُرْسِ[4]، وَأَكْثَرَهُمْ حِكْمةً، وَأَسَدَّهُمْ رأْيًا، وَأَرْشَدَهُمْ تَدْبِيرًا، وَأَحَبَّهُمْ لِلْعُلُومِ، وَأَبْحَثَهُمْ عَنْ مَكامِنِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى الْخَيْرِ، وَتَقَرُّبِهِ إِلَى اللهِ

(١) ما عدوت: ما تجاوزت، وما خرجت عما كنت أفكر فيه فهو حسب المطلوب. وتحكم: تصرف كما تشاء. ولست أخليه: أي لست أعفيه؛ فلي عنده طلب. قِبَلنا: عندنا.

(٢) مستأثرا بالكتب: منفردا بها. وقع إليه خبر الكتاب: بلغه. تلطفَ: تحايل.

(٣) نوافل الخيرات: الزائد من الأعمال الحسنة فوق الواجب. ونوامي البركات: البركات النامية.

(٤) دولته: حكمه.

تَعالَى، وَإِلَى ٱقْتِناءِ ما يزِينُهُ بِزِينةِ ٱلْحِكمةِ مِنْ طالِبِي الْأَدَبِ وَالْعِلْمِ فِي مَعْرِفةِ الْخَيْرِ وَٱلشَّرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، وَالصَّدِيقِ وَالْعَدُوِّ.

وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ذلِكَ إِلَّا بِنُورِ اللهِ تَعالَى فِي سِياستِهِ عَبِيدَهُ، وَبِلادَهُ لإِقامةِ رَعِيَّتِهِ وَأُمُورِهِ. وَهُوَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ فِي قَوْمِهِ كِسْرَى الْمُتَزَيِّنُ بِزِينةِ الْبَهاءِ، والْفاضِلُ الْماجِدُ الرَّشِيدُ السَّعِيدُ الَّذِي لَمْ يَعْدِلْهُ أَحَدٌ مِمَّنْ مَضَى قَبْلَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ، الناقِدُ الْبَصِيرُ الْكامِلُ الْأَدَبِ[1]، الْمُعِينةُ لَهُ نَفْسُهُ عَلَى الْتماسِ فُرُوعِ الْحِكَمِ، الْمُسْتَعِينُ بِنُورِ الْعَقْلِ، وَجَودَةِ الْفِكْرِ الَّذِي اخْتَصَّهُ اللهُ تَعالَى بِهذِهِ الْخِصالِ الْمَحْمُودةِ، وَزَيَّنَهُ بِزِينةِ الْكَرامةِ، وَتَوَّجَهُ بِهذِهِ النِّعْمةِ السَّابِغةِ حَتَّى أَذْعَنتْ لَهُ الرَّعِيَّةُ، وَطاعَتْ لِسُلْطانِهِ الْبَرِيَّةُ، وَصَفَتْ لَهُ الدُّنْيا، وَدانَتْ لَهُ الْبِلادُ وَانْقادَتْ لَهُ الْمُلُوكُ، وَرَكَنَتْ إِلَى طاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمُناصَحتِهِ. وَذلِكَ مِنْحةٌ مِنَ الْخالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - قَسَمَهَا لَهُ فِي دَوْلتِهِ، وَجَمَّلَهُ بِها فِي أَقْطارِ مَمْلَكَتِهِ[2].

فَبَيْنَما هُوَ ذاتَ يَوْمٍ فِي عُنْفُوانِ دَوْلَتِهِ وَشَمْخِها، وَعِزَّةِ مَمْلَكَتِهِ وَقَعَسِها، إِذْ أَخْبَرَهُ بَعْضُ جُلَسائِهِ أَنَّ عِنْدَ بَعْضِ مُلُوكِ الْهِنْدِ فِي خَزائِنِهِ كِتابًا مِنْ تَآلِيفِ الْحُكَماءِ، وَتَصانِيفِ الْعُلَماءِ، وَاسْتِنْباطِ الْفُضَلاءِ، وَقَدْ فُصِّلَتْ لَهُ غَرائِبُ مِنْ عَجائِبِهِ الْمَوْضُوعةِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهائِمِ والطَّيْرِ والْوَحْشِ وَالْهَوامِّ وخِشاشِ الْأَرْضِ مِمَّا يَحْتاجُ إِلَيْهِ فُضَلاءُ الْمُلُوكِ لِسِياسَةِ رَعِيَّتِها وَنِظامِ أُمُورِ مَمالِكِها وَتَدْبِيرِها. فَدَعَتْهُ الْحاجةُ إِلَى ٱقْتِناءِ هذا الْكِتابِ لِكَمالِ مُلْكِهِ[3]، وَأَنَّهُ بِعَدَمِهِ ناقِصٌ وَبِتَحْصِيلِهِ كامِلٌ، وَبِٱتِّباعِهِ يَحْصُلُ عَلَى رِضَى الْخالِقِ - جَلَّ وَعَلَا - وٱنْقِيادِ الْمَخْلُوقِ لَهُ وَزَجْرِهِ عَنِ الْمَعاصِي الَّتِي يَتَّبِعُها شِرارُ الْخَلْقِ، وَيَتَجَنَّبُها أَصْفاهُمْ جَوْهَرًا، وَأَجْوَدُهُمْ طَبْعًا، وَأَنْبَغُهُمْ حَسَبًا.

وَإِنَّهُ لَمَّا عَزَمَ عَلَى ما أَرادَ مِنْ أَمْرِهِ، وَهَمَّ بِٱقْتِنائِهِ، وَنَسْخِهِ قالَ فِي نَفْسِهِ: مَنْ لِهذا ٱلْأَمْرِ ٱلْعَظِيمِ، وَٱلْخَطْبِ ٱلْجَسِيمِ، وَٱلْأَدَبِ ٱلنَّفِيسِ ٱلَّذِي بِهِ تَتَكَمَّلُ ٱلْفَضائِلُ، وَلِمَ تَتَزَيَّنُ بِهِ مُلُوكُ ٱلْهِنْدِ دُونَ مُلُوكِ فارِسَ؟ وَقَدْ هَمَمْتُ ٱلّا أَدَعَ مَشَقَّةً وَلَا صُعُوبةً وَلَا مُخاطَرةً حَتَّى أَبْذُلَها فِي طَلَبِ هذا

(١) البهاء: الجمال والحسن يَعدِلُه: يشابهه، ويماثله، ويساويه. الناقد: المميز. البصير: العالم الخبير الذي لديه قوة إدراك وفطنة.
(٢) السابغة: الشاملة. أذعنت: خضعت. البَرِية: المخلوقات. دانت له البلاد: خضعت. منحة: عطية وهبة.
(٣) عُنفوان دولته: عُنفوان الشيء: أوله. يقال: هو في عنفوان شبابه: أي في نشاطه وحدّته. وشمخها: عظمتها. قعسها: عزتها ومَنَعَتها. استنباط: استخراج. تصانيف: مؤلفات. الهوام: ما يقتل من الحشرات. خِشاش الأرض: الحشرات. زجره: نهيه. شِرار: أشرار. أنبغهم حسبا: أظهرهم سمعة. والحسب: المفاخر التي يكتسبها الإنسان بعلمه.

ٱلْكِتابِ، حَتَّى أَصِلَ إِلَى نَسْخِهِ وَٱقْتِنائِهِ، عَلَى تَرْتِيبِ مَنافِعِهِ وعَجائِبِهِ مِنْ أَقْوالِ ٱلْحُكَماءِ، وَوَضْعِ ٱلْعُلَماءِ لِيَقَعَ لَنَا ٱسْتِنْباطُهُ دُونَ سائِرِ ٱلْمُلُوكِ مِنْ أَحادِيثَ مُعْجِبَةٍ، وَفَضائِلَ مُحْكَمَةٍ، يَكادُ ٱلْعَقْلُ يَمُدُّ يَدًا إِلَى ٱجْتِناءِ ثَمَرِها، وَيَفْتَحُ فَمًا لِلَذِيذِ مَذاقِها، وَيَتَعَلَّقُ بِوَثِيقِ حَبْلِها إِذْ يروضُ ٱلنَّفْسَ بِٱلْعُدُولِ عَنْ مَساوِئِها، وَيعْدِلُ بِهَا عَنْ تَتَبُّعِ أَهْوائِهَا[1].

فَلَمَّا فَحَصَ كِسْرَى رَأْيَهُ ٱلسَّدِيدَ وَعَزْمَهُ ٱلرَّشِيدَ فِيما صَمَّمَ عَلَيْهِ، وَهَمَّ بِهِ، قالَ : ٱلْأَمْرُ فِي ذٰلِكَ جَلِيلٌ ، وَٱلْخَطْبُ عَظِيمٌ، وَٱلشُّقَّةُ بَعِيدةٌ، وَٱلْمَسافَةُ طَوِيلةٌ شاقَّةٌ[2].

وَلا بُدَّ مِنْ أَنْ نَنْتَحِلَ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتابَةِ أَصْلَبَهُمْ عُودًا، وَأَجْوَدَهُمْ عَزْمًا وَحَزْمًا، وَهٰذا يُوجَدُ إِمَّا فِي كُتَّابِ ٱلدِّيوانِ، وَإِمَّا فِي طِبِّ ٱلْخاصِّ؛ لِأَنَّ ٱلْخاصَّ وَٱلْعامَّ تَجْمَعُ مَسالِكُهُما جَمِيعَ ٱلْفَضائِلِ والأدب وَفُنُونَ ٱلْعِلْمِ وَمَحْضَ ٱلْحِكَمِ فِي أَناةٍ وَتُؤَدَةٍ، وَبُلُوغُ ٱلْأَغْراضِ لِمُلُوكِها بِحُسْنِ ٱلْحِيَلِ، وَجَوْدةِ ٱلذِّهْنِ، وَكَمالِ ٱلْمُرُوءَةِ، وَكِتْمانِ ٱلسِّرِّ ، وَإِظْهارِ أَضْدادِها[3].

فَلَمَّا تَمَّ عَزْمُهُ ، وَٱنْتَظَمَ، سَأَلَ وُزَراءَهُ أَنْ يَتَقَدَّمُوا وَيَجْتَهِدُوا فِي تَطَلُّبِ رَجُلٍ كامِلٍ عالِمٍ أَدِيبٍ، قَدْ جَمَعَ ٱلْفَضائِلَ بِحَذافِيرِها، وَنُسِبَ إِلَى ٱلْكَمالِ، مِنْ أَهْلِ ٱلصِّنْفَيْنِ ٱلْمَذْكُورَيْنِ، إِمامًا كاتِبًا نِحْرِيرًا، أَوْ طَبِيبًا فَيْلَسُوفًا ماهِرًا، قَدْ أَدَّبَتْهُ ٱلتَّجارِبُ، عارِفًا بِلِسانِ ٱلْفارِسِيَّةِ ، خَبِيرًا بِٱللُّغَةِ ٱلْهِنْدِيَّةِ ، يَكْتُبُهُما جَمِيعًا حَرِيصًا عَلَى ٱلْعِلْمِ مجْتَهِدًا فِي ٱلْأَدَبِ مُواظِبًا عَلَى ٱلطِّبِّ أَوِ ٱلْفَلْسَفَةِ فَيَأْتُوهُ بِهِ. فَخَرَجَ أَهْلُ مَشُورَتِهِ، وَوُزَراؤُهُ مُسْرِعِينَ، فَبَحَثُوا عَمَّنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ، فَوَجَدُوهُ وَظَفِرُوا بِهِ، فَإِذا هُوَ شابٌّ جَمِيلُ ٱلْوَجْهِ ، كامِلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ، ذُو حَسَبٍ وَصِناعةٍ شَرِيفةٍ يُعْرَفُ بِها وَهِيَ ٱلطِّبُّ[4].

وَكانَ ماهِرًا فِي ٱلْفارِسِيَّةِ وَٱلْهِنْدِيَّةِ ، وَهُوَ بَرْزَوَيْهِ بْنُ أَزْهَرَ ٱلْفيلَسُوف، وَكانَ مِنْ فُضَلاءِ أَطِبَّاءِ فارِسَ. فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ كِسْرَى، فَخَرَّ ساجِدًا وَعَفَّرَ وَجْهَهُ طاعةً لِلْمَلِكِ، فَشَرَحَ لَهُ ٱلْأَمْرَ بِمَحْضَرٍ مِنْ وُزَرائِهِ وَخَواصِّهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَقالَ لَهُ : أَيُّها الْحَكِيمُ الْفاضِلُ ، إِنِّي تَقَدَّمْتُ إِلَى وُزَراءِ دَوْلَتِي، وَأَهْلِ نَصِيحَتِي أَنْ يَنْظُرُوا لِي رَجُلًا كامِلَ ٱلْفَضْلِ، قَدْ جَهَدَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ ٱلْعُلُومِ،

---

(١) الخَطب الجسيم : الأمر العظيم . ليقع : ليثبت ويحصل . محكمة : متقنه . بوثيق حبلها : بمتين حبلها . يروض النفس : يهذبها .
(٢) السديد : السليم . الشُّقة بعيدة : السفر طويل .
(٣) نتحل : نختار . أصلبهم عودًا : أقواهم . حزما : ضبطًا لأمره . ومحض الحكم : خالص . أناة : حلم . تُؤدة : تأنٍ
(٤) تطلب رجل : البحث عنه والسعي في طلبه وإحضاره . بحذافيرها : جمع حَذفار أو حُذفور الجانب والناحية ، ويقال : أخذ الشيء بحذافيره : بأسره ، أو بجوانبه ونواحيه . نحريرًا : عالما متقناً . فيلسوف : محبا للحكمة . ذو حَسَب : ذو شرف ثابت متعدد النواحي له ولآبائه .

وَٱقْتِناءِ ٱلْفَضائِلِ، كاتِمًا لِأَسْرارِ ٱلْمُلُوكِ، أُطْلِعُهُ عَلَى ما ٱنْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرِي، وَأُوصِلُهُ إِلَى مَكْنُونِ سِرِّي، فَيَأْخُذُ ذَلِكَ بِقَبُولٍ وَإِقْبالٍ وَسِياسةٍ وَإِذْعانٍ، وَيُظْهِرُ ٱلْخِدْمةَ، وَيَمْحَضُ ٱلْمهْنَةَ، وَيَبْذُلُ ٱلِاجْتِهادَ فِي بُلوغِ ٱلْمَلِكِ مُناهُ وَأَمَلَهُ، وَيُمَيِّزُهُ عَلَى سائِرِ مُلُوكِ ٱلدُّوَلِ لِيَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ، وَيُكافَأَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَبْقَى فِي عَقِبِهِ، باذِلًا نَفْسَهُ فِيما لِسُلْطانِهِ[1].

وَقَدْ ذُكِرَ عَنْكَ فَضائِلُ كَثِيرةٌ ، وَحِكَم شَرِيفةٌ أَنْتَ بِفِراسَتِكَ أَهْلٌ لَهَا، وَيَنْبُوعٌ تَصْدُرُ عَنْكَ، فَكُنْ عِنْدَ رَجاءِ ٱلْوُزَراءِ وَٱلْأَصْفِياءِ فِيكَ، وَأَنْزِلْ نَفْسَكَ هذِهِ ٱلْمَنْزِلَةَ ٱلَّتِي تُخُيِّرْتَ لَهَا، وَأَنْفِقْ مِنْ سَعَةٍ، وَتَسَبَّبْ بِأَسْبابِ مَنْ صَفَا جَوْهَرُهُ، وَطَابَ عُنْصُرُهُ، وَٱرْتَفَعَ بِعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ وَطاعةِ بارِئِهِ بِطاعةِ سُلْطانِهِ ٱلَّتِي أُمِرَ بِٱتِّباعِها، وَنُهِيَ وَزُجِرَ عَنِ ٱلْخُرُوجِ عَنْها؛ فَإِنِّي قَدِ ٱخْتَرْتُكَ لِما بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ ، وَعِلْمِكَ، وَعَقْلِكَ، وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ حَيْثُ كانَ[2].

وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتابٍ بِٱلْهِنْدِ مَخْزُونٌ فِي خَزَائِنِهِمْ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، وَمَا بَلَغَهُ عَنْهُ، وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ ٱلْهِنْدِ؛ فَتَلَطَّفْ فِي ذَلِكَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ لِاسْتِخْراجِ هذا ٱلْكِتابِ مِن خَزَائِنِهِمْ، وَمِنْ قِبَلِ عُلَمائِهِمْ وَحُكَمائِهِمْ تامًّا كامِلًا مَكْتُوبًا بِالْفَارِسِيَّةِ، فَتَسْتَفِيدَهُ أَنْتَ وَتُفِيدَنا إِيَّاهُ[3].

وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ ٱلْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزائِنِنا مِنْهُ شَيْءٌ فَٱحْمِلْهُ مَعَكَ، وَقَدْ أَمَرْنا أَنْ يُطْلَقَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنا ما تَخْتارُ وَتحْتاجُ إِلَيْهِ؛ فَإِذا نَفِدَ ما تَسْتَصْحِبُهُ فَٱكْتُبْ إِلَيْنا نُمِدَّكَ بِٱلْمالِ، وَإِنْ كَثُرَتْ فِيهِ ٱلنَّفَقَةُ فَإِنَّ جَمِيعَ ما فِي خَزائِنِنا مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ ٱلْعُلُومِ، وَهذا ٱلْكِتابِ؛ فَطِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا، وَعَجِّلْ فِي ذلِكَ، وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ ٱلْعُلُومِ، وَٱعْمَلْ عَلَى مَسِيرِكَ ، إِنْ شاءَ ٱللهُ تَعالَى[4].

قَالَ بَرْزَوَيْهِ : أَيُّها ٱلْمَلِكُ – عِشْتَ دَهْرًا طَوِيلًا سَعِيدًا ، وَمُلِّكْتَ ٱلْأَقالِيمَ ٱلسَّبْعةَ فِي خَفْضٍ وَدَعةٍ مُؤَيَّدًا مَنْصُورًا – إِنَّما أَنا عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِكَ، وَسَهْمٌ مِنْ سِهامِكَ ؛ فَلْيَرْمِ بِيَ ٱلْمَلِكُ حَيْثُ شاءَ

---

(١) عفّر: مرّغ على عادة الفرس في تحيتهم لملوكهم. وقد منع الإسلام السجود لغير الله. مكنون سرى: مستوره. إذعان: خضوع وامتثال. ويَمْحَض المهنة: يخلص الخدمة. عَقِبه: أولاده من بعده فهم الذين يعقبونه ويأتون بعده.

(٢) بفراستك: بذكائك وصدق نظرك. الأصفياء: جمع صفى وهم المخلصون المختارون. وكن عند رجائهم: أي حقق أملهم ورجاءهم فيك. تُخيّرت: اصطُفيت وتم اختيارك. ولْمفق من سعة: أي توسع في إنفاق المال. تسبب بأسباب: تعلق بها وتوسل بتلك الوسائل. عُنصرهُ: أصله.

(٣) مُرَحلك: آمر بترحيلك وسفرك. وناقد رأيك: مميز. قِبَل: ناحية.

(٤) نَفِدَ: انتهى. نُمِدّك: نبعث إليك بمدد ونساعدك. وقَرّ عينًا: اهنأ واسعد واهدأ وارض. مسيرك: سيرك، أي استعد للسفر والسير.

مِنَ ٱلْأَرْضِ، مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱلْمَلِكُ - أَدامَ ٱللهُ أَيَّامَهُ فِي غِبْطَةٍ وَسُرُورٍ - أَنْ يَعْقِدَ لِي مَجْلِسًا قَبْلَ سَفَرِي، يَحْضُرُهُ ٱلْخَواصُّ لِيَعْلَمَ أَهْلُ ٱلطَّاعةِ وَٱلْمَمْلَكةِ ما ٱسْتَخَصَّنِي بِهِ ٱلْمَلِكُ ، وَرَآنِي أَهْلًا لَهُ ، وَنَوَّهَ بِٱسْمِي ، فَلْيَفْعَلْ ذٰلِكَ مُنْعِمًا عَلَى ٱلْعَبْدِ ٱلطَّائِعِ(١).

فَقَالَ ٱلْمَلِكُ : يا بَرْزَوَيْهِ ، قَدْ رَأَيْتُكَ لِذٰلِكَ أَهْلًا، وَأَجَبْتُكَ إِلَى ما طَلَبْتَ، وَأَذِنْتُ لَكَ فِيما سَأَلْتَ، فَٱفْعَلْ مِنْ ذٰلِكَ حَسَبَ ما تَراهُ مُوافِقًا لَكَ مُنَوِّهًا بِٱسْمِكَ، ثُمَّ خَرَجَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيِ ٱلْمَلِكِ فَرِحًا مَسْرُورًا، وَأَعَدَّ لَهُ ٱلْمَلِكُ يَوْمًا أَمَرَ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ فِيهِ أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ وَخَواصُّ أُمَراءِ دَوْلَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُنْصَبَ لَهُ مِنْبَرٌ ، فَنُصِبَ، وَرَقِيَ عَلَيْهِ بَرْزَوَيْهِ ثُمَّ قَالَ :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ ٱللهَ تَبارَكَ وَتَعالَى خَلَقَ خَلْقَهُ بِرَحْمَتِهِ، وَمَنَّ عَلَى عِبادِهِ بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَرَزَقَهُمْ مِنَ ٱلْعَقْلِ ما يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلاحِ مَعايِشِهِمْ فِي ٱلدُّنيا، وَيُدْرِكُونَ بِهِ ٱسْتِنْقاذَ أَرْواحِهِمْ مِنَ ٱلْعَذابِ فِي ٱلْآخِرَةِ(٢).

وَأَفْضَلُ ما رَزَقَهُمُ ٱلله تَعالَى، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْهِمُ ٱلْعَقْلُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلدِّعامَةُ لِجَمِيعِ ٱلْأَشْياءِ، وَٱلَّذِي لا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي ٱلدُّنْيا عَلَى إِصْلاحِ مَعِيشَتِهِ ، وَلَا إِحْرازِ نَفْعٍ، وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا بِفَيْضِهِ مِنَ ٱلْخالِقِ ٱلْمُبْدِعِ ٱلْواحِدِ ٱلْأَحَدِ، وَكَذٰلِكَ طالِبُ ٱلْآخِرَةِ ٱلزَّاهِدُ ٱلْمُجْتَهِدُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلْمُنْجِي بِهِ نَفْسَهُ مِنْ عَمايَةِ ٱلضَّلالِ لا يَقْدِرُ عَلَى إِتْمامِ عَمَلِهِ وَإِكْمالِهِ ، وَلَا يَتِمُّ لَهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمُوصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَٱلْمِفْتاحُ لِكُلِّ سَعادَةٍ، وَٱلْمُبَلِّغُ إِلَى دارِ ٱلْخُلُودِ؛ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَنْهُ غِنًى وَلَا بِغَيْرِهِ ٱكْتِفاءٌ(٣).

وَٱلْعَقْلُ غَرِيزِيٌّ مَطْبُوعٌ ، وَيَتَزايَدُ بِٱلتَّجارِبِ وَٱلْآدابِ وَغَرِيزَتُهُ مَكْنُونَةٌ فِي ٱلْإِنْسانِ، كامِنَةٌ فِيهِ كُمُونَ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَجَرِ. فَإِنَّ ٱلنَّارَ طَبِيعَتُها فِيهِ كامِنَةٌ لا تَظْهَرُ وَلَا يُرَى ضَوْؤُها حَتَّى يُظْهِرَها قادِحٌ مِنْ غَيْرِها ، فَإِذا قَدَحَها ظَهَرَتْ طَبِيعَتُها بِضَوْئِها وَحَرِيقِها. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَقْلُ كامِنٌ فِي ٱلْإِنْسانِ، لا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهِرَهُ ٱلْأَدَبُ وَتَعْضُدَهُ ٱلتَّجارِبُ؛ فَإِذا ٱسْتَحْكَمَ كانَ أَوْلَى بِٱلتَّجارِبِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ ٱلْمُقَوِّي لِكُلِّ فَضِيلةٍ، وَٱلْمُعِينُ عَلَى دَفْعِ كُلِّ رَذِيلةٍ؛ فَلا شَيْءَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَقْلِ، إِذا مَنَّ ٱللهُ تَعالَى

---

(١) الأقاليم : جمع إقليم، والأقاليم السبعة عند القدماء : هي أقسام الأرض. في خفض ودعة : سعة عيش، وسكينة نفس. غِبطة : حسن الحال والمسرة. الخَوَاصّ : السادة والطبقة العليا. ونوّه باسمي : رفعه، وأشاد بذكرى.

(٢) ينصب له منبر : يقام له مكان عال يقف عليه. ورقى : صعد. إصلاح معايشهم : حياتهم جمع معيشة. استنقاذ : إنجاء وإنقاذ.

(٣) مَنّ به عليهم : أنعم. الدّعامة : الأساس. إحراز : امتلاك وتحصيل. عَمَاية الضلال : التخبط في الباطل وعدم الاهتداء إلى الحق. دار الخلود : الجنة.

عَلَىٰ عَبْدِه بِهِ وَأَعانَهُ عَلَى نَفْسِهِ بِٱلْمُواظَبَةِ عَلَى طُرُقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِرْصِ عَلَى ذٰلِكَ[1].

وَمَنْ رُزِقَ ٱلْعَقْلَ ، وَمُنَّ بِهِ عَلَيْهِ ، وَأُعِينَ عَلَى صِدْقِ قَرِيحَتِهِ بِٱلْأَدَبِ، حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ، وَأَدْرَكَ فِي ٱلدُّنْيا أَمَلَهُ، وَحازَ فِي ٱلْآخِرةِ ثَوابَ ٱلصَّالِحِينَ. فَٱلْعَقْلُ هُوَ ٱلْمُقَوِّي لِلْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ، فَإِنَّ ٱلسُّوقةَ وَٱلْعَوامَّ لا يَصْلُحُونَ إِلَّا بِإِفاضةِ يَنْبُوعِ ٱلْعَدْلِ ٱلْفائِضِ عَنِ ٱلْعَقْلِ لِأَنَّهُ سِياجُ ٱلدَّوْلةِ[2].

وَقَدْ رَزَقَ ٱللهُ مَلِكَنَا ٱلسَّعِيدَ كِسْرَى أَنُوشِرْوانَ مِنَ ٱلْعَقْلِ أَفْضَلَ ٱلْحَظِّ، وَأَجْزَلَهُ، وَمِنَ ٱلْعِلْمِ أَجْمَلَهُ وَأَكْمَلَهُ، وَمِنَ ٱلْمَعْرِفَةِ بِٱلْأُمُورِ أَصْوَبَهَا، وَسَدَّدَهُ مِنَ ٱلْأَفْعالِ إِلَى أَسَدِّها، وَمِنَ ٱلْبَحْثِ عَنِ ٱلْأُصُولِ وَٱلْفُرُوعِ إِلَى أَنْفَعِهِ ، وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُونِ ٱخْتِلافِ ٱلْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلةِ ٱلْفَلْسَفةِ ما لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ؛ وَكانَ هُوَ ٱلْقابِلَ لِذٰلِكَ بِجَودةِ ٱلْمادَّةِ ٱلْقابِلةِ لانْطِباعِ ٱلصُّوَرِ؛ فَبَلَغَ بِذٰلِكَ ٱلرُّتْبَةَ ٱلْقُصْوَى فِي ٱلْفَضْلِ عَلَى مَنْ مَضَى مِنَ ٱلْمُلُوكِ قَبْلَهُ[3].

حَتَّى كانَ فِيما طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ، وَسَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنَ ٱلْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتابٍ بِٱلْهِنْدِ مِنْ كُتُبِ فَلَاسِفَتِها وَعُلَمائِها مَخْزُونٍ عِنْدَ مُلُوكِهِمْ، عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ، وَٱلدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعةٍ، وَمِفْتاحُ عَمَلِ ٱلْآخِرةِ وَعِلْمِها، وَمَعْرِفةِ ٱلنَّجاةِ مِنْ أَهْوالِها، وَٱلْمُقَوِّي عَلَى جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ، وَٱلْمُعِينُ عَلَى ما تَحْتاجُ إِلَيْهِ ٱلْمُلُوكُ فِي تَدْبِيرِهِمْ لِأُمُورِ مَمالِكِهِمْ، وَآدابِ ٱلسُّوقةِ فِيما يُرْضُونَ بِهِ مُلُوكَهُمْ، وَيُصْلِحُونَ بِهِ مَعايِشَهُمْ وَهُوَ «كِتابُ كَلِيلَةَ وَدِمْنةَ» .

فَلَمَّا تَيَقَّنَ مَا بَلَغَهُ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكِتابِ، وَكَشَفَ عَمَّا فِيهِ مِنَ ٱلْمَنافِعِ مِنْ تَقْوِيةِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْأَدَبِ، رَآنِي أَهْلًا لِذٰلِكَ، وَنَدَبَنِي إِلَى ٱسْتِخْراجِهِ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ وَٱلسَّلامُ[4].

فَعِنْدَ ذٰلِكَ ظَهَرَ لِلْمَلِكِ عِلْمُهُ وَنَجابَتُهُ وَشَهامَتُهُ، فَسُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا، ثُمَّ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ عِنْدَ ذٰلِكَ بِإِحْضارِ ٱلْمُنَجِّمِينَ ، وَأَنْ يَتَخَيَّرُوا لَهُ يَوْمًا سَعِيدًا وَطالِعًا صالِحًا، وَساعةً مُبارَكةً لِيَتَوَجَّهَ فِيها، فَٱخْتارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ، وَساعةً صالِحةً يَخْرُجُ فِيها، فَسارَ بَرْزَوَيْهِ بِطالِعِ سَعْدٍ ، وَحَمَلَ

---

(١) غريزي: طبيعي نسبة إلى الغريزة. والغريزة: صورة من صور النشاط النفسي، وطراز من السلوك يعتمد على الفطرة والوراثة البيولوجية. كامنة: مختفية. قادح: مؤثر ومُخرج ومظهر. تعضُده: تُعينه . استحكم: تمكن. رذيلة: ضد الفضيلة.

(٢) صدق القريحة: الطبيعة التي جُبل عليها. والقريحة أيضا ملكة يستطيع بها الإنسان ابتداع الكلام وإبداء الرأي، وجمعها قرائح. جَدّه: حَظّه. وحاز: أحرز، ونال. ثواب: أجر. السُّوقة: الرّعية. ويقال: الناس ملوك وسوقة. سياج: سور وإطار واقٍ وحام.

(٣) وأجزَله: وأعظمه. وسدّده: أرشده. إلى أسَدّها: إلى أصوبها وأكثرها سدادًا واستقامة. القُصوى: البعيدة مؤنث الأقصى وهو الأبعد.

(٤) استخراجه: إخراجه ونقله والحصول عليه.

مَعَهُ مِنَ ٱلْمالِ عِشْرِينَ جِرابًا كُلُّ جِرابٍ فِيهِ عَشَرةُ آلافِ دِينارٍ[1].

وَتَوَجَّهَ جادًّا فِي طَلَبِ حاجتِهِ نَهارًا وَلَيْلًا حَتَّى قَدِمَ بِلَادَ ٱلْهِنْدِ؛ فَجَعَلَ يَطُوفُ بِبابِ ٱلْمَلِكِ وَمَجالِسِ ٱلسُّوقةِ، وَيُجالِسُ ٱلْحُكَماءَ، وَيَسْأَلُ عَنْ خَواصِّ ٱلْمَلِكِ وَٱلْأَشْرافِ مِنْ جُلَسائِهِ وَٱلْعُلَماءِ وَٱلْفَلاسِفَةِ ، وَجَعَلَ يَغْشاهُمْ فِي مَجالِسِهِمْ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِٱلتَّحِيَّةِ وَٱلسَّلامِ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلادَهُمْ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْأَدَبِ وَٱلْبَحْثِ عَنْهُ، وَرِياضَتِهِ بِهِ، وَأَنَّهُ مُحْتاجٌ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فِيما يَطْلُبُ مِنْ ذٰلِكَ، وَيَسْأَلُهُمْ بَذْلَ ٱلدُّعاءِ لَهُ بِبُلُوغِ آمالِهِ مَعَ شِدَّةِ كِتْمانِهِ لِمَا قَدِمَ بِسَبَبِهِ وَدَفْنِهِ لِسِرِّهِ؛ فَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ زَمانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَلَى عُلَماءِ ٱلْهِنْدِ بِمَا هُوَ عالِمٌ بِجَمِيعِهِ، وَكَأَنَّهُ لا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا[2].

وَهُوَ فِيما بَيْنَ ذٰلِكَ يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ وَحاجَتَهُ، وَفِي أَثْناءِ ذٰلِكَ يَبْحَثُ فِي مَطْلُوبِهِ بِحُنْكَةٍ وَسِياسَةٍ وَعِفَّةٍ وَنَزاهَةٍ، وَٱتَّخَذَ فِي تِلْكَ ٱلْحالَةِ لِطُولِ مُقامِهِ أَصْدِقاءَ أَصْفِياءَ كَثِيرةً، كُلُّهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْهِنْدِ مِنَ ٱلْأَشْرافِ وَٱلْعُلَماءِ وَٱلْفَلاسِفَةِ، وَٱلسُّوقةِ، وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِناعَةٍ.

وَكانَ قَدِ ٱتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقائِهِ وَأَصْفِيائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا ٱصْطَفاهُ لِسِرِّهِ، وَٱخْتَصَّهُ لِمَشُورَتِهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَحِكْمَتِهِ وَفَهْمِهِ وَكِتْمانِهِ لِسِرِّ نَفْسِهِ، وَلِمَا ٱسْتَبانَ لَهُ مِنْ صِحَّةِ إِخائِهِ، يُسَمَّى أَرْزَوَيْهِ[3].

وَكانَ يُشاوِرُهُ فِي ٱلْأُمُورِ وَيَرْتاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ ما أَهَمَّهُ. إِلَّا أَنَّهُ كانَ يَكْتُمُ عَنْهُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ، حَتَّى يَبْلُوَهُ وَيَخْتَبِرَهُ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ؟ وَلَمْ يَزَلْ يَبْحَثُ عَنْهُ وَيَجْتَهِدُ فِي أَمْرِهِ حَتَّى وَثِقَ بِهِ وُثُوقَ ٱلْأَكْفاءِ بِٱلْأَكْفاءِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ مَحَلٌّ لِكَشْفِ ٱلْأَسْرارِ ٱلْجَلِيلَةِ ٱلْخَطِيرةِ، وَأَنَّهُ مَأْمُونٌ عَلَى ما يُسْتَوْدَعُ مِنْ ذٰلِكَ غَيْرُ خائِنٍ، صَدِيقٌ صَدُوقٌ[4].

ثُمَّ زادَ لَهُ إِلْطافًا ، وَبِهِ ٱحْتِفاءً، وَعَلَيْهِ حُنُوًّا إِلَى أَنْ حَضَرَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي رَجا فِيهِ بُلُوغَ أُمْنِيَتِهِ، وَٱلظَّفَرَ بِحاجَتِهِ مَعَ طُولِ ٱلْغَيْبَةِ، وَعِظَمِ ٱلنَّفَقَةِ فِي ٱسْتِلْطافِ ٱلْإِخْوانِ وَمُجالَسَتِهِمْ عَلَى ٱلطَّعامِ

---

(١) نجابته: بان فضله على من كان مثله. وشهامته: ذكاء فؤاده. وطالعا صالحا: الطالع: ما يتنبأ به المنجم من الحوادث بطلوع كوكب معين كما في اصطلاح المنجمين أو الفلكيين.

(٢) يطوف: يجول. يغشاهم: يأتيهم. ورياضته: تهذيب نفسه به.

(٣) بغيته: هدفه وما قدم من أجله. بحُنكة: دراية وحسن تصرف وإحكام الخطة التي رسمها للحصول على الكتاب. ونزاهة: وطهارة. أصفياء مخلصين: جمع صَفِيّ. اصطفاه: اختاره. استبان: بان وظهر. إخاء: أُخوة.

(٤) ويرتاح إليه: تنبسط إليه نفسه. يبلوه: يجربه ويمتحنه. الأكفاء: جمع كُفء وهو القوي القادر على تصريف الأمور. وثوق الأكفاء بالأكفاء: الأمثال والنُظراء. الجليلة: الهامة والرفيعة والعُليا. صَدُق: صادق.

وَٱلشَّرابِ. وَإِنَّهُ لَمَّا وَثِقَ بِصَدِيقِهِ ٱلْهِنْدِيِّ ٱلَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَأَنِسَ بِهِ، وَسَبَرَ عَقْلَهُ، وَٱطْمَأَنَّ إِلَيْهِ فِي سِرِّهِ، قالَ لَهُ يَوْمًا وَهُما خالِيانِ: يا أَخِي، ما أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ ٱلَّذِي كَتَمْتُكَ لِأَنَّكَ أَهْلٌ لِذٰلِكَ[1].

فَٱعْلَمْ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ بِلادَكُمْ وَهُوَ غَيْرُ ٱلَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي. وَٱلْعاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ ٱلرَّجُلِ بِٱلْعَلاماتِ مِنْ نَظَرِهِ، وَإِشارَتِهِ، فَيَعْلَمُ بِذٰلِكَ سِرَّ نَفْسِهِ، وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ. فَقالَ لَهُ صَدِيقُهُ ٱلْهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بادَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا لَهُ جِئْتَ، وَإِيَّاهُ تُرِيدُ، وَإِلَيْهِ قَصَدْتَ، وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمرًا تَطْلُبُهُ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ، فَما خَفِيَ عَلَيَّ ذٰلِكَ مِنْكَ، وَلَا ذَهَبَ عَنِّي ما كَتَمْتَهُ. وَلٰكِنِّي لِرَغْبَتِي فِيكَ، وَفِي إِخائِكَ، كَرِهْتُ أَنْ أُواجِهَكَ بِذٰلِكَ، وَأُفاجِئَكَ بِهِ لِأَنِّي قَدْ ظَهَرَ لِي ما تَكْتُمُ، وَبَانَ لِي ما أَنْتَ لَهُ مُخْفٍ. فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذٰلِكَ، وَأَفْصَحْتَ بِهِ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنِّي مخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ، وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيرَةَ أَمْرِكَ، وَمُعْلِمُكَ عَنْ سِرِّ حاجَتِكَ ٱلَّتِي قَدِمْتَ بِسَبَبِها، وَأَطْلَتْ مُقامَكَ فِي طَلَبِها[2].

وَذٰلِكَ أَنَّكَ إِنَّما وَطِئْتَ أَرْضَنَا، وَقَدِمْتَ إِلَى بِلادِنا لِتَسْلُبَنا كُنُوزَنا ٱلنَّفِيسةَ، فَتَذْهَبَ بِها إِلَى بِلادِكَ وَتَسُرَّ بِها مَلِكَكَ، وَكانَ قُدُومُكَ إِلَيْنا بِٱلْمَكْرِ ومُصادَقَتُكَ لَنا بِٱلْخَدِيعةِ، وَلٰكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ، وَمُواظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حاجَتِكَ، وَٱلتَّحَفُّظِ مِنْ أَنْ تَسْقُطَ فِي ٱلْكَلامِ مَعَ طُولِ مَكْثِكَ عِنْدَنا عَلَى كَتْمِ أَمْرِكَ بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ، أَزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخائِكَ، وَثِقةً بِعَقْلِكَ، وَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ[3]؛ فَإِنِّي لَمْ أَرَ فِي ٱلرِّجالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا، وَلا أَحْسَنُ أَدَبًا، وَلَا أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ، وَلا أَكْتَمُ لِسِرِّهِ مِنْكَ، وَلا سِيَّما فِي بِلادِ غُرْبَةٍ، وَمَمْلَكةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ، وَعِنْدَ قَوْمٍ لا تَعْرِفُ سُنَنَهُمْ وَلا شِيَمَهُمْ. وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي خصالٍ ثِمانٍ: الْأُوْلَى مِنْها: الرِّفْقُ. وَالثَّانِيةُ: أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَها. وَالثَّالِثةُ: طاعةُ الْمُلُوكِ وَالتَّحَرِّي لِمَا يُرْضِيهِمْ. وَالرَّابِعةُ: مَعْرِفةُ الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلِعَ عَلَيْهِ صَدِيقَهُ. وَالْخامِسةُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوابِ الْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِقَ اللِّسَانِ. وَالسَّادِسةُ: أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَلِسِرِّ غَيْرِهِ حافِظًا. وَالسَّابِعةُ: أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسانِهِ قادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ، وَلَا يُطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ إِلَّا

(١) إلطافًا: برًا وحسن معاملة وتكريما. احتفاء: مبالغة في الإكرام. حُنُوًا: حنانا وعطفًا. أمنيته: ما يتمناه. استلطاف الإخوان: التلطف معهم. سَبَر عقله: اختبره وامتحنه والمِسْبار آلة يقاس بها، وتختبر الأشياء. واطمأن إليه: وثق به وأمن.

(٢) إخائك: صداقتك وأخوتك. سريرة أمرك: ما تخفيه.

(٣) النفيسة: الغالية. والتحفظ: الاحتراس. مكثك: بقائك وإقامتك.

الثِّقاتِ. وَالثَّامِنةُ: أَلَّا يَتَكَلَّمَ فِي الْمَحافِلِ بِمَا لا يُسْأَل عَنْهُ[1].

فَمَنِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هٰذِهِ الْخِصالُ كانَ هُوَ الدَّاعِيَ الْخيْرَ إِلَى نَفْسِهِ. وَهٰذِهِ الْخِصالُ كُلُّها قَدِ اجْتَمعَتْ فِيكَ، وَبانَتْ لِي مِنْكَ ، فَاللهُ تَعالَى يَحْفَظُكَ وَيُعِينُكَ عَلَى ما قَدِمْتَ لَهُ، وَيُظْفِرُكَ بِحَاجَتِكَ؛ لِأَنَّكَ إِنَّما صادَقْتَنِي لِتَسْلُبَنِي عِلْمِي وَفَخْرِي، وَإِنَّكَ أَهْلٌ لِأَنْ تُسْعَفَ بِحَاجتِكَ، وَتُشْفَعَ بِطَلَبَتِكَ وَتُعْطَى سُؤْلَكَ[2].

وَلٰكِنَّ حاجَتَكَ ٱلَّتِي تَطْلُبُ قَدْ أَرْهَبَتْ نَفْسِي، وَأَدْخَلَتْ عَلَيَّ الْفَرَقَ وَالْخَشْيَةَ. فَلَمَّا عَرَفَ بَرْزَوَيْهِ أَنَّ الْهِنْدِيَّ قَدْ عَرَفَ أَنَّ مُصادَقَتَهُ إِنَّما كانَتْ مَكْرًا وَخَدِيعَةً، وَطَلَبَ حاجَتَهُ فَلَمْ يَزْجُرْهُ ، وَلَمْ يَنْتَهِرْهُ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِ رَدًّا لَيِّنًا كَرَدِّ الْأَخِ عَلَى أَخِيهِ بِٱلتَّعَطُّفِ وَالرِّفْقِ، وَثِقَةٍ بِقَضاءِ حاجَتِهِ مِنْهُ. فَقالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلامًا كَثِيرًا وَشَعَّبْتَ لَهُ شِعابًا، وَأَنْشَأْتُ لَهُ أُصُولًا وَطُرُقًا، فَلَمَّا ٱنْتَهَيْتُ فِيهِ إِلَى ما بادَأْتَنِي بِهِ مِن ٱطِّلاعِكَ عَلَى أَمْرِي ، وَٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ، وَأَلْقَيْتَهُ إِلَيَّ مِنْ ذاتِ نَفْسِكَ وَرَغْبَتِكَ فِيما أَلْقَيْتَ مِنَ ٱلْقَوْلِ، ٱكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخِطابِ مَعَكَ عَمَّا كُنْتُ أَخْتلِفُ فِيهِ، إِذْ عَرَفْتَ الْكَثِيرَ مِنْ أُمُورِي بِٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلامِ؛ لِمَا قَسَمَ ٱللهُ لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ فَكَفَيْتَنِي مؤُونةَ ٱلْكَلامِ، فَاقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى ٱلْإِيجازِ[3].

وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعافِكَ إِيَّايَ بِحَاجَتِي ما دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفائِكَ، فَإِنَّ الْكَلامَ إِذا أُلْقِيَ إِلَى ٱلْفَيْلَسُوفِ، وَالسِّرَّ إِذا ٱسْتُودِعَ اللَّبِيبَ الْحافِظَ، فَقَدْ حُصِّنَ، وَبُلِغَ بِهِ نِهايةُ أَمَلِ صاحِبِهِ، كَمَا يُحصنُ ٱلشَّيْءُ النَّفِيسُ فِي ٱلْقِلاعِ ٱلْحَصِينةِ[4].

فَقالَ لَهُ ٱلْهِنْدِيُّ : لا شَيْءَ أَفضَلُ مِنَ ٱلْمَودَّةِ، وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَذْخَر عَنْهُ شَيْئًا، وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا ، وَلَا يَمْنَعَهُ حاجَتَهُ وَمُرادَهُ إِنْ قَدرَ عَلَى ذٰلِكَ.

وَرَأْسُ الْأَدَبِ حِفْظُ ٱلسِّرِّ ؛ فَإِذا كانَ السِّرُّ عِنْدَ الْأَمِينِ الْكَتُومِ فَقَدِ ٱحْتَرَزَ مِنَ التَّضْيِيعِ؛ لِأَنَّهُ خَلِيقٌ أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِهِ. وَلا يُكْتَمُ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ قَدْ عَلِماهُ وَتَفَاوَضا فِيهِ وَلا يَكُونُ سِرًّا لِأَنَّ ٱللِّسانَيْنِ قَدْ تَكَلَّمَا بِهِ. فَإِذا تَكَلَّمَ بِٱلسِّرِّ ٱثْنانِ فَلابُدَّ مِنْ ثالِثٍ مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِما، فَإِذا صارَ إِلَى ٱلثَّلاثةِ فَقَدْ شاعَ

---

(١) أَرْصَنُ: أحكَم وأثبت. شيمهم: جمع شيمة وهي الخُلق: ليَبين: ليَظْهَر. التحرّي: البحث وطلب الأحرى. مَلِقَ اللسان: من الملق وهو الوُدّ واللطف. تَبِعَته: عاقبته. المحافل: المجامع وأماكن الاجتماع والاحتفال. وهي جمع مَحْفَل وهو المكان الحافل بأهله.

(٢) يُظْفِرُك: يجعلك تظفر وتفوز بها. وتُشْفَع بطَلَبَتِك: تجاب إلى ما تطلبه. سُؤْلك: ما سألته.

(٣) الفَرَق: الخوف. يزجره: يمنعه ويكفه. ينتهره: يغضبه ويزجره. شَعَبت له شِعابًا: فصلت له طرقا. مئونة الكلام: أي أغنيتني عنه. الإيجاز عكس الإطالة والإطناب.

(٤) اللبيب: الذكي الفطن. النفيس: الغالي. القِلاع: جمع قلعة. والحصينة: المحصنة بالسلاح والرجال والأسوار.

وَذاعَ، حَتَّى لا يَسْتَطِيعُ صاحبُهُ أَنْ يَجْحَدَهُ وَيُكابِرَ فِيهِ، كَٱلْغَيْمِ إِذا كَانَ مُتَقَطِّعًا فِي ٱلسَّماءِ؛ فَقَالَ قائِلٌ: إِنَّ هٰذا ٱلْغَيْمَ مُتَقَطِّعٌ لا يَقْدِرُ أَحدٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ(١).

وَأَنا فَقَدْ يُداخِلُنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَمُخالَطَتِكَ ، مَعَ أُنْسِي بِقُرْبِكَ سُرُورٌ لا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ. وَهٰذا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُه مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْأَسْرارِ الَّتِي لا تُكْتَمُ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشُوَ وَيَظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ النَّاسُ، فَإِذا فَشا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلاكِي هَلاكًا لا أَقْدِرُ عَلَى الْفِداءِ مِنْهُ بِٱلْمالِ وَإِنْ كَثُرَ؛ لِأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌّ غَلِيظٌ، يُعاقِبُ عَلَى الذَّنْبِ ٱلصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هٰذا ٱلذَّنْبِ ٱلْعَظِيمِ(٢)؟! وَإِذا حَمَلَتْنِي ٱلْمَوَدَّةُ ٱلَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَسْعَفْتُكَ بِحاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقابَهُ عَنِّي شَيْءٌ! قالَ بَرْزَوَيْهِ : إِنَّ الْعُلَماءَ قَدْ مَدَحَتِ الصِّدِيقَ إِذا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ، وَأَعانَهُ عَلَى الْفَوْزِ. وَهٰذا الْأَمْرُ الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ ، وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ، وَأَنا واثِقٌ بِكَرَمِ طِباعِكَ، وَوُفُورِ عَقْلِكَ فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنِّي ما وَصَلَ مِنَ ٱلْمَشَقَّةِ فَأَنْعِمْ بِتَحَمُّلِ ذٰلِكَ. وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي، وَلَا تَخافُ أَنْ أُبْدِيَهُ، بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَلَدِكَ ٱلْمُطَيِّفِينَ بِكَ، وَبِٱلْمَلِكِ أَنْ يَسْمَعوا بِكَ إِلَيْهِ، وَيُبَلِّغُوهُ ذٰلِكَ عَنْكَ(٣).

وَأَنَا أَرْجُو أَلّا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هٰذا ٱلْأَمْرِ؛ لِأَنِّي أَنا ظاعِنٌ ، وَأَنْتَ مُقِيمٌ، وَمَا أَقَمْتُ فَلا ثالِثَ بَيْنَنا. فَتَعاهَدا عَلَى هٰذا جَمِيعًا. وَكَانَ ٱلْهِنْدِيُّ خازِنَ ٱلْمَلِكِ وَبِيَدِهِ مَفاتِيحُ خَزائِنِهِ، فَأَجابَهُ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْكِتابِ، وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ وَسَلَّمَها إِلَيْهِ، فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ ٱللِّسانِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱللِّسانِ ٱلْفارِسِيِّ، وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ، وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ نَهارًا وَلَيْلًا، وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ وَجِلٌ فَزِعٌ مِنْ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ ، خائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمَلِكُ ٱلْكِتابَ فِي وَقْتٍ، وَلَا يُصادِفَهُ فِي خِزانَتِهِ(٤).

فَلَمَّا فَرَغَ مِنِ ٱنْتِساخِ ٱلْكِتابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرادَ مِنْ سائِرِ ٱلْكُتُبِ، كَتَبَ إِلَى أَنُوشِرْوانَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْكِتابُ سُرَّ سُرُورًا شَدِيدًا، ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعاجَلَةَ ٱلْمَقادِيرِ أَنْ تُنَغِّصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ، وَيَنْتَقِضَ سُرُورُهُ. فَكَتَبَ إِلى بَرْزَوَيْهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ ٱلْقُدُومِ، فَسارَ بَرْزَوَيْهِ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى(٥).

---

(١) يخلطه بنفسه: يصاحبه ويخلص له وكأنه من أهله. ولا يذخر عنه شيئا: ولا يخفي ولا يخبئ. احترز: احتاط واتقى. خليق: جدير. وتفاوضا فيه: تشاركا. ذاع: انتشر. يجحده: ينكره. ويكابر فيه: يعاند وينازع ويجادل بالباطل. الغيم: السحاب.

(٢) لا يَعْدِله: لا يساويه. يَفْشُوَ: يشيع وينتشر. فظ: خشن لا يلين ولا يتهاون.

(٣) الفوز: الظفر بما يريد. أنعم بتحمل ذلك: من أساليب المدح. المطيفين بك: المخالطين لك والمقاربين. يسمعوا بك: يَنمُوا عليك.

(٤) ظاعن: مسافر وراحل. ما أقمت: مدة إقامتي. فأكبّ: أقبل. أنصَبَ بدنه: أجهده. وَجِل: خائف.

(٥) انتساخ الكتاب: نسخه ونقله من لغة الهند إلى لغة فارس. تنغص عليه: تكدر صفوه. وينتقض سروره: يزول ويصبح حزنا.

فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكُ ما قَدْ مَسَّهُ مِنَ ٱلشُّحُوبِ وَٱلْإِعْياءِ، قالَ لَهُ : أَيُّها الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ ما قَدْ غَرَسَ، أَبْشِرْ وَقَرَّ عَيْنًا؛ فَإِنِّي مُشَرِّفُكَ، وَبَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ دَرَجَة، وَأَمَرَهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّام؛ فَلَمَّا كانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ أَمَرَ الْمَلِكُ بِإِحْضارِ أَشْراف مَمْلَكَتِهِ، وَجَمِيعِ عُلَماءِ مِصْرِهِ وَشُعَرائِهِ وَالْخُطَباءِ. فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أُحْضِرَ بَرْزَوَيْهِ ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ، وَسَجَد بَيْنَ يَدَي الْمَلِكِ، وَجَلَسَ عَلَى مَرْتَبَةٍ أُعِدَّتْ لَهُ ، ثُمَّ وَقَّعَ الْكَلامَ فِيما شاهَدَهُ، وَرَآهُ، وَشَرَحَ قِصَّتَهُ وَحالَهُ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِها[1].

فَلَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ رِجالِ ٱلدَّوْلَةِ وَقُوَّادِها وَأَهْلِ عُلُومها عَلَى طَبَقاتِهِمْ إِلَّا تَعَجَّبَ مِنْهُ، وَمِنْ طُولِ طَرِيقِهِ وَحُسْنِ سِيرَتِهِ مَعَ صَدِيقِهِ، وَمَا وَفَى لَهُ بِهِ بِلا عَهْدٍ مِنْهُ لَهُ وَلا مُقَدِّمَةٍ تَقَدَّمَتْ بَيْنَهُما مِنْ إِفْشاءِ سِرِّهِ لَهُ مَعَ ما بَيْنَهُمَا مِنِ ٱفْتِرَاقِ ٱلْأَدْيانِ، وَتَبايُنِ الْأَشْكالِ، وَمُنافَرَةِ الْمَذْهَبِ، وَٱسْتَعْظَمُوا ما أَنْفَقَ عَلَى تَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَعَظَّمَ بَرْزَوَيْهِ فِي أَعْيُنِ الْحاضِرِينَ، وَكَبُرَ قَدْرُهُ عِنْدَ مَلِكِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ صَرَفَ مَنْ حَضَرَ ، وَٱنْصَرَفَ بَرْزَوَيْهِ ، وَعَمَدَ الْخُطَباءُ يَصْنَعُونَ مُقَدِّماتٍ تَصْلُحُ لِحُضُورِ الْمَجْلِسِ، وَتَأَهَّبُوا لِذٰلِكَ. وَعَقَدَ لَهُمُ الْمَلِكُ مَجْلِسًا وَحَضَرَ بَرْزَوَيْهِ ، وَخُطَباءُ الدَّوْلَةِ وَٱلْوُزَراءُ وَفُصَحاءُ الْمَمْلَكَةِ وَأُحْضِرَ الْكِتابُ وَسائِرُ الْكُتُبِ[2].

فَلَمَّا قُرِئَتِ الْكُتُبُ، وَسَمِعُوا ما فِيها مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ، وَسائِرِ الظَّرائِفِ وَغَرائِبِ الْآدابِ، ٱسْتَبْشَرَ مَنْ حَضَرَ، وَبَلَغَ الْمَلِكُ أُمْنِيَّتَهُ، وَمَدَحُوا بَرْزَوَيْهِ، وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ، وَشَكَرُوهُ عَلَى ما نالَهُ مِنَ التَّعَبِ. فَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ عِنْدَ ذٰلِكَ بِالدُّرِّ وَالْجَوْهَرِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَفُتِحَتْ خَزائِنُ الْكُسْوةِ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَحَمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ جَمِيعَ ذٰلِكَ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ أَلْبَسَهُ التَّاجَ وَأَجْلَسَهُ عَلَى سَرِيرِهِ تَشْرِيفًا لَهُ، وَزِيادةً فِي إِجْلالِهِ، وَلَمَّا تَمَّ لِبَرْزَوَيْهِ ذٰلِكَ خَرَّ ساجِدًا لِلْمَلِكِ وَقالَ: أَكْرَمَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ بِأَفْضَلِ الْكَراماتِ بِزِيادَتِهِ فِي دُنْياهُ وَأُخْراهُ، وَخَلَّدَ مُلْكَه، وَثَبَّتَ وَطْأَتَهُ وَشَيَّدَ مَبانِيَ مَجْدِهِ[3]. إِنَّ ٱللهَ وَلِي الْحَمْدِ قَدْ أَغْنانِي عَنِ المالِ بِما بَلَغْتُ مِنَ الرُّتْبَةِ الْعَلِيَّةِ السَّنِيَّةِ، وَالْبُغْيَةِ وَالْأُمْنِيَّةِ، بِمَا رَزَقَنِي مِنْ تَشْرِيفِ مَلِكِ الْمُلُوكِ لِلْعَبْدِ الذَّلِيل. لٰكِنْ إِذْ كَلَّفَنِي الْمَلِكُ ذٰلِكَ، وَعَلِمتُ أَنَّهُ يَسُرُّهُ فَأَنا آخُذُ مِمَّا أَمَرَ لِي بِهِ ٱمْتِثالًا لِأَمْرِهِ وَطَلَبًا لِمَرْضاتِه. وَقَامَ فَأَخَذَ مِنْها تَخْتًا مِنْ طَرائِفِ خُراسانَ مِنْ مَلابِسِ

---

(١) الشحوب: اصفرار اللون وتغيره. الإعياء: شدة التعب. بضره: عاصمته. وقُع الكلام: ألقاه.

(٢) طبقاتهم: جمع طبقة. الحال والمنزلة والمرتبة والدرجة. بلا عهد منه: بلا معرفة سابقة. مقدمة: أي أمر سابق. تباين الأشكال: تباعد. ومنافرة المذهب: اختلافه. وعَمَد الخطباء: قصدوا. سائر: باقي.

(٣) وخلع عليه : ألبسه. ثبت وطأته: مكن سلطته. شيّد مباني مجده: رفعه.

الْمُلُوكِ[1].

ثُمَّ قالَ لِلْمَلِكِ : إِنَّ الْإِنْسانَ إِذا مَنَحَهُ اللهُ تَعالَى عَقْلًا وافِرًا، وَعِلْمًا راجِحًا، وَخُلُقًا رَحْبًا، وَدِينًا صُلْبًا، وَنِيَّةً سالِمةً مِنَ الْعاهات؛ فَلْيَشْكُرِ الصَّانِعَ الْأَزَلِيَّ سَرْمَدًا عَلَى ما وَهَبَهُ مِنْ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ ٱسْتِحْقاقٍ يَسْتَحِقُّهُ، وَلا مُقَدِّمةٍ سَبَقَتْ لَهُ، وَإِنَّ الْإِنْسانَ إِذا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ، وَإِنْ كانَ قَدِ ٱسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً. وَأَمَّا أَنا فَمَهْما لَقِيتُهُ مِنْ عَناءٍ وَتَعَبٍ لِما أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ الشَّرَفَ يا أَهْلَ هٰذا الْبَيْتِ، فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هٰذا الْيَوْمِ تابِعًا رِضاكُمْ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا، وَالشَّاقَّ هَيِّنًا، وَالنَّصَبَ وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِما أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضىً، وَعِنْدَكُمْ قُرْبةً[2]. ولٰكِني أَسْأَلُكَ أَيُّها الْمَلِكُ حاجةً تُسْعِفُني بِها، وَتُعْطِيني فِيها سُؤْلِي فَإِنَّ حاجَتي يَسِيرةٌ، وَفِي قَضائِها فائِدةٌ كَثِيرةٌ. قالَ أَنُو شِرْوانُ: قُلْ: فَكُلُّ حاجةٍ لَكَ قِبَلَنا مَقْضِيَّةٌ؛ فَإِنَّكَ عِنْدَنا عَظِيمٌ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشارَكَتَنا في مُلْكِنا لَفَعَلْنا، وَلَمْ نَرُدَّ طَلِبَتَكَ، فَكَيْفَ ما سِوَى ذٰلِكَ ؟! فَقُلْ وَلا تَحْتَشِمْ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّها مَبْذُولةٌ لَكَ. **قالَ بَرْزَوَيْهِ: أَيُّها الْمَلِكُ** لا تَنْظُرْ إِلَى عَنائِي فِي رِضاكَ، وَٱنْكِماشِي فِي طاعَتِكَ، فَإِنَّما أَنا عَبْدُكَ يَلْزَمُني بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضاكَ، وَلَوْ لَمْ تَجْزِني لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا واجِبًا عَلَى الْمَلِكِ. وَلٰكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجازاتِي، وَخَصَّني وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ، وَرَفْعِ الدَّرَجةِ حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَفَعَلَ، فَجَزَاهُ اللهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزاءِ[3].

قالَ أَنُوشِرْوانُ : ٱذْكُرْ حاجَتَكَ ، فَعَلَيَّ ما يَسُرُّكَ. فَقالَ بَرْزَوَيْهِ : حاجَتي أَنْ يَخْرُجَ أَمْرُ الْمَلِكِ أَنْفَذَهُ اللهُ تَعالَى إِلَى الْحَكِيمِ الْفاضِلِ الرَّفِيعِ الْمَقامِ وَزِيرِهِ بُزَرْجُمْهَرَ بْنِ الْبَخْتَكانِ، أَنْ يَنْظِمَ أَمْرِي فِي نُسْخةٍ، وَيُبَوِّبَ الْكِتابَ وَيَجْعَلَ تِلكَ النُّسْخَةَ بابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي، وَيَصِفُ حالِي، وَلَا يَدَعُ مِنَ الْمُبالَغةِ فِي ذٰلِكَ أَقْصَى ما يَقْدِرُ عَلَيْهِ. وَيَأْمُرُهُ إِذا فَرَغَ مِنْهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ **«بابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ»**[4].

فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذا فَعَلَ ذٰلِكَ ، فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غايةَ الشَّرَفِ، وَأَعْلَى الْمَراتِبِ، وَأَبْقَى لَنا ما لا

---

(١) ولى الحمد: المستحق له. وصاحبه: يقصد كسرى. السنية: الرفيعة. والبغية: ما كان يبغيه ويتمناه ويألمه. تخنًا: وعاء يصان فيه الثياب، صندوق أو حقيبة. طرائف: نفائس.

(٢) وخُلُقًا: طبعا وسجيّة. رحبا: واسعا يسع الناس ويتحملهم. صُلبا: متيناً لا يضعف أمام الشهوات والمغريات. العاهات: الآفات. الصانع الأزلي: الله القديم. سرمدًا: دائما. مقدمة: سبق إحسان. عناء: تعب وشدة. قربة: أي قربًا في المنزلة.

(٣) سُؤلي: ما سألته، وما أطلبه. قِبَلنا: عندنا. طَلَبَتَك: ما تطلبه. ولا تحتشم: بلا خجل. مهجتي: دمي. مجازاتي: مكافأتي.

(٤) أنفذه الله: جعله نافذاً، أي مطاعاً. يبوّب الكتاب: يقسمه إلى أبواب وفصول.

يَزالُ ذِكْرُهُ باقيًا عَلَى الْأَبَدِ حَيْثُما قُرِئَ هٰذا الْكِتابُ. فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشِرْوانُ وَالْعُظَماء مَقالَتَهُ، وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ مَحَبَّةِ إِبْقاءِ الذِّكْرِ، عَجِبُوا مِنْ أَدَبِهِ، وحُسْنِ عَقْلِهِ، وَكِبَرِ نَفْسِهِ، وَاسْتَحْسَنُوا طَلَبَتَهُ وَاخْتِيارَهُ. فَقالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرامةً يا بَرْزَوَيْهِ، إِنَّكَ لَأَهْلٌ أَنْ تُسْعَفَ بِحاجَتِكَ، فَما أَقَلَّ ما قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنا، وَإِنْ كانَ خَطَرُهُ، عِنْدَكَ عَظِيمًا[1].

ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِرْوانُ عَلَى وَزِيرِهِ بُزَرْجُمْهِرَ فَقالَ لَهُ : قَدْ عَرَفْتَ مُناصَحَةَ بَرْزَوَيْهِ لَنا، وَتَجَشُّمَهُ الْمَخاوِفَ وَالْمَهالِكَ فِيما يُقَرِّبُهُ مِنَّا، وَإِتْعابَهُ بَدَنَهُ فِيما يَسُرُّنا، وَمَا أَتَى إِلَيْنا مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَمَا أَفادَنا اللهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْباقِيَ لَنا فَخْرُهُ، وَمَا عَرَضْنا عَلَيْهِ مِنْ خَزائِنِنا لِنَجْزِيَهُ عَلَى ما كانَ مِنْهُ ، فَلَمْ تَمِلْ نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ وَكانَتْ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا، رَآهُ هُوَ الثَّوابَ مِنَّا لَهُ، وَالْكَرامةَ الْجَلِيلةَ عِنْدَهُ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذٰلِكَ، وَتَسْعِفَهُ بِحاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي، وَلَا تَدَعْ شَيْئًا مِنَ الاجْتِهادِ وَالْمُبالَغةِ إِلَّا بَلَغْتَهُ، وَإِنْ نالَتْكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ. وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بابًا مُضارِعًا لِتِلْكَ الْأَبْوابِ الَّتِي فِي الْكِتابِ، وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرْزَوَيْهِ وَنَسَبَهُ وَحَسَبَهُ وَصِناعَتَهُ وَأَدَبَهُ، وَكَيْفَ كانَ ابْتِداءُ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، وَتَنْسُبَهُ إِلَيْهِ، وَتَذْكُرَ فِيهِ بَعْثَتَهُ إِلَى بِلادِ الْهِنْدِ فِي حاجَتِنا وَمَا أُفِدْنا مِنَ الْحِكَمِ عَلَى يَدِهِ مِنْ هُنالِكَ، وَشَرَفْنا بِهِ، وَفُضِّلْنا عَلَى غَيْرِنا، وَكَيْفَ كانَ حالُهُ بَعْدَ قُدُومِهِ، وَمَا عَرَضْنا عَلَيْهِ مِنَ الْأَمْوالِ فَلَمْ يَقْبَلْهُ[2].

فَقُلْ ما تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيظِ وَالإِطْنابِ فِي مَدْحِهِ، وَبالِغْ فِي ذٰلِكَ أَفْضَلَ الْمُبالَغَةِ، وَاجْتَهِدْ فِي ذٰلِكَ اجْتِهادًا يَسُرُّ بَرْزَوَيْهِ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ، وَإِنَّهُ لَأَهْلٌ لِذٰلِكَ مِنْ قِبَلِي وَمِنْ قِبَلِ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْ قِبَلِكَ أَيْضًا لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ[3]. وَاجْهَدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هٰذا الْكِتابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْراضِ تِلْكَ الْأَبْوابِ عِنْدَ الْخاصِّ والْعامِّ، وَأَشَدَّ مُشاكَلةً لِحالِ هٰذا الْكِتابِ، فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذٰلِكَ لِانْفِرادِكَ بِهِ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ بِحَيْثُ رَسَمْتُ لَكَ؛ فَأَعْلِمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ، وَتَقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيَظْهَرَ فَضْلُكَ وَاجْتِهادُكَ فِي مَحَبَّتِنا؛ فَيَكُونَ لَكَ بِذٰلِكَ فَخْرٌ[4] .

فَلَمَّا سَمِعَ بُزَرْجُمْهَرُ مَقالَةَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ ساجِدًا ، وَقالَ : أَدامَ اللهُ لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْبَقاءَ ،

---

(١) وما سمت : ارتفعت . إبقاء الذكر : تخليد ذكراه فالذكرى للإنسان عمر ثان . وأيسره : أسهله . خطره : شأنه وشرفه .
(٢) وتَجَشُّمَه : تكلفه وتحمله . مضارعا : مشابهًا ومماثلا . (٣) التقريظ : المدح . الإطناب : المبالغة والإطالة .
(٤) واجهد : ابذل الجهد . مشاكلة : موافقة . بحيث رسمت لك : أي كما رسمت لك .

وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُوْلَى، لَقَدْ شَرَّفْتَنِي فِي ذٰلِكَ شَرَفًا باقِيًا إِلَى الْأَبَدِ، ثُمَّ خَرَجَ بُزَرْجُمْهَرُ مِنْ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَوَصَفَ بَرْزَوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَواهُ إِلَى الْمُؤَدِّبِ، وَمُضِيِّهِ إِلَى بِلادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ، وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِرْوانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْكِتابِ، وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضائِلِ بَرْزَوَيْهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا نَسَقَهُ، وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ ما يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ[1].

ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكَ بِفَراغِهِ مِنْهُ، فَجَمَعَ أَنُوشِرْوانُ أَشْرافَ قَوْمِهِ وَأَهلَ مَمْلَكَتِهِ وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ، وَأَمَرَ بُزَرْجُمْهَرَ بِقِراءَةِ الْكِتابِ وَبَرْزَوَيْهِ قائِمٌ إِلَى جانِبِ بُزَرْجُمْهَرَ،، وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرْزَوَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ، فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِما أَتَى بِهِ بُزَرْجُمْهَرُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ، ثُمَّ أَثْنَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ عَلَى بُزَرْجُمْهَرَ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ، وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمالٍ جَزِيلٍ وَكُسْوَةٍ وَحِلىً وَأَوانِيَ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسْوَةٍ كانَتْ مِنْ ثِيابِ الْمُلُوكِ، ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذٰلِكَ بَرْزَوَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ وَأَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَقالَ : أَدامَ اللهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعادَةَ فَقَدْ بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غايَةَ الشَّرَفِ بِما أَمَرْتَ بِهِ بُزَرْجُمْهَرَ مِنْ صَنْعَةِ الْكِتابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقاءِ ذِكْرِي. ثُمَّ انْصَرَفَ الْجَمْعُ مَسْرُورِينَ مُبْتَهِجِينَ وَكانَ يَوْمًا لا مِثالَ لَهُ[2]!.

بابُ عَرْضِ الْكِتاب

لِعَبْدِ اللهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ مُعَرِّبِ هٰذا الْكِتابِ

هٰذا كِتابُ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَتْهُ عُلَماءُ الْهِنْدِ مِنَ الْأَمْثالِ وَالْأَحادِيثِ الَّتِي أَلْهِموا أَنْ يُدْخِلُوا فِيها أَبْلَغَ ما وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النَّحْوِ الَّذِي أَرادُوا. وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ وَلِسانٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ، وَيَحْتالُونَ لِذٰلِكَ بِصُنُوفِ الْحِيَلِ، وَيَبْتَغُونَ إِخْراجَ ما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ، فِي إِظْهارِ ما لَدَيْهِمْ مِنَ الْعُلُومِ وَالْحِكَمِ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَلِ وَضْعُ هٰذا الْكِتابِ عَلَى أَفْواهِ الْبَهائِمِ وَالطَّيْرِ، فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذٰلِكَ خِلالٌ[3].

---

(١) والأولى: الدنيا. دفعه: سَلمه. المؤدب: المعلم. العقاقير: النباتات التي يتداوى بها. جمع عَقَار. نَسَقَه: نَظَمه.

(٢) جزيل: عظيم. حِلًى: جمع حِلية. وهي ما يتزين به من المعادن المصوغة.

(٣) ألهموا: ألهمهم الله وهداهم. النحو الذي أرادوا: الطريق. يُعْقل عنهم: أي يؤخذ ويُفهم. العِلل: الوسائل والأسباب. خلال: أي طرق ومذاهب.

أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُنْصَرَفًا فِي الْقَوْلِ، وَشِعابًا[1] يأْخُذُونَ مِنْها، وَوُجُوهًا يَسْلُكُونَ فِيها، وَأَمَّا الْكِتابُ فجَمَعَ حِكْمةً وَلَهْوًا فَٱخْتارَهُ الْحُكَماءُ لِحِكْمَتِهِ، وَالْأَغْرارُ لِلَهْوِهِ، وَالْمُتَعَلِّمُ مِنَ الْأَحْداثِ ناشِطٌ فِي حِفْظ ما صارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبَطُ فِي صَدْرِهِ، وَلَا يَدْرِي ما هُوَ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذٰلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ، وَكَانَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَمَّا ٱسْتَكْمَلَ الرُّجُولِيَّةَ ، وَجَدَ أَبَوَيْهِ قَدْ كَنَزَا لَهُ كُنُوزًا، وَعَقَدَا لَهُ عُقَدًا، ٱسْتَغْنَى بِها عَنِ الْكَدْحِ فِيما يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ ؛ فَأَغْناهُ ما أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمةِ عَنِ الْحاجَةِ إِلَى غَيْرِها مِنْ وُجُوهِ الْأَدَبِ[2] .

فَأَوَّلُ ما يَنْبغِي لِمَنْ قَرَأَ هٰذا الْكِتابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ لَهُ، وَالرُّمُوزَ الَّتِي رُمِزَتْ فِيهِ، وَإِلَى أَيِّ غايةٍ جَرَى مُؤَلِّفُهُ فِيهِ عِنْدَ ما نَسَبَهُ إِلَى الْبَهائِمِ، وَأَضافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصِحٍ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الْأَوْضاعِ الَّتِي جَعَلَها أَمْثالًا. فَإِنَّ قارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ لَمْ يَدْرِ ما أُرِيدَ بِتِلْكَ الْمَعانِي ، وَلا أَيَّ ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْها، وَلا أَيَّ نَتِيجةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّماتِ ما تَضَمَّنَهُ هٰذا الْكِتابُ. وَإِنَّهُ إِنْ كانَتْ غايَتُهُ مِنْهُ ٱسْتِتْمامَ قِراءَتِهِ، وَالْبُلُوغَ إِلَى آخِرِهِ، دُونَ تَفَهُّمِ ما يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ[3].

وَمَنِ ٱسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الْكُتُبِ، وَقِراءَةِ الْعُلُومِ مِنْ غَيْرِ إِعْمالِ الرَّوِيَّةِ فِيما يَقْرَؤُهُ كانَ خَلِيقًا أَلَّا يُصِيبَهُ إِلَّا ما أَصابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَماءُ أَنَّهُ ٱجْتازَ بِبَعْضِ الْمفاوِزِ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ آثارِ كَنْزٍ، فَجَعَلَ يَحْفِرُ وَيَطْلُبُ فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنٍ وَوَرِقٍ؛ فَقالَ فِي نَفْسِهِ: إِنْ أَنا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هٰذا الْمالِ قَلِيلًا قَلِيلًا طَالَ عَلَيَّ، وَقَطَعَنِي الْٱشْتِغالُ بِنَقْلِهِ، وَإِحْرازِهِ عَنِ اللَّذَّةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ. وَلٰكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوامًا يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي ، وَأَكُونُ أَنا آخِرَهُمْ، وَلَا يَكُونُ بَقِيَ وَرَائِي شَيْءٌ يُشْغِلُ فِكْرِي بِنَقْلِهِ وَأَكُونُ قَدِ ٱسْتَظْهَرْتُ لِنَفْسِي فِي إِراحَةِ بَدَنِي عَنِ الْكَدِّ بِيَسِيرِ أُجْرَةٍ أُعْطِيها لَهُمْ[4].

ثُمَّ جاءَ بِالْحَمَّالِينَ فَجَعَلَ يُحَمِّلُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ ما يُطِيقُ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَيَفُوزُ بِهِ حَتَّى إِذا لَمْ يَبْقَ مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ ٱنْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنَ الْمالِ شَيْئًا، لا كَثِيرًا وَلا قَلِيلًا، وَإِذا كُلُّ واحِدٍ مِنَ الْحَمَّالِينَ قَدْ فازَ بِما حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلرَّجُلِ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا الْعَناءُ

---

(١) منصرفًا: مذهبا ينصرفون إليه. وشِعابًا: جمع شِعب أي طرقا.

(٢) والأغرار: والسُّذَّج. الأحداث: الصغار. عُقَدًا: أي عقارات. الكدح: الكدّ والسعي. ما أشرف عليه: أي ما وصل إليه.

(٣) مُفْصِح: ناطق. وغير مُفْصِح: حيوان.

(٤) الرَّوِيَّة: النظر والتفكير في الأمور، وهي خلاف البديهة. خليق: جديرًا ومستحقًا. المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء لا ماء فيها. عين: نقود ذهبية. وَرِق: نقود فضية. وقطعني: منعني. وإحرازه: حفظه. استظهرت: استعنت.

وَالتَّعَبُ لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ. وَكَذٰلِكَ مَنْ قَرَأَ هٰذا الكِتابَ، وَلَمْ يَفْهَمْ ما فِيهِ وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَباطنًا ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِما يَبْدُو لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ، كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُدِّمَ لَهُ جَوْزٌ صَحِيحٌ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ وَيَسْتَخْرِجَ ما فِيهِ[1].

وَكَانَ أَيْضًا كَالرَّجُلِ الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الفَصِيحِ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، فَأَتى صَدِيقًا لَهُ مِنَ الْعُلَماءِ لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصاحَةِ فَأَعْلَمَهُ حاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ، فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْراءَ فَصِيحَ الْكَلامِ، وَتصاريفَهُ، وَوُجُوهَهُ، فَانْصَرَفَ بِها إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَعَلَ يُكْثِرُ قِراءَتَها، وَلا يَقِفُ عَلَى مَعانِيها، وَلا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ ما فيها، حَتَّى اسْتَظْهَرَهَا كُلَّها، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ قَدْ أَحاطَ بِعِلْمِ ما فيها[2]. ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذاتَ يَوْمٍ فِي مَحْفِلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، فَأَخَذ فِي مُحاوَرَتِهِمْ، فَجَرَتْ لَهُ كَلِمةٌ أَخْطَأَ فِيهَا فقالَ لَهُ بَعْضُ الْجَماعةِ: إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ، وَالْوَجْهُ غَيْرُ ما تَكَلَّمْتَ بِهِ! فَقالَ: كَيْفَ أُخْطِئُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْراءَ، وَهِيَ فِي مَنْزِلِي؟! فَكَانَتْ مَقالَتُهُ هٰذِهِ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَزادَهُ ذٰلِكَ قُرْبًا مِنَ الْجَهْلِ، وَبُعْدًا مِنَ الأَدَبِ. ثُمَّ إِنَّ الْعاقِلَ إِذا فَهِمَ هٰذا الْكِتابَ ، وَبَلَغَ نِهايةَ عِلْمِهِ فِيهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِما عَلِمَ مِنهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ وَيَجْعَلَهُ مِثالًا لا يَحِيدُ عَنْهُ[3].

مثل الرجل واللص

فَإِذا لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ كانَ مَثَلُهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّ سارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ، وَهُوَ نائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ، فَعَلِمَ بِهِ ، فقالَ : واللهِ لَأَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ ماذا يَصْنَعُ، وَلَا أَذْعَرُهُ، وَلا أُعْلِمُهُ أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ، فَإِذا بَلَغَ مُرادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ، فَنَغَّصْتُ ذٰلِكَ عَلَيْهِ!.

ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ ، وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ وَطَالَ تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ ما يَجِدُهُ، فَغَلَبَ الرَّجُلَ النُّعاسُ، فَنامَ وَفَرَغَ اللِّصُّ مِمَّا أَرادَ، وَأَمْكَنَهُ الذَّهابُ، وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ فَوَجَدَ اللِّصَّ قَدْ أَخَذَ الْمَتاعَ، وَفازَ بِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُها، وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللِّصِّ، إِذْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ فِي أَمْرِهِ ما يَجِبُ[4]! وَقَدْ يُقالُ : إِنَّ الْعِلْمَ لا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَمَلِ، وَإِنَّ الْعِلْمَ كَالشَّجَرَةِ، وَالْعَمَلَ بِهِ

---

(١) الجَوْز: ثمر يؤكل. وجَوْز الهند: النارجيل.

(٢) الفصيح: يقال: رجل فصيح: يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئه. وكلام فصيح: سليم واضح يدرك السمع وحسنه، والعقل دقته. استظهرها: حفظها غيبا.

(٣) مَحْفِل: مجتمع حافل بالناس. محاورتهم: مراجعتهم في الكلام. للحجة: الاحتجاج.

(٤) تسوّر عليه: تخطى سور بيته وعلاه. ولا أذعره: لا أفزعه. النّعاس: النوم. المتاع: واحد الأمتعة. وكل ما يتنفع به ويرغب في اقتنائه كالطعام. وأثاث البيت، والسلعة، والأداة والمال.

كَالثَّمَرةِ ، وَإِنَّما صاحِبُ الْعِلْمِ يَقُومُ بِالْعَمَلِ، لِيَنْتَفِعَ بِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَسْتَعْمِلْ ما يَعْلَمُ فَلَيْسَ يُسَمَّى عالِمًا. وَلَو أَنَّ رَجُلًا كانَ عالِمًا بِطَرِيقٍ مَخُوفٍ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمٍ بِهِ، سُمِّيَ جاهِلًا، وَلَعَلَّهُ إِنْ حاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْواءَ هَجَمَتْ بِها فِيما هُوَ أَعْرَفُ بِضَرَرِها فِيهِ وَأَذاها، وَمَنْ رَكِبَ هَواهُ، وَرَفَضَ أَنْ يَعْمَلَ بِما جَرَّبَهُ هُوَ، أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ كانَ كَالْمَرِيضِ الْعالِمِ بِرَدِيءِ الطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَجَيِّدِهِ وَخَفِيفِهِ، وَثَقِيلِهِ ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرَهُ عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ، وَتَرْكِ ما هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النَّجاةِ، وَالتَّخَلُّصِ مِنْ عِلَّتِهِ[1]. وَأَقَلُّ النَّاسِ عُذْرًا فِي اجْتِنابِ مَحْمُودِ الْأَفْعالِ، وَارْتِكابِ مَذْمُومِها مَنْ أَبْصَرَ ذٰلِكَ، وَمَيَّزَهُ ، وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ. كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ: أَحَدُهُما بَصِيرٌ، وَالْآخَرُ أَعْمَى ساقَهُما الْأَجَلُ إِلَى حُفْرَةٍ فَوَقَعا فِيها كانا إِذا صارا فِي قَعْرِها بِمَنْزِلَةٍ واحِدَةٍ. غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقَلُّ عُذْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ؛ إِذْ كانَتْ لَهُ عَيْنانِ يُبْصِرُ بِهِما، وَذَاكَ بِما صارَ إِلَيْهِ جاهِلٌ غَيْرُ عارِفٍ. وَعَلَى الْعالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ، وَيُؤَدِّبَهَا بِعِلْمِهِ، وَلا تَكُونَ غايَتُهُ اقْتِناءَ الْعِلْمِ، لِمُعاوَنَةِ غَيْرِهِ وَنَفْعِهِ بِهِ وَحِرْمانِ نَفْسِهِ مِنْهُ، وَيَكُونَ كَالْعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ ماءَها وَلَيْسَ لَهَا فِي ذٰلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمَنْفَعَةِ[2]. وَكَدُودَةِ الْقَزِّ الَّتِي تُحْكِمُ صَنْعَتَهُ، وَلا تَنْتَفِعُ بِهِ! فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ بِعِظَةِ نَفْسِهِ، وَيَتَعَهَّدَهَا بِرِياضَتِها، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ؛ فَإِنَّ خِلالًا يَنْبَغِي لِصاحِبِ الدُّنْيا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيَقْبِسَهَا: مِنْها الْعِلْمُ، وَالْمالُ، وَمِنْها اتِّخاذُ الْمَعْرُوفِ، وَلَيْسَ لِلْعالِمِ أَنْ يَعِيبَ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غايَةٌ وَنِهايَةٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْها، وَيَقِفُ عِنْدَها، وَلا يَتَمادى فِي الطَّلَبِ[3].

فَإِنَّهُ يُقالُ: مَنْ سارَ إِلَى غَيْرِ غايَةٍ، فَيُوشِكُ أَنْ تَنْقَطِعَ بِهِ مَطِيَّتُهُ ، وَإِنَّهُ كانَ حَقِيقًا أَلَّا يُعَنِّيَ نَفْسَهُ فِي طَلَبِ ما لا حَدَّ لَهُ، وَمَا لَمْ يَنَلْهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ، وَلا يَتَأَسَّفَ عَلَيْهِ وَلا يَكُونَ لِدُنْياهُ مؤْثِرًا عَلَى آخِرَتِهِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْلَقْ قَلْبُهُ بِالْغايَاتِ، قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفارَقَتِها، وَقَدْ يُقالُ فِي أَمْرَيْنِ : إِنَّهُما يَجْمُلانِ بِكُلِّ أَحَدٍ: أَحَدُهُما النُّسُكُ، وَالْآخَرُ الْمالُ الْحَلَالُ .

وَقَدْ يُقالُ فِي أَمْرَيْنِ : إِنَّهُما لا يَجْمُلانِ بِأَحَدٍ : الْمَلِكُ أَنْ يُشارَكَ فِي مُلْكِهِ، وَالرَّجُلُ أَنْ يُشارَكَ فِي خاصَّتِهِ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ يَقْنَطَ وَيَيْأَسَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَفَضْلِهِ فِيما لا يَنالُهُ ؛ فَرُبَّمَا

---

(١) أهواء: جمع هوى. وهو ميل النفس. ركب هواه: اتبعه . الشره: الجشع وشدة الحرص على الطعام.

(٢) الأجل: انقضاء العمر. الضرير: الأعمى. غايته: هدفه.

(٣) القز: الحرير. بعظة نفسه: بوعظها. يتعهدها: يتفقدها. يَقْبِسَه: يستفيده. خِلالاً: أمورًا. اتخاذ المعروف: فعله واصطناعه مع الناس. غاية: حد وهدف. يتمادى: يلحّ ويداوم.

ساقَ الْقَدَرُ لَهُ رِزْقًا هَنِيئًا وَهُوَ غافِلٌ عَنْهُ لا يَدْرِي بِهِ وَلا يَعْلَمُ وَجْهَهُ![1].

مَثَلُ ٱلفَقِيرِ واللّص

وَمِنْ أَمْثالِ هٰذا أَنَّ رَجُلًا كانَ بِهِ فاقَةٌ وَجُوعٌ وَعُرْيٌ ، فَأَلْجَأَهُ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ سَأَلَ بَعْضَ أَقارِبِهِ وَأَصْدِقائِهِ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ بِهِ عَلَيْهِ ، فَبَيْنما هُوَ ذاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذ بَصُرَ بِسارِقٍ فِي مَنْزِلِهِ؛ فَقالَ فِي نَفْسِهِ: وَٱللهِ ما فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخافُ عَلَيْهِ ! فَلْيَجْهِدِ السّارِقُ جُهْدَهُ[2]! .

فَبَيْنَما السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خابِيَةٍ فِيها حِنْكَةٌ، فَقالَ ٱلسَّارِقُ: وَٱللهِ ما أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ عَنائِيَ ٱللَّيْلَةَ باطِلًا، وَلَعَلِّي لا أَصِلُ إِلَى مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلٰكِنْ سَأَحْمِلُ هٰذِهِ الْحِنْطَةَ خَيْرٌ مِنَ الرُّجُوعِ بِغَيْرِ شَيْءٍ، ثُمَّ بَسَطَ رِداءَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةَ؛ فَقالَ الرَّجُلُ : يَذْهَبُ هٰذا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرائِي سِواها؟!؛ فَيَجْتَمِعَ عَلَيَّ مَعَ الْعُرْيِ ذَهابُ ما كُنْتُ أَقْتاتُ بِهِ، وَمَا تَجْتَمِعُ وَٱللهِ هاتانِ الْخَلَّتانِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَهْلَكَتاهُ! ثُمَّ صاحَ بِالسَّارِقِ ، ووَثَبَ إِلَيْهِ بِهِراوَةٍ كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلَّا ٱلْهَرَبُ مِنْهُ ، وَتَرَكَ رِداءَهُ وَنَجا بِنَفْسِهِ، وَغَدا ٱلرَّجُلُ بِهِ كاسِيًا[3].

وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هٰذا الْمَثَلِ، فَيَتَّكِلَ عَلَيْهِ وَيَدَعَ ما يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ السَّعْيِ وَالْعَمَلِ لِصَلاحِ مَعاشِهِ، بَلْ ٱلَا يَأْلُو جَهْدًا فِي ٱلطَّلَبِ عَلَى قَدرِ مَعْرِفَتِهِ، وَلَا يَنْظُر إِلَى مَنْ تُؤَاتِيهِ ٱلْمَقادِيرُ وَتُساعِدُهُ عَلَى غَيْرِ الْتِماس مِنْهُ، وَلا حَرَكَةٍ؛ لِأَنَّ أُولٰئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ، وَإِنَّما الجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ يَجْهَدُ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ والسَّعْيِ فِيما يُصْلِحُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَيَنالُ بِهِ ما يُرِيدُ[4].

وَلْيَحْرِصْ أَنْ يَكُونَ مكسبُهُ مِنْ أَطْيَبِ الْمَكاسِبِ ، وَأَفْضَلِهَا وَأَنْفَعِها لَهُ ولِغَيْرِهِ مَعًا ما أَمْكَنَ، وَلا يَتَعَرَّضْ لِمَا يَجْلُبُ عَلَيْهِ الْعَناءَ وَالشَّقاءَ، وَمَا يعْقِبُهُ الْهَمَّ وٱلْغَمَّ، وَلْيَحْذَرْ أَنْ يُعاوِدَ ما أَصابَهُ مِنْهُ الضَّرَرُ ، وَيَنْبَغِي لَهُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَحْذَرَ مِمَّا يُصِيبُ غَيْرَهُ مِنَ الضَّرَرِ، لِئَلَّا يُصِيبَهُ مِثْلُهُ فَيَكُونَ

---

(١) تنقطع به مطيته: تعجز عن السير دابته وتوقف. يُعَنّى: يتعب. مُؤْثِرًا: مفضلا. بالغايات: بالمطالب. يجملان: يحسنان. خاصته: ما يختص به. يقنط: يقطع الأمل ومثلها ييأس. القدر: قضاء الله.

(٢) فاقة: فقر. فألجأه: اضطره ودفعه. فضل: زيادة عن عوزه. يعود به: يفضل: بَصُر بسارق: لمحه. فليجهد السارق جهده: طاقته.

(٣) خابية: وعاء الماء الذي يحفظ فيه، جمعها الخوابي، وأصلها الخابئة والخوابئ سهلت الهمزة للتخفيف. حنطة: قمح. رداءه: ثوبه الذي يلبسه فوق الثياب الداخلية. أقتات: أعيش، وأتغذى. الخلّتان: الخصلتان أو الصفتان. بهراوة: بعصا ضخمة. كاسيا: مكتسيا ومستورا.

(٤) لا يألو جَهدًا: لا يقصر في بذل الجهد. تؤاتيه: توافقه.

كَالْحَمامةِ الَّتي تُفْرِخُ الْفِراخَ فَتُؤْخَذُ وَتُذْبَحُ، ثُمَّ لا يَمْنَعُها ذٰلِكَ مِنْ أَنْ تَعُودَ، فَتُفْرِخَ مَوْضِعَهَا وَتُقِيمَ بِمَكَانِها، فَتُؤْخَذُ الثَّانِيةُ مِنْ فِراخِها، فَتُذْبَحُ حَتَّى تُؤْخَذَ هِيَ فَتُذْبَحَ أَيْضًا. وَقَد يُقالُ: إِنَّ ٱللهَ تَعالَى قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقَف عَلَيْهِ، وَمَنْ تَجاوَزَ فِي الأَشْياءِ حَدَّها، أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِها. وَٱلْمُتَجاوِزُ الْحَدِّ، وَالْمُقَصِّرُ عَنْهُ سِيَّانِ بِالنِّسْبةِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ كِلَيْهِما زائِغٌ عَنْهُ فِي الْحالَيْنِ جَمِيعًا[1].

وَيُقالُ: مَنْ كانَ سَعْيُهُ لِآخِرتِهِ وَدُنْياهُ فَحَياتُهُ لَهُ وَعَلَيهِ، وَمَنْ كانَ سَعْيُهُ لِدُنْياهُ خاصَّةً فَحَياتُهُ عَلَيهِ، وَمَنْ كانَ سَعْيُهُ لِآخِرتِهِ فَحَياتُهُ لَهُ. وَيُقالُ فِي أَشْياءَ يَجِبُ عَلَى صاحِبِ الدُّنْيا إِصْلاحُها وَبَذْلُ جُهْدِهِ فِيها: مِنْها أَمْرُ دِينِهِ، وَمِنْها أَمْرُ مَعِيشتِهِ، وَمِنْها ما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمِنْها ما يُكْسِبُهُ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ بَعْدَهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورِ مَنْ كُنَّ فِيهِ لَم يَسْتَقِمْ لَهُ عَمَلٌ: مِنْها التَّوانِي، وَمِنها تَضْيِيعُ الْفُرَصِ[2]، وَمِنْها التَّصْدِيقُ لِكُلِّ مُخْبِرٍ، وَمِنْها التَّكْذِيبُ لِكُلِّ عارِفٍ، وَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ، وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقامتَهُ فَيُصَدِّقُهُ، وَالَّذِي يَفْعَلُ ذٰلِكَ مِنَ النَّاسِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ يُصَدِّقُ بِما جَرَّبَهُ غَيْرُهُ، وَصَدَّقَهُ، فَيُصَدِّقُهُ هُوَ، وَيَتَمادَى فِي التَّصْدِيقِ حَتَّى كَأَنَّما جَرَّبَهُ بِنَفْسِهِ، وَرَجُلٌ يُصَدِّقُ بِالْأُمُورِ الَّتِي جَرَّبَها، وَلٰكِنْ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ بِحَقِيقَتِها، وَرَجُلٌ تَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الأُمُورُ فَيُصَدِّقُ بِها. وَيَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَواهُ مُتَّهِمًا، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَدِيثًا، وَلَا يَتَمادى فِي الْخَطَأِ إِذا الْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَلا يَلِجُّ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، وَلا يُقْدِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوابُ فِيهِ، وَتَسْتَوْضِحَ لَهُ الْحَقِيقةُ[3].

وَلا يَكُونَ كالرَّجُلِ الَّذِي يَزِيغُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَيَسْتَمِرُّ عَلَى الضَّلالِ، فَلا يَزْداد فِي السَّيْرِ جَهْدًا إِلَّا ٱزْدادَ عَنِ الْقَصْدِ بُعْدًا، وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ فَلا يَزالُ يَحُكُّها حَتَّى رُبَّما كانَ ذٰلِكَ الْحَكُّ سَبَبًا فِي ذَهابِها. وَيَجِبُ عَلَى الْعاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْقَضاءِ وَالْقَدَرِ، وَيَعْلَمَ أَنَّ ما كُتِبَ سَوْفَ يَكُونُ، وَأَنَّ مَنْ أَتَى صاحِبَهُ بِمَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ فَقَدْ ظَلَمَ، وَيَأْخُذَ بِالْحَزْمِ فِي أُمُورِهِ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهَ لَهُمْ ما يَكْرَهُ لَهَا، فَلا يَطْلُبَ أَمْرًا فِيهِ مَضَرَّةٌ لِغَيْرِهِ، طَلَبًا لِصَلاحِ نَفْسِهِ بِفَسادِ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ غادِرٍ مَأْخُوذٌ[4].

---

(١) سيان: مثلان. زائغ عنه: بعيد عنه. (٢) الذكر الجميل: السيرة العطرة. التواني: التقصير والفتور في العمل.
(٣) عَقَله: أدركه بعقله. متهما: شاكا في صدقه. وتستوضح: تتضح.
(٤) تقذى عينه: يصيبها قذى، والقذى: جمع القذاة: ما يتكون في العين من رَمص وغمص وغيرها. مأخوذ: مُعاقب.

مثل الشريكين والأعدال

وهو مثل من رمى غيره بسهم ، فأصاب نفسه

وَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ كانَ خَلِيقًا أَنْ يُصِيبَهُ ما أَصابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ؛ فَإِنَّهُ يُقالُ إِنَّهُ كانَ رَجُلٌ تاجِرٌ، وَكانَ لَهُ شَرِيكٌ . فَٱسْتَأْجَرا حانُوتًا، وَجَعَلَا مَتَاعَهُما فِيهِ، وَكَانَ أَحَدُهُما قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ الْحانُوتِ، فَأَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عِدْلًا مِنْ أَعْدالِ رَفِيقِهِ ، وَمَكَرَ فِي ذٰلِكَ، وَقالَ: إِنْ أَنا أَتَيْتُ لَيْلًا لَمْ آمَنْ أَنْ أَحْمِلَ عِدْلًا مِنْ أَعْدالِي، أَوْ رُزْمَةً مِنْ رُزَمِي، وَلا أَعْرِفُها فَيَذْهَبَ عَنائِي وَتَعَبِي باطِلًا[1].

فَأَخَذَ رِداءَهُ وَأَلْقاهُ عَلَى الْعِدْلِ الَّذِي أَضْمَرَ أَخْذَهُ، ثُمَّ ٱنْصَرَفَ إِلَى مَنزِلِهِ، وَجاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذٰلِكَ لِيُصلِحَ أَعْدالَهُ، فَقالَ: وَٱللهِ هٰذا رِداءُ صاحِبِي وَلا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ نَسِيَهُ وَمَا الرَّأْيُ أَنْ أَدَعَهُ هٰهنا، وَلٰكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رُزَمِهِ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْتَبِقُنِي إِلَى الْحانُوت، فَيَجِدُهُ حَيْثُ يُحِبُّ ، ثُمَّ أَخَذَ الرِّداءَ فَأَلْقاهُ عَلَى عِدْلٍ مِنْ أَعْدالِ رَفِيقِهِ، وَأَقْفَلَ الْحانُوتَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا جاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقُهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ واطَأَهُ عَلَى ما عَزَمَ عَلَيْهِ، وَضَمِنَ لَهُ جُعْلًا عَلَى حَمْلِهِ، فَصارَ إِلَى الْحانُوتِ فَتَحَسَّسَ الرِّداءَ فِي الظُّلْمةِ وَتَلَمَّسَهُ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعِدْلِ، فَٱحْتَمَلَ ذٰلِكَ الْعِدْلَ وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ وَجَعَلَا يَتَراوَحانِ حَمْلَهُ، حَتَّى أَتَى مَنْزِلَهُ وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا[2].

فَلَمَّا أَصْبَحَ ٱفْتَقَدَه فَإِذَا هُوَ بَعْضُ أَعْدالِهِ ؛ فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدامةِ ، ثُمَّ ٱنْطَلَقَ نَحْوَ الْحانُوتِ فَوَجَدَ شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ الْحانُوتَ وَفَقَدَ الْعِدْلَ، فَاغْتَمَّ لِذٰلِكَ غمًّا شَدِيدًا وَقالَ : واسَوْءَتاهُ مِنْ رَفِيقٍ صالِحٍ قَدِ ٱئْتَمَنَنِي عَلَى مالِهِ وَخَلَّفَنِي فِيهِ ماذا يَكُونُ حالِي عِنْدَهُ ، وَلَسْتُ أَشُكُّ فِي تُهمَتِهِ إِيَّايَ؟! وَلٰكِنْ قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى غَرامَتِهِ[3]!!.

فَلَمَّا أَتاهُ صاحِبُهُ وَجَدَهُ مُغْتَمًّا ، فَسَأَلَهُ عَنْ حالِهِ فَقالَ : إِنِّي قَد تَفقدْتُ الْأَعْدالَ ، وَفَقَدْتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدالِكَ وَلا أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ، وَإِنِّي لا أَشُكُّ فِي تُهْمَتِكَ إِيَّايَ، وَإِنِّي قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى

---

(١) حانوتا: دكانًا. متاعهما: بضاعتهما. أضمر: نوى وأسرّ. عِدْلاً: البِدْل: الجوالق فيه البضاعة.

(٢) رُزَمِه: أعداله. واطأه: اتفق معه على تنفيذ خطة السرقة. جُعْلاً: أجرةً مقابل معاونته في سرقة الجوالق. تحَسَّسَ الرداء: بحث عنه وتلمس. وتطلبه بالجسّ. تلَمّسه: تطلبه باللمس . يتراوحان حمله: يتبادلان حمله هذا مرة وذاك مرة.

(٣) افتقده: بحث عنه فلم يجده. واسَوْأتاه! : يا للقبح الذي حَلّ بي! وكيف أرى صاحبي ورفيقي وجهي!! . خلّفني فيه: استخلفني نائبا عنه. وطنت نفسي: صمّمت. على غرامته: أي تعويضه.

غَرامَتِهِ! فَقالَ لَهُ : يا أَخِي لا تَغْتَمَّ فَإِنَّ الْخِيانةَ شَرُّ ما عَمِلَهُ الْإِنْسانُ، وَالْمَكْرُ وَالْخَدِيعةُ لا يُؤَدِّيانِ إِلَى خَيْرٍ، وَصاحِبُهُما مَغْرُورٌ أَبَدًا، وَمَا عادَ وَبَالُ الْبَغْيِ إِلَّا عَلَى صاحِبِهِ، وَأَنا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَٱحْتالَ. فَقالَ لَهُ صاحِبُهُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ . فأَخْبَرَهُ بِخَبَرِهِ وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ[1].

مثل اللّص والتاجر

وهو مثل من أراد اختلاس شيء، فوقعت يده على غيره، مما لا يريده، وهو يظنه إياه

فَقالَ لَهُ رَفِيقُه : ما مَثَلُكَ إِلَّا مَثَلُ اللِّصِّ وَالتَّاجِرِ فَقالَ لَهُ : وَكَيْفَ كانَ ذَلِكَ؟.

قالَ : زَعَمُوا أَنَّ تاجِرًا كانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خابِيَتانِ : إِحْداهُما مَمْلُوءَةٌ حِنْطَةً، وَٱلْأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا، فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللُّصُوصِ زَمانًا، حَتَّى إِذا كانَ بَعْضُ الْأَيَّامِ، تَشاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ فَتَغَفَّلَه اللِّصُّ، وَدَخَلَ الْمنْزِلَ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَواحِيهِ، فَلَمَّا هَمَّ بِأَخْذِ الخابِيةِ الَّتِي فِيها الدَّنانِيرُ، أَخَذَ الَّتِي فِيها الْحِنْطَةُ، وَظَنَّها الَّتِي فِيها الذَّهَبُ ، وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِها مَنْزِلَهُ، فَلَمَّا فَتَحَها وَعَلِمَ مَا فِيها نَدِمَ[2]!.

قالَ لَهُ الْخائِنُ : ما أَبْعَدْتَ الْمَثَلَ ، وَلا تَجاوَزْتَ الْقِياسَ، وَقَدِ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطَئِي عَلَيْكَ، وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هٰذا كَهٰذا، غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ الرَّدِيَّةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ! فَقَبِلَ الرَّجُلُ مَعْذِرَتَهُ، وَأَضْرَبَ عَنْ تَوْبِيخِهِ، وَعَنِ الثِّقَةِ بِهِ ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَمَا عايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ !.

مثل الإخوة الثلاثة

وهو مثل من رأى العبرة في غيره فاعتبر، واهتم لأمره وتروّى فيه .

وَقَدْ يَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي كِتابِنا هٰذا أَلّا تَكُونَ غايَتُهُ التَّصَفُّحَ لِتَراوِيقِهِ ، بَلْ يُشْرِفُ عَلَى ما يَتَضَمَّنُ مِنَ الْأَمْثالِ، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِهِ[3].

---

(١) وبَالُ البغي: عاقبته ونتيجته السيئة. البَغْي: الظلم. (٢) فتغفّله اللص: ترقب غفلته، وانتظر إلى حين غفلة منه.
(٣) ما أبعَدْت المثل: إن هذا المثل شبيه بما حدث مني، وليس بعيداً. عزيز علي: صعب. الفحشاء: القبيح من الذنوب. أضرَبَ: أعرَضَ. عاين: شاهد. وتقديم جهله: ما قدم منه. لتراويقه: لصوره، وقد كان في الأصل مزينا بصور أشخاص الحوادث التي فيه. يأتي عليه: يتمه.

وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمةٍ ، وَيُعْمِلَ فِيها رَوِيَّتَهُ وَيَكُونَ مِثْلَ ثالِثِ الْإِخْوَةِ الثَّلاثَةِ الَّذِين خَلَّفَ لَهُمْ أَبُوهُمُ الْمالَ الْكَثِيرَ؛ فَتَنازَعُوهُ بَيْنَهُمْ. فَأَمَّا الِاثْنانِ الْكَبِيرانِ فَإِنَّهُما أَسْرَعا فِي إِتْلافِهِ وَإِنْفاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَما نَظَرَ ما صارَ إِلَيْهِ أَخَواهُ مِنْ إِسْرافِهِما وَتَخَلِّيهِما مِنَ الْمالِ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يُشاوِرُهَا وَقَالَ يا نَفْسِي : إِنَّما الْمالُ يَطْلُبُهُ صاحِبُهُ، وَيَجْمَعُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لِبَقاءِ حالِهِ، وَصَلاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْياهُ، وَشَرَفِ مَنْزِلَتِهِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، وَاسْتِغْنائِهِ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ، وَصَرْفِهِ فِي وَجْهِهِ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَالإِنْفاقِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْإِفْضالِ عَلَى الْإِخْوانِ[1]. فَمَنْ كانَ لَهُ مالٌ وَلا يُنْفِقُهُ فِي حُقُوقِهِ ، كانَ كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيرًا، وَإِنْ كانَ مُوسِرًا، وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْساكَهُ، وَالْقِيامَ عَلَيْهِ لَمْ يَعْدَمِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا: مِنْ دُنْيا تَبْقَى عَلَيْهِ، وَحَمْدٍ يُضافُ إِلَيْهِ . وَمَتَى قَصَدَ إِنْفاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي حُدَّتْ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ ، وَيَبْقَى عَلَى حَسْرةٍ وَنَدَامةٍ، وَلٰكِنَّ الرَّأْيَ أَنْ أُمْسِكَ هٰذا الْمالَ، فَإِنِّي أَرْجو أَنْ يَنْفَعَنِي اللهُ بِهِ ، وَيُغْنِي إِخْوَتِي عَلَى يَدِي، فَإِنَّما هُوَ مالُ أَبِي، وَمالُ أَبِيهِما، وَإِنَّ أَوْلَى الْإِنْفاقِ عَلَى صِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعُدَتْ فَكَيْفَ بأخوَيّ؟! فَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُما، وَشَاطَرَهُما مالَهُ[2].

مثل الصَّيَّادِ والصَّدَفة

وهو مثل من أوهمه ظاهرُ شيءٍ نفاسة باطنه ؛ فترك ما في يده ، وأخذه

وَكَذٰلِكَ يَجِبُ عَلَى قارِيءِ هٰذا الكِتاب أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَواهِرَ مَعَانِيهِ، وَلا يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجتَهُ إِنَّما هِيَ الْإِخْبارُ عَنْ حِيلةِ بَهِيمَتَيْنِ، أَوْ مُحاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَوْرٍ فَيَنْصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ ، وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ الصَّيَّادِ الَّذِي كانَ فِي بَعْضِ الْخَلْجانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ فِي زَوْرَقٍ، فَرَأَى ذاتَ يَوْمٍ فِي عَقِيقِ الْماءِ صَدَفَةً تَتَلأْلأُ حُسنًا، فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيمةٌ ، وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَتَهُ فِي الْبَحْرِ ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كانتْ قُوتَ يَوْمِهِ ، فَخَلَّاها، وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي الْماءِ لِيَأْخُذَ الصَّدَفةَ ، فَلَمَّا أَخْرَجَها وَجَدَها فارِغةً لا شَيءَ فِيها مِمَّا ظَنَّ ؛ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ ما فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ ، وَتَأَسَّفَ عَلَى ما فاتَهُ[3].

---

(١) فتنازعوه: تقاسموه. وتخلّيهما: إفلاسهما. الرّحم: القرابة.

(٢) موسرًا: غنيا. إمساكه: ضبطه. القيام عليه: تدبيره. لم يلبث: يبطئ. أي سريعا ما يتسرب إليه التلف. شاطَرَهما: قاسمهما.

(٣) من غير ضجر: أي يكون صابرا راضيا. جواهر معانيه: معانيه الغالية النفيسة كالجواهر. الخِلْجان: جمع خليج وهو امتداد من الماء متوغل في اليابس، والنهير يقتطع من النهر الكبير إلى جهة ينتفع به. عقيق الماء: مسيله.

فَلَمَّا كانَ الْيَوْمُ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ الْمَكانِ ، وَأَلْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصابَ حُوتًا صَغِيرًا، وَرَأَى أَيْضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْها، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِها فَتَرَكَها. وَاجْتازَ بِها بَعْضُ الصيَّادِينَ، فَأَخَذَها فَوَجَدَ فِيها دُرَّةً تُساوِي أَمْوالًا[1]. وَكَذٰلِكَ الْجُهَّالُ عَلَى إِغْفالِ أَمْرِ التَّفَكُّرِ فِي هٰذا الْكِتابِ والاغْتِرارِ بِهِ وَتَرْكِ الْوُقُوفِ عَلَى أَسْرارِ مَعانِيهِ وَالْأَخْذِ بِظاهِرِهِ دُونَ الْأَخْذِ بِبَاطِنِهِ .

وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوابِ الْهَزْلِ مِنْهُ ، فَهُوَ كَرَجُلٍ أَصابَ أَرْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً ، وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَها وَسَقَاها، حَتَّى إِذا قَرُبَ خَيْرُها تَشاغَلَ عَنْها بِجَمْعِ ما فِيها مِنَ الزَّهْرِ ، وَقَطْعِ الشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشاغُلِهِ ما كانَ أَحْسَنَ فائِدةً ، وَأَجْمَلَ عائِدةً[2].

أغراض هذا الكتاب وأهدافه

وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي هٰذا الْكِتابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَغْراضٍ : أَحَدُها : ما قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ غَيْرِ النَّاطِقَةِ مِنْ مُسارَعَةِ أَهْلِ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ إِلَى قِراءَتِهِ فَتُسْتَمالَ بِهِ قُلُوبُهُمْ ؛ لِأَنَّ هذا هوَ الْغَرَضُ بِالنَّوادِرِ مِنْ حِيَلِ الْحَيَوانات.

وَالثَّانِي : إِظْهارُ خَيالاتِ الْحَيَوانات بِصُنُوفِ الْأَصْباغِ وَالْأَلْوانِ، لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ، وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ الصُّوَرِ.

وَالثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ الصِّفَةِ فَيَتَّخِذَهُ الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ انْتِساخُهُ وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلُقَ عَلَى مُرُورِ الْأَيَّامِ، وَلِيَنْتَفِعَ بِذٰلِكَ الْمُصَوِّرُ وَالنَّاسِخُ أَبَدًا.

وَالْغَرَضُ الرَّابِعُ : وَهُوَ الْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِالْفَيْلَسُوفِ[3] خاصَّةً .

قالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُقَفَّعِ: لَمَّا رَأَيْتُ أَهْلَ فارِسَ قَدْ فَسَّرُوا هٰذا الْكِتابَ مِنَ الْهِنْدِيَّةِ إِلَى الْفَارِسِيَّةِ وَأَلْحَقُوا بِهِ بابًا وَهُوَ بابُ بَرْزَوَيْهِ الطَّبِيبِ، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ ما ذَكَرْنا فِي هٰذا البابِ لِمَنْ أَرادَ قِراءَتَهُ، وَاقْتِباسَ عُلُومِهِ وَفَوائِدِهِ،وَضَعْنا لَهُ هٰذا الْبابَ، فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ تُرْشَدْ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى !

---

(١) تنحى: اعتزل وترك. سَنِية: قيمة. واجتاز: مر.

(٢) الأخذ بظاهره: الاعتماد عليه. حُرّة: لا رمل فيها. عائدة: منفعة.

(٣) الفيلسوف: المحب للحكمة الذي لا يعتمد على الظاهر بل يفكر في بواطن الأمور، وما وراء الظواهر.

بابُ

بَرْزَوَيْهِ لبُرْزُجُمْهَرَ بْنِ ٱلْبَخْتَكَانِ

قالَ بَرْزَوَيْهِ بْنُ أَزْهَرَ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فارسَ وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى ٱنْتِساخَ هٰذا ٱلْكِتابِ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ ٱلْهِنْدِ، (وَقَدْ مَضَى ذِكْرُ ذٰلِكَ مِنْ قَبْلُ) :

إِنَّ أَبِي كانَ مِنَ الْمُقاتِلَةِ ، وَكانَتْ أُمِّي مِنْ عُظَماءِ بُيُوتِ الزَّمازِمةِ، وَكانَ مَنْشَئِي فِي نَعْمةٍ كامِلةٍ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبَوَيَّ عَلَيْهِما ، وَكانا بِي أَشَدَّ ٱحْتِفاظًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي[1]. حَتَّى إِذا بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ ، أَسْلَمانِي إِلَى الْمُؤَدِّبِ، فَلَمَّا حَذَقْتُ الْكِتابةَ، شَكَرْتُ أَبَوَيَّ، وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ، فَكانَ أَوَّلَ ما ٱبْتَدَأْتُ بِهِ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ، عِلْمُ ٱلطِّبِّ ؛ لأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ فَضْلَهُ فَأَقَمْتُ فِي تَعَلُّمِهِ سَبْعَ سِنِينَ، وَكُلَّما ٱزْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا، ٱزْدَدْتُ عَلَيْهِ حِرْصًا، وَلَهُ ٱتِّباعًا حَتَّى أَحَطْتُ مِنْهُ بِعِلْمٍ وافِرٍ ، وَقَدَرْتُ عَلَى غَوامِضِهِ[2].

فَلَمَّا هَمَّتْ نَفْسِي بِمُداواةِ الْمَرْضَى، وَعَزَمَتْ عَلَى ذٰلِكَ ، آمَرْتُها ، ثُمَّ خَيَّرْتُها بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعةِ الَّتِي يَطْلُبُها النَّاسُ، وَفِيها يَرْغَبُونَ، وَلَها يَسْعَوْنَ، فَقُلْتُ : أَيَّ هٰذِهِ الْخِلالِ أَبْتَغِي فِي عِلْمِي؟ وَأَيَّها أَحْرَى بِي ، فَأُدْرِكَ مِنْهُ حاجَتِي؟!: ٱلْمالُ أَمِ الذِّكْرُ أَمِ اللَّذّاتُ ، أَمِ الْآخِرةُ[3]؟.

وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِبَّاءِ مَنْ واظَبَ عَلَى طِبِّهِ، لا يَبْتَغِي إِلَّا أَجْرِ الْآخِرةِ. فَرَأَيْتُ أَنْ أَطْلُبَ الاشْتِغالَ بِالطِّبِّ ٱبْتِغاءَ الْآخِرةِ، وَرَجاءَ أَجْرِ الْمُنْقَلَبِ، لا أَبْتَغِي مُكافَأَةَ الدُّنْيا وَلا تَعْجِيلَهَا؛ لِقَلَّا أَكُونَ كَالتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ ياقُوتَةً ثَمِينةً ، كانَ يُصِيبُ بِثَمَنِها غِنَى الدَّهْرِ ، بِخَرَزَةٍ لا تُساوِي شَيْئًا ؛ مَعَ أَنِّي قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ: أَنَّ الَّذِي يَبْتَغِي بِطِبِّهِ أَجْرَ الْآخِرةِ لا يَنْقُصُهُ ذٰلِكَ حَظَّهُ مِنَ الدُّنْيا، وَأَنَّ مَثَلَهُ مَثَلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَبْذُرُ حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَعْمُرُها ٱبْتِغاءَ الزَّرْعِ، لا ٱبْتِغاءَ الْعُشْبِ، ثُمَّ هِيَ لا مَحالَةَ نابِتٌ فِيها أَلْوانُ الْعُشْبِ مَعَ ناضِرِ الزَّرْعِ[4].

فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُداواةِ الْمَرْضَى ٱبْتِغاءَ أَجْرِ الْآخِرةِ، فَلَمْ أَدَعْ مَرِيضًا أَرْجُو لَهُ الْبُرْءَ، وَآخَرَ لا أَرْجُو

---

(١) المقاتلة : أي المقاتلين من رجال الجيش. الزمازمة : طائفة معروفة عندهم. نعمة كاملة : نشأة منعمة.

(٢) أسلماني : سلّماني. حَذَقت الكتابة : تعلمتها وصرت حاذقا ماهرا فيها. غوامضه : ما غمض وخفي على غيري.

(٣) آمرتها : شاورتها واستطلعت رأيها وأمرها. أحرى : أولى.

(٤) المُنقَلَب : المصير والنهاية والعاقبة. ويَعْمُرها : ويُصلِحُها. لا محالةَ : لا بُدّ. ألوان : أنواع.

لَهُ ذٰلِكَ، إِلَّا أَنِّي أَطْمَعُ أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ إِلَّا بالَغْتُ فِي مُداواتِهِ جُهْدِي. وَمَنْ قَدَرْتُ عَلَى الْقِيامِ عَلَيْهِ قُمْتُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي، وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى الْقِيامِ عَلَيْهِ، وَصَفْتُ لَهُ ما يَصْلُحُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّواءِ ما يَتَعالَجُ بِهِ، وَأَمَرْتُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي، وَلَمْ أَرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذٰلِكَ جَزاءً وَلا مُكافَأَةً ، وَلَمْ أَغْبِطْ أَحَدًا مِنْ نُظَرائِيَ الَّذِينَ هُمْ مِثْلِي فِي الْعِلْمِ، وَلا مَنْ هُمْ فَوْقِي فِي الْجاهِ وَالْمالِ وَغَيْرِهِما مِمَّا لا يَعُودُ بِصَلاحٍ وَلا حُسْنِ سِيرَةٍ قَوْلًا وَلا عَمَلًا[1].

وَلَمَّا كَانَتْ نَفْسِي تَتُوقُ إِلَى ذٰلِكَ، وَتُنازِعُنِي فِي أَنْ تَنالَ مِثْلَ مَنالِهِمْ ، كُنْتُ آتِي لَها إِلَّا الْخُصُومَةَ، وَأَقُولُ لَها: يا نَفْسِ ، أَما تَعْرِفِينَ نَفْعَكِ مِنْ ضُرِّكِ؟! أَلا تَنْتَهِينَ عَنْ طَلَبِ ما لا يَنالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلَّ انْتِفاعُهُ بِهِ، وَكَثُرَ عَناؤُهُ فِيهِ، وَاشْتَدَّتِ الْمَئونَةُ عَلَيْهِ، وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِراقِهِ؟! يا نَفْسِي ، أَما تَذْكُرِينَ ما بَعْدَ هٰذِهِ الدَّارِ فَيُنْسِيَكِ ما تَشْرَهِينَ إِلَيْهِ مِنْها[2]؟!.

أَلا تَسْتَحِيينَ مِنْ مُشارَكَةِ الْفُجَّارِ فِي حُبِّ هٰذِهِ الْعاجِلَةِ الْفانِيَةِ، الَّتِي مَنْ كانَ فِي يَدِهِ مِنْها شَيْءٌ فَلَيْسَ لَه، وَلَيْسَ بِباقٍ عَلَيْهِ، فَلَا يَأْلَفُها إِلَّا الْمَغْرُورُونَ الْجاهلونَ؟! يا نَفْسِي ، انْظُرِي فِي أَمْرِكِ، وَانْصَرِفِي عَنْ هٰذا السَّفَهِ، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكِ وَسَعْيِكِ عَلَى تَقْدِيمِ الْخَيْرِ، وَإِيَّاكِ وَالتَّسْوِيفَ، وَاذْكُرِي أَنَّ هٰذا الْجَسَد مَوْجُودٌ لِآفاتٍ، وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلاطًا فاسِدةً قَذِرةً مُتَعادِيةً مُتَغالِبةً ، تَعْقِدُها الْحَياةُ، وَالْحَياةُ إِلَى نَفادٍ كَالصَّنَمِ الْمُفَصَّلةِ أَعْضاؤُهُ، إِذا رُكِّبتْ وَوُضِعَتْ، جَمَعَهَا فِي مَواضِعِهَا مِسْمَارٌ واحِدٌ ، يُمْسِكُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْض، فَإِذا أُخِذَ ذٰلِكَ الْمِسْمَارُ تَساقَطَتْ تِلْكَ الْأَوْصَالَ[3]!!.

يا نَفْسِي ، لا تَغْتَرِّي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكِ وَخِلَّانِكِ، وَلَا تَحْرِصِي عَلَى ذٰلِكَ كُلَّ الْحِرْصِ فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ عَلَى ما فِيها مِنَ الْبَهْجَةِ وَالسُّرُورِ كَثِيرةُ الْمَئونةِ وَالْأَذَى، وَعَاقِبةُ ذٰلِكَ الْفِراقِ!!، وَمَثَلُها مَثَلُ الْمِغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُونةِ المَرَقِ وَلَذْعِهِ، فَإِذا قَدُمَتْ صَارَتْ وَقُودًا فِي النَّارِ! يا نَفْسِي ، لا يَحْمِلَنَّكِ أَهْلُكِ وَأَقارِبُكِ عَلَى جَمْعِ ما تَهْلِكِينَ فِيهِ إِرادةَ صِلَتِهِمْ، فَإِذا أَنْتِ كَالدُّخْنِةِ الْأَرِجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ، وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا[4]!.

---

(١) البُزْء: الشفاء. القيام عليه: ملازمته وإحاطته برعايتي، والقيام بشأنه. أغبط: أتمنى مثل حاله. نُظَرائي: أمثالي.

(٢) تتوق: تشتاق. وتنازعني: تجاذبني. آبى: أرفض ولا أريد. الخصومة: المخاصمة. المئونة: الثقل والشدة. تشرهين: تحرصين عليه حرصا شديدا.

(٣) العاجلة: الدنيا. السَّفه: الخفَّة والطيش. التسويف: التأخير والتأجيل والبطال. الأوصال: الأعضاء.

(٤) خلانك: أصدقائك. جمع خليل. المئونة: التكاليف. في جِدَّتها: وهي جديدة. كانت المغارف تصنع من الخشب كالملاعق ، كما كان في اليابان. صلتهم: أي الإحسان إليهم. الدُّخنة: نوع من الطيب. الأرجة: ذات الأريج وهو الرائحة الطيبة العطرة.

يا نَفْسِي، لا تَرْكَنِي إِلَى هٰذِهِ الدَّارِ الْفَانِيةِ وَلا تَغْتَرِّي بِهَا طَمَعًا فِي الْبَقَاءِ وَالْمَنْزِلةِ الَّتِي يَنْظُرُ إِلَيْها أَهْلُها فَكَأَيٍّ مِمَّنْ لا يُبْصِرُ صِغَرَ ما يَسْتَعْظِمُ ، وَحَقارَتَهُ حَتَّى يُفارِقَهُ كَشَعرِ الرَّأْسِ الَّذِي يَحْدُمُهُ صاحِبُهُ، وَيُكْرِمُهُ ما دامَ عَلَى رَأْسِهِ فَإِذا فارَقَ رَأْسَهُ ٱسْتَقْذَرَهُ وَرَفَضَهُ ! يا نَفْسِي ، لا تَمَلِّي مِنْ عِيادةِ الْمَرْضَى وَمُداواتِهِمْ، وَاعْتَبِرِي كَيْفَ يَجْهَدُ الرَّجُلُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْ مَضِيمِ واحِدٍ كُرْبةً واحِدةً وَيَسْتَنْقِذَهُ مِنْها رَجاءَ الأَجْرِ. فَكَيْفَ بِالطَّبِيبِ الَّذِي يَفْعَلُ كَثِيرًا مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَثِيرِينَ. إِنَّ هَذَا لَخَلِيقٌ أَنْ يَعْظُمَ رَجاؤُهُ وَيُوثَقَ مِنْهُ بِحُسْنِ الثَّوابِ[1].

يَا نَفْسِي لا يَبْعدْ عَلَيْكِ أَمْرُ الآخِرَةِ فَتَمِيلِي إِلَى الْعاجِلَةِ فِي ٱسْتِعْجالِ الْقَلِيلِ، وَبَيْعِ الْكَثِيرِ بِالْيَسِيرِ؛ كَالتَّاجِرِ الَّذِي كانَ لَهُ مِلْءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنْدَلِ، فَقالَ : إِنْ بِعْتُهُ وَزْنًا طالَ عَلَيَّ ، فَباعَهُ جُزافًا بِأَبْخَسِ الثَّمَنِ. وَقَدْ وَجَدْتُ آراءَ النَّاسِ مُخْتَلِفةً، وَأَهْواءهُمْ مُتَباينَةً وَكُلٌّ عَلَى كُلِّ عادٍ ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتابٌ ، وَفِيهِ واقِعٌ ، ولقوله مخالف[2].

مثل الرجل واللّص

وهو مثل المصدق المغتر بما لا يكون !

فَلَمَّا رَأَيْتُ ذٰلِكَ لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتابَعةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلًا ، وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ صَدَّقْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ لا عِلْمَ لِي بِحالِهِ، كُنْتُ فِي ذٰلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمَخْدُوعِ، الَّذِي زَعَمُوا فِيهِ أَنَّ سارِقًا عَلا ظَهْرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الأَغْنِياءِ، وَكانَ مَعَهُ جَماعةٌ مِنْ أَصْحابِهِ فَٱسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ مِنْ وَطْئِهِمْ ، فَأَيْقَظَ ٱمْرَأَتَهُ فَأَعْلَمَها بِذٰلِكَ، وَقالَ لَها: رُوَيْدًا إِنِّي لَأَحْسَبُ اللُّصُوصَ عَلَوْا عَلَى الْبَيْتِ ، فَأَيْقِظِينِي بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ اللُّصُوصُ، وَقُولِي: أَلا تُخْبِرُنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوالِكَ هٰذِهِ الْكَثِيرةِ، وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمةِ، مِنْ أَيْنَ جَمَعْتَها؟! فَإِذا ٱمْتَنَعْتُ عَلَيْكِ فَأَلِحِّي عَلَيَّ فِي السُّؤالِ، وَٱسْتَحْلِفِينِي، حَتَّى أَقُولَ لَكِ[3].

فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذٰلِكَ ، وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَها، وَأَنْصَتَتِ اللُّصُوصُ إِلَى سَماعِ قَوْلِهِما ، فَقالَ لَهَا الرَّجُلُ: أَيَّتُها الْمَرْأَةُ قَدْ سَاقَكِ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ واسِعٍ ، وَمالٍ كَثِيرٍ، فَكُلِي وَاشْرَبِي ، وَلا تَسْأَلِي عَنْ

(١) فَكَأَيٍّ: فكم، فكثير. استقذره: وجده قذرا. عيادة: زيارة. مضيم: ذليل حلّ به الضّيم. كُربة: شدة.
(٢) استعجال القليل: طلب العَجَلة. الصّندل: حَبّ طيب الرائحة. جزافا: بلا وزن. بأبخس الثمن: أنقصه وأقله. متباينة: مختلفة. عادٍ معتدٍ ظالم. مغتاب: قادح في عرضه وهو غائب. واقع: سابّ له.
(٣) من وطئهم: من حركة أقدامهم. رويدًا: مهلا. امتنعت عليك: لم أجبك، ولم أرد عليك.

أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكِ بِهِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ؛ فَيَكُونَ فِي ذٰلِكَ ما أَكْرَهُ وَتَكْرَهِينَ!! فَقالَتِ الْمَرْأَةُ : أَخْبِرْنِي أَيُّها الرَّجُلُ، فَلَعَمْرِي ما بِقُرْبِنا أَحَدٌ يَسْمَع كَلامَنَا؛ فَقالَ لَهَا: فَإِنِّي مُخْبِرُكِ أَنِّي لَمْ أَجْمَعَ هٰذِهِ الأَمْوالَ إِلَّا مِنَ السَّرِقَةِ! قالَتْ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ، وَمَا كُنْتَ تَصْنَعُ وَأَنْتَ عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الْبَرَرَةِ الصُّلَّاحِ؟! قالَ : ذٰلِكَ لِعِلْمٍ أَصَبْتُهُ فِي السَّرِقَةِ وَكَانَ الأَمْرُ عَلَيَّ يَسِيرًا، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهِمَنِي أَحَدٌ ، أَوْ يَرْتَابَ بِي[1]! قالَتْ : فَاذْكُرْ لِي ذٰلِكَ. قالَ : كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقْمِرَةِ أَنا وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُوَ دارَ بَعْضِ الأَغْنِياءِ مِثْلِنا، فَأَنْتَهِي إِلَى الْكُوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْها الضَّوْءُ، فَأَرْقِي بِهٰذِهِ الرُّقْيَةِ، وَهِيَ : شَوْلَمْ شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَأَعْتَنِقُ الضَّوْءَ، فلا يُحِسُّ بِوُقُوعِي أَحَدٌ ، وَلا يَبْقَى فِي الْبَيْتِ شَيءٌ إِلَّا أَتَانِي قاصِدًا مُطِيعًا، فَلا أَدَعُ مالًا وَلا مَتاعًا إِلَّا أَخَذْتُهُ ثُمَّ أُعِيدُ الْعَزِيمَةَ أَيْضًا، وَأَعتنِقُ الضَّوْءَ فَيَجْذِبُنِي؛ فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحابِي، فَنَمْضِي سالِمِينَ آمِنِينَ، وَلَيْسَ عَلَى مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ جُرْأَةٌ ، فَيُسَلِّمَ نَفْسَهُ إِلَى حِبالِ الضَّوْءِ، وَيَتَعَلَّقَ بِهَا، وَيَنْزِلَ عَلَيْهَا[2]!.

فَاكْتُمِي ذٰلِكَ، وَإِيَّاكِ أَنْ تُعَلِّمِيهِ لِأَحَدٍ . فَلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوصُ ذٰلِكَ، قالُوا: قَدْ ظَفَرْنَا اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ! ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطالُوا الْمُكْثَ، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا، وَكَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُقْمِرَةً، وَلِلْبَيتِ كُوَّةٌ نافِذٌ مِنْها الضَّوْءُ؛ فَقامَ قائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ الضَّوءِ، وَقالَ: شَوْلَمْ شَوْلَمْ سَبْعَ مَرَّاتٍ ثُمَّ اعْتَنَقَ الضَّوْءَ لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنَكَّسًا[3].

فَوَثَبَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ بِهِرَاوَتِهِ، وَقالَ : مَنْ أَنْتَ؟ قال : أَنا الْمُصَدِّقُ الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرُّ بِما لا يَكُونُ أَبَدًا ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ رُقْيَتِكَ، وَعَاقِبَةُ مَنْ يُصَدِّقُ كُلَّ ما يَسْمَعُ.

فَلَمَّا تَحَرَّزْتُ مِنْ تَصْدِيقِ ما لا يَكُونُ، وَلَمْ آمَنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوقِعَنِي فِي تَهْلُكَةٍ، عُدْتُ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الأَدْيانِ، وَالْتِماسِ الْعَدْلِ مِنْها، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ أَحَدٍ مِمَّنْ كَلَّمْتُهُ جَوابًا فِيما سَأَلْتُهُ عَنْهُ فِيها، وَلَمْ أَرَ فِيما كَلَّمُونِي بِهِ شَيْئًا يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أُصَدِّقَ بِهِ، وَلا أَنْ أَتَّبِعَهُ. فَقُلْتُ لَمَّا لَم أَجِدْ ثِقَةً آخُذُ مِنْهُ ، فَالرَّأْيُ أَنْ أَلْزَمَ دِينَ آبائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ، وَهَمَمْتُ بِذٰلِكَ[4].

ثُمَّ الْتَمَسْتُ لِنَفْسِي مَخْرَجًا فَقُلْتُ : إِنْ كانَ مَنْ يَفْعَلُ هٰذا مَعْذُورًا ، فَإِنَّ الَّذِي يَجِدُ أَباهُ ساحِرًا وَيَجْرِي عَلَى مِثالِهِ، يَكُونُ غَيْرَ مَلُومٍ مَعَ أَشْباهِ ذٰلِكَ مِمَّا لا يَحْتَمِلُهُ الْعَقْلُ .

---

(١) فلعمري: قسما بعُمري. البرَرة: جمع بارّ الصالحين . يرتاب لي: يشك في.

(٢) أنتهي : أصل. الكُوّة: النافذة. أرْقي: أقرأ وأردد كما يفعل السحرة. وأعتنق الضوء: أحتضنه وأمسك به. العزيمة: الرّقية.

(٣) المكث: الانتظار والبقاء. هجعا: ناما. أم رأسه: دماغه. منكسا: مقلبا.

(٤) بهراوته: بعصاه. العدل منها: العادل الصالح.

وَذَكَرْتُ فِي ذٰلِكَ قَوْلَ رَجُلٍ كانَ فاحِشَ الْأَكْلِ فَعُوتِبَ فِي ذٰلِكَ، فَقالَ: كَذٰلِكَ كانَ أَكْلُ أَبِي وَجَدِّي، فَلَمَّا ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ الْآباءِ وَالْأَجْدادِ، وَلَمْ أَجِدْ لَهَا على الثُّبُوتِ عَلَى دِينِ االآباءِ طاقةً، بَلْ وَجَدْتُها تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَدْيانِ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْها، وَلِلنَّظَرِ فِيها، هَجَسَ فِي قَلْبِي، وَخَطَر عَلَى بالِي قُرْبُ الْأَجَلِ، وَسُرْعَةُ انْقِطاعِ الدُّنْيا، وَاغْتِباطُ أَهْلِها، وَتَخَرُّمُ الدَّهْرِ حَياتَهُمْ(١).

فَفَكَّرْتُ فِي ذٰلِكَ، وَقُلْتُ أَمَّا أَنا فَلَعَلِّي قَدْ قَرُبَ أَجَلِي ، وَحانَتْ نُقْلَتِي، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ أُمُورًا مَحْمُودةً ، أَرْجُو أَنْ تَكُونَ أَصْلَحَ الْأَعْمالِ، وَلَعَلَّ تَرَدُّدِي شَغَلَنِي عَنْ خَيْرٍ كُنْتُ أَعْمَلُهُ، فَيَكُونَ أَجَلِي دُونَ ما تَطْمَحُ إِلَيْهِ نَفْسِي، وَيَطْلُبُهُ أَمَلِي، وَيُصِيبَنِي ما أَصابَ الرَّجُلَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ تَواطَأَ مَعَ خادِمٍ فِي بَيْتٍ لِأَحَدِ الْأَغْنِياءِ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ الْبَيْتَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَغِيبُ أَهْلُهُ ، فَيَجْمَعَ لَهُ الْخادِمُ مِمَّا فِي الْبَيْتِ، فَيَذْهَبَ بِهِ وَيَبِيعَهُ وَيَتَشاطَرا ثَمَنَهُ؛ فَاتَّفَقَ ذاتَ لَيْلَةٍ أَنْ غابَ أَهْلُ الْبَيْتِ، وَبَقِيَ الْخادِمُ وَحْدَهُ ، فَانْفَذَ فَأَخْبَرَ صاحِبَهُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَأَخَذَا فِي الْجَمْعِ مِمَّا فِيهِ(٢).

وَبَيْنا هُما يَجْمَعانِ إِذْ قُرِعَ الْبابُ ، وكَانَ لِلْبَيْتِ بابٌ آخَرُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ الرَّجُلُ، وَكَانَ ذٰلِكَ الْبابُ عِنْدَ جُبِّ الْماءِ، فَقالَ الْخادِمُ لِلرَّجُلِ - عَلَى عَجلٍ مِنْهُ وَخِيفةٍ - : بادِرِ اخْرُجْ مِن الْبابِ الَّذِي عند جُبِّ الْماءِ، وَأَشارَ لَهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ إِلَى ذَلِكَ الْمَكانِ، فَوَجَدَ الْبابَ وَلٰكِنْ لَمْ يَجِدْ جُبَّ الْماءِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ، وَقالَ لَهُ : أَمَّا الْبابُ فَوَجَدْتُهُ ؛ وَأَمَّا الْجُبُّ فَلَمْ أَجِدْهُ(٣).

فَقالَ لَهُ : أَيُّها الْمائِقُ، وَمَا تَصْنَعُ بِالْجُبِّ؟ أَنا دَلَلْتُكَ بِهِ لِتَعْرِفَ الْبابَ، فَإِذْ عَرَفْتَهُ فَاذْهَبْ عاجِلًا ، فَقالَ لَهُ : لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ صِدْقًا ؛ فَلِمَ ذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُوَ هُناكَ؟! فَقالَ لَهُ : وَيْحَكَ أَيُّها الْأَحْمَقُ! انْجُ بِنَفْسِكَ ، وَدَعْ عَنْكَ الْحُمْقَ، وَالتَّرَدُّدَ! فَقالَ لَهُ : كَيْفَ أَمْضِي وَقَدْ خَلَطْتَ عَلَيَّ، وَذَكَرْتَ الْجُبَّ وَلَيْسَ هُناكَ(٤)؟!.

فَلَمْ يَزَلْ عَلَى مِثْلِ هٰذِهِ الْحالِ، حَتَّى دَخَلَ رَبُّ الْبَيْتِ، فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ وَأَوْجَعَهُ ضَرْبًا، وَرَفَعَهُ إِلَى السُّلْطانِ! فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ ، رَأَيْتُ أَلّا أَتَعَرَّضَ لَهُ ، وَلَا لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ ، وَاقْتَصَرْتُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ تَشْهَدُ بِهِ الْعُقُولُ، وَتَتَّفِقُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْأَدْيانِ، وَيُرَى أَنَّهُ صَوابٌ وَحَقٌّ ؛ فَكَفَفْتُ

---

(١) فاحش الأكل: يتجاوز الحَدّ فيه. والمسألة عنها: والسؤال. هجس: خطر. قرب الأجل: الموت. واغتباط أهلها: هلاك. وتخرم الدهر حياتهم: استئصال.

(٢) نُقْلَتي: أي انتقالي من الدنيا إلى الآخرة بالموت. تطمح: تميل. ويتشاطرا ثمنه: يقتسمانه.

(٣) وبينا: وبينما. جُبّ: بئر. (٤) المائق: الأحمق في غباوة. ويْحك: ويلك. خلطت علىّ: أي خلطت الحق بالباطل.

يَدِي عَنِ الضَّرْبِ وَالْقَتْلِ وَالسَّرِقَةِ، وَزَجَرْتُ نَفْسِي عَنِ الكِبْرِ وَالْغَضَبِ، وَنَزَّهْتُ قَلْبِي عَنِ الْحِقْدِ وَالْبُغْضِ وَالْخِيانَةِ، وَصنْتُ لِساني عَنِ الْكَذِبِ ، وَالْبُهْتَانِ، وَالْغِيبةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَكُلِّ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَلّا أَبْغِي عَلَى أَحَدٍ، وَلا أُكَذِّبَ بِالْبَعْثِ، وَلا الْقِيامةِ، وَلا الثَّوابِ، وَلا الْعِقابِ، وَأَنْ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ[1]، يُكافِئُ عَلَى الْخَيْرِ بِالْخَيْرِ، وَعَلى الشَّرِّ بِالشَّرِّ، وَأَنْ لا بُدَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَالْحِسابِ، وَزَايَلْتُ الْأَشْرَارَ وَحاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيارِ بِجُهْدِي، وَرَأَيْتُ كُلًّا مِنَ الصَّلاحِ وَالْعِلْمِ لَيْس كَمِثْلِهِ صاحِبٌ ، وَلا قَرِينٌ ، وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذا وَفَّقَ اللهُ ، وَأَعانَ يَسِيرا، وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى الْخَيْرِ، وَيُشِيرُ بِالنُّصْحِ فِعْلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ وَوَجَدْتُهُ لَا يَنْقُصُ عَلَى الْإِنْفاقِ مِنْهُ، بَلْ يَزْدادُ ، وَلا يَخْلقُ عَلَى كَثْرةِ الِاسْتِعْمالِ بَلْ يَجِدُّ وَيَزْهُو، وَيَكْثُرُ، وَوَجَدْتُهُ لا خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْصِبَهُ، وَلا مِنَ الْآفاتِ أَنْ تُفْسِدَهُ، وَلا مِنَ الْماءِ أَنْ يُغْرِقَهُ، وَلا مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ، وَلا مِنَ اللُّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ، وَلا مِنَ السِّباعِ وَجَوارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُمَزِّقَهُ[2].

وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ السَّاهِيَ اللَّاهِيَ الْمُؤْثِرَ الْيَسِيرَ، يَنالُهُ فِي يَوْمِهِ، وَيَعْدَمُهُ فِي غَدِهِ، عَلَى الكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ ، يُصِيبُهُ فِيما ذَهَبَتْ فِيهِ أَيَّامُهُ، ما أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ، فَاسْتَأْجَرَ لِثَقْبِهِ رَجُلًا فِي الْيَوْمِ عَلَى مِائَةِ دِرْهَمٍ يَدْفَعُها إِلَيْهِ، وَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ، وَإِذا فِي ناحِيةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ مَوْضُوعٌ ، فَقالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ: هَلْ تُحْسِنُ الضَّرْبَ بِالصَّنْجِ قال : نَعَمْ ، وَكانَ بِضَرْبِهِ ماهِرًا ، فَقالَ الرَّجُلُ : دُونَكَ الصَّنْجَ؛ فَأَسْمِعْنا ضَرْبَكَ بِهِ[3].

فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنْجَ ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ الضَّرْبَ الصَّحِيحَ، وَالصَّوْتَ الرَّخِيمَ، وَالتَّاجِرُ يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ طَرَبًا، حَتَّى أَمْسَى، فَلَمَّا حانَ الْغُرُوبُ، قالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ: مُرْ لِي بِالْأُجْرةِ، فَقالَ لَهُ التَّاجِرُ : وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئًا تَسْتَحِقُّ بِهِ الْأُجْرَةَ؟! فَقالَ لَهُ : عَمِلْتُ ما أَمَرْتَنِي بِهِ، وَأَنا أَجِيرُكَ، وَمَا اسْتَعْمَلْتَنِي عَمِلْتُ! وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ الدِّرْهَمِ، وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ! فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيا وَشَهَواتِها نَظَرًا، إِلَّا ازْدَدْتُ فِيها زَهادةً ، وَمِنْها هَرَبًا، وَوَجَدْتُ النُّسُكَ هُوَ الَّذِي

(١) بتلبيبه: جمع ثيابه عند صدره وعنقه ساحبا إياه والجمع تلابيب. رفعه: قدمه. السلطان: الحاكم صاحب السلطة. وزجرت نفسي: منعتها. البهتان: التَّقَوّل على الناس بما لم يفعلوه. والغيبة: ذكرهم بما يكرهون في غيبتهم. البعث: القيامة والحياة الآخرة. الصمد: من أسمائه تعالى ومعناه الدائم. أو الذي يصمد إليه ويُرجَع في الشدائد.

(٢) المسألة: السؤال. وزايلت الأشرار: فارقتهم. قرين: مصاحب وعشير. ولا يَخلَقُ: لا يَبلى. يغصبه: يأخذه قهرًا وظلما. جوارح الطير: ما يصيد منها.

(٣) المؤثر اليسير: المفضل القليل. ويَعْدَمه: ولا يجده. الصَنْج: صفيحة مدورة من صُفْر يضرب على أخرى. وصفائح صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف يدق بها عند الطرب. دونك: أي خذ.

يُمَهِّدُ لِلْمَعادِ، كَمَا يُمَهِّدُ الْوالِدُ لِوَلَدِهِ[1].

وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبابَ الْمَفْتُوحَ إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فَعْلَتَهُ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقارِ، فَشَكَرَ وَتَواضَعَ، وَقَنِعَ فَاسْتَغْنَى، وَرَضِيَ فَلَمْ يَهْتَمَّ، وَخَلَعَ الدُّنْيا فَنَجَا مِنَ الشُّرُورِ، وَرَفَضَ الشَّهَواتِ ، فَصارَ طاهِرًا ، وَطَرَحَ الْحَسَد، فَوَجَبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ، وَانْفَرَدَ بِنَفْسِهِ فَكُفِيَ الْأَحْزانَ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَاسْتَعْمَلَ الْعَقْلَ، فَأَبْصَرَ الْعاقِبَةَ؛ فَأَمِنَ النَّدامَةَ، وَاعْتَزَلَ النَّاسَ؛ فَسَلِمَ مِنْهُمْ، وَلَمْ يَخَفْهُمْ[2].

فَلَمْ أَزْدَدْ فِي أَمْرِ النُّسْكِ نَظَرًا إِلَّا ازْدَدْتُ فِيهِ رَغْبَةً، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ؛ ثُمَّ تَخَوَّفْتُ أَنْ لا أَصْبِرَ عَلَى عيْشِ النَّاسِكِ، وَلا أَقْوَى عَلَى عُسْرِهِ وَمَشَقَّتِهِ، لِما اعْتَدْتُهُ وَغُذيتُ بِهِ مُنْذُ كُنْتُ وَلِيدًا، وَلَمْ آمَنْ إِنْ تَرَكْتُ الدُّنْيا، وَأَخَذْتُ فِي النُّسْكِ أَنْ أَضْعُفَ عَنْ ذٰلِكَ، وَأَكُونَ قَدْ رَفَضْتُ أَعْمالًا كُنْتُ أَرْجُو عائِدَاتِها، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُها، فَأَنْتَفِعُ بِها فِي الدُّنْيا، فَيَكُونُ مَثَلِي فِي ذٰلِكَ مَثَلَ الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ ، وَفِي فِيهِ ضِلَعٌ ؛ فَرَأَى ظِلَّها فِي الْماءِ، فَأَهْوَى لِيَأْخُذَها، فَأَتْلَفَ ما كانَ مَعَه وَلَمْ يَجِدْ فِي الْماءِ شَيْئًا![3].

فَهِبْتُ النُّسْكَ مَهابَةً شَدِيدةً ، وَخِفْتُ مِنَ الضَّجَرِ، وَقِلَّةِ الصَّبْرِ، وَأَرَدْتُ الثُّبُوتَ عَلَى حالَتِي الَّتِي كُنْتُ عَلَيْها. ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ أَقِيسَ ما أَخافُ أَنْ لا أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّظَفِ وَالضِّيقِ وَالْخُشُونَةِ فِي النُّسْكِ، وَمَا يُصِيبُ صاحِبَ الدُّنْيا مِنَ الْبَلاءِ، وَكَانَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْس مِنْ شَهَواتِ الدُّنْيا وَلَذَّاتِها إِلَّا وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الْأَذَى، وَمُوَلِّدٌ لِلْحُزْنِ. فَالدُّنْيا كَالْماءِ الْمِلْحِ الذِي لا يَزْدَادُ شارِبُهُ شُرْبًا إِلَّا ازْدادَ عَطَشًا؛ وَكَالْعَظْمِ الَّذِي يُصِيبُهُ الْكَلْبُ، فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ فَلا يَزالُ يَطْلُبُ ذٰلِكَ اللَّحْمَ حَتَّى يُدْمِيَ فاهُ، وَلا يَنالُ شَيْئًا مِمَّا طَلَبَ ، وَكَالْحِدَأَةِ الَّتِي تَظْفَرُ بِالْبَضْعَةِ مِنَ اللَّحْمِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ فَلا تَزالُ تَدُورُ وَتَدْأَبُ حَتَّى تُعْيِيَ وَتَعْجِزَ، فَإِذا تَعِبَتْ أَلْقَتْ ما مَعَهَا[4].

وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السُّمُّ الَّذِي يُذاقُ مِنْهُ حَلاوةٌ عاجِلةٌ ، وَآخِرُهُ مَوْتٌ زُعافٌ، وَكَأَحْلامِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِها الْإِنْسانُ فِي نَوْمِهِ، فَإِذا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ، وَكَالْبَرْقِ

(١) الرخيم: اللين السهل. استعملتني: طلبت مني عمله. النُّسك: التزهد والتعبد. يمهد: يسهل ويتيح الفرصة. للمعاد: للآخرة.
(٢) تدبر فَعْلته: نظر في عواقبها. بالسكينة: الطمأنينة. وسَخت نفسه: جاد بما عنده وأصبح سخيا كريما. واعتزل الناس: تنحى عنهم وعاش في عزلة.
(٣) أرجو عائدتها: ثمرتها. فأهوى ليأخذها: أي انعطف ومال على الماء.
(٤) فهبت: خفت. بدا لي: عرض. الشظف: ضيق العيش وشدته. المِلْح: ذي الملوحة. يصيبه الكلب: يعثر عليه ويجده. يُدمي فاه: يسيل منه الدم. الحدأة: طائر من الجوارح ينقض على الجرذان والدواجن والأطعمة وغيرها. البَضعة: القطعة. تدأب: تجتهد.

الَّذِي يُضِيءُ يَسِيرًا ، فَيُطْمِعُ بِالنُّورِ، ثُمَّ يَذْهَبُ بَغْتَةً، وَيَرْجِعُ الظَّلامُ. وَكَدُودَةِ الْقَزِّ الَّتِي تَنْسِجُ نَهارًا وَلَيْلًا، وَتَهْلِكُ وَسَطَ نَسِيجِها الَّذِي كُلَّما زادَتْ مِنْهُ نَسْجًا زادَ اسْتِحْكامًا وَمَنْعًا لَهَا عَنِ الْخُرُوجِ[1].

فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هٰذِهِ الْأُمُورِ، رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النُّسْكِ، وَهَزَّنِي الاشْتِياقُ إِلَيْهِ، وَقُلْتُ : لا يَلِيقُ لِي أَنْ أَقِيسَ الدُّنْيا بِالنُّسْكِ إِذا تَفَكَّرْتُ فِيها وَفِي شُرُورِها وَأَحْزانِها، ثُمَّ خاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُورِها سارِحةٌ ، وَقَدْ لا تَثْبُتُ عَلَى أَمْرٍ تَعْزِمُ عَلَيْهِ كَقاضٍ سَمِعَ مِنْ خَصْمٍ واحِدٍ، فَحَكَمَ لَهُ ، فَلَمَّا حَضَرَ الْخَصْمُ الثَّانِي، عادَ إِلَى الْأَوَّلِ فَقَضَى عَلَيْهِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الَّذِي أُكابِدُهُ مِن احْتِمالِ النُّسْكِ وَضِيقِهِ فَقُلْتُ : ما أَصْغَرَ هٰذِهِ الْمشَقَّةِ فِي جانِبِ رَوْحِ الْأَبَدِ وَرَاحَتِهِ[2]!! ثُمَّ نَظَرْتُ فِيما تَشْرَهُ إِلَيْهِ النَّفْسُ الْبَهِيمِيَّةُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيا؛ فَقُلْتُ : ما أَمَرَّ هٰذا وَأَوْجَعَهُ!! وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذابِ الْأَبَدِ وَأَهْوالِهِ. وَكَيْفَ لا يَسْتَحْلِي الرَّجُلُ مَرارةً قَلِيلةً تَعْقُبُها حَلاوةٌ طَوِيلةٌ، وَكَيْفَ لا تَمَرُّ عَلَيْهِ حَلاوةٌ قَلِيلةٌ تَعْقُبُها مَرارَةٌ دائِمةٌ؟! وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيشَ مِئَةَ سَنَةٍ ، لا يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ واحِدٌ إِلَّا بُضِعَ مِنْهُ بَضْعةٌ، غَيْرَ أَنَّهُ يُشْرَطُ لَهُ أَنَّهُ إِذا اسْتَوْفَى السِّنِينَ المِائَةَ نَجا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذًى. وَصَارَ إِلَى الْأَمْنِ وَالسُّرُورِ، كانَ حَقِيقًا أَنْ لا يَرَى تِلْكَ السِّنِينَ شَيْئًا. فَكَيْفَ يَأْبَى الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلائِلَ، يَعِيشُهَا فِي النُّسْكِ ، وَأَذَى تِلْكَ الْأَيَّامِ قَلِيلٌ يُعْقِبُ خَيْرًا كَثِيرًا؟! أَوَ لَيْسَ أَنَّ الدُّنْيا كُلُّها بَلاءٌ، وَعَذابٌ وَالْإِنْسانُ إِنَّما يَتَقَلَّبُ فِي عَذابِها مِنْ حِينِ يُولَدُ إِلَى أَن يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَياتِهِ[3]؟!.

فَإِنَّهُ إِذا كانَ طِفْلًا ذَاقَ مِنَ الْعَذابِ أَلْوانًا إِنْ جاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِطْعامٌ ، أَوْ عَطِشَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ، أَوْ وَجِعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغاثَةٌ ، مَعَ ما يَلْقَى مِنَ الْوَضْعِ وَالْحَمْلِ وَاللَّفِّ وَالدَّهْنِ وَالْمَسْحِ، إِنْ أُنِيمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ قِيامًا وَلا تَقَلُّبًا[4].

ثُمَّ يَلْقَى أَصْنافَ الْعَذابِ ما دامَ رَضِيعًا، فَإِذا أَفْلَتَ مِنْ عَذابِ الرَّضاعِ ، أَخَذَ فِي عَذابِ الْأَدَبِ، فَأُذِيقَ مِنْهُ أَلْوانًا مِنْ عُنْفِ الْمُعَلِّمِ، وَضَجَرِ الدَّرْسِ، وَسَآمَةِ الْكِتابَةِ، ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّواءِ وَالْحِمْيَةِ وَالْأَسْقامِ وَالْأَوْجاعِ أَوْفَى نَصِيبٍ، فَإِذا أَدْرَكَ لَحِقَهُ هَمُّ الْأَهلِ، وَكانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ

(١) زُعاف : سريع. (٢) روح : سرور وراحة.
(٣) تعقبها حلاوة : تأتي بعدها. بضع منه بَضْعة : قطع منه قطعة.
(٤) استطعام : طلب الطعام. استسقاء : طلب الشُّرب.

الْمَالِ، وَتَرْبِيةِ الْوَلَدِ وَمُخاطَرَةَ الطَّلَبِ، وَالسَّعْيِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ. وَهُوَ مَعَ كُلِّ ذٰلِكَ، يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ الْباطِنِيِّينَ اللَّازِمِينَ لَهُ، وَهُمُ الْمِرَّةُ الصَّفْراءُ وَالْمِرَّةُ السَّوْداءُ ، وَالرِّيحُ، والْبَلْغَمُ، وَالدَّمُ مَعَ السُّمِّ، الْمُمِيتِ، والْحَيَّةِ اللَّادِغَةِ، وَالْخَوْفِ مِنَ السِّباعِ وَالْهَوامِّ، مِعَ تَقَلُّبِ الْفُصُولِ مِنَ الْحَرِّ والْبَرْدِ وَالأَمْطارِ وَالرِّياحِ والثُّلُوجِ، وَالشَّيْطانِ الدَّائِمِ وَالْقَرِينِ السَّوْءِ، وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ الطَّوارِئِ الرَّدِيقَةِ ، ثُمَّ أَنْواعِ عَذابِ الْهَرَمِ لِمَنْ يَبْلُغُهُ(١).

فَلَوْ لَمْ يَخَفْ مِنْ هٰذِهِ الأُمُورِ شَيْئًا ، وَكَانَ قَدْ أَمِنَ، وَوَثِقَ بِالسَّلامةِ مِنْها فَلَمْ يُفَكِّرْ بِها، لَوَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُفَكِّرًا فِي السَّاعةِ الَّتِي يَحْضُرُهُ فِيها الْمَوْتُ، وَيُفارِقُ الدُّنْيا ، فَيَذْكُرَ ما هُوَ نازِلٌ بِهِ، فِي تِلْكَ السَّاعةِ، مِمَّا هُوَ أَشَدُّ جِدًّا مِنْ ذٰلِكَ، مِنْ فِراقِ الأَحِبَّةِ وَالأَقارِبِ وَالْمَالِ ، وَكُلِّ مَضْنُونٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيا، مَعَ الإِشْرافِ عَلَى الْهَوْلِ الْعَظِيمِ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ لَكانَ حَقِيقًا أَنْ يُعَدَّ عاجِزًا مُفَرِّطًا مُحِبًّا لِلدَّنَاةِ مُسْتَحِقًا لِلَّوْمِ(٢).

فَمَنْ ذا الَّذِي يَعْلَمُ هٰذا وَلَا يَسْتَعِدُّ لَهُ قَبْلَ حُلُولِهِ، وَيَحْتالُ لِغَدِ جُهْدَهُ فِي الْحِيلةِ، وَيَرْفُضُ ما يَشْغَلُهُ وَيُلْهِيهِ مِنْ شَهَواتِ الدُّنْيا وَغُرُورِها، وَلا سِيَّما فِي هٰذا الزَّمانِ الشَّبِيهِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَدِرٌ . فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ حازِمًا عَظِيمَ الْمَقْدِرَةِ، رَفِيعَ الْهِمَّةِ ، بَلِيغَ الْفَحْصِ، عَدْلًا، مَرْجُوًّا صَدُوقًا شَكُورًا، رَحْبَ الذِّراعِ، مُواظِبًا عَلَى الْحُسْنَى، عالِمًا بِالنَّاسِ، مُهْتَمًّا بِأُمُورِ رَعِيَّتِهِ، ناظِرًا فِي أَحْوالِهِمْ، مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْخَيْرِ والأَخْيارِ، شَدِيدًا عَلَى الظَّلَمَةِ ، غَيْرَ جَبانٍ وَلا خَفِيفِ الْقِيادِ، رَفِيقًا بِالتَّوَسُّعِ عَلَى الرَّعِيَّةِ فِيما يُحِبُّونَ ، وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ(٣).

فَإِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمانَ مُدْبِرًا بِكُلِّ مَكَانٍ، حَتَّى كَأَنَّ أُمُورَ الصِّدْقِ قَدْ نُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ، فَأَصْبَحَ ما كانَ عَزِيزًا فَقْدُهُ مَفْقُودًا، وَمَوْجُودًا ما كانَ ضائِرًا وُجُودُهُ، وَكَأَنَّ الْخَيْرَ أَصْبَحَ ذابِلًا، وَالشَّرَّ ناضِرًا، وَكَأَنَّ الْفَمَ أَصْبَحَ قَدْ زالَتْ سُبُلُهُ، وَكَأَنَّ الحَقَّ وَلَّى كَسِيرًا، وَأَقْبَلَ الْباطِلُ تابِعَهُ، وَكَأَنَّ اتِّباعَ الْهَوَى، وَإِضاعةَ الْحُكْمِ أَصْبَحَ بِالْحُكَّامِ مُوَكَّلًا، وَأَصْبَحَ الْمَظْلُومُ بِالْحَيْفِ مُقِرًّا، وَالظَّالِمُ بِنَفْسِهِ مُسْتَطِيلًا(٤).

---

(١) سآمة: ملل. الحِمية: التوقي في الأكل. المِرّة الصفراء: خلط من أخلاط البدن، وكذلك المِرّة السوداء، ويسمى المِزاج، وأخلاط الإنسان (في الطب القديم) أمزجته الأربعة، وهي: الصفراء، والبلغم، والدم، والسوداء. الطوارئ: الحوادث. الهرم: الشيخوخة.

(٢) مضنون به : كل نفيس غالٍ. الهول: الخوف. مَفَرِّطًا: مقصراً.

(٣) عَدْلاً: عادلا. رحب الذراع: واسع الخلق. الظَّلَمة: جمع ظالم. ولا خفيف القياد: غير سهل الانقياد.

(٤) مدبرًا: مُوَلِّياً. ضائراً: مُضِرّاً كسيراً: أي مكسور الخاطر. موكلا: منوطا بهم. بالحيف: الجور والظلم. مستطيلا: متعظما متكبراً.

وَكَأَنَّ الْحِرْصَ أَصْبَحَ فاغِرًا فاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، يَتَلَقَّفُ ما قَرُبَ مِنْهُ وَمَا بَعُدَ، وَكَأَنَّ الرِّضَى أَصْبَحَ مَجْهُولًا ، وَكَأَنَّ الْأَشْرارَ يَقْصِدُونَ السَّماءَ صُعُودًا، وَكَأَنَّ الْأَخْيارَ يُرِيدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ، وَأَصْبَحَتِ الْمُرُوءَةُ مَقْذُوفًا بِها مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ إِلَى أَسْفَلِ دَرْكٍ، وَأَصْبَحَتِ الدَّناءَةُ مُمَكَّنَةً ، وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِلًا عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ، وَكَأَنَّ الدُّنْيا جَذِلَةٌ مَسْرُورَةٌ تَقُولُ : قَدْ غُيِّبَتِ الْخَيْراتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئاتُ[1]!!.

فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيا وَأُمُورِها، وَأَنَّ الْإِنْسانَ هُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِيها، وَأَفْضَلُهُ ثُمَّ هُوَ لا يَتَقَلَّبُ إِلَّا فِي الشُّرُورِ وَالْهُمُومِ!! عَجِبْتُ مِنْ ذٰلِكَ كُلَّ الْعَجَبِ، وَتَحَقَّقْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ ذٰلِكَ، ثُمَّ لا يَحْتالُ لِنَفْسِهِ فِي النَّجاةِ، وَيَلْتَمِسُ الْخَلاصَ، وَإِنْ فَرَّطَ فِي ذٰلِكَ ، فَهُوَ عِنْدِي عاجِزٌ قَلِيلُ الرَّأْيِ، ناقِصُ الْهِمَّةِ فِيما لَهُ وَعَلَيْهِ! ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذا النَّاسُ كُلُّهُمْ مُفَرِّطُونَ فِي ذٰلِكَ مُغْفِلُونَ لَهُ، فَقَضَيْتُ الْعَجَبَ مِنْ ذَلِكَ، وَالْتَمَسْتُ لَهُمْ عُذْرًا فِيهِ، وَنَظَرْتُ فَإِذا الْإِنْسانُ لا يَمْنَعُهُ عَنِ الِاحْتِيالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَذَّةٌ صَغِيرَةٌ حَقِيرَةٌ مِنَ النَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَالشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَاللَّمْسِ، لَعَلَّهُ أَنْ يُصِيبَ مِنْها الطَّفِيفَ، أَوْ يَقْتَنِيَ مِنْها الْيَسِيرَ، فَإِذا ذٰلِكَ يَشْغَلُهُ، وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الْاهْتِمامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النَّجاةِ لَهَا[2].

مثل الرَّجُل والبِئر

وهو مثل الإنسان في الدنيا وشرورها المكتنفة له

فَالْتَمَسْتُ لِلْإِنْسانِ مَثَلًا، فَإِذا مَثَلُه مَثَلُ رَجُلٍ نَجا مِنْ خَوْفِ فِيلٍ هائِجٍ، إِلَى بِئْرٍ، فَتَدَلَّى فِيها، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كانا عَلَى سَمائِها، فَوَقَعَتْ رِجْلاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَيِّ الْبِئْرِ ، فَإِذا حَيَّاتٌ أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحارِهِنَّ، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذا فِي قَعْرِ البِئْرِ تِنِّينٌ فاتِحٌ فاهُ، مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ؛ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى الْغُصْنَيْنِ، فَإِذا فِي أَصْلِهِما جُرَذانِ: أَسْوَدُ وَأَبْيَضُ، وَهُما يَقْرِضانِ الْغُصْنَيْنِ دائِبَيْنِ لا يَفْتُرانِ[3].

فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ، وَالِاهْتِمامِ لِنَفْسِهِ، إِذْ بَصُرَ قَرِيبًا مِنْهُ بِخَلِيَّةٍ فِيها عَسَلٌ ، فَذَاقَ

---

(١) فاغرا فاه: فاتحا فمه. يتلقف ما قرب منه: يتناول. شرف: مكان عالٍ. درك: أقصى قعر الشيء. جذلة: فرحة.
(٢) قضيت العجب: عجبت جدا. الطفيف: القليل.
(٣) سمائها: أعلاها. طي البئر: جانبها المبني بالحجارة. أحجارهن جمع حجر، وهو للهوام والسباع كالوكر للطير. دائبين: مستمرين.

الْعَسَلَ، فَشَغَلَتْهُ حَلاوَتُهُ وَأَلْهَتْهُ لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَنْ يَلْتَمِسَ الْخَلاصَ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى حَيَّاتٍ أَرْبَعٍ لا يَدْرِي مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرَذَيْنِ دائِبانِ فِي قَطْعِ الْغُصْنَيْنِ، وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التِّنِّينِ! فَلَمْ يَزَلْ لاهِيًا غافِلًا مَشْغُولًا بِتِلْكَ الْحَلاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ التِّنِّينِ فَهَلَكَ[1].

فَشَبَّهْتُ بِالْبِئْرِ الدُّنْيا الْمَمْلُوءَةَ آفاتٍ وَشُرُورًا ، وَمَخافاتٍ وَعَاهاتٍ ، وَشَبَّهْتُ بِالْحَيَّاتِ الْأَرْبَعِ الأَخْلاطَ الْأَرْبَعَةَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ ، فَإِنَّها مَتَى هاجَتْ أَوْ هاجَ أَحَدُهما كانَتْ كَحُمَةِ الْأَفاعِي، وَالسُّمِّ الْمُمِيتِ، وَشَبَّهْتُ بِالْغُصْنَيْنِ الْأَجَلَ الَّذِي هُوَ إِلَى حِينٍ، ثُمَّ لا بُدَّ مِنْ فَنائِهِ وَانْقِطاعِهِ، وَشَبَّهْتُ بِالْجُرَذَيْنِ: الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلَ وَالنَّارَ اللَّذَيْنِ هُما دائِبانِ فِي إِفْناءِ الأَجَلِ؛ وَشَبَّهْتُ بِالتِّنِّينِ الْمَصِيرَ الَّذِي لا بُدَّ مِنْهُ، وَشَبَّهْتُ بِالْعَسَلِ هٰذِهِ الْحَلاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي يَنالُ مِنْها الْإِنسانُ فَيَرَى وَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشَمُّ ، وَيَلْمسُ ، وَيَتَشاغَلُ عَنْ نَفْسِهِ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ؛ فَيَنْسَى أَمْرَ الْآخِرَةِ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ[2].

فَحِينَئِذٍ صارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَى بِحالِي ، وَإِصْلاحِ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلاحَهُ مِنْ عَمِلِي لَعَلِّي أَنْ أُصادِفَ باقِيَ أَيَّامِي زَمانًا أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى هُدايَ وَسُلْطانًا عَلَى نَفْسِي وَقِوامًا عَلَى أَمْرِي. فَأَقَمْتُ عَلَى هٰذِهِ الْحالِ، وَاتَّجَهْتُ إِلَى بِلادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهَا فِي انْتِساخِ هٰذا الْكِتابِ، وَانْصَرَفْتُ مِنْها إِلَى بِلادِي، وَقَدِ انْتَسَخْتُ مِنْ كُتُبِهِمْ كُتُبًا كَثِيرةً مِنْها هٰذا الْكِتابُ[3].

بابُ
الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ وَهُو أَوَّلُ الْكِتابِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ وَهُوَ رَأْسُ الْبَراهِمَةِ : اضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُتَحابَّيْنِ، يَقْطَعُ بَيْنَهُما الْكَذُوبُ الْمُحْتالُ؛ حَتَّى يَحْمِلَهُما عَلَى الْعَداوَةِ وَالْبَغْضاءِ!

قال بَيْدَبا : إِذا ابْتُلِيَ الْمتَحابَّانِ؛ بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُما الْكَذُوبُ الْمُحْتالُ، لَمْ يَلْبَثا أَنْ يَتَقاطَعا

(١) بخلية: الخلية بيت النحل. (٢) الحُمة: الإبرة التي تلدغ بها. المصير: المنتهي. ويطعم: يأكل.
(٣) العقاقير: جمع عقّار. النباتات التي يتداوى بها.

وَيتَدَابَرا، **وَآفَةُ الْمَوَدَّةِ النَّمِيمَةُ**. وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ «دَسْتاوَنْد» رَجُلٌ شَيْخٌ ، لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ، فَلَمَّا بَلَغُوا أَشُدَّهُمْ، أَسْرَفُوا فِي مالِ أَبِيهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا احْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ بِها لِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا؛ فَلامَهُمْ أَبوهُم وَوَعَظَهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ : يا بَنِيَّ إِنَّ صاحِبَ الدُّنْيا يَطْلُبُ ثَلاثَةَ أُمُورٍ، لَنْ يُدْرِكَها إِلَّا بِأَرْبَعةِ أَشْياءَ. **أَمَّا الثَّلاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ** : فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ، وَالْمَنْزِلَةُ فِي النَّاسِ، وَالزَّادُ لِلْآخِرَةِ[1].

وأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتاجُ إِلَيْها فِي دَرَكِ هٰذِهِ الثَّلاثَةِ : فَاكْتِسابُ الْمالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهٍ يَكُونُ، ثُمَّ حُسْنُ الْقِيامِ عَلَى ما اكْتَسَبَ مِنْهُ ، ثُمَّ اسْتِثْمارُهُ ، ثُمَّ إِنْفاقُهُ، فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ هٰذِهِ الْأَحْوالِ، لَمْ يُدْرِكْ ما أَرادَ مِنْ حاجَتِهِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مالٌ يَعِيشُ بِهِ، وَإِنْ هُوَ كانَ ذا مالٍ وَاكْتِسابٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيامَ عَلَيْهِ أَوْشَكَ الْمالُ أَنْ يَفْنَى، وَيَبْقَى مُعْدِمًا[2].

وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ يَسْتَثْمِرْهُ ، لَمْ تَمْنَعْهُ قِلَّةُ الْإِنْفاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهابِ **كَالْكُحْلِ الَّذِي لا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا غُبارُ الْمِيلِ**، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذٰلِكَ سَرِيعٌ فَناؤُهُ[3].

وَإِنْ هُوَ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَأَخْطَأَ بِهِ مَواضِعَ اسْتِحْقاقِهِ، صارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لا مالَ لَهُ، ثُمَّ لَمْ يَمْنَعْ ذٰلِكَ أَيْضًا مالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ كَمَحْبِسِ الْمَاءِ الَّذِي لا تَزالُ الْمِياهُ تَنْصَبُّ فِيهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَخْرَجٌ وَمَفاضٌ وَمُتَنَفَّسٌ يَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ بِقَدَرِ ما يَنْبَغِي ، خَرِبَ وَسالَ، ونَزَّ مِنْ نَواحٍ كَثِيرَةٍ[4].

وَرُبَّما انْبَثَقَ الْبَثْقَ الْعَظِيمَ، فَذَهَبَ الْماءُ ضَياعًا.

وَإِنَّ بَنِي الشَّيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ أَبِيهِمْ، وَأَخَذُوا بِهِ، وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ، وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ نَحْوَ أَرْضٍ يُقالُ لَهَا: مَيُّونُ فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكانٍ فِيهِ وَحْلٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجُرُّهَا ثَوْرانِ يُقالُ لِأَحَدِهِمَا : «شَتْرَبَةُ» وَلِلْآخَرِ «بَنْدَبَةُ» ، فَوحِلَ شَتْرَبَةُ فِي ذٰلِكَ الْمَكانِ، فَعالَجَهُ الرَّجُلُ، وَأَصْحابُهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمُ الْجَهْدُ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْراجِهِ؛ فَذَهَبَ الرَّجُلُ، وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلًا يُشارِفُهُ، لَعَلَّ الْوَحْلَ يَنْشَفُ فَيَتْبَعَهُ بِهِ، فَلَمَّا باتَ الرَّجُلُ بِذٰلِكَ الْمَكانِ تَبَرَّمَ بِهِ،

---

(١) لم يلبثا: لم يبطئا مدة. يتقاطعا: يهجر بعضهما بعضا. يتدابرا: يُولّى بعضهما عن بعض . أشُدّهم: قوتهم. أي خرجوا سن الصبوة. احترفوا: اتخذوا.

(٢) دَرَك: إدراك. القيام عليه: التدبير والسياسة. استثماره: استغلاله واستخراج ما فيه من فائدة وثمرة وريع. معدما: فقيرا.

(٣) الميل: ما يُجعل به الكحل في العين وهو المُلْمُول.

(٤) مَفاض: مكان يفيض منه. متنفّس: مكان يتنفس منه أي يطفح.

وَاسْتَوحَشَ، فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالْتَحَقَ بِصاحِبِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ[1]!.

وَقالَ لَهُ : إِنَّ الْإِنْسانَ إِذا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ، وَحانَتْ مَنِيَّتُهُ فَهُوَ وَإِنِ اجْتَهَدَ فِي التَّوَقِّي مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخافُ فِيها عَلَى نَفْسِهِ الْهَلاكَ لَمْ يُغْنِ ذٰلِكَ عَنْهُ شَيْئًا، وَرُبَّما عادَ اجْتِهادُهُ فِي تَوَقِّيهِ وَحَذَرِهِ وَبالًا عَلَيْهِ!

كَالَّذِي قِيلَ : إِنَّ رَجُلًا سَلَكَ مَفازَةً فِيها خَوْفٌ مِنَ السِّباعِ، وَكانَ الرَّجُلُ خَبيرًا بِوَعَثِ تِلْكَ الْأَرْضِ وَخَوْفِها. فَلَمَّا سارَ غَيْرَ بَعيدٍ ، اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِّ الذِّئابِ وَأَضْراها[2].

فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذِّئْبَ قاصِدٌ نَحْوَهُ، خافَ مِنْهُ وَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمالًا لِيَجِدَ مَوْضِعًا يَتَحَرَّزُ فِيهِ مِنَ الذِّئْبِ، فَلَمْ يَرَ إِلَّا قَرْيَةً خَلْفَ وادٍ، فَذَهَبَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْقَرْيَةِ، فَلَمَّا أَتَى الْوادِيَ لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً ، وَرَأَى الذِّئْبَ قَدْ أَدْرَكَهُ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْماءِ، وَهُوَ لا يُحْسِنُ السِّباحَةَ، وَكادَ يَغْرَقُ ، لَوْلا أَنْ بَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ فَتَواقَعُوا لِإِخْراجِهِ، فَأَخْرَجُوهُ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلاكِ[3].

فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ، وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ غائِلَةِ الذِّئْبِ، رَأَى عَلَى عُدْوَةِ الْوادِي بَيْتًا مُفْرَدًا، فَقالَ : أَدْخُلُ هٰذا الْبَيْتَ فَأَسْتَرِيحُ فِيهِ، فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَماعَةً مِنَ اللُّصُوصِ، قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ التُّجَّارِ، وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مالَهُ وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذٰلِكَ خافَ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حائِطٍ مِنْ حِيطانِهَا لِيَسْتَرِيحَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ والإِعْياءِ، إِذْ سَقَطَ عَلَيْهِ الْحائِطُ فَماتَ!.

قالَ الرَّجُلُ : صَدَقْتَ ، قَدْ بَلَغَنِي هٰذا الْحَدِيثُ[4].

وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكانِهِ، وَانْبَعَثَ، فَلَمْ يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيرِ الْماءِ وَالْكَلَإِ ، فَلَمَّا سَمِنَ وَأَمِنَ جَعَلَ يَخُورُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخُوارِ[5].

وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجَمَةٌ فِيها أَسَدٌ عَظِيمٌ، وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَمَعَهُ سِباعٌ كَثِيرَةٌ ، وَذِئاب، وبناتٌ آوَى، وَثَعالِبُ،وَفُهُودٌ وَنُمُورٌ، وَكانَ هٰذا الْأَسَدُ مُنْفَرِدًا بِرَأْيِهِ، دُونَ أَخْذٍ بِرَأْيِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحابِهِ؛ فَلَمَّا سَمِعَ خُوارَ الثَّوْرِ وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثَوْرًا قَطُّ، وَلا سَمِعَ خُوارَهُ ، خامَرَهُ مِنْهُ هَيْبَةٌ

---

(١) عوّلوا عليه: اعتمدوا. يشارفه: يطّلع عليه. تبرم: مَلّ.

(٢) منيته: أجله. لم يُغن ذلك عنه: لم ينفعه. وبالاً: عاقبة سيئة. مفازة: صحراء مهلكة. بوَعث: بعُسْر ووعورة. وأضراها: أشدها ضراوة وفتكا.

(٣) يتحرز فيه: يتوَقى ويحتمي. بصر به: لمحه. فتواقعوا: أي رموا بأنفسهم. أشرف على الهلاك: أي كاد يهلك.

(٤) غائلة الذئب: شره. عُدْوة: جانب. الهول: الخوف. الإعياء: التعب.

(٥) انبعث: أسرع. الكلأ: العُشب. يخور: يحدث صوتا وصوت البقر يسمى خُوَاراً.

وَخَشْيَةٌ، وَكَرِهَ أَنْ يُشْعِرَ بِذٰلِكَ جُنْدَهُ، فَكانَ مُقِيمًا مكَانَهُ لا يَبْرَحُ ، وَلا يَنْشِطُ، بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى يَدِ جُنْدِهِ، وَكانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّباعِ ابْنا آوَى يُقالُ لِأَحَدِهِما : كَلِيلَةُ وَلِلْآخَرِ دِمْنَةُ وَكانا ذَوَيْ دَهاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ[1]!!.

مُحاوَرَةُ كَليلةَ وَدِمْنَةَ فِي شأن الأسد

فَقالَ دِمْنَةُ يَوْمًا لِأَخِيهِ كَلِيلَةَ : يا أخي ما شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكانَهُ لا يَبْرَحُ وَلا يَنْشَطُ خِلافًا لعادَتِهِ؟! قالَ لَهُ كَلِيلةُ : ما شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةَ عَنْ هٰذا؟! نَحْنُ عَلى باب مَلِكِنا آخِذَيْنِ بِما أَحَبَّ، وَتارِكَيْنِ ما يَكْرَهُ، وَلَسْنا مِنَ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَناوَلُ أَهْلُها كَلامَ الْمُلُوكِ، وَالنَّظَرَ فِي أُمُورِهِمْ؛ فَأَمْسِكْ عَنْ هٰذا، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ما لَيْسَ مِنْ شَكْلِهِ أَصابَهُ ما أَصابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجّارِ[2].

قالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ ؟!

مَثَلُ القِرد والنّجار

قالَ كَلِيلةُ : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا رَأَى نَجّارًا يَشُقُّ خَشَبَةً وَهُوَ راكِبٌ عَلَيْها، وَكُلَّما شَقَّ مِنْها ذِراعًا أَدْخَلَ فِيها وَتِدًا فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَقَدْ أَعْجَبَهُ ذٰلِكَ، ثُمَّ إِنَّ النَّجّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ فَقامَ الْقِرْدُ وَتَكَلَّفَ ما لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ، فَرَكِبَ الْخَشَبَةَ وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قِبَلَ الوَتِدِ وَوَجْهَهُ قِبَلَ طَرَفِ الْخَشَبَةِ فَتَدَلَّى ذَنَبُهُ فِي الشَّقِّ، وَنَزَعَ الْوَتَدَ، فَلَزِمَ الشَّقُّ عَلَيْهِ، فَكادَ يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْأَلَمِ! ثُمَّ إِنَّ النَّجّارَ وافاهُ، فَأَصابَهُ عَلَى تِلْكَ الْحالَةِ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ، فَكانَ ما لَقِيَ مِنَ النَّجّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ مِمَّا أَصابَهُ مِنَ الْخَشَبَةِ![3].

قالَ دِمْنَةُ :قَدْ سَمِعْتُ ما ذَكَرْتَ ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يَدْنُو مِنَ الْمُلُوكِ، يَقْدِرُ عَلَى صُحْبَتِهِمْ ، وَيَفُوزُ بِقُرْبِهِمْ، وَلٰكِنِ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَدْنُو مِنْهُمْ لَيْسَ يَدْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ، فَإِنَّ الْبَطْنَ يُحْشَى بِكُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّما يَدْنُو مِنْهُمْ لِيَسرَّ الصَّدِيقَ، وَيَكْبِتَ الْعَدُوَّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَن لا مُرُوءَةَ لَهُ، وَهُم الَّذِينَ

---

(١) جمة: شجر كثير ملتفّ. بنات آوى: جمع ابن آوى وهو حيوان معروف. خامره: داخله وخالطه. يُشعِر: يُعلِم. ولا يَنْشط: أي لا يتحول من مكانه. ذَوَيْ مثنى: ذو بمعنى صاحب. دهاء: جودة رأى.

(٢) ما شأنه: ما باله؟.

(٣) الوتد بفتح الواو وكسر الدال: ما رُزّ في الأرض أو الحائط من خشب، وفي المثل: «أذلّ من وتد». وافاه: أتاه. أصابه: وجد.

يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ، وَيَرْضَوْنَ بِالدُّونِ؛ كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا، فَيَفْرَحُ بِهِ[1].

وَأَمَّا أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ فَلا يُقْنِعُهُمُ الْقَلِيلُ، وَلا يَرْضَوْنَ بِهِ دُونَ أَنْ تَسْمُوَ بِهِمْ نُفُوسُهُمْ إِلَى ما هُمْ أَهْلٌ لَهُ، وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ أَهْلٌ؛ كَالأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الأَرْنَبَ، فَإِذا رَأَى الْبَعِيرَ، تَرَكَها وَطَلَبَ الْبَعِيرَ! أَلا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُبَصْبِصُ بِذَنَبِهِ حَتَّى تَرْمِيَ لَهُ الْكِسْرَةَ مِنَ الْخُبْزِ، فَيَفْرَحُ بِها، وَتُقْنِعُهُ مِنْكَ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ، إِذا قُدِّمَ إِلَيْهِ عَلَفُهُ لا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يُمْسَحَ وَجْهُهُ، وَيُتَمَلَّقَ لَهُ! فَمَنْ عاشَ ذا مالٍ، وَكَانَ ذا فَضْلٍ وَإِفْضالٍ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَإِخْوانِهِ، غَيْرَ خَامِلِ الْمَنْزِلَةِ، فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمْرُه طَوِيلُ الْعُمُرِ، وَمَنْ كانَ فِي عَيْشِهِ ضِيقٌ، وَقِلَّةٌ وَإِمْساكٌ عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ، وَكَانَ خَامِلَ الْمَنزِلَةِ فَالْمَقْبُورُ أَحْيا مِنْهُ، وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَشَهَوَاتِهِ وَقَنِعَ وَتَرَكَ ما سِوَى ذٰلِكَ عُدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ[2].

قال كليلة: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ؛ فَراجِعْ عَقْلَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ إِنْسانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْرًا، فَإِنْ كانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيها مكْتَفِيًا كانَ حَقِيقًا أَنْ يَقْنَعَ. وَلَيْسَ لَنا مِنَ الْمَنْزِلَةِ ما يُحِطُّ حالَنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْها، ثُمَّ إِنَّ مَنْزِلَةَ الإِنْسانِ مَقْدُورَةٌ عَلَيْهِ مُنْذُ الأَزَلِ؛ فَلا سَبِيلَ لَهُ إِلَّا الرِّضَى بِها كَيْفَ كَانَتْ[3].

قال دمنة: إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنازَعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ عَلَى قَدرِ الْمُرُوءَةِ؛ فَالْمَرْءُ تَرْفَعُهُ مُرُوءَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ، وَمَنْ لا مُرُوءَةَ لَهُ يَحُطُّ نَفْسَهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ، وَإِنَّ الارْتِفاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيد، وَالانْحِطاطَ مِنْها هَيِّنٌ كَالْحَجَرِ الثَّقِيلِ رَفْعُهُ مِنَ الأَرْضِ إِلَى الْعاتِقِ عَسِرٌ، وَوَضْعُهُ إِلَى الأَرْضِ هَيِّنٌ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَرُومَ ما فَوْقَنا مِنَ الْمَنَازِلِ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذٰلِكَ بِمُرُوءَتِنا، ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ بِمَنْزِلَتِنا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْها؟![4].

قال كليلة: فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُكَ؟ **قال دمنة**: أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلأَسَدِ عِنْدَ هٰذِهِ الْفُرْصَةِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ ضَعِيفُ الرَّأْيِ، قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَعَلَى جُنْدِهِ أَيْضًا، وَلَعَلِّي عَلَى هٰذِهِ الْحالِ، أَدْنُو مِنْهُ، فَأُصِيبَ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً وَمَكَانَةً؛ فَيَبْتَدِرَنِي بِالْكَلامِ، فَأُجِيبَهُ بِما تَقْدَحُهُ الْقَرِيحَةُ لَعَلَّها تَنْتُجُ بَيْنَنَا نَتِيجَةً تُؤَدِّي إِلَى إِظْهارِ أَمْرٍ مَكْتُومٍ.

قال كليلة: وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ الأَسَدَ قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ؟! **قال دمنة**: بِالْحِسِّ وَالرَّأْيِ أَعْلَمُ ذٰلِكَ

---

(١) ويكبت: يذل. بالدون: بالقليل الحقير.

(٢) يبصبص بذنبه: يحركه. ويتملق له: تودد بكلام لطيف وتضرع فوق ما ينبغي. وإمساك عن نفسه: بخل. خامل المنزلة: غير مشهور ولا معروف. أحيا منه: تفضيل من الحياة.

(٣) حقيقا: جديرا. مقدورة: مقدّرة.

(٤) متنازعة: أي كلّ يطلبها. العاتق: ما بين العنق والكتف.

مِنْهُ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ ذا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حالَ صاحِبِهِ وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِما يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِّهِ وَشَكْلِهِ[1].

قال كليلة : فَكَيْفَ تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ بِصاحِبِ السُّلْطَانِ، وَلا لَكَ عِلْمٌ بِخِدْمَةِ السَّلاطِينِ وَآدابِهِمْ وَآدابِ مَجَالِسِهِمْ؟! **قال دمنة** : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ لا يَنُوءُ بِهِ الْحِمْلُ الثَّقِيلُ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عادتُهُ الْحَمْلَ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ لا يَسْتَقِلُّ بِهِ، وَإِنْ كانَ ذٰلِكَ مِنْ صِناعَتِهِ.

قال كليلة : فَإِنَّ السُّلْطَانَ لا يَتَوَخَّى بِكَرامَتِهِ فُضَلاءَ مَنْ بِحَضْرَتِهِ، وَلٰكِنَّهُ يُؤْثِرُ الْأَدْنَى ، وَمَنْ قَرُبَ مِنْهُ، وَيُقالُ : إِنَّ مَثَلَ السُّلْطانِ فِي ذٰلِكَ مَثَلُ شَجَرِ الْكَرْمِ الَّذِي لا يَعْلَقُ إِلَّا بِأَكْرَمِ الشَّجَرِ، وَكَيْفَ تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَمْ تَكُنْ دَنَوْتَ مِنْهُ مِنْ قَبْلُ[2]؟!.

قال دمنة : قَدْ فَهِمْتُ كَلامَكَ جَمِيعَهُ، وَتَدَبَّرْتُ ما قُلْتَ. أَنْتَ صادِقٌ. لٰكِنِ اعْلَمْ أَنَّ الَّذِينَ لَهُمُ الْمَنازِلُ الرَّفِيعَةُ عِنْدَ الْمُلُوكِ قَدْ كانُوا قَبْلَ أَنْ يَرْقَوا إِلَيْها لَيْسَتْ بِحالَتِهِمْ، فَيَقْرُبُونَ بَعْدَ الْبُعْدِ، وَيَدْنُونَ بَعْدَ التَّنائِي، وَأَنا مُلْتَمِسٌ بُلُوغَ مَكانَتِهِمْ بِجُهْدِي، وَقَدْ قِيلَ: لا يُواظِبُ عَلَى بابِ السُّلْطَانِ إِلَّا مَنْ يَطْرَحُ الْأَنَفَةَ ، وَيَحْمِلُ الْأَذى، وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ، وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ، وَيَكْتُمُ السِّرَّ، فَإِذا وَصَلَ إِلَى ذٰلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرادَهُ[3].

قال كليلة : هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الْأَسَدِ، فَما تَوْفِيقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ تَنالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ عِنْدَهُ، وَالْحُظْوَةُ لَدَيْهِ؟ **قال دمنة** : لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ ، وعَرَفْتُ أَخْلاقَهُ، لَرَفَقْتُ فِي مُتابَعَتِهِ، وَقِلَّةِ الْخِلافِ لَهُ، وَإِذا أَرادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوابٌ زَيَّنْتُهُ لَهُ،وَصَبَّرْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَرَّفْتُهُ بِما فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ، وَشَجَّعْتُهُ عَلَيْهِ، وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ حَتَّى يَزْدادَ بِهِ سُرُورًا ، وَإِذا أَرادَ أَمْرًا يُخافُ عَلَيْهِ ضَرُّهُ وَشَيْنُهُ، بَصَّرْتُهُ بِما فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ وَالشَّيْنِ، وَأَطْلَعْتُهُ عَلَى ما فِي تَرْكِهِ مِنَ النَّفْعِ وَالزَّيْنِ، بِحَسَبِ ما أَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ[4].

وَأَنا أَرْجُو أَنْ أَزْدادَ بِذٰلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكانَةً، وَيَرَى مِنِّي ما لا يَراهُ مِنْ غَيْرِي؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شاءَ أَنْ يُبْطِلَ حَقًّا، أَوْ يُحِقَّ باطِلًا لَفَعَلَ. كَالْمُصَوِّرِ الْماهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحِيطانِ صُوَرًا كَأَنَّها خارِجَةٌ ، وَلَيْسَتْ بِخارِجَةٍ، وَأُخْرَى كَأَنَّها داخِلَةٌ، وَلَيْسَتْ بِداخِلَةٍ. فَإِذا

---

(١) ومكانة: بمعنى المنزلة والرتبة: فيبتدرني: فيبدأ ويبادر. تقدحه القريحة: الطبع. وتقدحه: تخرجه . دله: دلاله وجرأته. وإزالة الكلفة بينه وبينه.

(٢) لا ينوء به: لا يُقله. لا يستقلّ به: لا يحمله وحده. لا يتوخى: لا يقصد. الكَرْم: العنب.

(٣) التنائي: التباعد. الأنفة: عزة النفس. يكظم: يحبس.

(٤) هبك: احسب نفسك. الحُظوة: المكانة والحظ والمنزلة. شينه: عيبه. بصرته: عرّفته وأوضحت له.

هُوَ عَرَفَ ما عِنْدِي ، وَبانَ لَهُ حُسْنُ رَأْيِي، وَجودَةَ فِكْرِي ، ٱلْتَمس إِكْرامِي وَقَرِّبْنِي إِلَيْهِ.

قال كليلة : أَمَّا إِنْ قُلْتَ هٰذا أَوْ قُلْتَ هٰذا فَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكَ مِنَ السُّلْطَانِ؛ فَإِنَّ صُحْبَتَهُ خَطِرَةٌ، وأُحَذِّرُكَ مِنَ الَّذِي أَرَدْتَهُ، كَعِظَمِ خَطَرِهِ عِنْدَكَ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَماءُ : إِنَّ ثَلاثَةً لا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلَّا أَهْوَجُ، وَلا يَسْلَمُ مِنْهُنَّ إِلَّا قَلِيلٌ(١).

وهي : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ، وَٱئْتِمانُ النِّساءِ عَلَى الْأَسْرارِ، وَشُرْبُ السُّمِّ لِلتَّجْرِبَةِ. وَإِنَّما شَبَّهَ الْعُلَماءُ السُّلْطانَ بِالْجَبَلِ الصَّعْبِ الْمُرْتَقَى الَّذِي فِيهِ الثِّمارُ الطَّيِّبَةُ،وَالْأَنْهارُ الْجارِيَةُ، وَالْجَواهِرُ النَّفِيسَةُ، وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ، وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ مَعْدِنُ السِّباعِ وَالنُّمُورِ وَالذِّئابِ وَكُلِّ ضارٍ مَخُوفٍ؛ فَالْارْتِقاءُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ، وَالْمُقامُ فِيهِ أَشَدُّ.

قال دمنة : صَدَقْتَ فِيما ذَكَرْتَ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغائِبَ، وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيهِ حاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخافَةً لِما لَعَلَّهُ أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، فَلَيْسَ بِبالِغٍ جَسِيمًا(٢).

وقد قيل : إِنَّ خِصالًا ثَلاثَةً لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمَعُونَةٍ: مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ، وَعَظِيمِ خَطَرٍ : مِنْها صُحْبَةُ السُّلْطانِ، وَتِجارَةُ الْبَحْرِ، وَمُناجَزَةُ الْعَدُوِّ. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ : إِنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يُرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ، وَلا يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُما : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكَرَّمًا، أَوْ مَعَ النُّسَّاكِ مُتَعَبِّدًا. كَالْفِيلِ إِنَّما جَمالُهُ وَبَهاؤُهُ فِي مَكَانَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَراهُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَحْشِيًّا، أَوْ مَرْكَبًا لِلْمُلُوكِ. قالَ كَلِيلَةُ: خارَ اللهُ لَكَ فِيما عَزَمْتَ عَلَيْهِ!(٣).

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ انْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ، فَعَفَّرَ وَجْهَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ فَقالَ الْأَسَدُ لِبَعْضِ جُلَسائِهِ: مَنْ هٰذا؟ فَقالَ : هٰذا دِمْنَةُ بْنُ سَلِيطٍ. قالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُ أَباهُ. ثُمَّ سَأَلَهُ أَيْنَ تَكُونُ؟ قالَ : لَمْ أَزَلْ مُرابِطًا بابَ الْمَلِكِ، داعِيًا لَهُ بِالنَّصْرِ، وَدَوامِ الْبَقاءِ؛ رَجاءَ أَنْ يَحْضُرَ أَمْرٌ، فَأُعِينَ الْمَلِكَ فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي؛ فَإِنَّ أَبْوابَ الْمُلُوكِ تَكْثُرُ فِيها الْأُمُورُ الَّتِي يُحْتاجُ فِيها إِلَى الَّذِي لا يُؤْبَهُ لَهُ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْغُرُ أَمْرُهُ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ الْغَناءِ، وَالْمَنافِعُ عَلَى قَدْرِهِ؛ حَتَّى الْعُودُ الْمُلْقَى فِي الْأَرْضِ رُبَّما نَفَعَ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ ، فَيَحُكُّ بِهِ أُذُنَهُ فَيَكُونُ عُدَّتَهُ عِنْدَ الْحاجَةِ إِلَيْهِ(٤).

---

(١) الرفيق: اللطيف. الماهر : الحاذق العالم بالشيء. خطَره: شرفه. أهوج: أحمق طائش.

(٢) المرتقى: الصعود . معدن السباع: مكان. ضارٍ: معتدٍ كاسر. مخوف: يخافه الناس ويخشون جانبه. الرغائب: جمع رغيبة وهي الأمر المرغوب فيه. جسيما: عظيما.

(٣) خطر: قدر ومنزلة. مناجزة العدو: مباشرة قتاله. الرشيد: من الرشد وهو الاستقامة على طريق الحق. بهاؤه: حُسْنه: خار الله لك: جعل لك الخير، واختاره لك.

(٤) فعفر وجهه: مرّغ. أي خضع إلى الأرض بين يدي الملك. مرابطا باب الملك: ملازما له ومواظبا عليه. لا يؤبه له: لا ينتبه له ولا يلتفت إليه. الغَناء (بفتح الغين): النفع والاكتفاء. عدّته: أي مما أعده لحوادث الدهر.

فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ، قَوْلَ دِمْنَةَ أَعْجَبَهُ، وَطَمِعَ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ نَصِيحةٌ وَرَأْيٌ. فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقالَ : إِنَّ الرَّجُلَ ذا النُّبْلِ وَالْمُرُوءَةِ يَكُونُ خامِلَ الذِّكْرِ، مُنْخَفِضَ الْمَنْزِلَةِ، فَتَأْبى مَنْزِلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَشُبَّ وَتَرْتَفِعَ كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُها صاحِبُها، وَتَأْبى إِلَّا ارْتِفاعًا. فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ عَجِبَ مِنْهُ ، وَحَسُنَ عِنْدَهُ كَلامُهُ قالَ : أَيُّها الْمَلِكُ إِنَّ رَعِيَّةَ الْمَلِكِ تَحْضُرُ بابَهُ رَجاءَ أَنْ يَعْرِفَ ما عِنْدَها مِنْ عِلْمٍ وافِرٍ، كَالزَّرْعِ الْمَدْفُونِ الَّذِي لا يُعْرَفُ فَضْلُهُ، حَتَّى يَخْرُجَ وَيَظْهَرَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ[1].

فَيَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يَبْلُغَ بِكُلِّ امْرِيءٍ مَرْتَبَتَهُ عَلى قَدْرِ رَأْيِهِ، وَعَلَى قَدْرِ ما يَجِدُ عِنْدَهُ مِنَ الْمَنْفَعِةِ. وَقَدْ قِيلَ: أَمْرانِ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَأْتِيَهُما : مِثْلُ أَن يُجْعَلُ الْخِلْخالُ قِلادَةً لِلْعُنُقِ، وَمِثْلُ أَنْ تُجْعَلَ الْقِلادَةُ خَلْخالًا فِي الرِّجْلِ. وَقَدْ يُقالُ : إِنَّ الْفَضْلَ فِي أَمْرَيْنِ: فَضْلِ الْمُقاتِلِ عَلَى الْمُقاتِلِ، وَالْعالِمِ عَلَى الْعالِمِ. وَإِنَّ كَثْرَةَ الْأَعْوانِ، إِذا لَمْ يَكُونُوا مُخْتَبَرِينَ، رُبَّما تَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى الْعَمَلِ ، فَإِنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ رَجاؤُهُ بِكَثْرَةِ الْأَعْوانِ، وَلٰكِنْ بِصالِحِي الْأَعْوانِ[2].

وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ، فَيَقْتُلُ بِهِ نَفْسَهُ وَلا يَجِدُ لَهُ ثَمَنًا. وَحامِلُ الْياقُوتِ وَإِنْ قَلَّ يَقْدِرُ عَلَى بَيْعِهِ بِالْكَثِيرِ مِنَ الْمالِ. وَالْعَمَلُ الَّذِي يُحْتاجُ فِيهِ إِلَى الْحِيَلِ وَالْخِداعِ لا يَقْتَحِمُهُ إِلَّا أَفْهَمُ الرِّجالِ وَأَذْكاهُمْ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتاجُ إِلَى الْجُذُوعِ لا يُجْزِئُهُ الْقَصَبُ ، وَإِنْ كَثُرَ. فَأَنْتَ الْآنَ أَيُّها الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَلَّا تَحْقِرَ مُرُوءَةً أَنْتَ تَجِدُها عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ الْمَنْزِلَةِ؛ فَإِنَّ الصَّغِيرَ رُبَّما عَظُمَ، كَالْعَصَبِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنَ الْمَيْتَةِ فَإِذا عُمِلَتْ مِنْهُ الْقَوْسُ أُكْرِمَ، فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَتَحْتاجُ إِلَيْهِ فِي الْبَأْسِ وَاللَّهْوِ[3].

وَأَحَبَّ دِمْنَةُ أَنْ يُرِيَ الْقَوْمَ أَنَّ ما نالَهُ مِنْ كَرامَةِ الْمَلِكِ إِنَّما هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ؛ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذٰلِكَ: أَنَّ ذٰلِكَ لِمَعْرِفَتِهِ أَباهُ. فَقالَ : إِنَّ السُّلْطانَ لا يُقَرِّبُ الرِّجالَ لِقُرْبِ آبائِهِمْ ، وَلا يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِم،وَلٰكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِما عِنْدَهُ ؛ لِأَنَّهُ لا شَيْءَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ ، وَمِنْ جَسَدِهِ ما يَدْوَى حَتَّى يُؤْذِيَهُ ، ولا يُدْفَعُ ذٰلِكَ عَنْهُ إِلَّا بِالدَّواءِ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدُ[4].

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ مَقالَتِهِ هٰذِهِ أُعْجِبَ الْأَسَدُ بِهِ إِعْجابًا شَدِيدًا وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ وَزَادَ فِي

---

(١) ذا النبل: الفضل والذكاء. تَشُبّ : تزداد.

(٢) يأتيهما: يفعلهما. الخَلخال (بفتح الخاء): سوار تلبسه المرأة في الرجل للزينة: أما القِلادة فتلبس في العنق. الأعوان: المساعدين.

(٣) الجذوع: جمع جذع وهو ساق النخلة. لا يجزئه: لا يغنيه. العصب: المراد به الوتر واحد الأمعاء.

(٤) يَدْوَى: يصيبه داء.

كَرَامَتِهِ. ثُمَّ قالَ الْمَلِكُ لِجُلَسائِهِ: يَنْبَغِي لِلسُّلْطانِ أَلّا يُلِحَّ فِي تَضْييعِ حَقِّ ذَوِي الْحُقُوقِ؛ فَإِنَّ عاقِبَةَ ذٰلِكَ رَدِيئَةٌ حَتَّى مِمَّن لا يُتَوَقَّعُ أَذاهُ، وَالنَّاسُ فِي ذٰلِكَ رَجُلانِ: رَجُلٌ طَبْعُهُ الشَّراسَةُ، فَهُوَ كَالْحَيَّةِ إِنْ وَطِئَها الْواطِئُ فَلَمْ تَلْدَغْهُ لَمْ يَكُنْ جَدِيرًا أَنْ يَغُرَّهُ ذٰلِكَ مِنْها فَيَعُودَ إِلَى وَطْئِها ثانِيَةً فَتَلْدَغُهُ، وَرَجُلٌ أَصْلُ طِباعِهِ السُّهُولَةُ، فَهُوَ كَالصَّنْدَلِ الْبارِدِ الَّذِي إِذا أُفْرِطَ فِي حَكِّهِ صارَ حارًّا مُؤْذِيًا[1].

ثُم إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالْأَسَدِ وَخَلا بِهِ فَقالَ لَهُ يَوْمًا: رَأَيْتُ الْمَلِكَ قَدْ أَقامَ فِي مَكانٍ واحِدٍ، لا يَبْرَحُ مِنْهُ خِلافًا لِمَأْلُوفِهِ، وَهُوَ - أَعْظَمَهُ اللهُ - مَنِيعُ الجانِبِ، نافِذُ الْأَمْرِ، آمِنُ السّاحَةِ، فَرَأَيْتُ أَنْ أَتَطاوَلَ عَلَيْهِ بِالاسْتِفْهامِ عَلَى وَجْهِ النَّصِيحَةِ؛ فَإِنَّ الأُمُورَ الْخَفِيَّةَ لا يُظْهِرُها إِلَّا الْبَحْثُ عَنْها، فَإِذا ظَهَرَتْ أُجِيلَتِ الْفِكْرَةُ فِيها، فَبَيْنَما هُما فِي هٰذا الْحَدِيثِ، إِذ خارَ شَتْرَبَةُ خُوارًا شَدِيدًا فَهَيَّجَ الْأَسَدَ، وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِما نالَهُ. وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذٰلِكَ الصَّوْتَ قَدْ أَدْخَلَ عَلَى الْأَسَدِ رِيبَةً وَهَيْبَةً؛ فَسَأَلَهُ هَلْ رابَ الْمَلِكَ سَماعُ هٰذا الصَّوْتِ؟ قالَ: لَمْ يَرِبْنِي شَيْءٌ سِوَى ذٰلِكَ، وَهُوَ الَّذِي حَبَسَنِي هٰذِهِ الْمُدَّةَ فِي مَكانِي[2].

وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ طَرِيقِ الْقِياسِ أَنَّ جثَّةَ صاحِبِ هٰذا الصَّوْتِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَمْ أَسْمَعْهُ قَطُّ عَظِيمةٌ، لِأَنَّ صَوْتَهُ تابِعٌ لِبَدَنِهِ. فَإِنْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَلَيْسَ لَنا مَعَهُ قَرارٌ وَلا مُقامٌ! قالَ دِمْنة: لَيْسَ الْمَلِك بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَعَ مَكانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ. فَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ: لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْأَصْواتِ تَجِبُ الْهَيْبَةُ. قالَ الأَسَدُ: وَمَا مَثَلُ ذٰلِكَ؟.

مثل الثعلب والطبل

وهو مثل العظيم المظهر الحقير المخبر

قال دمنة: زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا أَتَى أَجَمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى شَجَرَةٍ، وَكُلَّما هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى قُضْبانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَّكَتْها، فَضَرَبَتِ الطَّبْلَ، فَسُمِعَ لَهُ صَوْتٌ عَظِيمٌ باهِرٌ؛ فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ

---

(١) أُعْجِب به: أي عجب منه وسُرّ وأعجبه. عاقبة: آخره. لا يُتوقع: لا ينتظر. وطئها: داسها. تلدغه: تلسعه. الصندل: خشب طيب الرائحة ولخشبه ألوان مختلفة: حمر وبيض وصُفر. وأحَرُّه الأحمر، ثم الأصفر، وأبرده الأبيض.

(٢) مألوفة: ما تعود عليه وألِفَه واستأنس به. أجيلت: أديرت. خار: أحدث صوتا ويسمى خُوَاراً. ريبة: شكًا وقلقًا. راب الملك: أي أوقعه في الريب والشك.

نَحْوَهُ لِأَجْلِ ما سَمِعَ مِنْ عَظِيمِ صَوْتِهِ[1].

فَلَمَّا أَتاهُ وَجَدَهُ ضَخْمًا فَأَيْقَنَ فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ ، فَعالَجَهُ حَتَّى شَقَّهُ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ لا شَيْءَ فِيهِ قالَ : لا أَدْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْياءِ أَجْهَرُها صَوْتًا، وَأَعْظَمُها جُثَّةً ! وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ هٰذا الصَّوْتَ الَّذِي راعَنا لَوْ وَصَلْنا لَوَجَدْناهُ أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنا. فَإِنْ شاءَ الْمَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقامَ بِمَكانِهِ حَتَّى آتِيَهُ بِبَيانِ هٰذا الصَّوْتِ[2].

فَوافَقَ الْأَسَدَ قَوْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ فِي الذَّهابِ نَحْوَ الصَّوْتِ؛ فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الْمَكانِ الَّذِي فِيهِ شَتْرَبَةُ. فَلَمَّا فَصَلَ دِمْنَةُ مِنْ عِنْدَ الْأَسَدِ، فَكَّرَ الْأَسَدُ فِي أَمْرِهِ، وَنَدِمَ عَلَى إِرْسالِ دِمْنَةَ حَيْثُ أَرْسَلَهُ، وَقالَ فِي نَفْسِهِ: ما أَصَبْتُ فِي ائْتِمانِي دِمْنَةَ، وَإِطْلاعِهِ عَلَى سِرِّي ، وَقَدْ كانَ بِبابِي مَطْرُوحًا[3]!.

فَإِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يَحْضُرُ بابَ الْمَلِكِ، إِذا كانَ قَدْ أُطِيلَتْ جَفْوَتُهُ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ كانَ مِنْهُ، أَوْ كانَ مَبْغِيًّا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطانِهِ، أَوْ كانَ عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ وَالْحِرْصِ، أَوْ كانَ قَدْ أَصابَهُ ضَرٌّ وَضِيقٌ فَلَمْ يُنْعِشْهُ، أَوْ كانَ قَدِ اجْتَرَمَ جُرْمًا فَهُوَ يَخافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ ، أَوْ كانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ، وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ، أَوْ يَخافُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَنْفَعُهُ ضُرًّا، أَوْ كانَ لِعَدُوِّ الْمَلِكِ سِلْمًا ، وَلِسِلْمِهِ حَرْبًا، أَوْ كانَ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ما فِي يَدَيْهِ مِنَ السُّلْطانِ، أَوْ باعَدَهُ ، أَوْ طَرَدَهُ ، فَلَيْسَ السُّلْطانُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَعْجَلَ فِي الِاسْتِرْسالِ إِلَى هٰؤُلاءِ، وَالثِّقَةِ بِهِمْ، وَالِائْتِمانِ لَهُمْ.

وَإِنَّ دِمْنَةَ داهِيَةٌ أَرِيبٌ، وَقَدْ كانَ بِبابِي مَطْرُوحًا مَجْفُوًّا . وَلَعَلَّهُ قَدِ احْتَمَلَ عَلَيَّ بِذٰلِكَ ضِغْنًا، وَلَعَلَّ ذٰلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَى خِيانَتِي وَإِعانَةِ عَدُوِّي وَنَقِيصَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلَّهُ أَنْ يُصادِفَ صاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطانًا مِنِّي ، فَيَرْغَبَ بِهِ عَنِّي ، وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَيَّ[4].

وَلَقَدْ كانَ الْواجِبُ أَنْ أَهْجُمَ عَلَى صاحِبِ هٰذا الصَّوْتِ بِنَفْسِي!! وَلَمْ يَزَلِ الْأَسَدُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِأَمْثالِ ذٰلِكَ، حَتَّى جَعَلَ يَمْشِي وَيَنْظُرُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّتِي سارَ فِيها دِمْنَةُ، فَلَمْ يَمْشِ غَيْرَ قَلِيلٍ، حَتَّى بَصُرَ بِدِمْنَةَ مُقْبِلًا نَحْوَهُ ، فَطابَتْ نَفْسُهُ بِذٰلِكَ، وَرَجَعَ إِلَى مَكانِهِ، وَدَخَلَ دِمْنَةُ عَلَيْهِ، فَقالَ لَهُ الْأَسَدُ : ماذا صَنَعْتَ؟ وَمَاذَا رَأَيْتَ؟. قالَ : رَأَيْتُ ثَوْرًا ، وَهُوَ صاحِبُ الْخُوارِ وَالصَّوْتِ الَّذِي

---

(١) صح : ثبت. المنكر: القبيح المجهول. مُقام: إقامة. أجمة: واحدة الأَجَم، وهو الشجر الكثيف الملتف. باهر: يقال: بهره الأمر: أجهده حتى تتابع نفسه وأدهشه وحيّره.

(٢) أفشل الأشياء: أضعف. أجهرها: أعلاها. راعَنا: أفزعنا. (٣) فصَل: خرج وفارقه.

(٤) جفوته: مقاطعته. وهي ضد المواصلة والمؤانسة. جُرْم: ذنب. مَبْغياً عليه: معتدى عليه مظلوماً. لم ينعشه: لم يجبره بعد فقره. سِلما: مسالما. حربا: محاربا. حيل: اعترض. الاسترسال: الانبساط والاستئناس والارتياح والاطمئنان. داهية: ذو دهاء. التاء المربوطة للمبالغة. ضغنا: حقداً. ونقيضتي: ثلبي وذمّي. فيرغب عني: أي يفضله على.

سَمِعْتَهُ.

قالَ فَما قُوَّتُهُ؟[1].

قالَ : لا شَوْكَةَ لَهُ ، وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ ، وَحاوَرْتُهُ مُحاوَرَةَ الْأَكْفاءِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا! قالَ الْأَسَدُ : لا يَغُرَّنَّكَ ذٰلِكَ مِنْهُ ، وَلا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ؛ فَإِنَّ الرِّيحَ الشَّدِيدةَ لا تَعْبأُ بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ، لٰكِنَّها تَحْطِمُ طِوالَ النَّخْلِ، وَعَظِيمَ الشَّجَرِ، وَتَقْلَعُ الدَّوْحَةَ الْعاتِيةَ مِنْ مَوْضِعِها. قالَ دِمْنةُ : لا تَهابَنَّ أَيُّها الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ! فَأَنا عَلَى ضُعْفِي آتِيكَ بِهِ، فَيَكُونُ لَكَ عَبْدًا سامِعًا مُطِيعًا[2].

قال الأسد : دُونَكَ وَمَا بَدا لَكَ ، وَقَدْ تَعَلَّقَ أَمَلُهُ بِهِ. فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ فَقالَ لَهُ غَيْرَ هائِبٍ وَلا مُكْتَرِثٍ: إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لآتِيَهُ بِكَ، وَأَمَرَنِي إِنْ أَنْتَ عَجِلْتَ إِلَيْهِ أَنْ أُؤَمِّنَكَ عَلَى ما سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ ، وَتَرْكِكَ لِقاءَهُ ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ وَأَحْجَمْتَ ، أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ، قالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هٰذا الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ ؟ وَأَيْنَ هُوَ؟ وَمَا حالُهُ ؟ قالَ دِمْنةُ : هُوَ مَلِكُ السِّباعِ، وَهٰذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي نَحْنُ عَلَيْها لَهُ، وَهُوَ بِمَكانِ كَذا، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جِنْسِهِ؛ فَرُعِبَ شَتْرَبةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسِّباعِ، وَقالَ : إِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِيَ الْأَمانَ عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ[3].

فَأَعْطاهُ دِمْنةُ مِنَ الْأَمانِ ما وَثِقَ بِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ مَعَهُ حَتَّى دَخَلا عَلَى الْأَسَدِ، فَأَحْسَنَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ وَقالَ لَهُ :

مَتَى قَدِمْتَ هٰذِهِ الْبِلادَ، وَمَا أَقْدَمَكَهَا؟ فَقَصَّ شَتْرَبةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ، **فقالَ لَهُ الأسَدُ** : اصْحَبْنِي ، وَالزَمْنِي فَإِنِّي مُكْرِمُكَ وَمُحْسِنٌ إِلَيْكَ؛ فَدَعَا لَهُ الثَّوْرُ ، وأَثْنَى عَلَيْهِ، وَانْصَرَفَ وَقَدْ أُعْجِبَ بِهِ الْأَسَدُ إِعْجابًا شَدِيدًا لِما ظَهَرَ لَهُ مِنْ عَقْلِهِ وَأَدَبِهِ! ثُمَّ إِنَّهُ قَرَّبَهُ وَأَكْرَمَهُ وَأَنِسَ بِهِ وَائْتَمَنَهُ عَلَى أَسْرارِهِ وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ وَلَمْ تَزِدْهُ الْأَيَّامُ إِلَّا عُجْبًا بِهِ ، وَرَغْبةً فِيهِ، وَتَقْرِيبًا لَهُ، حَتَّى صارَ أَخَصَّ أَصْحابِهِ عِنْدَهُ مَنْزِلةً[4].

---

(١) بَصُرَ به: لمحه.

(٢) لا شوكة له: بأس وشدة. لا تعبأ: لا تكترث. الحشيش: العُشب اليابس. تحطم: تكسر. الدوحة: الشجرة العالية العاتية: التي جاوزت الحد في كبرها.

(٣) دونك: افعل. لقاءه: مقابلته. أحجمت: كففت عنه هيبة. فرُعب: أي خاف وأصابه الرعب والهلع والخوف.

(٤) وقرّبه: قدمه في خدمته وجعله من خواصه. أقدمكها: أي جعلك تقدم إليها وتأتيها. عُجْباً به: أي زهوا وكبراً.

فَلَمَّا رَأَى دِمْنةُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدِ اخْتَصَّ بِالْأَسَدِ دُونَهُ ودُونَ أَصْحابِهِ، وَأَنَّهُ قَدْ صارَ صاحِبَ رَأْيِهِ وَخَلَواتِهِ وَلَهْوِهِ، حَسَدَهُ حَسَدًا عِظِيمًا، وَبَلَغَ مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ وَقالَ لَهُ : أَلا تَعْجَبُ يا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي ، وصُنْعِي بِنَفْسِي؟! وَنَظَرِي فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي؛ حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الْأَسَدِ ثَوْرًا غَلَبَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي! قالَ كَلِيلةُ : قَدْ أَصابَكَ ما أَصابَ النَّاسِكَ. قالَ دِمْنةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟[1].

مَثَلُ النّاسِك واللِّصّ

قال كليلة : زَعَمُوا أَنَّ ناسِكًا أَصابَ مِنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ كُسْوَةً فَاخِرَةً، فَبَصُرَ بِهِ سارِقٌ، فَطَمِعَ فِي الثِّيابِ، وَعِمِلَ عَلَى سَرِقَتِها، فَأَتَى النَّاسكَ وَقالَ لَهُ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَصْحَبَكَ، فَأَتَعَلَّمَ مِنْكَ ، وَآخُذَ عَنْكَ، فَأَذِنَ لَهُ النَّاسِكُ فِي صُحْبَتِهِ، فَصَحِبَهُ مُتَشَبِّهًا بِهِ، وَرَفَقَ لَهُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَمِنَهُ النَّاسِكُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، فَرَصَدَهُ حَتَّى إِذا ظَفِرَ بِهِ، وَأَمْكَنَتْهُ الْفُرْصةُ ، أَخَذَ تِلْكَ الثِّيابَ فَذَهَبَ بِها ؛ فَلَمَّا فَقَدَ النَّاسِكُ ثِيابَهُ، عَلِمَ أَنَّ صاحِبَهُ قَدْ أَخَذَها، فَتَوَجَّهَ فِي طَلَبِهِ. فَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِوَعِلَيْنِ يَتَناطَحانِ، حَتَّى سالَتْ دِماؤُهُما. فَجاءَ ثَعْلَبٌ يَلَغُ فِي تِلْكَ الدِّماءِ، وَيَتَحَكَّكُ بِهِما وَيُزاحِمُهُما، فَغَضِبَا مِنْهُ ، وَأَقْبَلا عَلَيْهِ بِنِطاحِهِما؛ فَقَتَلاهُ. فَعَجِبَ النَّاسِكُ مِنْ ذٰلِكَ، وَمَضَى حَتَّى دَخَلَ إِحْدَى الْمُدُنِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيها قِرًى إِلَّا بَيْتَ امْرَأَةٍ فَنَزَلَ بِها وَاسْتَضافَها[2].

وَكانَتْ لِلْمَرأَةِ جارِيةٌ تُؤاجِرُها، وَكانَتِ الْجارِيةُ قَدْ عَلِقَتْ رَجُلًا تُرِيدُ أَنْ تَتَّخِذَهُ بَعْلًا لَهَا، وَقَدْ أَضَرَّ ذٰلِكَ بِمَوْلاتِها، وَلَمْ يَكُنْ لَها سَبِيلٌ إِلَى مُدافَعَتِهِ. فَاحْتالَتْ لِقَتْلِهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلةِ الَّتِي اسْتَضافَها فِيها النَّاسِكُ ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ وَافَى فَسَقَتْهُ مِنَ الْخَمْرَةِ حَتَّى سَكِرَ وَنَامَ ؛ فَلَمَّا اسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ، وَنَامَ مَنْ فِي الْبَيْتِ عَمَدَتْ لِسُمٍّ كانَتْ قَدْ أَعَدَّتْهُ فِي قَصَبةٍ لِتَنْفُخَهُ فِي أَنْفِ الرَّجُلِ، فَلَمَّا أَرادَتْ ذٰلِكَ بَدَرَتْ مِنْ أَنْفِهِ عَطْسةٌ فَعَكَسَتِ السُّمَّ إِلَى حَلْقِ الْمَرْأَةِ، فَوَقَعَتْ ميتةً ، وَكُلُّ ذٰلِكَ بِعَيْنِ النَّاسِكِ وَسَمْعِهِ![3].

---

(١) اختصّ: انفرد به. أغفلت: تركت وأهملت . أصاب: نال.

(٢) وعمل على سرقتها: سعى في سرقتها وأعد نفسه. ورفق له: عامله باللطف. اطمأن إليه: سكن وآمن له. فرصده: ترقبه. بوعلين: بتيسين من تيوس الجبل مثنى وعل. يَلَغُ: يشرب بلسانه ويتحكك بهما: يتعرض لشرهما. قِرًى: ضيافة.

(٣) تؤاجرها: تبيحها بالأجرة. علقت رجلا: أحبته. وافى: أتى. عَمِدت: قصدت. أعدّته: هيأته. بدرت: سبقت وأسرعت.

فَلَمَّا رَأَى ذٰلِكَ لَمْ يُصَدِّقْ أَنْ طَلَعَ الصَّباحُ، حَتَّى خَرَجَ يَبْتَغِي مَنْزِلًا غَيْرَهُ ، فَاسْتَضافَ رَجُلًا إِسْكافًا، فَأَتَى بِهِ امْرَأَتَهُ، وَقالَ لَها: انْظُرِي إِلَي هذا النَّاسِكِ، وَأَكْرِمِي مَثْواهُ، وَقُومِي بِخِدْمَتِهِ، فَقَدْ دَعانِي بَعْضُ أَصْدِقائِي لِلشُّرْبِ عِنْدَهُ ، ثُمَّ انْطَلَقَ ذاهِبًا. وَكَانَ لِلْمَرْأَةِ ابْنَةٌ تُرِيدُ أَنْ تُزَوِّجَها لِرَجُلٍ لَمْ يَكُنْ زَوْجُها يُرِيدُهُ ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَخْتَلِفُ إِلَى الْبَيْتِ فِي غِيابِ زَوْجِها، وَالْوَسِيطُ بَيْنَهُما امْرَأَةُ حَجَّامٍ(١).

فَأَرْسَلَتِ امْرَأَةُ الْإِسْكافِ إِلَى امْرَأَةِ الْحَجَّامِ تَأْمُرُها بِالْمَسِيرِ إِلَيْها، وَتُعَرِّفُ الرَّجُلَ غِيابَ زَوْجِها وَقالَتْ : إِنَّ زَوْجِي قَدْ ذَهَبَ لِيَشْرَبَ عِنْدَ بَعْضِ أَصْدِقائِهِ، وَإِنْ عادَ لا يَعُودُ إِلَّا سَكْرانَ، فَقُولِي لَهُ : يُسْرِعِ الْكَرَّةَ. ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جاءَ فَقَعَدَ عَلَى الْبابِ يَنْتَظِرُ الْإِذْنَ، وَوافَقَ ذٰلِكَ مَجِيءَ الْإِسْكافِ سَكْرانَ، فَرَأَى الرَّجُلَ فِي الظُّلْمَةِ، وَارْتَابَ بِهِ فَلَمْ يُكَلِّمْهُ، وَدَخَلَ مُغْضَبًا، إِلى امْرَأَتِهِ، فَأَوْجَعَهَا ضَرْبًا؛ ثُمَّ أَوْثَقَها فِي أُسْطُوانَةٍ فِي الْمَنْزِلِ، وَذَهَبَ فَنَامَ لا يَعْقِلُ(٢).

وَجاءَتِ امْرَأَةُ الْحَجَّامِ تُعْلِمُها أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ أَطالَ الْجُلُوسَ، فَقالَتْ لَهَا: انْظُرِي إِلى ما أَنا فِيهِ بِسَبَبِهِ ، فَإِنْ شِئْتِ وَأَحْسَنْتِ إِلَيَّ وَحَلَلْتِنِي وَرَبَطْتُكِ مَكَانِي حَتَّى أَنْطَلِقَ إِلَيْهِ وَأُعَجِّلَ الْعَوْدَةَ، فَأَجابَتْها امْرَأَةُ الْحَجَّامِ إِلَى ذٰلِكَ وَحَلَّتْها، وَانْطَلَقَتْ إِلَى الرَّجُلِ، وَأَوْثَقَتْ هِيَ نَفْسَهَا مَكَانَها. فَاسْتَيْقَظَ الْإِسْكافُ قَبْلَ أَنْ تَعُودَ زَوْجَتُهُ فَنَاداها باسْمِها فَلَمْ تُجِبْهُ امْرَأَةُ الْحَجَّامِ، وَخافَتْ مِنَ الْفَضِيحَةِ أَنْ يُنْكِرَ صَوْتَها، ثُمَّ دَعاها ثانِيَةً فَلَمْ تُجِبْهُ ؛ فَامْتَلأَ غَيْظًا وَحَنَقًا، وَقامَ نَحْوَها بِالشَّفْرَةِ فَجَدَعَ أَنْفَها، وَقالَ : خُذِي لهٰذا فَأَتْحِفِي بِهِ صَدِيقَكِ، وَهُوَ لا يَشُكُّ فِي أَنَّهَا امْرَأَتُهُ؛ ثُمَّ جاءَتِ امْرَأَةُ الْإِسْكافِ، فَرَأَتْ صُنْعَ زَوْجِها بِامْرَأَةِ الْحَجَّامِ، فَساءَها ذٰلِكَ، وَأَكْبَرَتْهُ، وَحَلَّتْ وَثاقَها(٣).

فَانْطَلَقَتْ إِلَى مَنْزِلِها مَجْدُوعَةِ الْأَنْفِ، وَكُلُّ ذٰلِكَ بِعَيْنِ النَّاسِكَ وَسَمْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ امْرَأَةَ الْإِسْكافِ جَعَلَتْ تَبْتَهِلُ ، وَتَدْعُو عَلَى زَوْجِها الَّذِي ظَلَمَهَا وَتَقُولُ : اللَّهُمَّ إِنْ كانَ زَوْجِي قَدْ ظَلَمَنِي فَأَعِدْ عَلَيَّ أَنْفِي صَحِيحًا! ثُمَّ رَفَعَتْ صَوْتَها، وَنادَتْ زَوْجَها: أَيُّها الْفاجِرُ الظَّالِمُ، قُمْ فَانْظُرْ

---

(١) إسكافًا: يصلح الأحذية ويخيطها. مَثواه: مقامه . يختلف إلى البيت: يأتي بين وقت وآخر. حَجّام: وهو الذي يقوم بعملية الحجامة وهي أن يشرط الجلد بمشرط ثم يلقى في المحجمة قرطاس ملتهب أو قطن ونحوه لتفريغ الهواء ويضعها مكان الشرط بسرعة، فينجذب الدم بقوة.

(٢) بالمصير إليها: بالرجوع إليها. الكرّة: يعجل المجيء. مغضَبًا: غضبان. أوثقها: ربطها. أُسْطُوانة: عمود.

(٣) ينكر صوتها: يلتبس عليه، ويرى أنه ليس هو الصوت المعهود الذي يعرفه من قبل. حَنَقاً: الحَنق: اشتداء الغيظ. الشفرة: السكين. فجدَع أنفها: قطعه. صُنع زوجها: فعله. وأكبرته: رأته أمرًا كبيرًا وعظم عندها. وَثاقها: رباطها.

كَيْفَ صُنْعُكَ بِي؟! وَصُنْعُ اللهِ بِي كَيْفَ رَحِمَني، وَرَدَّ أَنْفِي صَحِيحًا كما كَانَ؟! فَقامَ؛ وَأَوْقَدَ الْمِصْباحَ وَنَظَرَ، فَإِذَا أَنْفُ زَوْجَتِهِ صَحِيحٌ[1].

فَاسْتَغْفَرَ إِلَيْها، وَتَابَ عَنْ ذَنْبِهِ، وَاسْتَغْفَرَ إِلَى رَبِّهِ، وَأَمَّا امْرَأَةُ الْحَجَّامِ فَإِنَّها لَمَّا وَصَلَتْ إِلَى مَنْزِلِها تَفَكَّرَتْ فِي طَلَبِ الْعُذْرِ عِنْدَ زَوْجِهَا وَأَهْلِها فِي جَدْعِ أَنْفِها، وَرَفْعِ الْالْتِباسِ، فَلَمَّا كانَ عِنْدَ السَّحَرِ اسْتَيْقَظَ الْحَجَّامُ فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هاتِي أَدَواتِي كلَّها فَإِنِّي أُرِيدُ الْمُضِيَّ إِلَى بَعْضِ الْأَشْرافِ، فَأَتَتْهُ بِالْمُوسَى. فَقالَ لَها: هاتِي الْأَدَواتِ جَمِيعها، فَلَمْ تَأْتِهِ إِلَّا بِالْمُوسَى. فَغَضِبَ حِينَ أَطَالَتِ التَّكْرارَ وَرَمَاها بِهِ فَوَلْوَلَتْ، وَصاحَتْ: أَنْفِي أَنْفِي! وَجَلَّبَتْ حَتَّى جاءَ أَهْلُها وَأَقْرِباؤُها، فَرَأَوْها عَلى تِلْكَ الْحالَةِ، فَأَخذُوا الْحَجَّامَ فَانْطَلَقُوا بِهِ إِلَى الْقَاضِي[2].

فقال له القاضي: ما حَمَلَكَ عَلَى جَدْعِ أَنْفِ امْرَأَتِكَ؟ فَلَمْ تَكُنْ لَهُ حُجَّةٌ يَحْتَجُّ بِها! فَأَمَرَ بِهِ الْقَاضِي أَنْ يُقْتَصَّ مِنْهُ، فَلَمَّا قُدِّمَ لِلْقِصاصِ، وافَى النَّاسِكُ فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقَاضِي وَقالَ لَهُ: أَيُّها الْحاكِم، لا يَشْتَبِهَنَّ عَلَيْكَ هٰذا الْأَمْرُ؛ فَإِنَّ اللِّصَّ لَيْسَ هُوَ الَّذِي سَرَقَني، وَإِنَّ الثَّعْلَبَ لَيْسَ الْوَعِلانِ قَتَلاهُ، وَإِنَّ الْمَرأَةَ لَيْسَ السُّمُّ قَتَلَها، وَإِنَّ امْرَأَةَ الْحَجَّامِ لَيْسَ زَوْجُها جَدَعَ أَنْفَها وَإِنَّمَا نَحْنُ فَعَلْنا ذٰلِكَ بِأَنْفُسِنا. فَسَأَلَهُ الْقَاضِي عَنِ التَّفْسِيرِ فَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ، فَأَمَرَ الْقَاضِي بِإِطْلاقِ الْحَجَّامِ![3].

قال دمنة: قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ وَهُوَ شَبِيهٌ بِأَمْرِي. وَلَعَلِّي ما ضَرَّنِي أَحَدٌ سِوَى نَفْسِي وَلٰكِنْ ما الْحِيلَةُ؟ قالَ كَلِيلَةُ: أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَعْزِمَ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ. قالَ دِمْنَةُ: أَمَّا أَنا فَلَسْتُ الْيَوْمُ أَرْجُو أَنْ تَزْداد مَنْزِلَتِي عِنْدَ الْأَسَدِ فَوْقَ ما كانَتْ عَلَيْهِ؛ وَلٰكِنْ أَلْتَمِسُ أَنْ أَعُودَ إِلَى ما كانَتْ حالِي عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ أُمُورًا ثَلاثَةً الْعاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيها وَالاحْتِيالِ لَها بِجُهْدِهِ: مِنْها النَّظَرُ فِيما مَضَى مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ، أَنْ يَحْتَرِسَ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصابَهُ فِيما سَلَفَ، لِئَلا يَعُودَ إِلَى ذٰلِكَ الضَّرِّ، وَيَلْتَمِسَ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى، وَيَحْتال لِمُعاوَدَتِهِ. وَمِنْها النَّظَرُ فِيما هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنافِعِ وَالْمَضارِّ، وَالاسْتِيثاق مِمَّا يَنْفَعُ، وَالْهَرَبُ مِمَّا يَضُرُّ. وَمِنْها النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ ما يَرْجُو مِنَ النَّفْعِ، وَمَا يَخافُ مِنْ قِبَلِ الضَّرِّ؛ لِيَسْتَتِمَّ ما يَرْجُو وَيَتَوَقَّى ما يَخافُ بِجُهْدِهِ[4].

---

(١) تبتهل: تتضرع إلى الله.

(٢) أدواتي: آلات صناعة الحجامة: وأهمها: الموسى والكأس والقطن والثقاب. وجَلْبت: صاحت وضجت لتجلب الأهل ومن حولها من الجلَبة والصياح. (٣) ما حملك؟ ماذا دعاك؟ يُقْتَصّ منه: يعاقب. وافى: أتى.

(٤) ألتمس: أطلب. جدير: خليق. والاحتيال: الإتيان بالحيلة، وهي الحذق وجودة النظر، والقدرة على دقة التصرف. والاستيثاق: التأكد، ومعنى الاستيثاق: أخذ الوثيقة، وهي ما يعتمد عليه.

وَإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو أَنْ تَعُودَ مَنْزِلَتِي، وَمَا غُلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ لَمْ أَجِدْ حِيلَةً وَلا وَجْهًا إِلَّا الاحْتِيالَ لِآكِلِ الْعُشْبِ هٰذا حَتَّى أُفَرِّقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ، فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الْأَسَدَ عادَتْ لِي مَنْزِلَتِي[1]، وَلَعَلَّ ذٰلِكَ يَكُونُ خَيْرًا لِلْأَسَدِ، فَإِنَّ إِفْراطَهُ فِي تَقْرِيبِ الثَّوْرِ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ.

قال كليلة : ما أَرَى عَلَى الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ، وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْئًا وَلا شَرًّا. **قال دمنة** : إِنَّما يُؤْتَى السُّلْطَانُ، وَيَفْسُدُ أَمْرُهُ مِنْ قِبَلِ سِتَّةِ أَشْياءَ: الْحِرْمانِ، وَالْفِتْنَةِ، وَالْهَوَى، وَالْفَظاظَةِ، وَالزَّمانِ، وَالْخُرْقِ. فَأَمَّا الْحِرْمانُ فَأَنْ يُحْرَمَ مِنْ صالِحِي الْأَعْوانِ وَالنُّصَحاءِ وَالسَّاسَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَمانَةِ، وَأَنْ يَكُونَ مَنْ حَوْلَهُ فاسِدًا مانِعًا مِنْ وُصُولِ أُمُورِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُحْرَمَ هُوَ أَهْلَ النَّصِيحَةِ وَالصَّلاحِ مِنْ عِنايَتِهِ وَالْتِفاتِهِ إِلَيْهِمِ. وَأَمَّا الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحارُبُ رَعِيَّتِهِ وَوُقُوعُ الْخِلافِ وَالنِّزاعِ بَيْنَهُمْ[2].

وَأَمَّا الْهَوَى فَالْإِغْرامُ بِالنِّساءِ وَالْحَدِيثُ وَاللَّهْوُ وَالشَّرابُ وَالصَّيْدُ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَأَمَّا الْفَظاظَةُ فَهِيَ إِفْراطُ الشِّدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ اللِّسانُ بِالشَّتْمِ واليد بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِما. وَأَمَّا الزَّمانُ فَهُوَ ما يُصِيبُ النَّاسَ مِنَ السِّنِينَ مِنَ الْمَوْتانِ ، وَنَقْصِ الثَّمَراتِ، وَالْغَزَواتِ وَأَشْباهِ ذٰلِكَ[3].

وَأَمَّا الْخُرْقُ فَإِعْمالُ الشِّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللِّينِ، وَاللِّينِ فِي مَوْضِعِ الشِّدَّةِ. وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أُغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرامًا شَدِيدًا، هُوَ الَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ. قالَ كَلِيلَةُ: وَكَيْفَ تُطِيقُ الثَّوْرَ، وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ، وَأَكْثَرُ أَعْوانًا؟! قالَ دِمْنَةُ : لا تَنْظُرْ إِلَى صِغَرِي وَضُعْفِي؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضُّعْفِ وَلا الْقُوَّةِ وَلا الصِّغَرِ وَلا الكِبَرِ فِي الْجُثَّةِ، فَرُبَّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِحِيلَتِهِ وَدَهائِهِ وَرَأْيِهِ ما يَعْجَزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوِياءِ. أَوَ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرابًا ضَعِيفًا ٱحْتالَ لِأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ[4].

قالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟!

---

(١) آكِل العُشب يريد به الثور.

(٢) إفراطه: مجاوزته الحد. يُؤتَى السلطان: أي يأتيه ما يكره. الساسة: جمع سائس من سياسة الدولة. وهو من يتولى أمر الرعية ويدبرها، ويحسن النظر إليها. النجدة: الشدة والبأس.

(٣) الإغرام: الولع والتعلق . يجمع اللسان: يسبق إليه. السني: أي التي فيها الشدة والضيق. المؤتان: موت المواشي. الغزوات: جمع غزوة والمراد الحروب.

(٤) الأسود: حية عظيمة.

مثل الغراب والأسود

وهو مثل الضعيف يغلب القوي بالمشاورة والحيلة !

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ غُرابًا كانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ ثُعْبانٍ أَسْوَدَ، فَكانَ الْغُرابُ إِذا أَفْرَخَ عَمَدَ الْأَسْوَدُ إِلَى فِراخِهِ فَأَكَلَها. فَبَلَغَ ذٰلِكَ مِنَ الْغُرابِ؛ فَأَحْزَنَهُ، فَشَكَا ذٰلِكَ إِلى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَناتِ آوَى، وَقالَ لَهُ: أُرِيدُ مُشاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ، قالَ: وَمَا هُوَ؟ قالَ الْغُرابُ: قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْودِ إِذا نَامَ؛ فَأَنْقُرَ عَيْنَيْهِ فَأُفْقِأَهُما لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ مِنْهُ! قالَ ابْنُ آوَى: بِئْسَ الْحِيلَةُ الَّتِي احْتَلْتَ، فَالْتَمِسْ أَمْرًا تُصِيبُ فِيهِ بُغْيَتَكَ مِنَ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرِّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخاطِرَ بها[1].

وَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلَ الْعُلْجُومِ الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرَطانِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ! قالَ الْغُرابُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟ قالَ ابْنُ آوَى: زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجَمَةٍ كَثِيرَةِ السَّمَكِ، فَكانَ يَخْتَلِفُ إِلَى ما فِيهَا مِنَ السَّمَكِ، فَيَأْكُلُ مِنْهُ ، فَعاشَ بِها ما عاشَ، ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا فَأَصابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ، فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ فِي أَمْرِهِ ، فَمَرَّ بِهِ سَرَطانٌ فَرَأَى حالَتَهُ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَآبَةِ، وَالْحُزْنِ، فَدَنا مِنْهُ وَقالَ لَهُ: ما لِي أَراكَ أَيُّها الطَّائِرُ هٰكَذا حَزِينًا كَئِيبًا؟! قالَ الْعُلْجُومُ : وَكَيْفَ لا أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ صَيْدِ ما هٰهُنا مِنَ السَّمَكِ؟![2].

وَإِنِّي رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ مَرَّا بِهٰذا الْمَكَانِ، فَقالَ أَحَدُهُما لِصاحِبِهِ: إِنَّ هٰهُنا سَمَكًا كَثِيرًا أَفَلا نَصِيدُهُ أَوَّلًا؟! فَقالَ الْآخَرُ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانِ كَذا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هٰذا السَّمَكِ؛ فَلْنَبْدَأْ بِذٰلِكَ فَإِذا فَرَغْنا مِنْهُ جِئْنا إِلَى هٰذا أَفْنَيْنَاهُ! وَقَدْ عَلِمتُ أَنَّهُما إِذا فَرَغَا مِمَّا ثَمَّ، انْتَهَيا إِلَى هٰذِهِ الْأَجَمَةِ فَاصْطادا ما فِيها، فَإِذا كانَ ذٰلِكَ فَهُوَ هَلاكِي وَنَفَادُ مُدَّتِي[3]! فَانْطَلَقَ السَّرَطانُ إِلَى جَماعةِ السَّمَكِ، فَأَخْبَرَهُنَّ بِذٰلِكَ. فَأَقْبَلْنَ عَلَى الْعُلْجُومِ فَاسْتَشَرْنَهُ وَقُلْنَ لَهُ : إِنَّا أَتَيْناكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنا، فَإِنَّ ذا الْعَقْلِ لا يَدَعُ مُشاوَرَةَ عَدُوِّهِ وَبَقَاؤُكَ بِبَقائِنا. قالَ الْعُلْجُومُ: أَمَّا مُكابَرَةُ الصَّيَّادَيْنِ، فَلا

---

(١) حجر ثعبان : مكان حية ضخمة . فبلغ ذلك من الغراب : اشتد الأمر عليه . تغرر بنفسك : تخاطر بها .

(٢) العُلجُوم : طائر أبيض . يختلف إليها : يتردد . هرم : بلغ أقصى الكِبَر . سرطان : حيوان مائي .

(٣) ثَمّ : هناك . نفاد مدتي : فنائي وانتهاء أجلي .

طاقَةَ لِي بِهَا، وَلا أَعْلَمُ حِيلةً إِلَّا الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هُنا فِيهِ سَمَكٌ وَمِياهٌ كَثِيرةٌ وَقَصَبٌ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُنَّ الِانْتِقالَ إِلَيْهِ كانَ فِيهِ صَلاحُكُنَّ وَخِصْبُكُنَّ. فَقُلْنَ لَهُ : ما يَمُنُّ عَلَيْنا بِذٰلِكَ غَيْرُكَ[1].

فَجَعَلَ الْعُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ حتى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى بَعْضِ التِّلالِ، فَيَأْكُلُهُما. حَتَّى إِذا كانَ ذاتَ يَوْمٍ جاءَ لِأَخْذِ السَّمَكَتَيْنِ فَجاءَهُ السَّرَطانُ فَقالَ لَهُ: إِنِّي أَيْضًا قَدْ أَشْفَقْتُ مِنْ مَكانِي هٰذا وَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ فَاذْهَبْ بِي إِلَى ذٰلِكَ الْغَدِيرِ فَقالَ لَهُ : حُبًّا وَكَرامةً وَاحْتَمَلَهُ وَطارَ بِهِ حَتَّى إِذا دَنا مِنَ التَّلِّ الَّذِي كانَ يَأْكُلُ السَّمَكَ فِيهِ، نَظَرَ السَّرَطانُ فَرَأَى عِظامَ السَّمَكِ مَجْمُوعةً هُناكَ، فَعَلِمَ أَنَّ الْعُلْجُومَ هُوَ صاحِبُها، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذٰلِكَ؛ فَقالَ فِي نَفْسِهِ: إِذا لَقِيَ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ فِي الْمَواطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيها هالِكٌ سَواءٌ قاتَلَ أَمْ لَمْ يُقاتِلْ كانَ حَقِيقًا أَنْ يُقاتِلَ عَنْ نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفاظًا[2]، وَلاَ يُمَكِّنُهُ مِنْ نَفْسِهِ حَتَّى يَسْتَفْرِغَ ما عِنْدَهُ مِنَ الْحِيلةِ فِي قِتالِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ بَنَى أَمْرَهُ عَلَى التَّلَفِ؛ فَلَعَلَّ خَلاصَهُ فِي ذٰلِكَ الْقِتالِ وَالْهَلاكُ واقِعٌ بِهِ كَيْفَ كانَ. فَلَمْ يَزَلْ يَحْتالُ عَلَى الْعُلْجُومِ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ عُنُقِهِ فَأَهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ عَلَيْها فَعَصَرَها فَماتَ! وَتَخَلَّصَ السَّرَطانُ إِلَى جَماعةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذٰلِكَ. **وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلةِ مَهْلَكةٌ لِلْمُحْتالِ.** وَلٰكِنِي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ كانَ فِيهِ هَلاكُ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ وَتَكُونُ فِيهِ سَلامتُكَ[3].

قالَ الْغُرابُ : وَمَا ذاكَ ؟ قالَ ابْنُ آوَى : تَنْطَلِقُ فَتَتَبَصَّرُ فِي طَيَرانِكَ لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ بِشَيْءٍ مِنْ حُلِيِّ النِّساءِ فَتَخْطَفُهُ، وَلا تَزالُ طائِرًا واقِعًا بِحَيْثُ لا تَفُوتُ الْعُيُونَ فَإِذا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ تَبِعُوكَ، تَأْتِي جُحْرَ الْأَسْوَدِ، فَتَرْمِي بِالْحُلِيِّ عِنْدَهُ. فَإِذا رَأَى النَّاسُ ذٰلِكَ أَخَذُوا حُلِيَّهُمْ، وَأَراحُوكَ مِنَ الْأَسْوَدِ. فَانْطَلَقَ الْغُرابُ مُحَلِّقًا فِي السَّماءِ فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَناتِ الْعُظَماءِ، عَلَى شاطِئِ نَهْرٍ تَغْتَسِلُ، وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيابَها وَحُلِيَّها ناحِيةً، فَانْقَضَّ وَاخْتَطَفَ مِنْ حُلِيِّها عِقْدًا، وَطارَ بِهِ فَتَبِعَهُ النَّاسُ، وَلَمْ يَزَلْ طائِرًا واقِعًا بِحَيْثُ يَراهُ كُلُّ أَحَدٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْأَسْوَدِ فَأَلْقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ،

---

(١) مكابرة الصيادين: مغالبتهم، ومعاندتهم. فلا طاقة لي بها: لا قدرة لي عليها. غدير: نهر. وخِصْبكن: رفاهة عيشكن. ما يمنّ: ما ينعم.

(٢) أشفقت: خِفت. حُبًا وكرامة: الحبّ الجرة، وكرامة: غطاؤها، قيل: إن أحدهم طلب من آخر حُبًا. أي جَرّة فقال له: حُبًا وكرامة. أي: خذ؛ فذهب مثلا يضرب لمن يطلب شيئا فيعطي شيئين وقيل غير ذلك. حفاظاً: محافظة وعزة ودفاعًا عن نفسه.

(٣) أهوى: هجم. بكلبتيه: أي نابيه.

وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. فَلَمَّا أَتَوْا أَخَذُوا الْعِقْدِ وَقَتَلُوا الْأَسْوَدَ[1].

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْزِئُ ما لا تُجْزِئُ الْقُوَّةُ . قال كليلة : إِنَّ الثَّوْرَ لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكانَ كَما تَقُولُ ، وَلٰكِنَّ لَهُ مَعَ شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ فَماذا تَسْتَطِيعُ لَهُ؟ **قال دمنة :** إِنَّ الثَّوْرَ لَكَما ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ، وَرَأْيِهِ، وَلٰكِنَّهُ مُقِرٌّ لِي بِالْفَضْلِ، وَأَنا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ كَما صَرَعَتِ الْأَرْنَبُ الْأَسَدَ. **قال كليلة :** وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟[2].

مثل الأرنب والأسد

وهو مثل الضعيف يغلب بالمشاورة والحيلة القوي

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِياهِ وَالْعُشْبِ، وَكانَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِياهِ وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ. إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُها ذٰلِكَ لِخَوْفِها مِنَ الْأَسَدِ؛ فَاجْتَمَعَتْ ، وَأَتَتْ إِلَى الْأَسَدِ، فَقالَتْ لَهُ: إِنَّكَ لَتُصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ والتَّعَبِ. وَقَدْ رَأَيْنا لَكَ رَأْيًا فِيهِ صَلاحٌ لَكَ، وَأَمْنٌ لَنا. فَإِنْ أَنْتَ أَمَّنْتَنا، وَلَمْ تُخِفْنا؛ فَلَكَ عَلَيْنا فِي كُلِّ يَوْمٍ دابَّةٌ نُرْسِلُ بِها إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدائِكَ. فَرَضِيَ الْأَسَدُ بِذٰلِكَ، وَصالَحَ الْوَحْشَ عَلَيْهِ، وَوَفَيْنَ لَهُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ أَرْنَبًا أَصابَتْها الْقُرْعَةُ، وَصارَتْ غَداءَ الْأَسَدِ؛ فَقالَتْ لِلْوُحُوشِ: إِنْ أَنْتُنَّ رَفَقْتُنَّ بِي فِيما لا يَضُرُّكُنَّ رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنَ الْأَسَدِ[3].

فقالت الوحوش : وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِينَنَا مِنَ الْأُمُورِ؟. قالَتْ: تَأْمُرْنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الْأَسَدِ أَنْ يُمْهِلَنِي رَيْثَما أُبْطِئُ عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِبْطاءِ؛ فَقُلْنَ لَها: ذٰلِكَ لَكِ. فَانْطَلَقَتِ الْأَرْنَبُ مُتَباطِئَةً ، حَتَّى جاوَزَتِ الْوَقْتَ الَّذِي كانَ يَتَغَدَّى فِيهِ الْأَسَدُ! ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحْدَها رُوَيْدًا ، وَقَدْ جاعَ ؛ فَغَضِبَ وَقامَ مِنْ مَكانِهِ نَحْوَها، فَقالَ لَها: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتِ؟ قالَتْ: أَنا رَسُولُ الْوُحُوشِ إِلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثْنَنِي وَمَعِي أَرْنَبٌ لَكَ، فَتَبِعَنِي أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَأَخَذَها مِنِّي ، وَقالَ : أَنا أَوْلَى بِهٰذِهِ الْأَرْضِ وَمَا فِيها مِنَ الْوَحْشِ[4].

---

(١) فتبصر : أي تطلب أن ترى . واقعا : أي تطير وتقع . من وقع الطائر إذا نزل على شجر أو أرض . محلقا : أي مرتفعا بطيرانه مستديرا كالحلقة . فانقض : سقط بسرعة . عِقْدًا : قلادة توضع في العنق .

(٢) تجزئ : تغني . أصرعه : أهلكه . (٣) القُرعة : حيلة وطريقة يتعين بها سهم الإنسان ونصيبه .

(٤) ريثما : أي مقدارًا من الزمان ومهلة مّا . متباطئة : غير متسرعة . رُوَيدًا : متأنية .

فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّ هٰذا غَداءُ الْمَلِكِ أَرْسَلَتْ بِهِ الْوُحُوشُ إِلَيْهِ ، فَلا تَغْصِبَنَّهُ، فَسَبَّكَ وَشَتَمَكَ ؛ فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعةً لِأُخْبِرَكَ! فَقالَ الْأَسَدُ : انْطَلِقِي مَعِي فَأَرِينِي مَوْضِعَ هٰذا الْأَسَدِ؛ فَانْطَلَقَتِ الْأَرْنَبُ إِلَى جُبٍّ فِيهِ ماءٌ غامِرٌ صافٍ؛ فَاطَّلَعَتْ فِيهِ وَقالَتْ: هٰذا الْمَكان. فاطَّلَعَ الْأَسَدُ فَرَأَى ظِلَّهُ، وَظِلَّ الْأَرْنَبِ فِي الْماءِ فَلَمْ يَشُكَّ فِي قَوْلِهَا وَوَثَبَ الْأَسَدُ لِيُقاتِلَهُ فَغَرِقَ فِي الْجُبِّ! فَانْقَلَبَتِ الْأَرْنَبُ إِلَى الْوُحُوشِ ، فَأَعْلَمَتْهُنَّ صَنِيعَها بِالْأَسَدِ[1].

قال كليلة : إِنْ قَدَرْتَ عَلَى هَلاكِ الثَّوْرِ بِشَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْأَسَدِ فَشَأْنَكَ، فَإِنَّ الثَّوْرَ قَدْ أَضَرَّ بِي وَبِكَ وَبِغَيْرِنَا مِنَ الْجُنْدِ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذٰلِكَ إِلَّا بِهَلاكِ الْأَسَدِ فَلا تُقْدِمْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ غَدْرٌ مِنِّي وَمِنْكَ . ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الْأَسَدِ أَيَّامًا كَثِيرةً ، ثُمَّ أَتاهُ عَلَى خَلْوةٍ مِنْهُ، فَقالَ لَهُ الْأَسَدُ: ما حَبَسَكَ عَنِّي مُنذُ زَمانٍ لَمْ أَرَكَ؟ أَلا لِخَيْرٍ كانَ انْقِطاعُكَ؟ قالَ دِمْنةُ: لِيَكُنْ خَيْرًا أَيُّها الْمَلِكُ. قالَ الْأَسَدُ : وَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ؟ قالَ دِمْنةُ: حَدَثَ ما لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ ، وَلا أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ. قالَ: وَمَا ذاكَ؟ قالَ: كَلامٌ فَظِيعٌ!! قالَ : أَخْبِرْنِي بِهِ[2].

قال دمنة : إِنَّ كُلَّ كَلامٍ يَكْرَهُهُ سامِعُهُ، لا يَجْسُرُ عَلَيْهِ قائِلُهُ، وَإِنْ كانَ ناصِحًا مُشْفِقًا إِلَّا إِذا كانَ الْمَقُولُ لَهُ عاقِلًا، فَإِنِ اتَّفَقَ ذٰلِكَ حَمَلَ الْقَوْلَ عَلَى عَمَلِ الْمَحَبَّةِ، وَعِلِمَ ما فِيهِ مِنَ النَّصِيحةِ؛ لِأَنَّ ما كانَ فِيهِ مِنْ نَفْعٍ فَهُوَ لَهُ. وَإِنَّكَ أَيُّها الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلةٍ، وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ عَلَى أَنْ يُوجِعَنِي أَنْ أَقُولَ ما تَكْرَهُ، وَإِنِّي واثِقٌ بِكَ أَنَّكَ تَعْرِفُ نُصْحِي وَإِيثارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي ، وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِي أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقِي فِيما أُخْبِرُكَ بِهِ، وَلٰكِنِّي إِذا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نُفُوسَنا مَعَاشِرَ الْوُحُوشِ مُتَعَلِّقةٌ بِكَ، لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ أَداءِ النُّصْحِ الَّذِي يَلْزَمُنِي، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي أَوْ خِفْتُ أَلَّا تَقْبَلَهُ مِنِّي ؛ فَإِنَّهُ يُقالُ : **مَنْ كَتَمَ السُّلْطانَ نَصِيحتَهُ وَالْأَطِبَّاءَ مَرَضَهُ وَالْإِخْوانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خانَ نَفْسَهُ**[3].

قال الأسد : فَمَا ذاكَ؟ قالَ دِمْنةُ: حَدَّثَنِي الْأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرَبةَ خَلا بِرُءُوسِ جُنْدِكَ؛ وَقالَ لَهُمْ : إِنِّي قَدْ خَبَرْتُ الْأَسَدَ، وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدتَهُ وَقُوَّتَهُ، فَاسْتَبانَ لِي أَنَّ ذٰلِكَ يَؤُولُ مِنْهُ إِلَى ضُعْفٍ وَعَجْزٍ ، وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّئُونِ[4].

---

(١) جُب: بئر. غامر: كثير. وثب: قفز. فانقلبت: رجعت. صنيعها: فعلها.

(٢) فشأنك: أي افعل ما تريد. فلا تُقدم : أي: لا تجترئ.

(٣) لا يجسُر: لا يجرؤ. مشفقا: حريصا على إصلاحه. وإيثاري إياك: تفضيلي. ليعرض: ليظهر . معاشر الوحوش: جماعة الوحوش. أداء النصح: إيصاله.

(٤) خَبَرت الأسد: امتحنت. بلوت: جربت. ومكيدته: مكره وحيلته. يَئول منه: يرجع. شأن: أمر.

فَلَمَّا بَلَغَني ذٰلِكَ عَلِمتُ أَنَّ شَتْرَبةَ خَوَّانٌ غَدَّارٌ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرامةَ كُلَّها، وَجَعَلْتَهُ نَظِيرَ نَفْسِكَ، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ، وَأَنَّكَ مَتَى زُلْتَ عنْ مَكَانِكَ، كانَ لَهُ مُلْكُكَ، وَلا يَدَعُ جُهْدًا إِلَّا بَلَغَهُ فِيكَ. وَقَدْ كانَ يُقالُ إِذا عَرَفَ المَلِكُ مِنْ أَحَدِ رَعِيَّتِهِ أَنَّهُ قَدْ ساواهُ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْحَالِ فَلْيَصْرَعْهُ، فَإِنْ هُوَ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذٰلِكَ كانَ هُوَ الْمَصْرُوعَ. وَشَتْرَبةُ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيها، وَالْعاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتالُ لِلْأَمْرِ قَبْلَ تَمامِهِ وَوُقوعِهِ؛ فَإِنَّكَ لا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَأَلَّا تَسْتَدْرِكَهُ. فَإِنَّهُ يُقالُ: الرِّجالُ ثَلاثَةٌ: حازِمٌ، وَأَحْزَمُ مِنْهُ، وَعاجِزٌ. فَأَحَدُ الْحازِمَيْنِ مَنْ إِذا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ شَعاعًا، وَلَمْ تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْمَخْرَجَ مِنْهُ[1].

وَأَحْزَمُ مِنْ هٰذا الْمِقْدامُ ذُو العُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْابْتِلاءَ قَبْلَ وُقُوعِهِ فَيُعْظِمُهُ إِعْظامًا، وَيَحْتالُ لَهُ حِيلةً حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ، وَيَدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وُقُوعِهِ. وَأَمَّا الْعاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوانٍ، حَتَّى يَهْلِكَ. وَمِنْ أَمْثالِ ذٰلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلاثِ. قالَ الْأَسَدُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟[2].

مثل السمكات الثلاث

وهو مثل الحازم الذي يقع في الورطة فينجو بالحيلة، والأحزم الذي لا يقع فيها، والعاجز الذي يقع فيها فيهلك

قال دِمْنةُ: زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كانَ فِيهِ ثَلاثٌ مِنَ السَّمَكِ : كَيِّسةٌ، وَأَكْيَسُ مِنْها، وَعَاجزةٌ. وَكَانَ ذٰلِكَ الْغَدِيرُ بِنَجْوةٍ مِنَ الْأَرْضِ، لا يَكادُ يَقْرَبُهُ أَحَدٌ ، وَبِقُرْبِهِ نَهْرُ جارٍ، فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتازَ بِذٰلِكَ النَّهْرِ صَيَّادانِ، فَأَبْصَرا الْغَدِيرَ، فَتَوَاعَدا أَنْ يَرْجعا إِلَيْهِ بِشِباكِهِما ، فَيَصِيدا ما فِيهِ مِنَ السَّمَكِ؛ فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُما؛ فَأَمَّا أَكْيَسُهُنَّ فَلَما سَمِعَتْ قَوْلَهُما ارْتابتْ بِهِما، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا فَلَمْ تُعَرِّجْ عَلَى شَيْءٍ، حَتَّى خَرَجَتْ مِنَ الْمَكانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْماءُ مِنَ النَّهْرِ إِلَى الْغَدِيرِ فَنَجَتْ بِنَفْسِها، وَأَمَّا الْكَيِّسةُ الْأُخْرَى فَإِنَّها مَكَثَتْ مَكَانَها وَتَهَاوَنَتْ فِي الْأَمْرِ حَتَّى جاءَ الصَّيادانِ، فَلَمَّا رَأَتْهُما وَعَرَفَتْ ما يُرِيدانِ ذَهَبَتْ لِتَخْرُجَ مِنْ حَيْثُ يَدْخُلُ الْماءُ، فَإِذا بِهِما قَدْ سَدَّا ذٰلِكَ الْمَكَانَ.

---

(١) جهدا: طاقة واحتياطا. وألا تستدركه: تتلافاه. لم يدهش له: يتحير. شعاعاً: متفرقا. ولم تَغْيَ به حيلته: لم تعجز.

(٢) المقدام: الجريء الكثير الإقدام. الابتلاء: المحنة. فيُعْظِمُه: أي يعده عظيما. فيحسم: يقطع. وتوانٍ: فتور وتقصير.

فَحِينَئِذٍ قالَتْ: فَرَطْتُ، وَهٰذِهِ عاقِبَةُ التَّفْرِيطِ! فَكَيْفَ الْحِيلَةُ عَلَى هٰذِهِ الْحالِ! وَقَلَّما تَنْجَحُ حِيلَةُ الْعَجَلَةِ وَالْإِرْهاقِ[1]؟!

غَيْرَ أَنَّ الْعاقِلَ لا يَقْنَطُ مِنْ مَنافِعِ الرَّأْيِ، وَلا يَيْأَسُ عَلَى حالٍ، وَلا يَدَعُ الرَّأْيَ وَالْجَهْدَ. ثُمَّ إِنَّها تَماوَتَتْ، فَطَفَتْ عَلَى وَجْهِ الْماءِ مُنقَلِبَةً عَلَى ظَهْرِها تارَةً وَتارَةً عَلَى بَطْنِها. فَأَخَذَها الصَّيَّادَانِ وَظَنَّاها مَيِّتَةً فَوَضَعاها عَلَى الْأَرْضِ بَيْنَ النَّهْرِ وَالْغَدِيرِ، فَوَثَبَتْ إِلَى النَّهْرِ فَنَجَتْ[2].

وَأَمَّا الْعاجِزَةُ فَلَمْ تَزَلْ فِي إِقْبالٍ وَإِدْبارٍ حَتَّى صِيدَتْ! قالَ الْأَسَدُ: قَدْ فَهِمْتُ ذٰلِكَ، وَلا أَظُنُّ الثَّوْرَ يَغُشُّنِي، وَلا يَرْجُو لِيَ الْغَوائِلَ. وَكَيْفَ يَفْعَلُ ذٰلِكَ وَلَمْ يَرَ مِنِّي سُوءًا قَطُّ، وَلَمْ أَدَعْ خَيْرًا إِلَّا فَعَلْتُهُ مَعَهُ، وَلا أُمْنِيَّةً إِلَّا بَلَّغْتُهُ إِيَّاها. قال دمنة: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّهُ لَمْ يَحمِلْهُ عَلَى ذٰلِكَ إِلَّا ما ذَكَرْتَهُ مِنْ إِكْرامِكَ لَهُ وَتَبْلِيغِكَ إِيَّاهُ كُلَّ مَنْزِلَةٍ خَلا مَنْزِلَتَكَ، وَإِنَّهُ مُتَطَلِّعٌ إِلَيْها. فَإِنَّ اللَّئِيمَ لا يَزالُ نافِعًا ناصِحًا حَتَّى يُرْفَعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي لَيْسَ لَها بِأَهْلٍ، فَإِذا بَلَغَها اشْرَأَبَّتْ نَفْسُهُ إِلَى ما فَوْقَها وَلا سِيَّما أَهْلُ الْخِيانَةِ وَالْفُجُورِ. فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفاجِرَ لا يَخْدُمُ السُّلْطانَ، وَلا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا مِنْ فَرَقٍ أَوْ حاجَةٍ، فَإِذا اسْتَغْنَى، وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ، وَالْحاجَةُ عادَ إِلَى جَوْهَرِهِ. كَذَنَبِ الْكَلْبِ الَّذِي يُرْبَطُ لِيَسْتَقِيمَ، فَلا يَزالُ مُسْتَوِيًا ما دامَ مَرْبُوطًا فَإِذا حُلَّ انْحَنَى وَتَعَوَّجَ كَما كانَ[3].

وَاعْلَمْ أَيُّها الْمَلِكُ، أَنَّهُ مِنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نُصَحائِهِ ما يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ لَمْ يَحْمَدْ غِبَّ رَأْيِهِ، كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدَعُ ما يَصِفُ لَهُ الطَّبِيبُ، وَيَعْمِدُ لِما تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، وَحَقٌّ عَلَى مُؤازِرِ السُّلْطانِ أَنْ يُبالِغَ فِي التَّحْضِيضِ لَهُ عَلَى ما يَزِيدُ بِهِ سُلْطانُهُ قُوَّةً وَيَزِينُهُ وَالْكَفِّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَشِينُهُ[4].

وَخَيْرُ الْإِخْوانِ وَالْأَعْوانِ أَقَلُّهُمْ مُداهَنَةً فِي النَّصِيحَةِ، وَخَيْرُ الْأَعْمالِ أَحْمَدُها عاقِبَةً، وَخَيْرُ النِّساءِ الْمُوافِقَةُ لِبَعْلِها، وَخَيْرُ الثَّناءِ ما كانَ عَلَى أَفْواهِ الْأَخْيارِ، وَأَفْضَلُ الْمُلُوكِ مَنْ لا يُخالِطُهُ بَطَرٌ وَلا يَسْتَكْبِرُ عَنْ قَبُولِ النَّصِيحَةِ. وَخَيْرُ الْأَخْلاقِ أَعْوَنُها عَلَى الْوَرَعِ. وَقَدْ قِيلَ: لَوْ أَنَّ امْرَأً تَوَسَّدَ النَّارَ، وَافْتَرَشَ الْحَيَّاتِ، كانَ أَحَقَّ أَنْ يَهْنِئَهُ النَّوْمُ مِمَّنْ يُحِسُّ مِنْ صاحِبِهِ بِعَداوَةٍ يُرِيدُهُ بِها،

---

(١) كَيِّسة: عاقلة حسنة التأني. بنجوة: ما ارتفع من الأرض. اجتاز: مَرّ. ارتابت: شكت. لم تعرّج: أي لم تقف ولم تعطف، ولم تَمِل. فرّطت: قصّرت. الإرهاق: الضيق والعسر.

(٢) لا يقنط: لا يقطع الأمل. تماوتت: أظهرت أنها ميتة. طفت: علت على وجه الماء.

(٣) الغوائل: المهالك التي تغتال الإنسان والحيوان. أمنية: ما يتمناه. لم يحمله: لم يُغره. متطلع: رافع بصره ينظر إليها. اشرأبت: ارتفعت وتطاولت. الفجور: المعاصي. فَرَق: خوف. جوهره: أصله.

(٤) غِبّ رأيه: عاقبته. مؤازر السلطان: معاونه. التحضيض: الحث. يشينه: يعيبه.

وَيطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَأَعْجَزُ الْمُلُوكِ آخَذُهُمْ بِالهُوَيْناءِ وَأَقَلُّهُمْ نَظَرًا فِي مُسْتَقْبَلِ الْأُمُورِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهَائِجِ الَّذِي لا يلْتَفِتُ إِلى شَيْءٍ، فَإِنْ أَحْزَنَهُ أَمْرٌ تَهاوَنَ بِهِ، وَإِنْ أَضاعَ الْأُمُورَ حَمَلَ ذٰلِكَ عَلَى قُرَنائِهِ[1].

قال الأسد : لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي الْقَوْلِ وَقَوْلُ النَّاصِحِ مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ!! وَإِنْ كانَ شَتْرَبةُ مُعادِيًا لِي كَما تَقُولُ ، فَإِنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَضُرَّنِي، وَلا أَنْ يَفُتَّ فِي ساعِدِي، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذٰلِكَ، وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ، وَأَنا آكِلُ لَحْمٍ؟. وَإِنَّما هُوَ لِي طَعامٌ، وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخافَةٌ. ثُمَّ لَيْسَ إِلَى الْغَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الْأَمانِ الَّذِي جَعَلْتُهُ لَهُ، وَبَعْدَ إِكْرامِي لَهُ، وَثَنائِي عَلَيْهِ، وَإِنْ غَيَّرْتُ ما كانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ. فَقَدْ سَفَّهْتُ رَأْيِي، وَجَهَّلْتُ نَفْسِي، وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي، وَنَقَضْتُ عَهْدِي[2]!

قال دمنة :لا يَغُرَّنَّكَ قَوْلُكَ هُوَ لِي طَعامٌ وَلَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ مَخافَةٌ؛ فَإِنَّ شَتْرَبةَ إِنْ لَم يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ، احْتالَ لَكَ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ. وَيُقالُ : إِنِ اسْتَضافَكَ ضَيْفٌ ساعةً مِنْ نَهارٍ، وَأَنْتَ لا تَعْرِفُ أَخْلاقَهُ فَلا تَأْمَنْهُ عَلَى نَفْسِكَ، وَلا تَأْمَنْ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ ما أَصابَ الْقَمْلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ! قالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟!

مثل القملة والبُرغوث

وهو مثل من يُصيبه الشر بسبب غيره

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ قَمْلَةً لَزِمَتْ فِراشَ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِياءِ دَهْرًا، فَكانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نائِمٌ لا يَشْعُرُ، وَتَدِبُّ دَبِيبًا رَفِيقًا. فَمَكَثَتْ كَذٰلِكَ حِينًا حَتَّى اسْتَضافَها لَيْلَةً مِنَ اللَّيالِي، بُرْغُوثٌ، فَقالَتْ لَهُ : بِتِ اللَّيْلَةَ عِنْدَنا فِي دَمٍ طَيِّبٍ، وَفِراشٍ لَيِّنٍ! فَأَقامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَها، حَتَّى إِذا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِراشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ الْبُرْغُوثُ فَلَدَغَهُ لَدْغَةً أَيْقَظَتْهُ وَأَطارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ. فَقامَ الرَّجُلُ، وَأَمَرَ أَنْ يُفَتَّشَ فِراشُهُ، فَنُظِرَ فَلَمْ يُرَ إِلَّا الْقَمْلَةُ، فَأُخِذَتْ فَقُصِعَتْ، وَفَرَّ الْبُرْغُوثُ![4].

---

(١) مداهنة : غشًا وتدليساً . بطر : طغيان بالنعمة . الورع : التقوى . توسّد النار : اتخذها وسادة أي مخدة . افترش الحيات : اتخذها فراشا . آخذهم : أكثرهم أخذا . الهويناء : الرفق والتأني والمراد بها هنا الفتور والتواني . تهاون : استحقره واستهزأ به . قرنائه : جمع قرين وهو العشير .

(٢) يَفُتَّ في ساعدي : يضعفني . سفّهت رأيي : نسبته إلى السفه . جَهّلت نفسي : نسبتها إلى الجهل . وغدرت بذمتي : عهدي وحرمتي . نقضت عهدي : أبطلته ولم أحافظ عليه .

(٣) استضافك : طلب منك أن تنزله ضيفا عليك .

(٤) رفيقا : لطيفا بحيث لا يشعر بها . فقصعت : أي قتلت بالظفر .

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لا يَسْلَمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ. وَإِنْ هُو ضَعُفَ عَنْ ذٰلِكَ جاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ. وَإِنْ كُنْتَ لا تَخافُ مِنْ شَتْرَبةَ، فَخَفْ غَيْرَهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَرَّشَهُمْ عَلَيْكَ، وَحَمَلَهُمْ عَلَى عَداوتِكَ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ كَلامُ دِمْنةَ، فَقالَ: فَما الَّذِي تَرَى إِذَنْ؟ وَبِماذا تُشِيرُ؟ **قال دمنة : إِنَّ الضِّرْسَ الْمَأْكُولَ لا يَزَالُ صاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذًى حَتَّى يَقْلَعَهُ،والطَّعامَ الَّذِي قَدْ عَفِنَ فِي الْبَطْنِ الرَّاحةُ فِي قَذْفِهِ، وَالْعَدُوَّ الْمُخِيفَ دَوَاؤُهُ قَتْلُهُ**(١).

قالَ الْأَسَدُ : لَقَدْ تَرَكْتَنِي أَكْرَهُ مُجاوَرةَ شَتْرَبةَ إِيَّايَ، وَأَنا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ، وَذَاكِرٌ لَهُ ما وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ ؛ ثُمَّ أَمَرَهُ بِاللِّحاقِ حَيْثُ أَحَبَّ. فَكَرِهَ دِمْنةُ ذٰلِك، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ مَتَى كَلَّمَ شَتْرَبةَ فِي ذٰلِكَ، وَسَمِعَ مِنْهُ جَوابًا، عَرَف باطِلَ ما أَتَى بِهِ، وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ! فَقالَ لِلْأَسَدِ: أَمَّا إِرْسالُكَ إِلَى شَتْرَبةَ فَلا أَراهُ لَكَ رَأْيًا وَلا حَزْمًا؛ فَلْيَنْتَظِرِ الْمَلِكُ فِي ذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ لا يَزالُ لَكَ فِي نَفْسِكَ الْخِيارُ ما دامَ لا يَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَهُ قَدْ وَصَلَ إِلَيْكَ. فَإِنَّهُ مَتَى عَلِمَ ذٰلِكَ خِفْتُ أَنْ يُعاجِلَ الْمَلِكَ بِالْمُكابَرةِ. وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا، وَإِنْ فَارَقَكَ فِراقًا يَلِيكَ مِنْهُ النَّقْصُ، وَيَلْزَمُكَ مِنْهُ الْعارُ. مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لا يُعْلِنُونَ عُقُوبةَ مَنْ لَمْ يُعْلِنْ ذَنْبَهُ. وَلٰكِنَّ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُم عُقُوبةً: فَلِذَنْبِ الْعَلانِيَةِ عُقُوبةُ الْعَلانِيَةِ، وَلِذَنْبِ السِّرِّ عُقُوبةُ السِّرِّ(٢).

قالَ الْأَسَدُ : إِنَّ الْمَلِكَ إِذا عاقَبَ أَحَدًا عَنْ ظِنَّةٍ ظَنَّها مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ لِجُرْمِهِ فَنَفْسَهُ عاقَبَ، وَإِيَّاها ظَلَمَ، وَكَانَ ناقِصَ الْبَصِيرةِ! قالَ دِمْنةُ : أَمَّا إِذا كانَ هٰذا رَأْيَ الْمَلِكِ فَلا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شَتْرَبةُ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَهُ مِنْكَ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ؛ فَإِنِّي لا أَحْسِبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمةٍ(٣).

وَمِنْ عَلاماتِ ذٰلِكَ أَنَّكَ تَرَى هَيْئَتَهُ مُتَغَيِّرةً، وَتَرَى أَوْصَالَهُ تُرْعَدُ، وَتَراهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمالًا، وَتَراهُ يُصَوِّبُ قَرْنَيْهِ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطاحِ وَالْقِتالِ! قالَ الْأَسَدُ: سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ، وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ ما يَدلُّ عَلَى ما ذَكَرْتَ عَلِمْتُ أَنَّ ما فِي أَمْرِهِ شَكٌّ. فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنةُ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ ما كانَ يَلْتَمِسُ، وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَذَّرُ مِنَ الثَّوْرِ، وَيَتَهَيَّأُ لَهُ، أَرادَ

---

(١) حرّشهم عليك: أغراهم بك. فوقع في نفس الأسد: أثر فيها. الضرس المأكول: المنخور.
(٢) باللحاق: الإدراك. لا يزال لك الخيار: أي أن الأمر مفوض إليك ولا تزال خيراً. بالمكابرة: بالمعاندة. يليك: يلحقك.
(٣) ظِنّة: تهمة. لجرمه: ذنبه. غِرّة: غفلة.

أَنْ يَأْتِيَ الثَّوْرَ لِيُغْرِيَهُ بَالْأَسَدِ، وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ إِتْيانُهُ مِنْ قِبَلِ الْأَسَدِ مَخافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذٰلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ[1]!.

فقال : أَيُّها الْمَلِكُ، أَلا آتِي شَتْرَبَةَ ؛ فَأَنْظُرَ إِلَى حالِهِ وَأَمْرِهِ، وَأَسْمَعَ كَلامَهُ؛ لَعَلِّي أَنْ أَطَّلِعَ عَلَى سِرِّهِ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذٰلِكَ، وَعَلَى ما يَظْهَرُ لِي مِنْهُ؟! فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذٰلِكَ، فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى شَتْرَبَةَ كَالْكَئِيبِ الْحَزِينِ! فَلَمَّا رَآهُ الثَّوْرُ رَحَّبَ بِهِ، وَقالَ: ما كانَ سَبَبَ انْقِطاعِكَ عَنِّي؟ فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ، أَسَلامَةٌ هُوَ؟ **قال دمنة** : وَمَتَى كانَ مِنْ أَهْلِ السَّلامَةِ مَنْ لا يَمْلِكُ نَفْسَهُ ؟! وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لا يُوثَقُ بِهِ، وَلا يَنْفَكُّ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ، حَتَّى ما مِنْ ساعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيها عَلَى نَفْسِهِ[2].

قال شتربة : وَما الَّذِي حَدَثَ؟ قالَ دِمْنَةُ : حَدَثَ ما قُدِّرَ وَهُوَ كائِنٌ، وَمَنْ ذا الَّذِي غالَبَ الْقَدَرَ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيا جَسِيمًا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَتَطَرْ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي بَلَغَ مُناهُ فَلَمْ يَغْتَرَّ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي تَبِعَ هَواهُ فَلَمْ يَخْسَرْ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي حادَثَ النِّساءَ فَلَمْ يُصَبْ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللِّئامِ فَلَم يُحْرَمْ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي خالَطَ الْأَشْرارَ فَسَلِمَ؟! وَمَنْ ذا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطانَ فَدامَ لَهُ مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسانُ؟! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قالَ : **مَثَلُ السَّلاطِينِ فِي قِلَّةِ وَفائِهِمْ لِمَنْ صَحِبَهُمْ وَسَخاءِ أَنْفُسِهِمْ بِمَنْ فَقَدُوا مِنْ قُرَنائِهِمْ كَمَثَلِ صاحِبِ الْخانِ كُلَّمَا فَقَدَ واحِدًا جاءَ آخَرُ**. قالَ شَتْرَبَةُ : إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلامًا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ رابَكَ مِنَ الْأَسَدِ رَيْب، وَهالَكَ مِنْهُ أَمْرٌ. قالَ دِمْنَةُ : أَجَلْ لَقَدْ رابَنِي مِنْهُ ذٰلِكَ، وَلَيْسَ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي. قالَ شَتْرَبَةُ: فَفِي نَفْسِ مَنْ رابَكَ. قالَ دِمْنَةُ: قَدْ تَعْلَمُ ما بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثاقِ أَيَّامَ أَرْسَلَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ، فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ حِفْظِكَ وَإِطْلاعِكَ عَلَى ما اطَّلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخافُ عَلَيْكَ مِنْهُ. قالَ شَتْرَبَةُ: وَما الَّذِي بَلَغَكَ؟ قالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْخَبِيرُ الصَّدُوقُ الَّذِي لا مِرْيَةَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قالَ لِبَعْضِ أَصْحابِهِ وَجُلَسائِهِ: قَدْ أَعْجَبَنِي سِمَنُ الثَّوْرِ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَياتِهِ حاجَةٌ، فَأَنا آكِلُهُ وَمُطْعِمٌ أَصْحابِي مِنْ لَحْمِهِ، فَلَمَّا بَلَغَنِي هٰذا الْقَوْلُ، وَعَرَفْتُ غَدْرَهُ وَسُوءَ عَهْدِهِ، أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ؛ لِأَقْضِيَ حَقَّكَ، وَتَحْتالَ أَنْتَ لِأَمْرِكَ!. فَلَمَّا سَمِعَ شَتْرَبَةُ كَلامَ دِمْنَةَ، وَتَذَكَّرَ ما كانَ دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثاقِ، وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الْأَسَدِ، ظَنَّ أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ، وَنَصَحَ لَهُ، وَرَأَى

---

(١) أوصاله : مفاصله . ترعد : ترتعد وترتعش وتهتز . يصوب قرنيه : يحكمهما نحوك . ليغريه بالأسد : ليحرشه عليه .
(٢) كالكئيب : كالمغموم المنكسر الخاطر . رحب به : قال له مرحبا وأحسن استقباله ولقاءه .

أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهٌ بِما قالَ دِمْنةُ[1].

فَأَهَمَّهُ ذٰلِكَ، وَقالَ : ما كانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدُرَ بِي، وَلَمْ آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا، وَلا إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ مُنْذُ صَحِبتُه، وَلا أَظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ بِالْكَذِبِ، وَشُبِّهَ عَلَيْهِ أَمْرِي، فَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمُ سُوءٍ، وَجَرَّبَ مِنْهُمُ الْكَذِبَ، وَأُمُورًا تُصَدَّقُ إِذا بَلَغَتْهُ عَنْ غَيْرِهِمْ؛ فَإِنَّ صُحْبةَ الْأَشْرارِ رُبَّما أَوْرَثَتْ صاحِبَها سُوءَ ظَنٍّ بِالْأَخْيارِ، وَحَمَلَهُ ما يَخْتَبِرُهُ مِنْهُمْ عَلَى الْخَطإِ فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ.

مثل البطة وضوء الكوكب

وهو مثل من يقيس الأشياء بمظاهرها فيخطئ الصواب

كَخَطَإِ الْبَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّها رَأَتْ فِي الْماءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ، فَظَنَّتْهُ سَمَكَةً فَحاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَها[2].

فَلَمَّا جَرَّبَتْ ذٰلِكَ مِرارًا عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصادُ، فَتَرَكَتْهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدِ ذٰلِكَ الْيَوْمِ سَمَكَةً ، فَظَنَّتْ أَنَّها مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالْأَمْسِ، فَتَرَكَتْهَا وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَها. فَإِنْ كانَ الْأَسَدُ قَدْ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبٌ، فَصَدَّقَهُ عَلَيَّ،وَسَمِعَهُ فِيَّ فَما جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرِي عَلَيَّ، وَإِنْ كانَ لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ وَأَرادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لَمِنْ أَعْجَبِ الْأُمُورِ. وَقَدْ كانَ يُقالُ : **إِنَّ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ الرَّجُلُ رِضَا صاحِبِهِ وَلا يَرْضَى. وَأَعْجَبُ مِنْ ذٰلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضاهُ فَيَسْخَطُ.** فَإِذَا كانتَ الْمَوْجِدةُ عَنْ عِلَّةٍ، كانَ الرِّضَى مَوْجُودًا، وَالْعَفْوُ مَأْمُولًا. وَإِذا كانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ، انْقَطَعَ الرَّجاءُ؛ لِأَنَّ الْعِلَّةَ إِذا كانَتِ الْمَوْجِدةُ فِي وُرُودِها[3]. كانَ الرِّضَى مَأْمُولًا فِي صُدُورِها. وَقَدْ نَظَرْتُ: فَلاَ أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَسَدِ جُرْمًا وَلا كَبِيرَ ذَنْبٍ، وَلَا صَغِيرَهُ. وَلَعَمْرِي لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطالَ صُحْبةَ صاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَلا أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَبِيرةٌ أَو صَغِيرةٌ يَكْرَهُها صاحِبُهُ. وَلٰكِنَّ الرَّجُلَ ذا الْعَقْلِ وَالْوَفاءِ إِذا سَقَطَ عِنْدَهُ صاحِبُهُ سَقْطَةً نَظَرَ فِيها، وَعَرَفَ قَدرَ مَبْلَغِ خَطِيئِهِ عَمدًا كانَ أَوْ خَطأً[4].

ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يُخافُ ضَرَرُهُ وَشَيْنُهُ، فَلا يُؤَاخِذُ صاحِبَهُ بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى

(١) لامرية في قوله: لا شك. (٢) حُمِلَ عليّ: أي أغروه ليبطش بي. وشُبّه عليه أمري. التبس.
(٣) الموجدة: الغضب. الورود: بلوغ الماء والقرب منه من غير دخول. وقد يحصل دخول فيه، أما الصدور فهو خلاف الورود.
(٤) ولَعَمْري: أقسم بعمره وحياته. يتحفظ: يحترس. سقط: أخطأ. عمدا: قصدًا.

الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلًا. فَإِنْ كانَ الْأَسَدُ قَدِ اعْتَقَدَ عَلَيَّ ذَنْبًا، فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنِّي خالَفْتُهُ فِي بَعْضِ رَأْيِهِ بَطَرًا مِنِّي، وَنَصِيحَةً لَهُ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَراءَةِ عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ. وَلا أَجِدُ لِي فِي هٰذا الْمَحْضَرِ إِثْمًا مَا؛ لِأَنِّي لَمْ أُخَالِفْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا مَا قَدْ نَدَرَ عِنْدَ مُخَالَفَتِهِ الرُّشْدَ وَالْمَنْفَعَةَ وَالدِّينَ وَلَمْ أُجاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ جُنْدِهِ، وَعِنْدَ أَصْحَابِهِ، وَلٰكِنْ كُنْتُ أَخْلُو بِهِ، وَأُكَلِّمُهُ سِرًّا كَلامَ الْهائِبِ الْمُوَقِّرِ[1].

وَعَلِمْتُ: **أَنَّهُ مَنِ الْتَمَسَ الرُّخَصَ مِنَ الْإِخْوانِ عِنْدَ الْمُشاوَرَةِ، وَمِنَ الْأَطِبَّاءِ عِنْدَ الْمَرَضِ وَمِنَ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ مَنافِعَ الرَّأْيِ وَازْدادَ فِيما وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذٰلِكَ تَوَرُّطًا وَحَمَلَ الْوِزْرَ**. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ مِنْ بَعْضِ سَكَراتِ السُّلْطانِ. فَإِنَّ صُحْبَةَ السُّلْطانِ خَطِرَةٌ، وَإِنْ صُوحِبَ بِالسَّلامَةِ وَالثِّقَةِ، وَالْمَوَدَّةِ، وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ، فَرُبَّما عَثَرَ مُصاحِبُهُ الْعَثْرَةَ فَلا يَنْتَعِشُ، وَلا تُقالُ عَثْرَتُهُ[2].

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا، فَبَعْضُ ما أُوتِيتُ مِنَ الْفَضْلِ، قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ الْهَلاكُ، «**وَبَعْضُ الْمَحاسِنِ آفَةٌ لِصاحِبِها**»؛ فَإِنَّ الشَّجَرَةَ اللَّذِيذَةَ الثَّمَرِ رُبَّما كانَ أَذاهَا فِي حَمْلِها، فَلُوِيَتْ أَغْصانُها، وَهُصِرَتْ أَطْرافُها حَتَّى تَتَكَسَّرَ. وَالطَّاوُسَ الَّذِي ذَنَبُهُ أَفْضَلُهُ يُنْسَلُ فَيُؤْلِمُهُ، وَالْفَرَسَ الْمُطَهَّمَ الْجَرِيَّ رُبَّما رُكِبَ حَتَّى يَنْقَطِعَ، وَالْبُلْبُلَ الْحَسَنَ الصَّوْتِ يُحْبَسُ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الطَّيْرِ[3].

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هٰذا وَلا هٰذا فَهُوَ إِذَنْ مِنْ مَواقِعِ الْقَضاءِ والْقَدَرِ الَّذِي لا يُدْفَعُ، والْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الْأَسَدَ قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ، وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ، وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهائِجِ، وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذاتِ الْحُمَةِ مَنْ يَنْزِعُ حُمَتَهَا، وَيَلْعَبُ بِها، وَهُوَ الَّذِي يُصَيِّرُ الْعاجِزَ حازِمًا، وَيُثَبِّطُ السَّهْمَ الْمُنْطَلِقَ، وَيُوَسِّعُ عَلَى الْمُقْتِرِ، وَيُشَجِّعُ الْجَبانَ، وَيُجَبِّنُ الشُّجاعَ عِنْدَما تَعْتَرِيهِ الْمَقادِيرُ بِالْعِلَلِ الَّتِي اتَّفَقَتْ لَها! قالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرادَةَ الْأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَشْرارِ، وَلا سَكْرَةِ السُّلْطانِ، وَلا غَيْرِ ذٰلِكَ، وَلٰكِنَّا الْغَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ فاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ، لِطَعامِهِ حَلاوَةٌ وَآخِرُهُ سُمٌّ مُمِيتٌ!![4].

---

(١) فلا يؤاخذ: فلا يلوم ويعاتب. بطرا مني: نشاطا وزَهْوًا. المحضر: مكان الحضور. إثما: ذنبا. الرُّشد: الهدى. الهائب: الخائف الذي يهابه ويجله.

(٢) الرُّخص: جمع رخصة وهي اليسر والسهولة. تورّطاً: دخولا في الورطة وهي الهلاك والشدة، وكل أمر شاق تعسر النجاة منه. عثر: سقط. ينتعش: ينهض. ولا تقال عثرته: أي لا يرفع من سقوطه.

(٣) وهَصِرَت: جذبت وعطفت. ينسل: ينزع. المطهّم: التام الخلق. الجَرِيّ: المقدام. كثير الجري.

(٤) الحُمَة: الإبرة التي تلدغ بها. ويثبط: يعوق. المُقْتِر: المفتقر. تعتريه: تصيبه. اتفقت لها: حدثت اتفاقا.

قالَ شَتْرَبةُ : فَأَراني قَدِ اسْتَلْذَذْت الْحَلاوةَ إذ ذُقْتُها، وَقَدِ انْتَهَيْتُ إلَى آخِرِها الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ، وَلَوْلا الْحِينُ ما كانَ مُقامِي عِنْدَ الأَسَدِ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ، وَأَنا آكِلُ عُشْبٍ، فَأَنا فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ كَالنَّحْلةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلَوْفَرِ؛ إذْ تَسْتَلِذُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ فَتَحْبِسُهُا تِلْكَ اللَّذَّةُ عَنِ الْحِينِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ تَطِيرَ فِيهِ؛ فَإِذَا جاءَ اللَّيْلُ يَنْضَمُّ عَلَيْها، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ وَتَمُوتُ[1]!

وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيا بِالْكَفافِ الَّذِي يُغْنِيهِ، وَطَمَحَتْ عِيْنُهُ إلَى ما سِوَى ذٰلِكَ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْ عاقِبَتَهُ، كانَ كَالذُّبابِ الَّذِي لا يَرْضَى بِالشَّجَرِ وَالرِّياحِينِ، وَلا يُقْنِعُهُ ذَلِكَ حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ، فَيَضربُهُ الْفِيلُ بآذانِهِ فَيُهْلِكُهُ .

وَمَنْ يَبْذُلْ وُدَّهُ وَنَصِيحتَهُ لِمَنْ لا يَشْكُرُهُ فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّباخِ، وَمَنْ يُشِرْ عَلَى الْمُعْجَبِ كَمَنْ يُشاوِرُ الْمَيْتَ، أَوْ يُسارُّ الأَصَمَّ.

قالَ دِمْنةُ : دَعْ عَنْكَ هٰذا الْكَلامَ، وَاحْتَلْ لِنَفْسِكَ. قالَ شَتْرَبةُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أَحْتالُ لِنَفْسِي، إذا أَرادَ الأَسَدُ أَكْلِي مَعَ ما عَرَّفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الأَسَدِ، وَسُوءِ أَخْلاقِهِ[2]؟!

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُرِدْ بِي إلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَرادَ أَصْحابُهُ بِمَكْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ هَلاكِي لَقَدَرُوا عَلَى ذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ إذا اجْتَمَعَ الْمَكَرَةُ الظَّلَمةُ عَلَى الْبَرِيءِ الصَّالِحِ كانُوا خُلَقاءَ أَنْ يُهْلِكُوهُ، وَإِنْ كانُوا ضُعَفاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ. كَمَا أَهْلَكَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى الْجَمَلَ حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعةِ وَالْخِيانةِ. قالَ دِمْنةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

مثل الذئب والغراب وابن آوى مع الجمل والأسد

وهو مثل الضّعاف يُعينون القوي بحيلهم على قوي ، لهم من هلكته منفعة، حتى يُهلكهُ

قالَ شَتْرَبةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجَمَةٍ مُجاوِرةٍ لِطَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ النَّاسِ، وَكَانَ لَهُ أَصْحابٌ ثَلاثةٌ: ذِئْبٌ وَغُرابٌ وَابْنُ آوَى، وَأَنَّ رُعاةً مَرُّوا بِذٰلِكَ الطَّرِيقِ، وَمَعَهُمْ جِمالٌ، فَتَخَلَّفَ مِنْها

(١) فأراني . أرى نفسي . الحين : الأجل . نوْر : زهر . النيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة ومتى ساوى سطح الماء أورق وأزهر .

(٢) الكفاف : ما كف وأغنى عن الناس . وطمحت عينه : ارتفعت وتطلعت . . السباخ : ما لم يحرث ولم يعمر ، والأرض السبخة لا تحفظ ماء ولا تنبت زرعا . المعجب : المتكبر . يُسَارّ الأصم : يكلمه بكلام خفي وهو لا يسمع .

جَمَلٌ، فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجَمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ[1]!.

فَقالَ لَهُ الْأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قالَ : مِنْ مَوْضِعِ كَذا، قالَ : فَما حاجتُكَ؟ قالَ : ما يَأْمُرُني بِهِ الْمَلِكُ. قالَ : تُقِيمُ عِنْدَنا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْخِصْبِ؛ فَأَقامَ الْأَسَدُ وَالْجَمَلُ مَعَهُ زَمَانًا طَوِيلًا. ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِطَلَبِ الصَّيْدِ؛ فَلَقِيَ فِيلًا عَظِيمًا فَقاتَلَهُ قِتالًا شَدِيدًا، وَأَفْلَتَ مِنْهُ مُثْقَلًا مُثْخَنًا بِالْجِراحِ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ بِأَنْيابِهِ؛ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكانِهِ، وَقَعَ لا يَسْتَطِيعُ حَراكًا، وَلا يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ[2].

فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالْغُرابُ وَابْنُ آوَى أَيَّامًا لا يَجِدُونَ طَعامًا، لِأَنَّهُمْ كانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلاتِ الْأَسَدِ وَطَعامِهِ؛ فَأَصابَهُمْ وَأَصابَهُ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهُزالٌ، وَعَرَفَ الْأَسَدُ مِنْهُمْ ذٰلِكَ، فَقالَ: لَقَدْ جُهِدْتُمْ، وَاحْتَجْتُمْ إِلَى ما تَأْكُلُونَ. فَقالُوا: لا تُهِمَّنا أَنْفُسُنا؛ لٰكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى ما نَراهُ ، فَلَيْتَنا نَجِدُ ما يَأْكُلُهُ وَيُصْلِحُهُ. قالَ الْأَسَدُ: ما أَشُكُّ فِي نَصِيحَتِكُمْ، وَلٰكِنِ انْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونَني بِهِ، فَيُصِيبَني وَيُصِيبَكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ، فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالْغُرابُ وَابْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ، فَتَنَحَّوْا ناحِيَةً وَائْتَمَرُوا فِيما بَيْنَهُمْ، وَقالُوا: ما لَنا وَلِهٰذا الْآكِلِ الْعُشْبِ، الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ مِنْ شَأْنِنا، وَلا رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنا؟! أَلا نُزَيِّنُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلَهُ، وَيُطْعِمَنا مِنْ لَحْمِهِ؟! قالَ ابْنُ آوَى : هٰذا مِمَّا لا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ لِلْأَسَدِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ أَمَّنَ الْجَمَلَ ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ[3].

قالَ الْغُرابُ : أَنا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ، ثُمَّ انْطَلَقَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ. فَقالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا؟ قالَ الْغُرابُ: إِنَّما يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ ، وَأَمَّا نَحْنُ فَلا سَعْيَ لَنا وَلا بَصَرَ؛ لِما بِنا مِنَ الْجُوعِ؛ وَلٰكِنْ قَدْ وُفِّقْنا إِلَى أَمْرٍ، وَاجْتَمَعْنا عَلَيْهِ، إِنْ وافَقَنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ. قالَ الْأَسَدُ: وَما ذاكَ[4].

قالَ الْغُرابُ : هٰذا الْجَمَلُ آكِلُ الْعُشْبِ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنا مِنْ غَيْرِ منفَعةٍ لَنا مِنْهُ؛ وَلا رَدِّ عائِدةٍ، وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ مَصْلَحةً. فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذٰلِكَ غَضِبَ، وَقالَ: ما أَخْطَأَ رَأْيَكَ!، وَمَا أَعْجَزَ مَقالَكَ! وَأَبْعَدَكَ عَنِ الْوَفاءِ وَالرَّحْمةِ! وَمَا كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِئَ عَلَيَّ بِهٰذِهِ الْمَقالَةِ، وَتَسْتَقْبِلَني بِهٰذا

---

(١) المكرة: أعنى المخادعين جمع ماكر. خُلقاء: جمع خليق. ويقال: فلان خليق بالشيء أي جدير به وأهل له. فتخلّف: تأخر.
(٢) فما حاجتك؟: ما سُؤلك؟ وماذا تطلب؟. مثخنًا: مبالغاً بجراحه. خدشه: مَزّق جلده.
(٣) هُزال: ضعف نقيض السِّمَن. فتنحّوا: اعتزلوا إلى ناحية. ائتمروا: تشاوروا. نزين: نحسّن. أمّن: أعطاه الأمن والأمان ضد الخوف. جعل له من ذمته: أعطاه عهدا.
(٤) هل أصبت شيئا؟: هل وجدت؟.

الْخِطابِ؛ مَعَ ما عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ أَمَّنْتُ الْجَمَلَ وَجَعَلْتُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِي. أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ أَمَّنَ نَفْسًا خائِفَةً، وَحَقَنَ دَمًا مَهْدُورًا؟! وَقَدْ أَمَّنْتُهُ، وَلَسْتُ بغادِرٍ بِهِ، وَلا خافِرٍ لَهُ ذِمَّةً[1].

قالَ الْغُرابُ : إِنِّي لَأَعْرِفُ ما يَقُولُ الْمَلِكُ، وَلٰكِنَّ النَّفْسَ الْواحِدَةَ يُفْتَدَى بِها أَهْلُ الْبَيْتِ، وَأَهْلُ الْبَيْتِ تفْتَدَى بِهِمْ الْقَبِيلَةُ، وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِها أَهْلُ الْمِصْرِ، وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَى الْمَلِكِ. وَقَدْ نَزَلَتْ بِالْمَلِكِ الْحاجَةُ، وَأَنا أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا، عَلَى أَنْ لا يَتَكَلَّفَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ، وَلا يَلِيَهُ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَأْمُرَ بِهِ أَحَدًا. وَلٰكِنَّا نَحْتالُ بِحِيلةٍ لَنا وَلَهُ فِيها صَلاحٌ وَظَفَرٌ. فَسَكَتَ الْأَسَد عَنْ جَوابِ الْغُرابِ عَنْ هٰذا الْخِطابِ[2].

فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرابُ إِقْرارَ الْأَسَدِ أَتَى صاحِبَيْهِ، فَقالَ لَهُما : قَدْ كَلَّمْتُ الْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَمَلَ، عَلَى أَنْ نَجْتَمِعَ نَحْنُ وَالْجَمَلُ عِنْدَ الْأَسَدِ، فَنَذْكُرَ ما أَصابَهُ، وَنَتَوَجَّعَ لَهُ اهْتِمامًا بِأَمْرِهِ، وَحِرْصًا عَلَى صَلاحِهِ، وَيَعْرِضَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ عَلَيْهِ تَجَمُّلًا لِيَأْكُلَهُ فَيَرُدُّ الْآخَرانِ عَلَيْهِ وَيُسَفِّهَانِ رَأْيَهُ، وَيُبَيِّنانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ. فَإِذا جاءَتْ نَوْبَةُ الْجَمَلِ صَوَّبْنا رَأْيَهُ فَهَلَكَ وَسَلِمْنا كُلُّنا وَرَضِيَ الْأَسَدُ عَنَّا، فَفَعَلُوا ذٰلِكَ وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْأَسَدِ؛ فَقالَ الْغُرابُ: قدِ احْتَجْتَ أَيُّها الْمَلِكُ إِلَى ما يَقُوتُكَ، وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ أَنْفُسَنَا لَكَ فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ؛ فَإِذا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا بَقاءٌ بَعْدَكَ، وَلا لَنا فِي الْحَياةِ مِنْ خِيرةٍ؛ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ، فَقَدْ طِبْتُ بِذٰلِكَ نَفْسًا[3]!.

فَأَجابَهُ الذِّئْبُ وَابْنُ آوى: أَنِ اسْكُتْ فَلا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ، وَلَيْسَ فِيكَ شِبَعٌ. قالَ ابْنُ آوَى: لٰكِنْ أَنا أُشْبِعُ الْمَلِكَ، فَلْيَأْكُلْنِي؛ فَقَدْ رَضِيتُ بِذٰلِكَ، وَطِبْتُ نَفْسًا. فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ وَالْغُرابُ بِقَوْلِهِما: إِنَّكَ لَمُنْتِنٌ قَذِرٌ ! قالَ الذِّئْبُ: إِني لَسْت كَذٰلِكَ فَلْيَأْكُلْنِيَ الْمَلِكُ؛ فَقَدْ سَمَحْتُ بِذٰلِكَ، وَطَابَتْ بِهِ نَفْسِي! فَاعْتَرَضَهُ الْغُراب، وَابْنُ آوَى وَقالا : قَدْ قالَتْ الْأَطِبَّاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ لَحْمَ ذِئْبٍ[4].

فَظَنَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَكْلِ الْتَمَسُوا لَهُ عُذْرًا كَمَا الْتَمَسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ

---

(١) عائدة: معروف. مصلحة: بمعنى منفعة. تجترئ: تتشجع وتقدم. مهدورًا: مسفوكا بالباطل. خافر له: ناقص.

(٢) وأهل المِصْر: المدينة والصقع. يليه: يتولاه. ظفر: فوز.

(٣) إقرار الأسد: إذعان. تجملا: تلطفا في الكلام. يسفهان رأيه: ينسبانه إلى السفاهة. من خيرة: أي لا خير لنا في الحياة من بعدك والخيرة: اسم من قولهم: خار الله لك في هذا الأمر أي جعل لك الخير.

(٤) لمنتن: خبيث الرائحة. فاعترضه الغراب: عابه وخطأه.

الْأَعْذَارَ ، فَيَسْلَمُ وَيَرْضَى الْأَسَدُ عَنْهُ بِذٰلِكَ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ. فَقالَ: لٰكِنْ أَنا فِيَّ لِلْمَلِكِ شِبَعٌ وَرِيٌّ وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ، وَبَطْني نَظِيفٌ ، فَلْيَأْكُلْني الْمَلِكُ، وَيُطْعِمْ أَصْحابَهُ، وَخَدَمَهُ، فَقَدْ رَضِيتُ بِذٰلِكَ، وَطَابَتْ نَفْسِي بِهِ. فَقالَ الذِّئْبُ وَابْنُ آوَى وَالْغُرابُ: لَقَد صَدَقَ الْجَمَلُ، وَكَرُمَ وَقالَ ما عَرَفَ. ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَّقُوهُ .

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كانَ أَصْحابُ الْأَسَدِ قَدِ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلاكِي فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنِعَ مِنْهُمْ، وَلا أَحْتَرِسَ، وَإِنْ كانَ رَأْيُ الْأَسَدِ فِيَّ عَلَى غَيْرِ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ، فَإِنَّ ذٰلِكَ لا يَنْفَعُني، وَلا يُغْني عَنِّي شَيْئًا[1].

وَقَدْ يُقالُ : **خَيْرُ السَّلاطِين مِنْ أَشْبَهَ النَّسْرَ وَحَوْلَهُ الجِيف، لا مَنْ أَشْبَهَ الْجِيفَةَ وَحَوْلَها النُّسُورُ.** وَلَوْ أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ لِي إِلَّا الْخَيْرُ وَالرَّحْمةُ لَغَيَّرَتْهُ كَثْرَةُ الْأَقاوِيلِ، فَإِنَّها إِذا كَثُرَتْ لَمْ تَكُفَّ دُونَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّأْفَةَ، أَلا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ كَالْقَوْلِ، وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدُّ مِنَ الْإِنْسانِ، وَالْماءُ إِذا دامَ انْحِدارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى يَثْقُبَهُ وَيُؤَثِّرَ فِيهِ! وَكَذٰلِكَ الْقَوْلُ فِي الْإِنْسانِ[2]!

قال دِمنة : فَماذا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الْآنَ؟ قالَ شَتْرَبَةُ : ما أَرَى إِلَّا الِاجْتِهادَ وَالْمُجاهَدَةَ بِالْقِتالِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِلْمُصَلِّي فِي صَلاتِهِ، وَلا لِلْمُحْتَسِبِ فِي صَدَقَتِهِ، وَلا لِلْوَرِعِ فِي وَرَعِهِ مِنَ الْأَجْرِ ما لِلْمجاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ، إِذا كانَتْ مُجاهَدَتُهُ عَلَى الْحَقِّ. قالَ دِمْنةُ: لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخاطِرَ بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذٰلِكَ. وَلٰكِنَّ ذا الرَّأْيِ جاعِلٌ الْقِتالَ آخِرَ الْحِيَلِ، وَبادِئٌ قَبْلَ ذٰلِكَ بِما اسْتَطاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمَحُّلٍ. وَقَدْ قِيلَ: لا تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمَهِينَ، وَلا سِيَّما إِذا كانَ ذا حِيلَةٍ، وَيَقْدِرُ عَلَى الْأَعْوانِ؛ فَكَيْفَ بِالْأَسَدِ عَلَى جَرَاءَتِهِ وَشِدَّتِهِ؟! فَإِنَّ مَنْ أَحْقَرَ عَدُوَّهُ لِضُعْفِهِ أَصابَهُ ما أَصابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنَ الطِّيطَوَى. قالَ شَتْرَبَةُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟.

---

(١) أمتنع منهم: أنجو. (٢) الأقاويل: الأكاذيب المبتدعة. الرقة: الرحمة.
(٣) للمحتسب: المتصدق لوجه الله. وتمحُّل: احتيال. المهين: الحقير. أحقر عدوه: احتقره.

مثل الطِّيطَوَى ووكيل البحر

وهو مثل المكابر مع ضعفه فيغلب

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ طائِرًا مِنْ طُيُورِ الْبَحرِ يُقالُ لَهُ : الطِّيطَوَى كانَ وَطَنُهُ عَلَى ساحِلِ الْبَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ. فَلَمَّا جاءَ أَوانُ إِفْراخِهِما قالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ: لَوِ الْتَمَسْنا مَكَانًا حَرِيزًا غَيْرَ هذا نُفْرِخُ فِيهِ؛ فَإِنِي أَخافُ مِنَ الْبَحْرِ إِذا مَدَّ الْماءُ أَنْ يَذْهَبَ بِفِراخِنا. فَقالَ لَها: ما أَراهُ يَحْمِلُ عَلَيْنا، فَإِنَّ وَكِيلَ الْبَحْرِ يَخافُنِي أَنْ أَنْتَقِمَ مِنْهُ ، فَأَفْرِخِي فِي مَكانِكِ؛ فَإِنَّهُ مُوافِقٌ لَنا، وَالْماءُ وَالزَّهْرُ مِنَّا قَرِيبٌ[1].

قالَتْ لَهُ : يا غافِلُ ، ما أَشَدَّ عِنادَكَ وتَصَلبَكَ ! أَما تَذْكُرُ وَعِيدَهُ وَتَهدُّدَهُ إِيَّاكَ؟! أَلا تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ فِي وَعِيدِ مَنْ لا طاقَةَ لَكَ بِهِ؟! فَأَبَى أَنْ يُطِيعَها. فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَها، قالَتْ لَهُ : إِنَّ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ ما أَصابَ السُّلَحْفاةَ حِينَ لَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ الْبَطَّتَيْنِ. قالَ الذَّكَرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[2]؟.

مثل السلحفاة والبطتين

وهو مثل من لم يسمع قول الناصح فيهلك

قالت الأنثى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ ، وَكَانَ فِيهِ بَطَّتانِ، وَكَانَ فِي الْغَدِيرِ سُلَحْفاةٌ بَيْنَها وَبَيْنَ الْبَطَّتَيْنِ مَوَدَّةٌ وَصَداقَةٌ، فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذٰلِكَ الْماءُ فَجاءَتِ الْبَطَّتانِ لِوَداعِ السُّلَحْفاةِ، وَقالَتا: السَّلامُ عَلَيْكِ فَإِنَّنا ذاهِبَتانِ عَنْ هٰذا الْمَكانِ لِأَجْلِ نُقْصانِ الْماءِ عَنْهُ، فَقالَتْ: إِنَّما يَبِينُ نُقْصانُ الْماءِ عَلَيَّ مِثْلِيَ الَّتِي كَأَنِّي السَّفِينةُ لا أَقْدِرُ عَلَى الْعَيشِ إِلَّا بِالْماءِ. فَأَمَّا أَنْتُما فَتَقْدِرانِ عَلَى الْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُما، فَاذهَبَا بِي مَعَكُما. قالَتا: نَعَمْ. قالَتْ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمْلِي؟ قالَتا: نَأْخُذُ بِطَرَفَيْ عُودٍ وَتَقْبِضِينَ بِفِيكِ عَلَى وَسَطِهِ، وَنَطِيرُ بِكِ فِي الْجَوِّ. وَإِيَّاكِ إِذا سَمِعْتِ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ أَنْ تَنْطِقِي، ثُمَّ أَخَذَتاها فَطارَتا بها في الْجَوِّ! فَقالَ النَّاسُ: عَجَبٌ : سُلَحْفاةٌ بَيْنَ بَطَّتَيْنِ قَدْ حَمَلَتاهَا[3]!

---

(١) حريزاً: حصينا. يحمل علينا: يهجم.
(٢) وعيده: تهديده لي بالشر. والوعد عكس الوعيد فإنه يكون بالخير.
(٣) غِيضَ الماء: نقص. بفيك: بفمك.

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذٰلِكَ قالَتْ : فَقَأَ اللهُ أَعْيُنَكُمْ أَيُّها النَّاسُ. فَلَمَّا فَتَحَتْ فاها بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ فَماتَتْ. **قال الذكر:** قَدْ سَمِعْتُ مَقالَتَكِ؛ فَلا تَخافِي وَكِيلَ الْبَحْرِ. فَلَمَّا مَدَّ الْماءُ، دَنا وَكِيلُ الْبَحْرِ، فَذَهَبَ بِفِراخِهِما. فَقالَتِ الْأُنْثَى: قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَنَّ هٰذا كائِنٌ ، وَما أَصابَنا إِنَّما هُوَ بِتَفْرِيطِكَ! **قال الذكر:** قَدْ قُلْتُ ما قُلْتُ، وَأَنا عَلَى قَوْلِي، وَسَوْفَ تَرَيْنَ صُنْعِي بِهِ، وَانْتِقامِي مِنْهُ. ثُمَّ مَضَى إِلَى جَماعةِ الطَّيْرِ، فَقالَ لَهُنَّ : إِنَّكُنَّ أَخَواتِي وَثِقاتِي؛ فَأَعِنَّني. قُلْنَ: ماذا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ؟ قالَ: تَجْتَمِعْنَ، وَتَذْهَبْنَ مَعِي إِلَى سائِرِ الطَّيْرِ، فَنَشْكُو إِلَيْهِنَّ ما لَقِيتُ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ، وَنَقُولُ لَهُنَّ: إِنَّكُنَّ طَيْرٌ مِثْلُنا؛ فَأَعِنَّنا[1].

فَقالَتْ لَهُ جَماعةُ الطَّيْرِ: إِنَّ الْعَنْقاءَ بِنْتَ الرِّيحِ هِيَ سَيِّدَتُنا وَمَلِكَتُنا، فَاذْهَبْ بِنا إِلَيْها حَتَّى نَصِيحَ بِها، فَتَظْهَرَ لَنا، فَنَشْكُوَ إِلَيْها ما نالَكَ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ، وَنَسأَلَها أَنْ تَنْتَقِمَ لَنا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِها! ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْها مَعَ الطِّيطَوَى فاسْتَغَثْنَهَا، وَصِحْنَ بِها، فَتَراءَتْ لَهُنَّ، فَأَخْبَرْنَها بِقِصَّتِهِنَّ، وَسَأَلْنَها أَنْ تَطِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى مُحارَبةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ. فَأَجابَتْهُنَّ إِلَى ذٰلِكَ[2].

فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ الْبَحرِ أَنَّ الْعَنْقاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَماعةِ الطَّيْرِ، خافَ مِنْ مُحارَبَةِ مَلِكٍ لا طاقةَ لَهُ بِهِ، فَرَدَّ فِراخَ الطِّيطَوَى، وَصالَحَهُ، فَرَجَعَتِ الْعَنْقاءُ عَنْهُ. وَإِنَّما حَدَّثْتُكَ بِهٰذا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتالَ مَعَ الْأَسَدِ لا أَراهُ لَكَ رَأْيًا. قالَ شَتْرَبةُ: فَما أَنا بِمُقاتِلِ الْأَسَدِ، وَلا ناصِبٌ لَهُ الْعَداوةَ سِرًّا وَلا عَلانِيَةً، وَلا مُتَغَيِّرٌ لَهُ عَمَّا كُنْتُ عَلَيْهِ، حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ ما أَتَخَوَّفُ ، فَأُغالِبَهُ. فَكَرِهَ دِمْنةُ قَوْلَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرَ مِنَ الثَّوْرِ الْعَلاماتِ الَّتِي كانَ ذَكَرَها لَهُ، اتَّهَمَهُ وَأَساءَ بِهِ الظَّنَّ؛ فَقالَ لِشَتْرَبةَ: اذْهَبْ إِلَى الْأَسَدِ فَسَتَعْرِفُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ما يُرِيدُ مِنْكَ[3].

قالَ شَتْرَبةُ : وَكَيْفَ أَعْرِفُ ذٰلِكَ؟ قالَ دِمْنةُ : سَتَرَى الْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ مُقْعِيًا عَلَى ذَنَبِهِ، رافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ، مادًّا بَصَرَهُ نَحْوَكَ ، قَدْ صَرَّ أُذُنَيْهِ، وَفَغَرَ فاهُ، وَاسْتَوَى لِلْوَثْبَةِ. قالَ: إِنْ رَأَيْتُ هٰذِهِ الْعَلاماتِ مِنَ الْأَسَدِ، عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ. ثُمَّ إِنَّ دِمْنةَ لَمَّا فَرَغَ مِنْ تَحْرِيشِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ، وَالثَّوْرِ عَلَى الْأَسَدِ، تَوَجَّهَ إِلَى كَلِيلَةَ، فَلَمَّا الْتَقَيا قالَ كَلِيلَةُ : إِلامَ انْتَهَى عَمَلُكَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ قالَ دِمْنةُ : قَرِيبٌ مِنَ الْفَراغِ عَلَى ما أُحِبُّ وَتُحِبُّ[4].

---

(١) فقأ: قلع. مدّ الماء: ارتفع إلى البر.

(٢) العنقاء: طائر خيالي كالغول والخل الوفي لا وجود للثلاثة إلا في الذهن. فاستغثنها: طلبن إغاثتها أي مساعدتها. فتراءت لهن: ظهرت.

(٣) لا طاقة له به: لا قدرة له عليه. اتهمه: شك في صدقه.

(٤) مقعيًا: جالساً على أليتيه ناصبا فخذيه كجلوس الكلب. صرّ أذنيه: نصب. وفغر: فتح. واستوى: استعد. للوثبة: القفزة.

ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ انْطَلَقَا لِيَحضُرا قِتالَ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ، وَيَنْظُرا ما يَجْرِي بَيْنَهُما وَمَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُما، وَجَاءَ شَتْرَبَةُ، فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ، فَرَآهُ مُقْعِيًا كَما وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ، فَقالَ: ما صاحِبُ السُّلْطانِ إِلَّا كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ الَّتِي فِي صَدْرِهِ، لا يَدْرِي مَتَى تَهِيجُ عَلَيْهِ. ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدِّلالاتِ الَّتِي ذَكَرَها لَهُ دِمْنَةُ؛ فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جاءَ لِقِتالِهِ، فَوَاثَبَهُ وَنَشَأَتْ بَيْنَهُما الْحَرْبُ، وَاشْتَدَّ قِتالُ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ، وَطالَ، وَسالَتْ بَيْنَهُما الدِّماءُ. فَلَمَّا رَأَى كَلِيلَةُ أَنَّ الأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْقِتال ما بَلَغَ قالَ لِدِمْنَةَ : أَيُّها الْفَسْلُ، ما أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ، وَأَسْوَأَ عاقِبَتَكَ فِي تَدْبِيرِكَ[1]!.

قال دمنة : وَما ذَاكَ؟ قالَ كَلِيلَةُ : جُرِحَ الْأَسَدُ، وَهَلَكَ الثَّوْرُ! وَإِنَّ أَخْرَقَ الْخُرْقِ مَنْ حَمَلَ صاحِبَهُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ، وَالْمُبارَزَةِ وَالْقِتالِ، وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ سَبِيلًا. وَإِنَّما الرَّجُلُ إِذا أَمْكَنَتْهُ الْفُرْصَةُ مِنْ عَدُوِّهِ، يَتْرُكُهُ مَخَافَةَ التَّعَرُّضِ لَهُ بِالْمُجاهَرَةِ، وَرَجَاءَ أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ بِدُونِ ذٰلِك. وَإِنَّ الْعاقِلَ يُدَبِّرُ الْأَشْياءَ، وَيَقِيسُهُا قَبْلَ مُباشَرَتِها، فَما رَجا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْها أَقْدَمَ عَلَيْهِ،وَمَا خافَ أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْها انْحَرَفَ عَنْهُ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَإِنِّي لِأَخافُ عَلَيْكَ عاقِبَةَ بَغْيِكَ هٰذا؛ فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ، وَلَمْ تُحْسِنِ الْعَمَلَ[2]!!.

أَيْنَ مُعاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لا تَضُرُّ بِالْأَسَدِ فِي تَدْبِيرِكَ؟ وَقَدْ قِيلَ : **لا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ، وَلا فِي الْفِقْهِ إِلَّا مَعَ الْوَرَعِ، وَلا فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا مَعَ النِّيَّةِ، وَلا فِي الْمالِ إِلَّا مَعَ الْجُودِ، وَلا فِي الصِّدْقِ إِلَّا مَعَ الْوَفاءِ، وَلا فِي الْحَياةِ إِلَّا مَعَ الصِّحَّةِ، وَلا فِي الْأَمْنِ إِلَّا مَعَ السُّرُورِ**[3]. وَقَدْ شَرَطْتَ أَمْرًا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعاقِلُ الرَّفِيقُ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَدَبَ يُذهِبُ عَنِ الْعاقِلِ الطَّيْشَ، وَيَزِيدُ الْأَحْمَقَ طَيْشًا، كَما أَنَّ النَّهارَ يَزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظَرًا، وَيَزِيدُ الْخُفَّاشَ سُوءَ النَّظَرِ. فَذُو الْعَقْلِ لا يَبْطَرُ مِنْ مَنْزِلَةٍ أَصابَها، وَإِنْ تَعاظَمَ أَمْرُهُ وَقَدْرُهُ، وَيَكونُ عِنْدَ ذٰلِكَ كالْجَبَلِ الَّذِي لا تُحَرِّكُهُ الرِّياحُ الشَّدِيدةُ، وَالسَّخِيفُ كَالْعُشْبِ يُحَرِّكُهُ أَدْنَى رِيحٍ. وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ؛ فَإِنَّهُ يُقالُ : إِنَّ السُّلْطانَ إِذا كانَ صالِحًا ، وَوُزَراؤُهُ وُزَراءُ سُوءٍ مَنَعُوا خَيْرَهُ، فَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدْنُوَ مِنْهُ.وَمَثَلُهُ فِي ذٰلِكَ مَثَلُ الْماءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ التَّماسِيحُ، لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَناوَلَهُ ، وَإِنْ كانَ إِلَى الْماءِ مُحْتاجًا.

---

(١) يئول: يرجع. فوائبه: أي هجم كل منهما على الآخر. الفَسْل: الضعيف الرَّذْل الذي لا مروءة له. ما أنكر: أقبح.
(٢) الخُرق: جمع أخرق، وهو الضعيف الرأي. مباشرتها: أي الابتداء بها. يتعذر: أي يصعب ويتعسر. بغيك: ظلمك.
(٣) الورع: التقوى. الرفيق: ضد الأحمق.

وَإِنَّما الْمَلِكُ وَزِينَتُهُ أَنْ تَكُونَ جُنُودُهُ وَوُزَراؤُهُ ذَوِي صَلاحٍ فَيُسَدِّدُونَ أَحْوالَ النَّاسِ، وَيَنْظُرُونَ فِي صَلاحِهِمْ، وَأَنْتَ يا دِمْنَةُ، أَرَدْتَ أَلّا يدْنُوَ مِنَ الأَسَدِ أَحَدٌ سِواكَ، وَهٰذا أَمْرٌ لا يَصِحُّ، وَلا يَتِمُّ أَبَدًا، وَذٰلِكَ لِلْمَثَلِ الْمَضْرُوبِ: «**إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْواجِهِ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحابِهِ**»[1].

وَمِنَ الْحُمْقِ الْحِرْصُ عَلَى الْتِماسِ الْإِخوانِ بِغَيْرِ الْوَفاءِ لَهُمْ، وَالْتِماسِ الْآخِرَةِ بِالرِّياءِ، وَمَوَدَّةِ النِّساءِ بِالْغِلْظَةِ[2]، وَنَفْعِ النَّفْسِ بِضَرِّ الْغَيْرِ. وَمَا عِظَتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّاكَ إِلَّا كَما قالَ الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ: «**لا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ ما لا يَسْتَقِيمُ، وَلا تُعالِجْ تَأْدِيبَ ما لا يَتَأَدَّبُ**» . قالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟.

مثل القِرَدَة والطائر والرجل

وهو مثل ا لفضولي الذي يتدخل فيما لا يعنيه ولا يقبل نصحا حتى يهلك

قالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ جَماعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ، كانُوا ساكِنِينَ فِي جَبَلٍ، فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بارِدَةٍ ذاتِ رِياحٍ وأَمْطارٍ – نارًا، فَلَمْ يَجِدُوا ، وَرَأَوْا يَراعَةً تَطِيرُ كَأَنَّها شَرارَةُ نارٍ، فَظَنُّوها نارًا، وَجَمَعُوا حَطَبًا كَثِيرًا فَأَلْقَوْهُ عَلَيْها، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ بِأَفْواهِهِمْ، وَيَتَرَوَّحُونَ بِأَيْدِيهِمْ طَمَعًا فِي أَنْ يُوقِدُوا نارًا يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ! وَكانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ رأَى ما صَنَعُوا، فَجَعَلَ يُنادِيهِمْ وَيَقُولُ : لا تَتْعَبُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنارٍ!! فَلَمَّا طالَ ذٰلِكَ عَلَيْهِ، عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ؛ فَعَرَفَ ما عَزَمَ عَلَيْهِ[3].

فَقالَ لَهُ : «**لا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ ما لا يَسْتَقِيمُ؛ فَإِنَّ الْحَجَرَ الصُّلْبَ الَّذِي لا يَنْقَطِعُ لا تُجَرِّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ، وَالْعُودَ الَّذِي لا يَنْحَنِي لا تُعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ، فَلا تَتْعَبْ**؛ فَأَبَى الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ الْيَرَاعَةَ لَيْسَتْ بِنارٍ؛ فَتَناوَلَهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ، فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَماتَ! فَهٰذا مَثَلِي مَعَكَ فِي ذٰلِكَ. ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخِبُّ والْفُجُورُ وَهُما خَلَّتا سُوءٍ وَالْخِبُّ شَرُّهُما عاقِبَةً! وَلِهٰذا مَثَلٌ[4].

قالَ دِمْنَةُ : وَما ذٰلِكَ الْمَثَلُ ؟

---

(١) الخفاش: الوطواط. (٢) بالغلظة: خلاف الرقة.
(٣) يراعة: ذبابة تطير في الليل كأنها نار. يتروحون: يجلبون الريح. (٤) الخب: الخبث والخداع.

مثل الخِبّ والمغفّل

وهو مثل يبرز شر الأشياء عاقبة، والتمادي في الطمع نهايته الخسران

قالَ كَلِيلَةُ : زِعَمُو أَنَّ خِبًّا وَمُغَفَّلًا اشْتَرَكَا فِي تِجارةٍ وَسَافَرَا ، فَبَيْنَما هُما فِي الطَّرِيقِ، تَخَلَّفَ الْمُغَفَّلُ لِبَعْضِ حاجَتِهِ، فَوَجَدَ كِيسًا فِيهِ أَلْفُ دِينارٍ فَأَخَذَهُ؛ فَأَحَسَّ بِهِ الْخَبُّ، فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِما، حَتَّى إِذا دَنَوَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعدا لِاقْتِسامِ الْمالِ. فَقالَ الْمُغَفَّلُ : خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ، وَكانَ الْخَبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفسِهِ أَنه يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعِها! فَقالَ لَهُ : لا نَقْتَسِمْ؛ فَإِنَّ الشَّرِكَةِ وَالْمُفاوَضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّفَاءِ والْمُخالَطِةِ؛ وَلٰكِنْ آخُذُ نَفَقَةً، وَتَأْخُذُ مِثْلَها، وَنَدْفِنُ الْباقِيَ فِي أَصْلِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ، فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيزٌ، وَذٰلِكَ أَكْتَمُ لِأَمْرِنا؛ فَإِذا احْتَجْنا جِئْنا أَنا وَأَنْتَ فَنَأْخُذُ حاجَتَنَا مِنْهُ، وَلا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنا أَحَدٌ[1].

فَأَخذا مِنْها يَسِيرًا، وَدَفَنَا الْباقِيَ فِي أَصْلِ الشَّجَرةِ، وَدَخَلا البَلَدَ، ثُمَّ إِنَّ الْخَبَّ خالَفَ الْمُغَفَّلَ إِلى الدَّنانِيرِ ، فَأَخَذَها وَسَوَّى الأَرْضَ كَما كانَتْ، وَجاءَ الْمُغَفَّلُ بَعْدَ ذٰلِكَ، فَقالَ لِلْخَبِّ: قَدِ احْتَجْتُ إِلَى نَفَقَةٍ فَانْطَلِقْ بِنا نَأْخُذْ حاجَتَنا، فَقامَ الْخَبُّ مَعَهُ، وَذَهَبا إِلَى الْمَكَانِ، فَحَفَرا، فَلَمْ يَجِدا شَيْئًا! فَأَقْبَلَ الْخَبُّ عَلى وَجْهِهِ يَلْطِمُهُ، وَيَقُولُ : **لا تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صاحِبٍ**؛ خَلَفْتَنِي إِلَى الدَّنانِيرِ فَأَخَذْتَها[2]!.

فَجَعَلَ الْمُغَفَّلُ يَحْلِفُ، وَيَلْعَنُ آخِذَها، وَلا يَزْدادُ الْخَبُّ إِلّا شِدَّةً فِي اللَّطْمِ! وَقالَ : ما أَخَذَها غَيْرُكَ، وَهَلْ شَعَرَ بِها أَحَدٌ سِواكَ؟! ثُمَّ طالَ بَيْنَهُما ذٰلِكَ فَتَرافَعا إِلَى الْقاضِي، فَاقْتَصَّ قِصَّتَهُما فَادَّعَى الْخَبُّ أَنَّ الْمُغَفَّلَ أَخَذَها، وَجَحَدَ الْمُغَفَّلُ؛ فَقالَ لِلْخَبِّ: أَلَكَ عَلَى دَعْواكَ بَيِّنةٌ؟ قالَ : نَعَم الشَّجَرَةُ الَّتِي كانَتِ الدَّنانِيرُ عِنْدَها تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغَفَّلَ قَدْ أَخَذَها. وَكانَ الْخَبُّ قَدْ أَتَى أَباهُ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ، وَطَلَب إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ فَيَتَوارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذا سُئِلَتْ أَجابَ.. فَقالَ لَهُ أَبُوهُ : **رُبَّ مُتَحَيِّلٍ أَوْقَعَهُ تَحَيُّلُهُ فِي وَرْطَةٍ عَظِيمةٍ لا يَقْدِرُ عَلَى الْخَلاصِ مِنها**[3].

فَإِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ مَثَلُكَ مَثَلَ الْعُلْجُومِ! قالَ الْخَبُّ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِك؟

---

(١) خِبًّا: مخادعا خبيثا. ومُغَفَّلاً: ساذجاً عبيطا.

(٢) خالفه إليها: قصدها مخالفا له دون علمه.

(٣) شعَر: علم. فاقتص قصتهما: طلب أن يقصاها عليه. وجَحد: أنكر. فيتوارى: فيختبئ. مُتحيّل: مُتخذ حيلة. ورطة: شدة ومشكلة.

مَثَلُ العُلْجُوم والحيّة

وهو مَثَلُ من احتال لعدوه بحيلةٍ أهلكه فيها ثم سرى إليه الشر من تلك الحيلة فأهلكه أيضًا

قالَ أَبُوهُ : زِعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا جاوَرَ حَيَّةً ، فَكَانَ كُلَّما أَفْرَخَ جَاءَتْ إِلَى عُشِّهِ، وَأَكَلَتْ فِراخَهُ، فَفَزِعَ فِي ذٰلِكَ إِلَى السَّرَطانِ، فَقالَ لَهُ السَّرَطانُ : إِنَّ بِقُرْبِكَ جُحْرًا يَسْكُنُهُ ابْنُ عِرْسٍ، وَهُوَ يَأْكُلُ الْحَيَّاتِ. فَاجْمَعَ سَمَكًا كَثِيرًا، وَفَرِّقْهُ مِنْ جُحْرِ ابْنِ عِرْسٍ إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ ، فَإِنَّهُ إِذا بَدَأَ فِي أَكْلِ السَّمَكِ، انْتَهَى إِلَى جُحْرِ الْحَيَّةِ فَأَكَلَها، فَفَعَلَ، وَكَانَ كَذٰلِكَ، ثُمَّ تَدَرَّجَ ابْن عِرْسٍ من جُحْرِ الْحَيَّةِ فِي طَلَبِ غَيْرِها، حَتَّى بَلَغَ إِلَى جُحْرِ الْعُلْجُومِ، فَأَكَلَهُ أَيْضًا وَفِراخَهُ جَمِيعًا[1]!

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ، لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَثَبَّتْ فِي الْحِيَلِ وَيَتَدَبَّرْها، وَيَنْظُرْ فِيها، أَوقَعَتْهُ حِيلَتُهُ فِي أَشَدَّ مِمَّا يَحْتالُ لَهُ. قالَ الْخَبُّ: قَدْ فَهِمْتُ ما ذَكَرْتَ، وَلٰكِنْ لا تَخَفْ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يَسِيرٌ حَقِيرٌ! وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى طاوَعَهُ، وَانْطَلَقَ مَعَهُ، فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ. ثُمَّ إِنَّ الْقاضِيَ لَمَّا سَمِعَ مِنَ الْخَبِّ حَدِيثَ شَهادةِ الشَّجَرَةِ، أَكْبَرَهُ وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحابُهُ وَالْخَبُّ وَالْمُغَفَّلُ مَعَهُ؛ حَتَّى وافَى الشَّجَرَةِ، فَسَأَلَها عَنِ الْخَبَرِ! فَقالَ الْشَّيْخُ مِنْ جَوْفِها: نَعَمَ الْمغَفَّلُ أَخَذَها[2].

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِي ذٰلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبَهُ، وَجَعَلَ يَطُوف بِالشَّجَرَةِ، حَتَّى بانَ لَهُ خَرْقٌ فِيها، فَتَأَمَّلَهُ فَلَمْ يَرَ فِيهِ شَيْئًا فَدَعَا بِحَطَبٍ، وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ، فَأُضْرِمَتْ حَوْلَها النِّيرانُ ، فَاسْتَغاثَ أَبُو الْخَبِّ عِنْدَ ذٰلِكَ، فَأُخْرِجَ، وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلاكِ! فَسَأَلَهُ الْقاضِي عَنِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبَرِ. فَأَوْقَعَ بِالْخَبِّ ضَرْبًا وَبِأَبِيهِ صَفعًا وَأَرْكَبَهُ مَشْهُورًا، وَغَرَّمَ الْخَبَّ الدَّنانِيرَ، فَأَخَذَها وَأَعْطاها الْمُغَفَّلَ! **وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْخِبَّ وَالْخَدِيعةِ رُبَّما كانَ صاحِبُهُما هُوَ الْمَغْبُونَ.** وَإِنَّكَ يا دِمْنةُ جامِعٌ لِلْخِبِّ وَالخَدِيعةِ وَالْفُجورِ، وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِناجٍ مِنَ الْعُقُوبةِ؛ لأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسانَيْنِ[3].

وَإِنَّما عُذُوبةُ ماءِ الْأَنْهارِ ما لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبِحارِ، وَصَلاحُ أَهْلِ الْبَيْتِ ما لَمْ يَكُنْ يَتَنَهُمُ الْمُفْسِدُ.

---

(١) فزع إلى السّرطان: التجأ إليه. جحرًا: وكراً. ابن عرس: دويبة أكبر من الفأرة.

(٢) أكبره: كبر في عينه ورآه كبيرا وعظم عنده. وافي الشجرة: وصل إليها، وبلغها، وأتى إليها. يطوف بالشجرة: يدور حولها.

(٣) فأضرمت النار: فأشعلت وأوقدت. فاستغاث: طلب النجدة والإغاثة. أشرف على الهلاك: اطلع عليه ورأى الموت بعينه. صفعاً: ضربا على مؤخر العنق على القفا. وأركبه مشهوراً: شنع عليه وفضحه على ملأ من الناس. وغرمه الدنانير: ألزمه دفعها.

وَإِنَّهُ لا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذاتِ اللِّسانَيْنِ الَّتي فِيها السُّمُّ، فَإِنَّهُ قَد يَجْرِي مِنْ لِسانِكَ كَسُمِّها. وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ لِذٰلِكَ السُّمِّ مِنْ لِسانِكَ خائِفًا، وَلِما يَحُلُّ بِكَ مُتَوَقِّعًا، وَالْمُفْسِدُ بين الإِخْوَانِ وَالأَصْحَابِ كالحيَّةِ الَّتي يربِّيهَا الرَّجُل، ويُطْعمها ويَمْسحها وَيُكْرِمُها، ثُمَّ لا يَكُونُ لَهُ مِنْها غَيْرُ اللَّدْغِ. وَقَدْ يُقالُ: الْزَمْ ذا الْعَقْلِ، وَذا الْكَرَمِ، وَذا الأَصْلِ الطَّيِّبِ، وَاسْتَرْسِلْ إِلَيْهِمْ[1].

وَإِيَّاكَ وَمُفارَقَتَهُمْ، وَاصْحَبِ الصَّاحِب إِذا كانَ عاقِلًا كَرِيمًا، أَوْ عاقِلاً غَيْرَ كَرِيمٍ، فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كامِلٌ، وَالْعاقِلَ غَيْرَ الْكَرِيمِ اصْحَبْهُ، وَإِنْ كانَ غَيْرَ مَحْمُودِ الْخَلِيقَةِ، وَاحْذَرْ مِنْ سُوءِ أَخْلاقِهِ، وَانْتَفِعْ بِعَقْلِهِ، وَالْكَرِيمَ غَيْرَ الْعاقِلِ الزَمْهُ، وَلا تَدَعْ مُواصَلَتَهُ، وَإِنْ كُنْتَ لا تَحْمَدُ عَقْلَهُ، وَانْتَفِع بِكَرَمِهِ وَانْفَعْهُ بِعَقْلِكَ؛ وَالْفِرارَ كُلَّ الْفِرارِ مِنَ اللَّئِيمِ الأَحْمَقِ. وَإِنِّي بِالْفِرارِ مِنْكَ لَجَدِيرٍ. وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا، وَوُدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمَلِكِكَ الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ ما صَنَعْتَ؟! وَإِنَّ مثلك مَثَلُ التَّاجِرِ الَّذِي قال : إِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْذانُها مِائَةَ مِنٍّ حَدِيدًا، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ لِبُراتِها أَنْ تَخْتَطِفَ الْفِيلَةَ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[2]؟.

مَثَلُ التاجر والحديد

وهو مثل الذي يقابل الكبيرة بمثلها للتخلص من غائلتها

قالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ كَذا تاجِرٌ، فَأَرادَ الْخُرُوجَ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ لِابْتِغاءِ الرِّزْقِ؛ وَكَانَ عنده مِائَةُ مَنٍّ حَدِيدًا فَأَوْدَعَها رَجُلًا مِنْ إِخْوانِهِ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِمُدَّةٍ، فَجَاءَ وَالْتَمَسَ الْحَدِيدَ، فَقالَ لَهُ: قَدْ أَكَلَتْهُ الْجِرذانُ. فَقالَ : قَدْ سَمِعْتُ أَنْ لا شَيْءٍ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيابِها لِلْحَدِيدِ؛ فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصْدِيقِهِ عَلَى ما قالَ وَادَّعَى[3].

ثُمَّ إِنَّ التَّاجِرَ خَرَجَ فَلَقِيَ ابْنًا لِلرَّجُلِ، فَأَخَذَهُ، وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْغَدِ، فَقالَ لَهُ: هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مِن ابْنِي؟ فَقالَ لَهُ التاجِرُ : إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالأَمْسِ، رَأَيْتُ بازِيًا قَدِ اخْتَطَفَ صَبِيًّا صِفَتُهُ كَذَا، وَلَعَلَّهُ ابْنُكَ، فَلَطَمَ الرَّجُلُ رَأْسَهُ، وَقالَ: يا قَوْمُ هَلْ سَمِعْتُمْ، أَوْ رَأَيْتُمْ، أَنَّ الْبُزاةَ تَخْتَطِفُ الصِّبْيانَ؟! فَقالِ : نَعَمْ وَإِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْذانُها مِائَةَ مَنٍّ

---

(١) متوقعاً: منتظراً. اللدغ: اللسع. واسترسل إليهم: انبسط واستأنس بهم.

(٢) الخليقة: الطبيعة والسجية. مَنّ: المنّ رطلان. البُزاة: جمع بازٍ طائر جارح الصقور ويستخدم في الصيد.

(٣) الوجوه: النواحي. لابتغاء: لطلب. في وجهه: عمله وما توجّه له. التمس الحديد: طلبه.

حَدِيدًا لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ تَخْتَطِفَ بُرَاتُها الْفِيَلَةَ! قالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَنَا أَكَلْتُ حَدِيدَكَ، وَهٰذا ثَمَنُهُ فَارْدُدْ عَلَيَّ ابْنِي[1]!

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ مَنْ غَدَرَ بِمَلِكِهِ وَصاحِبِ نُعْماهُ؛ فَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَغْدُرَ بِغَيْرِهِ، وَإِذا صاحَبَ أَحَدٌ صاحِبًا، وَغَدَرَ بِمَنْ سِواهُ، فَقَدْ عَلِمَ صاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ. فَلا شَيْءَ أَضْيَعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُمْنَحُ مَنْ لا وَفاءَ لَهُ، وَجِباءٍ يُصْطَنَعُ عِندَ مَنْ لا شُكْرَ لَهُ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلا يَسْمَعُهُ، وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لا يُحْفَظُهُ، وَإِنَّ الشَّجَرَةَ الْمُرَّةَ لَوْ طُلِيَتْ بِالْعَسَلِ لَمْ يُجْدِها ذٰلِكَ شَيْئًا، وَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَخْيارِ ، تُورِثُ الْخَيْرَ وَصُحْبَةَ الْأَشْرارِ تُورِثُ الشَّرَّ؛ كَالرِّيحِ إِذا مَرَّتْ بِالطِّيبِ حَمَلَتْ طَيِّبًا، وَإِذا مَرَّتْ بِالنَّتِنِ حَمَلَتْ نَتِنًا، وَقَدْ طالَ وَثَقُلَ كَلامِي عَلَيْكَ[2].

فَانْتَهَى كَلِيلَةُ مِنْ كَلامِهِ إِلَى هٰذا الْمَكَانِ، وَقَدْ فَرَغَ الْأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ. ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَقالَ : لَقَدْ فَجَعَنِي شَتْرَبَةُ بِنَفْسِهِ، وَكانَ ذا عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ، وَلا أَدْرِي لَعَلَّهُ كانَ بَرِيئًا أَوْ مَكْذُوبًا عَلَيْهِ. فَحَزِنَ وَنَدِمَ عَلَى ما كانَ مِنْهُ، وَتَبَيَّنَ ذٰلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَبَصُرَ بِهِ دِمْنَةُ فَتَرَكَ مُحاوَرَةَ كَلِيلَةَ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ فَقالَ لَهُ : لِيَهْنِئْكَ الظَّفَرُ[3] ، إِذ أَهْلَكَ اللهُ أَعْداءَكَ فَماذا يُحْزِنُكَ أَيُّها الْمَلِكُ؟! قالَ : أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ شَتْرَبَةَ وَرَأْيِهِ وَأَدَبِهِ! قالَ لَهُ دِمْنَةُ : لا تَرْحَمْهُ أَيُّها الْمَلِكُ؛ فَإِنَّ الْعاقِلَ لا يَرْحَمُ مَنْ يَخافُهُ،وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحازِمَ رُبَّما أَبْغَضَ الرَّجُلَ وَكَرِهَهُ، ثُمَّ قَرَّبَهُ وَأَدْناهُ لِما يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الْغِنَى وَالْكِفايَةِ، فِعْلَ الرَّجُلِ الْمُتَكارِهِ عَلَى الدَّواءِ الشَّنِيعِ رَجاءَ مَنْفَعَتِهِ. وَرُبَّما أَحَبَّ الرَّجلَ وَعَزَّ عَلَيْهِ فَأَقْصاهُ وَأَهْلَكَهُ مَخافَةَ ضَرَرِهِ، كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إِصْبَعِهِ، فَيَقْطَعُها وَيَتَبَرَّأُ مِنْها مَخافَةَ أَنْ يَسْرِيَ سُمُّها إِلَى بَدَنِهِ. فَرَضِيَ الْأَسَدُ بِقَوْلِ دِمْنَةَ. ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ ذٰلِكَ بِكَذِبِهِ وَفُجُورِهِ فَقَتَلَهُ شَرَّ قِتْلَةٍ[4].

---

(١) كذا: كلمة يراد بها بيان الشيء المجهول.

(٢) صاحب نُعماه: نعمته. وجِباء: عطاء. طليت: لطخت، ودهنت. لم يجدها: لم ينفعها. التِّن: الخبيث الرائحة.

(٣) فجعني: أصابني وأوجعني. ليهنئك الظفر: هنيئا لك النصر.

(٤) الحازم: الذي يضبط أمره ويحكمه ويأخذ فيه بالثقة. الغَناء: المنفعة. والكفاءة: حالة يكون بها شيء مساويًا لشيء آخر. المتكاره: الذي يفعل الشيء ولا يريده. الشنيع: الكريه الطعم. فأقصاه: أبعده.

بابُ

الْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ حَدَّثْتَنِي عَنِ الْواشِي الْماهِرِ الْمُحْتَالِ، كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيمَةِ الْمَوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابِينَ، فَحَدِّثْنِي إِنْ رَأَيْتَ بِمَا كانَ مِنْ حالِ دِمْنَةَ، وَإِلامَ آلَ مَآلُهُ بَعْدَ قَتْلِ شَتْرَبَةَ، وَمَا كانَ مِنْ مَعاذِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحابِهِ حينَ راجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ، وأَدْخَلَ النَمِيمَةَ عَلَى دِمْنَةَ، وَمَا كانَتْ حُجَّتُهُ الَّتِي احتج بِها[1]؟!

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنِّي وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ دِمْنَةَ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَتْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ، وَذَكَرَ قَدِيمَ صُحْبَتِهِ، وَجَسِيمَ خِدْمَتِهِ، وَأَنَّهُ كانَ أَكْرَمَ أَصْحابِهِ عَلَيْهِ، وَأَخَصَّهُمْ مَنْزِلَةً لَدَيْهِ، وَأَقْرَبَهُمْ ، وَأَدْناهُمْ إِلَيْهِ، وَكانَ يُواصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ دُونَ خَواصِّهِ. وَكانَ مِنْ أَخَصِّ أَصْحابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ النَّمِرُ[2].

فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى النَّمِرُ ذاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنْزِلَهُ، فَاجْتازَ عَلَى مَنْزِلِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبابِ سَمِعَ كَلِيلَةَ يُعاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى ما كانَ مِنْهُ ، وَيَلُومُهُ فِي النَّمِيمَةِ، وَاسْتِعْمالِها مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتانِ فِي حَقِّ الخاصَّةِ، وعرف النَّمِرُ عِصْيَانَ دِمْنَةَ، وترك القبولَ مِنْهُ فوقَفَ يستمعُ ما يَجرى بَيْنَهُما. فَكانَ فِيما قالَ كَلِيلَةُ لِدِمْنَةَ: لَقَدِ ارْتَكَبْتَ مَرْكَبًا صَعْبًا، وَدَخَلْتَ مَدْخَلًا ضَيِّقًا، وَجَنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ جِنايَةً مُوبِقَةً، وَعَاقِبَتُها وَخِيمَةٌ، وَسَوْفَ يَكُونُ مَصْرَعُكَ شَدِيدًا إِذا انْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ، وَعَرَفَ غَدْرَكَ، وَمِحالَكَ، وَبَقِيتَ لا ناصِرَ لَكَ؛ فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ الْهَوانُ وَالْقَتْلُ مَخافَةَ شَرِّكَ، وَحَذَرًا مِنْ غَوائِلِكَ؛ فَلَسْتُ بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا، وَلا مفشٍ لَكَ سِرًّا؛ لِأَنَّ الْعُلَماءَ قَدْ قالُوا : تَباعَدْ عَمَّنْ لا رَغْبَةَ لَكَ فِيهِ[3].

---

(١) الواشي: الكذاب الذي يسعى بين الناس بالفساد ليوقع فتنة، ويسبب قطيعة. بالنميمة: فِعْل النمام الذي يزين الكلام بالكذب. آل مآله: رجع مرجعه. وما كان من معاذيره: جمع مِعذار وهو ما يحتج به الإنسان لينفي عن نفسه اللوم والذنب. حجته: برهانه. احتج: اعتذر.

(٢) خَواصِّه: المقربين إليه من رجال دولته.

(٣) جوف الليل: وسطه. فاجتاز: فمرّ. والبهتان: القول على الناس ما لم يفعلوه. مركبًا صعباً: اقتحمت أمراً مهلكا. جنيت على نفسك جناية: الجناية الذنب. وجنى المذنب على نفسه: جره إليها. موبقة: مهلكة. وخيمة: رديئة. مصرعك: مقتلك وهلاكك. ومحلك: طلبك الأمر بالحيل والمكر. غوائلك: شرورك. مُفْشٍ: كاشف.

وَأَنا جَدِيرٌ بِمُباعَدَتِكَ، وَالْتِماسِ الْخَلاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ مِنْ هٰذا الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هٰذا مِنْ كَلامِهِما قَفَلَ راجِعًا، فَدَخَلَ عَلَى أُمِّ الْأَسَدِ فَأَخَذَ عَلَيْها الْعُهُودَ وَالْمَواثِيقَ أَنَّها لا تَبُوحَ بِمَا يُسِرُّ إِلَيْها، فَعاهَدَتْهُ عَلَى ذٰلِكَ فَأَخْبَرَهَا بِما سَمِعَ مِنْ كَلامِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ. فَلَما أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الْأَسَدِ، فَوَجَدَتْهُ كَئِيبًا حَزِينًا مَهْمُومًا لِما وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَتْرَبَةَ[1]!.

فَقالَتْ لَهُ : ما هذا الْهَمُّ الَّذِي أَخَذَ مِنْكَ ،وَغَلَبَ عَلَيْكَ؟ قالَ: يُحْزِنُنِي قَتْلُ شَتْرَبَةَ؛ إِذا تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ وَمُواظَبَتَهُ مَعِي،وَمَا كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ مُؤَامَرَتِهِ، وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ فِي مُشاوَرَتِهِ، وَأَقْبَلُ مِنْ مُناصَحَتِهِ! قالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنْ كُنْتَ تَرَى أَنَّ لَكَ فِي قَتْلِهِ فَرَجًا، فَلا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَحْزَنَ، وَإِلَّا فَقَلْبُكَ يَشْهَدُ أَنَّ عَمَلَكَ الَّذِي عَمِلْتَهُ لَمْ يَكُنْ صَوابًا وَلا عَدْلًا؛ لِأَنَّ الْعُلَماءَ قَدْ قالُوا: إِذا أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ عَدُوَّكَ مِنْ صَدِيقِكَ، فَفَكِّرْ فِي نَفْسِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُكَ لَهُ سَلِيمًا، فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَكَ كَذٰلِكَ[2].

فَانْظُرِ الْآنَ وَابْحَثْ فِي ذاتِ نَفْسِكَ، هَلْ تَرَى ضَمِيرَكَ يَشْهَدُ لَكَ أَنَّ الَّذِي فَعَلْتَهُ بِالثَّوْرِ كانَ عَدْلًا أَمْ ظُلْمًا؟ فَقالَ الْأَسَدُ: إِنْ صَحَّ ما تَقُولِينَ، فَإِنِّي لَمْ أَقْتُلِ الثَّوْرَ إِلَّا ظُلْمًا؛ لِأَنِّي قَدْ بَحَثْتُ فِي نَفْسِي كَمَا تَقُولِينَ، فَلَمْ أَجِدْ فِيها إِلَّا ما يَدُلُّ عَلَى بَرَاءَةِ شَتْرَبَةَ، وَقَتْلِهِ ظُلْمًا وَبَغْيًا مَكْذُوبًا عَلَيْهِ مِنَ الْأَشْرارِ! وَإِنَّ كَثْرَةَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُمُورِ تُحِقُّ الْحَقَّ، وَتُبْطِلُ الْباطِلَ، وإِنَّ حَدِيثَكِ لَيَدُلُّ عَلَى مَكْنُونِ أَمْرٍ، أَفَبَلَغَكِ شَيْءٌ عَنْ هٰذا الْأَمْرِ[3]؟.

فَقالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنَّ أَشَدَّ ما شَهِدَ امْرُؤٌ عَلَى نَفْسِهِ، وَهٰذا خَطَأٌ عَظِيمٌ كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلا عِلْمٍ وَلا يَقِينٍ؟! وَلَوْلا ما قالَتِ الْعُلَماءُ مِنْ إِذاعَةِ الْأَسْرارِ وَمَا فِيها مِنَ الْإِثْمِ وَالشَّنارِ لَذَكَرْتُ لَكَ، وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا عَلِمْتُ. فَإِنَّ الْعُلَماءَ قَدْ قالُوا : **إِنَّ أَحْمَدَ النَّاسِ عاقِبَةً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أَكْتَمُهُمْ لِلسِّرِّ**. قالَ الْأَسَدُ : إِنَّ أَقْوالَ الْعُلَماءِ لَهَا وُجُوهٌ كَثِيرَةٌ، وَمَعانٍ مُخْتَلِفَةٌ، فَإِنَّهُمْ قَدْ قالُوا أَيْضًا: مَنِ اطَّلَعَ عَلَى ذُنُوبِ الْمُذْنِبِينَ، فَكَتَمَا عَنِ السلْطانِ، فَلَمْ يُعاقِبُوا عَلَى ذُنُوبِهِمْ ، عُوقِبَ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ[4].

وَإِنَّ الَّذِي أَطْلَعَكِ عَلَى هٰذا السِّرِّ الْعَظِيمِ؛ لَمْ يُطْلِعْكِ عَلَيْهِ إِلَّا لِتُعْلِمِينِي بِهِ، فَأَطْلِعِينِي عَلَى ما

---

(١) جدير : أولى وأحق. قفل: رجع. المواثيق: جمع ميثاق بمعنى العهد. لا تبوح: لا تظهر ولا تكشف. كئيبا: مغمومًا.

(٢) أخذ منك: أثر فيك. مؤامرته: مشاورته ومعرفة أمره ورأيه. وأسكن إليه: أرتاح. مناصحته: وعظه.

(٣) ذات نفسك: سريرتك، وانظر في داخلك، وفكر فيما تضمره.

(٤) والشنار: العار، وأقبح العيب.

أَسَرَّ إِلَيْكَ مِنْ ذٰلِكَ، وَأَخْبِرِينِي بِهِ وَلاَ تَطْوِيهِ عَنِّي، فَأَخْبَرَتْهُ بِجَمِيعِ ما أَلْقاهُ إِلَيْها النَّمِرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ، وَقَالَتْ : إِنِّي لَمْ أَجْهَلْ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْظِيمِ الْعُقُوبةِ وَتَشْدِيدِها، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْعَارِ فِي إِذاعةِ الأَسْرارِ، وَلٰكِنِّنِي أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِما فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَكَ؛ فَقَدْ قالَتِ الْعُلَمَاءُ : **إِنَّ فَسادَ عامَّةِ الأَشْياءِ يَكُونُ مِنْ حالَتَيْنِ: إِحْداهُما إِفْشاءُ السِّرِّ، وَالأُخْرَى تَرْكُ عُقُوبةِ مَنْ يَسْتَوْجِبُ الْعُقُوبةَ**، وَلَإِفْشاءُ السِّرِّ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُبْقَى عَلَى هٰذا الْخائِنِ دِمْنةَ الَّذِي أَدْخَلَ الْفَسَادَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الثَّوْرِ بِمَكْرِهِ وَفُجُورِهِ[1]!.

فَلَوْ كُتِمَ أَمْرُهُ لَنَجَا مِنَ الْعِقابِ عَلَى فِعْلِهِ، وَلَلَخِيفَ مِنْهُ أَكْبَرُ مِنْ هٰذِهِ الْفَعْلةِ مِنْ عَمَلِهِ، وَقَدْ أَمَرَ الْعُلَماءُ بِالْعَفْوِ عَنِ الْجانِي ، وَالصَّفْحِ عَنِ الْمُذْنِبِ، وَلٰكِنَّهُمْ قَدْ نَهَوْا عَنِ اغْتِفارِ الْجُرْمِ الْعَظِيمِ، وَالذَّنْبِ الْكَبِيرِ، فَلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الأَسَدِ هٰذا الْكَلامَ، صَحَّ عِنْدَ الأَسَدِ ما فَعَلَ دِمْنةُ، فَاسْتَدْعَى أَصْحابَهُ وَجُنْدَهُ؛ فَأُدْخِلُوا عَلَيْهِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنةَ[2].

فَلَمَّا حَضَرَ دِمْنةُ نَكَسَ الأَسَدُ رَأْسَهُ إِلَى الأَرْضِ مَلِيًّا؛ فَالْتَفَتَتْ دِمْنةُ إِلَى بَعْضِ الْحاضِرِينَ فَقالَ: ما الَّذِي حَدَثَ؟ وَعَلامَ اجْتَمَعْتُمْ؟ وَمَا الَّذِي أَحْزَنَ الْمَلِكَ؟! فَالْتَفَتْ أُمُّ الأَسَدِ إِلَيْهِ، وَقالَتْ لَهُ : أَحْزَنَ الْمَلِكَ بَقاؤُكَ وَلَوْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَنْ يَدَعَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ حَيًّا! قالَ دِمْنةُ : وَمَا حَدَثَ مِنْ أَمْرِي حَتَّى وَجَبَ بِهِ قَتْلِي؟! قالَتْ: إِنَّهُ قَدْ بانَ لِلْمَلِكِ كَذِبُكَ وَفُجُورُكَ وَخَدِيعتُكَ فِي قَتْلِ الثَّوْرِ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ كانَ مِنْهُ؛ فَلَسْتَ حَقِيقًا أَنْ تُتْرَكَ بِالْحَياةِ طَرْفةَ عَيْنٍ! قالَ دِمْنةُ : ما تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ يُقالُ : أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوَقِّي الشَّرِّ، يُصِيبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ الْمُسْتَسْلِمِ لَهُ، فَلا يَكُونَنَّ الْمَلِكُ وَخاصَّتُهُ وَجُنُودُهُ الْمَثَلَ السَّوْءَ[3].

وَلَقَدْ صَدَقَ مَنْ قالَ : كُلَّما ازْدادَ الإِنْسانُ فِي الْخَيْرِ اجْتِهادًا كانَ الشَّرُّ إِلَيْهِ أَسْرَعَ. وَقَدْ قِيلَ: مَنْ صَحِبَ الأَشْرارَ وَهُوَ يعْلَمُ حالَهُمْ، كانَ أَذاهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلِذٰلِكَ انْقَطَعَتِ النُّسَّاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْخَلْقِ، وَاخْتارَتِ الْوَحْدةَ عَلَى الْمُخالَطَةِ، وَحُبَّ الْعَمَلِ للهِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيا وَأَهْلِها، وَمَنْ يَجْزِي بِالْخَيْرِ خَيْرًا، وَبِالإِحْسانِ إِحْسانًا إِلَّا اللهُ. وَمَنْ طَلَبَ الْجَزاءَ عَلَى الْخَيْرِ مِنَ النَّاسِ، كانَ حَقِيقًا أَنْ يَحْظَى بِالْحِرْمانِ؛ إِذ يُخْطِئُ الصَّوابَ فِي خُلُوصِ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللهِ، وَطَلَبِ الْجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ.

---

(١) ولا تطويه عني: لا تكتميه. ألقاه إليها: أبلغها إياه. بما فيه المصلحة: أي بما يترتب على الفعل، ويبعث على الصلاح. يُبْقي عليه: يحفظ ويرحم.

(٢) الجاني: المذنب الخاطئ. اغتفار الجُرْم: تغطية الذنب والستر عليه. صح: ثبت وتأكد.

(٣) مَليًّا: طأطأ رأسه طويلا. طرفة عين: مقدار تحريك جفنيها. تَوَقى الشر: التحفظ والحذر منه. المستسلم: المنقاد.

وَلٰكِنَّ عاقِبَةَ ما يَنْبَغِي أَنْ يُعاقَبَ بِهِ الْفُجَّارُ، يُصابُ بِهِ الْأَخْيارُ[1].

وَهٰذا الْأَمْرُ شَبِيهٌ بِشَأْنِي؛ لِأَنَّنِي حَمَلَنِي حُبُّ الْمَلِكِ، وَنُصْحِي لَهُ، وَإِشْفاقِي عَلَيْهِ أَنْ أُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّ عَدُوِّهِ الْخائِنِ، وَإِنَّ الْمَلِكَ قَدْ شاهَدَ مِنْهُ ذٰلِكَ عِيانًا، وَظَهَرَتْ لَهُ الْعَلاماتُ الَّتِي ذَكَرْتُها لَهُ! أَفَهٰذا جَزائِي مِنْهُ أَنْ أُقْتَلَ؟! فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذٰلِكَ مِنْ كَلامِ دِمْنَةَ أَمَرَ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ عِنْدِهِ؛ حَتَّى يَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ، لِيَجْتَهِدَ فِي الْفَحْصِ عَنْهُ لِئَلّا يَعُودَ إِلَى الْعَجَلَةِ وَالنَّدامَةِ؛ فَعِنْدَ ذٰلِكَ سَجَدَ دِمْنَةُ لِلْأَسَدِ شُكْرًا لَهُ، وَدَعَا لَهُ، وَقالَ : أَيُّها الْمَلِكُ، لا تَعْجَلْ فِي قَتْلِي، وَلا تَسْمَعْ فِيَّ كَلامَ الْأَشْرارِ، وَلْيَبْحَثِ الْمَلِكُ عَنْ أَمْرِي ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ صِدْقِي[2].

وَقَدْ قالَتِ الْحُكَماءُ : إِنَّ النّارَ أُخْفِيَتْ فِي الْحِجارَةِ، فَلا تُسْتَخْرَجُ مِنْها إِلَّا بِالْمُعالَجَةِ وَالْقَدْحِ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ لِنَفْسِي ذَنْبًا فِيما بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكَ لَمْ أَقُمْ بَيْنَ يَدَيْكَ، وَأَنا أَرْغَبُ إِلَى الْمَلِكِ إِنْ كانَ فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِي أَنْ يَأْمُرَ بِالنَّظَرِ فِيهِ، وَيَكُونَ مِنْ يَتَوَلّٰى ذٰلِكَ لا تَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لائِمٍ، وَإِلَّا فَلا مَلْجَأَ لِي فِي ذٰلِكَ إِلَّا اللهُ، وَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُ سَرائِرَ الْعِبادِ، وَمَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ[3].

وَإِنَّ أَحَقَّ ما رَغِبَتْ فِيهِ رَعِيَّةُ الْمَلِكَ هُوَ مَحاسِنُ الْأَخْلاقِ، وَمَواقِعُ الصَّوابِ، وَجَمِيلُ السِّيَرِ، وَإِنَّ الْباطِلَ قَدْ يَتَلَبَّسُ بِالْحَقِّ حَتَّى يَتَشابَها، وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ : مَنْ صَدَّقَ ما لا يَنْبَغِي أَنْ يُصَدَّقَ أَصابَهُ ما أَصابَ الْخازِنَ الَّذِي فَضَحَ سِرُّهُ بِالتَّلْبِيسِ عَلَيْهِ. قالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

مثل الخازن والمصور

وهو مثل أن الباطل يلتبس بالحق حتى يتشابها، ويلتبسا، وأن الباطل لا يلبث أن يحبط مسعاه ، ويفتضح أمره !

قالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ تاجِرٌ ، وَكانَ لَهُ خازِنٌ لِبَيْتِ مالِهِ ، وَأَنَّ الْخازِنَ أَرادَ اخْتِلاسَ شَيْءٍ مِنَ الْمالِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ؛ لِأَنَّ التّاجِرَ كانَ إِذا دَخَلَ الْخازِنُ بَيْتَ الْمالِ أَقْفَلَ عَلَيْهِ الْبابَ، فَإِذا أَرادَ الْخُرُوجَ أَتَى فَفَتَحَ لَهُ وَفَتَّشَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ[4].

---

(١) انقطعت الشّاك بأنفسها: انفردت. يخطئ الصواب: يحيد عنه.

(٢) بشأني: بأمري وحالي. حملني: دفعني. وإشفاقي عليه: خوفي.

(٣) بالمعالجة والقدح: ويكون القدح بضرب عود على عود فتظهر النار بفعل الاحتكاك والاصطكاك وكذلك الشأن بضرب قطعة من الفولاذ على حجر، أو بضرب حجرين فتخرج النار من بينهما. أرغب إلى الملك: أبتهل وأتضرع. لومة لائم: أي لا يخاف فيه اللوم. وما تكن صدورهم: تخفي.

(٤) السّير: جمع سيرة. وهي طريقة السلطان التي يحمل عليها رعيته من عدل أو جور. يتلبس: يختلط. بالتلبيس: بالخلط.

وَكَانَ إِلَى جَنْبِ التَّاجِرِ رَجُلٌ مُصَوِّرٌ ماهِرٌ وَكَانَ هُوَ لِلْخازِنِ صَدِيقًا، فَقالَ لَهُ الْخازِنُ يَوْمًا : هَلْ لَكَ أَنْ تُواطِقَنِي عَلَى الِاخْتِلاسِ مِنْ هٰذا الْمالِ؟! قالَ : نَعَمْ. قالَ : وَما الْحِيلَةُ، وَلَا سَبِيلَ لِي إِلَى الخروجِ إِلَيْكَ، ولَا سَبِيلَ لَكَ إِلَى الدُّخُولِ إِلَيَّ؟ وَذَكَرَ لَهُ حالَهُ مَعَ التَّاجِرِ. قالَ الْمُصَوِّرُ :: أَوَ ما لِبَيْتِ الْمالِ نافِذَةٌ إِلَى الْخارِجِ تُناوِلُنِي مِنْها فِي الظَّلامِ؟! قالَ : بَلَى، وَلٰكِنْ أَخْشَى أَنْ يَرانا أَحَدٌ! قالَ : فأنا أَمْرُ قَرِيبًا مِنَ النَّافِذَةِ، إِذا ابْتَدَأَ الظَّلامُ، فَأَصْفِرُ لَكَ، أَو أُومِئُ إِلَيْكَ، فَتَرْمِي لِي بِصُرَّةٍ، فَآخُذُها، وَلا يُشْعَرُ بِنا! فَرَضِيَ الْخازِنُ بِذٰلِكَ، وَأَعْجَبَهُ، وَأَقاما عَلَيْهِ حِينًا[1].

ثُمَّ إِنَّ الْخازِنَ قالَ ذاتَ يَوْمٍ لِلْمُصَوِّرِ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَحْتالَ بِحِيلَةٍ أَعْلَمُ بِها مَجِيئَكَ مِنْ غَيْرِ صَفْرٍ، وَلا إِيماءٍ، وَلا ما يُرْتابُ بِهِ مِنْ فِعْلِكَ وَفِعْلِي ، فَإِنِّي قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ يُحِسَّ بِنا أَحَدٌ! قالَ الْمُصَوِّرُ : عِنْدِي مِنَ الْحِيلَةِ ما سَأَلْتَ؛ إِنَّ عِنْدِي مُلاءَةً فِيها مِنْ تَهاوِيلِ الصُّوَرِ، وَتَماثِيلِ الصَّنْعَةِ، فَإِنِّي أَلْبَسُها حِينَ مجيئي، وَأَتَراءَى لَكَ فِيها. ثُمَّ إِنَّ الْمُصَوِّرَ لَبِسَ الْمُلاءَةَ، وَتَرَاءَى لَهُ فَرَمَى لَهُ بِالصُّرَّةِ، فَتَناوَلَها. وَلَمْ يَزالا عَلَى ذٰلِكَ، حَتَّى بَصُرَ بِهِما فِي تِلْكِ الْحالَةِ جارٌ لِلْمُصَوِّرِ[2].

وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خادِمِ لِلْمُصَوِّرِ صَداقَةٌ ، فَطَلَبَ الْمُلاءَةَ مِنْهُ وَقالَ : أُرِيدُ أَنْ أُرِيَها صَدِيقًا لِي لِأَسُرَّهُ بِذٰلِكَ، وَأُسْرِعَ الْكَرَّةَ بِرَدِّها قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ بِذٰلِكَ مَوْلاكَ فَأَعْطاهُ إِيَّاها. وَلَمَّا أَتَى اللَّيْلُ أَسْرَعَ فَلَبِسَها، وَمَرَّ مِنْ حَيْثُ كانَ يَمُرُّ الْمُصَوِّرُ، فَلَمَّا رَآهُ الْخازِنُ لَمْ يَشُكَّ فِي مَجِيئِهِ، فَرَمَى لَهُ بِالصُّرَّةِ فَتَناوَلَها، وَانْطَلَقَ فَرَجَعَ بِالْمُلاءَةِ إِلَى خادِمِ الْمُصَوِّرِ، فَدَفَعَها إِلَيْهِ فَوَضَعَها مَوْضِعَها وَكانَ الْمُصَوِّرُ عَنْ بَيْتِهِ غائِبًا، فَلَمَّا عادَ إِلَى مِنْزِلِهِ لَبِسَ الْمُلاءَةَ عَلَى عادَتِهِ وَتَرَاءَى لِلخازِنِ، فَعَجِبَ مِنْ رُجُوعِهِ، وَلَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ ما يَرْمِي لَهُ بِهِ، وَانْصَرَفَ الْمُصَوِّرُ بِلا شَيْءٍ[3].

ثُمَّ تَلاقَيا بَعْدَ ذٰلِكَ فَقالَ لَهُ الْمُصَوِّرُ لَمَ لَمْ تَرْمِ لِي بِالصُّرَّةِ؟ قالَ : أَوَ لَمْ تَمُرَّ قُبَيْلَ مُرُورِكَ وَرَمَيْتُ لَكَ بِها. فَرَجَعَ الْمُصَوِّرُ إِلَى مَنْزِلِهِ فَدَعا خادِمَهُ وَتَوَعَّدَهُ بِالْقَتْلِ؛ أَوْ يُخْبِرَهُ بِالْحَقِيقَةِ، فَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ فَأَخَذَ الْمُلاءَةَ فَأَحْرَقَها! وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ إِرادَةَ أَلّا يعْجَل الْمَلِكُ فِي أَمْرِي بِشُبْهَةٍ. وَلَسْتُ أَقُولُ هٰذا كَراهَةً لِلْمَوْتِ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كانَ كَرِيهًا، لا مَنْجَى مِنْهُ وَكُلُّ حَيٍّ هالِكٌ. وَإِنَّ الْعُلَماءَ قَدْ قالُوا: مَنِ اقْتَرَفَ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا، ثُمَّ أَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى الْقَتْلِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ تَدعُوهُ إِلَى ذٰلِكَ عَفا اللهُ عَنْهُ ، وَأَنْجاهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذابِ النَّارِ[4].

---

(١) هل لك؟: هل تريد؟ . تواطئني: توافقني. أومئ: أشير.
(٢) مُلاءَة: ثوب يلتف به. تهاويل الصور: زيتها. أتراءى لك: أتصدى لك لتراني.
(٣) وأسرع الكرّة: الرجوع.
(٤) لا مَنْجي: لا نجاة لأحد ولا مفر منه. اقترف: ارتكب وفعل.

وَلَوْ كانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ، وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ فِي إِتْلافِهِنَّ طِبْتُ لَهُ بِذٰلِكَ نَفْسًا! فَقالَ بَعْضُ الْجُنْدِ: لَمْ يَنْطِقْ بِهٰذا لِحُبِّهِ الْمَلِكَ،و لٰكِنْ لِخَلاصِ نَفْسِهِ، وَالْتِماسِ الْعُذْرِ لَها. فَقالَ لَهُ دِمْنَةُ: وَيْلَكَ! وَهَلْ عَلَيَّ فِي الْتِماسِ الْعُذْرِ لِنَفْسِي عَيْبٌ؟! وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسانِ مِنْ نَفْسِهِ؟! وَإِذا لَمْ يَلْتَمِسْ لَهَا الْعُذْرَ فَمَنْ يَلْتَمِسُهُ[1]؟!.

لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ ما لَمْ تَكُنْ تَمْتَلِك كِتْمانَهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغضاءِ، وَلَقَدْ عَرَفَ مَنْ سَمِعَ مِنْكَ أَنَّكَ لا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا، وَأَنَّكَ عَدُوُّ نَفْسِكَ فَمَنْ سِواها بِالْأَوْلَى، فَمِثْلُكَ لا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْبَهائِمِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِعَ الْمَلِكِ، وَأَنْ يَكُونَ بِبابِهِ. فَلَمَّا أَجابَهُ دِمْنَةُ بِذٰلِكَ، خَرَجَ مُكْتَئِبًا حَزِينًا مُسْتَحِيًا. فَقالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ: لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ أَيُّها الْمُحْتالُ فِي قِلَّةِ حَيائِكَ،و كَثْرَةِ قِحَتِكَ، وَسُرْعَةِ جَوابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ. قالَ دِمْنَةُ : لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَيَّ بِعَيْنٍ واحِدَةٍ، وَتَسْمَعِينَ مِنِّي بِأُذُنٍ واحِدَةٍ، مَعَ أَنَّ شَقاوَةَ جَدِّي قَدْ زَوَتْ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ، حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ[2]. وَإِنِّي أَرَى كُلَّ شَيْءٍ قَدْ تَنَكَّرَ حَتَّى صارَ النَّاسُ لا يَنْطِقُونَ بِالْحَقِّ، وَصارَ مَنْ بِبابِ الْمَلِكِ - لِاسْتِخْفافِهِمْ بِهِ، وَطُولِ كَرامَتِهِ إِيَّاهُمْ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَيْشِ وَالنِّعْمَةِ - لا يَدْرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلامُ؟ وَلا مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمِ السُّكُوتُ؟ قالَتْ: أَلا تَنْظُرُونَ إِلَى هٰذا الْخَبِيثِ - مَعَ عِظَمِ ذَنْبِهِ - كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ بَرِيئًا كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ؟! قالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَعْمالِهِمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ؛ كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمادَ مَوْضِعًا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ الرَّمْلَ، وَيَسْتَعْمِلُ فِيهِ السِّرْجِينَ[3]، وَالرَّجُلِ الَّذِي يَلْبَس لِباسَ الْمَرْأَةِ، والْمَرْأَةِ الَّتِي تَلْبَسُ لِباسَ الرَّجُلِ، وَالضَّيْفِ الَّذِي يَقُولُ : أَنا رَبُّ الْبَيْتِ، وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَماعَةِ بِمَا لا يُسْأَلُ عَنْهُ . وَإِنَّما الْخَبِيثُ مَنْ لا يَعْرِفُ الْأُمُورَ، وَلا أَحْوالَ النَّاسِ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَلا يَسْتَطِيعُ ذٰلِكَ. قالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: أَتَظُنُّ أَيُّها الْغادِرُ هُوَ الَّذِي لا يَأْمَنُ عَدُوُّهُ مَكْرَهُ، وَإِذا اسْتَمْكَنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ. قالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: أَيُّها الْغادِرُ الْكَذُوبُ، أَتَظُنُّ أَنَّكَ ناجٍ مِنْ عاقِبَةِ كَذِبِكَ؟! وَأَنَّ مِحالَكَ هٰذا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ[4]؟!.

قالَ دِمْنَةُ : الكَذُوبُ هُوَ الَّذِي يَقُولُ ما لَمْ يَكُنْ، وَيَأْتِي بِما لَمْ يَقُلْ ، وَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَمَّا أَنا

---

(١) إتلافهن : إهلاكهن . طبت بذلك نفسا : كنت راضيا .
(٢) قحتك : وقاحتك وقلة أدبك وتطاولك . زوت : نحت . (٣) تنكر : تغير حاله . السرجين : الزبل .
(٤) الغادر : الخائن الناقض العهد . مِحالك : طلبك الأمر بالحيلة والمكر . جُرْمك : ذنبك .

فَكَلامِي حَقٌّ، وَالْمَلِكُ يَعْلَمُ أَنَّنِي لَوْ كُنْتُ كاذِبًا، لَمْ يَكُنْ لِي جُرْأَةٌ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهٰذا الْكَلامَ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قِيلَ : لَيْسَ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ؛ وَلا أَذْلَقُ لِسانًا مِنْ ذِي حَقٍّ. قالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: الْعُلَماءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوضِحُونَ أَمْرَهُ بِفَصْلِ الْخِطابِ، ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ، فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْنَةَ إِلَى الْقاضِي ، فَأَمَرَ الْقاضِي بِحَبْسِهِ، فَأُلْقِيَ فِي عُنُقِهِ غُلٌّ ، وَانْطُلِقَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ[1].

فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أُخْبِرَ كَلِيلَةُ أَنَّ دِمْنَةَ فِي السِّجْنِ، فَأَتَاهُ مُسْتَخْفِيًا؛ فَلَمَّا رآهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيقِ الْقُيُودِ، وَحَرَجِ الْمَكَانَ بَكَى وَقالَ : ما وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلَّا لِاسْتِعْمالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ، وَإِضْرابِكَ عَنِ الْعِظَةَ، وَالنُّصْحِ؛ وَلٰكِنْ لَمْ يَكُنْ لِي بُدٌّ فِيما مَضَى مِنْ إِنْذارِكَ، وَالنَّصِيحَةِ لَك، وَالْمُسارَعةِ إِلَيْكَ فِي خُلُوصِ الرَّغْبةِ فِيكَ. فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مَجالُ، وَلَوْ كُنْتُ قَصَّرْتُ فِي عِظَتِكَ حِينَ كُنْتَ فِي عافِيةٍ، لَكُنْتُ الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي ذَنْبِكَ. غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ مَدْخلًا، قَهَرَ رَأْيَكَ وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ[2]. وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ الْأَمْثالَ كَثِيرًا، وَأَذَكِّرُكَ قَوْلَ الْعُلَماءِ؛ وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ : إِنَّ الْمُحْتالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ. قالَ دِمْنة : قَدْ عَرَفْتُ صِدْقَ مَقالِكَ، وَقَدْ قالَت العلماءُ : لَا تَجْزَعْ[3] مِن العَذَابِ إِذَا وقفت مِنك على خطيئة، ولأَنْ تُعَذَّبَ فِي الدُّنْيا بِجُرْمِكَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تعَذَّبَ فِي الْآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الْإِثْمِ. قالَ كَلِيلةُ : قَدْ فَهِمْتُ كَلامَكَ؛ وَلٰكِنَّ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ، وَعِقابَ الْأَسَدِ شَدِيدٌ أَلِيمٌ. وَكانَ بِقُرْبِهِمَا فِي السِّجْنِ فَهْدٌ مُعْتَقَلٌ يَسْمَعُ كَلامَهُما، وَلا يَرَيانِهِ، فَعَرَفَ مُعاتَبَةَ كَلِيلةَ لِدمْنةَ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ، وَمَا كانَ مِنْهُ ، وَأَنْ دِمْنةَ مُقِرٌّ بِسُوءِ عَمَلِهِ، وَعَظِيمِ ذَنْبِهِ، فَحَفِظَ الْمُحاوَرةَ بَيْنَهُما وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ بِها إِنْ سُئِلَ عَنْها. ثُمَّ إِنَّ كَلِيلةَ انْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الْأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الْأَسَدِ؛ فقالَتْ لَهُ: يا سَيِّدَ الْوُحُوشِ، حُوشِيتَ أَنْ تَنْسَى ما قُلْتَ بِالْأَمْسِ؛ وَأَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ لِوَقْتِهِ؛ وأَرْضَيْتَ بِهِ رَبَّ الْعِبادِ. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ : لا يَنْبَغِي لِلْإِنْسانِ أَنْ يَتَوانَى فِي الْجِدِّ لِلتَّقْوَى؛ بَلْ لا يَنْبَغِي أَنْ يُدافِعَ عَنْ ذَنْب الْأَثِيمِ! فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ كَلامَ أُمِّهِ، أَمَرَ أَنْ يحْضُرَ النَّمِرُ، وَهُوَ صاحِبُ الْقَضاءِ، فَلَمَّا حَضَرَ قالَ لَهُ، وَلِلْجَوَّاسِ الْعادِلِ، اجْلِسا فِي مَوْضِعِ الحُكْمِ، وَنادِيا فِي الْجُنْدِ: صَغِيرِهِمْ، وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا، وَيَنْظُرُوا فِي حالِ دِمْنةَ، وَيَبْحَثُوا عَنْ شَأْنِهِ، وَيَفْحَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ، وَيُثْبِتُوا قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي

---

(١) جرأة : شجاعة. أذلق اللسان: أحدّ. بفصل الخطاب: بالفصل بين الحق والباطل. غُلّ: طوق.

(٢) وحَرَج المكان: ضيقه. وإضرابك: وإعراضك. إنذاك: تحذيرك من عاقبة الأمر قبل حلوله. مجال: طريق. العُجْب: الزَّهْوُ والكِبْرُ والخيلاء.

(٣) أضرب لك الأمثال: أقول وأصف. أجله: وقته المعين. لا تجزع: لا تفقد الصبر.

كُتُبِ الْقَضاءِ، وَارْفَعا إِلَيَّ ذٰلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا[1].

فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ ذٰلِكَ، وَالْجَوَّاسُ الْعادِلُ، وَكانَ هٰذا الْجَوَّاسُ عَمَّ الْأَسَدِ، قالا: سَمْعًا وَطاعةً لِما أَمَرَ الْمَلِكُ ، وَخَرَجا مِنْ عِنْدِهِ؛ فَعَمِلا بِمُقْتَضَى ما أَمَرَهُما بِهِ، حَتَّى إِذا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي جَلَسُوا فِيهِ ثَلاثُ ساعاتٍ، أَمَرَ الْقاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنةَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَوُقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالْجَماعةُ حُضُورٌ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكانُ نادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: أَيُّهَا الْجَمْعُ ، إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السِّباعِ، لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قَتَلَ شَتْرَبَةَ خائِرَ النَّفْسِ، كَثِيرَ الْهَمِّ، والْحُزْنِ، يَرَى أَنَّهُ قَدْ قَتَلَ شَتْرَبَةَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَأَنَّهُ أَخَذَهُ بِكَذِبِ دِمْنةَ وَنَمِيمتِهِ[2].

وَهٰذا الْقاضِي قَدْ أُمِرَ أَنْ يَجْلِسَ مَجْلِسَ الْقَضاءِ، وَيَبْحَثَ عَنْ شَأْنِ دِمْنةَ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَمْرِ دِمْنةَ مِنْ خَيْرٍ، أَوْ شَرٍّ، فَلْيَقُلْ ذٰلِكَ، وَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْجَمْعِ وَالْأَشْهادِ، لِيَكُونَ الْقَضاءُ فِي أَمْرِهِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ؛ فَإِذا اسْتَوْجَبَ الْقَتْلَ فَالتَّثَبُّتُ فِي أَمْرِهِ أَوْلَى، وَالْعَجَلَةُ مِنَ الْهَوَى وَمُتابَعَةُ الْأَصْحابِ عَلَى الْباطِلِ ذُلٌّ[3].

فَعِنْدَها قالَ الْقاضِي : أَيُّها الْجَمْعُ ، اسْمَعُوا قَوْلَ سَيِّدِكُمْ ، وَلا تَكْتُمُوا ما عَرَفْتُمْ مِنْ أَمْرِهِ، وَاعْتَبِرُوا فِي تَجَنُّبِ السَّتْرِ عَلَيْهِ ثَلاثَ خِصالٍ: أَمَّا إِحْداهُنَّ وَهِيَ أَهَمُّهُنَّ فَأَلَّا تَزْدَرُوا فِعْلَهُ ، وَلا تَعُدّوه يَسِيرًا، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْخَطايا قَتْلَ الْبَرِيءِ الَّذِي لا ذَنْبَ لَهُ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمةِ؛ وَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هٰذا الْكَذَّابِ الَّذِي اتَّهَمَ الْبَرِيءَ بِكَذِبِهِ وَنَمِيمَتِهِ شَيْئًا، فَسَتَرَ عَلَيْهِ فَهُوَ شَرِيكُهُ فِي الْإِثْمِ وَالْعُقُوبةِ. وَالثَّانِيةُ أَنَّهُ إِذا اعْتَرَفَ الْمُذنِبُ بِذَنْبِهِ، كانَ أَسْلَمَ لَهُ، وَالْأَحْرَى بِالْمَلِكِ وَجُنْدِهِ أَنْ يَعْفُوا عَنْهُ، وَيَصْفَحُوا. وَالثَّالِثةُ تَرْكُ مُراعاةِ أَهْلِ الذَّمِّ وَالْفُجُورِ، وَقَطْعُ أَسْبابِ مُواصَلَتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخاصَّةِ وَالْعامَّةِ[4].

فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هٰذا الْمُحْتالِ شَيْئًا، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهادِ مِمَّنْ حَضَرَ، لِيَكُونَ ذٰلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ؛ وَقَدْ قِيلَ : إِنَّهُ مِنْ كَتَمَ شَهادَةَ مَيِّتٍ أُلْجِمَ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ يَوْمَ الْقِيامةِ؛ فَلْيَقُلْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ ما عَلِمَ. فَلَمَّا سَمِعَ ذٰلِكَ الْجَمْعُ كَلامَهُ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ. فَقالَ دِمْنةُ : ما

---

(١) حوشيت: نُزِّهت وجنبك الله ذلك. يتوانى: يقصر ولم يهتم. وللجواس: الأسد مبالغة من «جاس» إذا طلب الشيء باستقصاء . يُثبتوا: يدنوا.

(٢) خائر النفس: منقبضًا مضطربا مرتبكا.

(٣) والأشهاد: الشهود. القضاء: الحكم. التثبت: التأني. الهوى: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع.

(٤) فألا تزدروا: فألا تحتقروا. يسيرا: قليلا. والأحرى: والأولى.

يُسْكِتُكُمْ تَكَلَّمُوا بِما عَلِمْتُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوابًا. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ : مَنْ يَشْهَدْ بِما لَمْ يَرَ، وَيَقُلْ ما لا يَعْلَمْ، يُصِبْهُ ما أَصابَ الطَّبِيبِ الَّذِي قالَ لِما لا يَعْلَمُهُ : إِنِّي أَعْلَمُهُ[1].

قالَتِ الْجَماعةُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

مثل ابنة الملك والمتطبب

وهو مثل من يدعي علم ما لا يعلم ، ويعمل به ، فتعود العاقبة عليه !

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ طَبِيبٌ لَهُ رِفْقٌ وَعِلْمٌ؛ وَكانَ ذا فِطْنَةٍ فيما يَجْرِي عَلَى يَدِهِ مِنَ الْمُعالَجاتِ، فَكَبِرَ ذٰلِكَ الطَّبِيبُ، وَضَعُفَ بَصَرُهُ! وَكانَ لِمَلِكِ تِلْكَ الْمَدِينةِ ابْنةٌ قَدْ زَوَّجَها لِابْنِ أَخٍ لَهُ؛ فَعَرَضَ لَهَا ما يَعْرِضُ لِلْحَوامِلِ مِنَ الْأَوْجاعِ، فَجِيءَ بِهٰذا الطَّبِيبِ. فَلَمَّا حَضَر سَأَلَ الْجارِيةَ عَنْ وَجَعِها، وَما تَجِدُ، فَأَخْبَرَتْهُ؛ فَعَرَفَ داءَها وَدَواءَها، وَقالَ: لَوْ كُنْتُ أُبْصِرُ لَجَمَعْتُ الْأَخلاطَ عَلَى مَعْرِفَتِي بِأَجْناسِها، وَلا أَثِقُ فِي ذٰلِكَ بِأَحَدٍ غَيْرِي[2].

وَكانَ فِي الْمَدِينةِ رَجُلٌ جاهِلٌ، فَبَلَغَهُ الْخَبَرُ، فَأَتاهُمْ وَادَّعَى عِلْمَ الطِّبِّ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ بِمَعْرِفةِ أَخْلاطِ الْأَدْوِيةِ وَالْعَقاقِيرِ، عارِفٌ بِطَبائِعِ الْأَدْوِيةِ الْمُرَكَّبةِ، وَالْمُفْرَدَةِ؛ فَلَمَّا دَخَلَ الْجاهِلُ الْخِزانةَ، وَعُرِضَتْ عَلَيْهِ الْأَدْوِيةُ وَلا يَدْرِي ما هِيَ، وَلَا لَهُ بها مَعْرِفةٌ أَخَذَ فِي جُمْلةِ ما أَخَذَ مِنْها صُرَّةً فِيها سُمٌّ قاتِلٌ لِوَقْتِهِ، وَدافَهُ بِالْأَدْوِيةِ، وَلا عِلْمَ لَهُ بِهِ، وَلَا مَعْرِفةَ عِنْدَهُ بِجِنْسِهِ! فَلَمَّا تَمَّتْ أَخْلاطُ الْأَدْوِيةِ سَقَى الْجارِيةَ مِنْهُ ، فَماتَتْ لِوَقْتِها[3].

فَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ دَعَا بِالْجاهِلِ، فَسَقاهُ مِنْ ذٰلِكَ الدَّواءِ، فَماتَ مِنْ ساعَتِهِ! **وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكُمْ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا ما يَدْخُلُ عَلَى الْقائِلِ وَالْعامِلِ مِنَ الذِّلَّةِ بِالشُّبْهةِ فِي الْخُرُوجِ عَنِ الْحَدِّ.** فَمَنْ خَرَجَ مِنكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصابَهُ ما أَصابَ ذٰلِكَ الْجاهِلَ وَنَفْسُهُ الْمَلُومةُ. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ؛ رُبَّما جُزِيَ الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ. والْكَلامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فَانْظُروا لِأَنْفُسِكُمْ. فَتَكَلَّمَ سَيِّدُ الْخَنازِيرِ لِإِدْلالِهِ وَتِيهِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ؛ فَقالَ : يا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَماءِ، اسْمَعُوا مَقالَتِي، وَعُوا بِأَحْلامِكُمْ كَلامِي؛ فَالْعُلَماءُ قالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ: إِنَّهُمْ يُعْرَفُونَ بِسِيماهُمْ[4].

---

(١) حُجّة : برهانًا ودليلاً. أمسكوا : سكتوا.

(٢) رفق : لطف. الأخلاط : الأدوية المركبة من أجزاء. (٣) العقاقير : ما يتداوى به من النباتات. دافه : خلطه.

(٤) الشبهة : ما بين الخطأ والصواب. تيهه : عُجْبه. بأحلامكم : بعقولكم. بسيماهم : بهيئتهم.

وَأَنْتُمْ مَعَاشِرَ ذَوِي الْاقْتِدارِ يَحْسُنُ صُنْعُ اللهِ لَكُمْ، وَتَمامُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكُمْ تَعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسِيماهُمْ، وَصُوَرِهِمْ، وَتَخبُرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ. وَهٰهُنا أَشْياءُ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَى هذا الْخَبِيثِ دِمْنَةَ، وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ، فَاطْلُبُوها عَلَى ظاهِرِ جِسْمِهِ لِتَسْتَيْقِنُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذٰلِكَ. قالَ الْقاضِي لِسَيِّدِ الْخَنازِيرِ: قَدْ عَلِمْتُ، وَعَلِمَ الْجَماعَةُ الحاضِرُون، أَنَّكَ عارِفٌ بِما فِي الصُّوَرِ مِنْ عَلاماتِ السُّوءِ؛ فَفَسِّرْ لَنَا ما تَقُولُ، وَأَطْلِعْنا عَلَى ما تَرَى فِي صُورةِ هذا الْخَبِيثِ[1]!

فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخَنازِيرِ يَذُمُّ دِمْنَةَ وَقالَ: إِنَّ الْعُلَماءَ قَدْ كَتَبُوا، وَأَخْبَرُوا أَنَّهُ مَنْ كانَتْ عَيْنُهُ الْيُسْرَى، أَصْغَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى، وَهِيَ لا تَزالُ تَخْتَلِجُ، وَكانَ أَنْفُهُ مائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيمَنِ، فَهُوَ خَبِيثٌ جامِعٌ لِلْخَبِّ وَالْفُجُورِ. فَلَمَّا سَمِعَ دِمْنَةُ ذٰلِكَ قالَ: مِنْ هٰهنا تَقِيسُونَ الْكَلامَ وَتَتْرُكُونَ الْعِلْمَ، فَاسْمَعوا مِنِّي ما أَقُولُهُ لَكُمْ، وتَدَبَّرُوا بِعُقُولِكُمْ، فَقَدْ وَعَيْتُمْ ما قالَ هذا[2].

فَإِنْ كانَ يَزْعُمُ أَنَّ ما فِي جِسْمِي مِنْ هذِهِ الْعَلاماتِ هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى صِدْقِ ما رُمِيتُ بِهِ، فَإِنِّي إِذَن أَكُونُ قَدْ وُسِمْتُ بِسِماتٍ وَعَلاماتٍ اضْطَرَّتْنِي إِلَى الْإِثْمِ، فَعَمِلْتُ بِها ما عَمِلْتُ، فَفِي ذٰلِكَ بَراءَةٌ لِي، وَعُذْرٌ مِمَّا عَمِلْتُهُ. ثُمَّ الْتَفَتْ إِلَى سَيِّدِ الْخَنازِيرِ وَقالَ: فَقَدْ بانَ لِمَنْ حَضَرَ قِلَّةُ عَقْلِكَ، وَمَا مَثَلُكَ فِي ذٰلِكَ إِلَّا مَثَلُ رَجُلٍ قالَ لِامْرَأَتِهِ: انْظُرِي إِلَى عُرْيِكِ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ انْظُرِي إِلَى عُرْى غَيْرِكِ قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟

مثل الحَرَّاثِ وامرأتيه

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّ مَدِينَةً أَغارَ عَلَيْها الْعَدُوُّ ؛ فَقَتَلَ وَسَبَى وَغَنِمَ وَانْطَلَقَ إِلَى بِلادِهِ! فَاتَّفَقَ أَنَّهُ كانَ مَعَ جُنْدِيٍّ مِمَّا وَقَعَ فِي قِسْمَتِهِ رَجُلٌ حَرَّاثٌ، وَمَعَهُ امْرَأَتانِ لَهُ، وَكانَ هٰذا الْجُنْدِيُّ يُسِيءُ إِلَيْهِمْ فِي الطَّعامِ وَاللِّباسِ، فَذَهَبَ الْحَرَّاثُ ذاتَ يَوْمٍ وَمَعَهُ امْرَأَتاهُ يَحْتَطِبُونَ لِلْجُنْدِيِّ وَهُمْ عُراةٌ، فَأَصابَتْ إِحْدَى الْمَرْأَتَيْنِ فِي طَرِيقِها خِرْقَةً بالِيَةً؛ فَاسْتَتَرَتْ بِهَا. ثُمَّ قالَتْ لِزَوْجِها: أَلا تَنْظُرُ إِلَى هٰذِهِ الْقَبِيحةِ، كَيْفَ لا تَسْتَحِي وَتَسْتَتِرُ؟! قالَ لَها زَوْجُها: لَوْ بَدَأْتِ بِالنَّظَرِ إِلَى نَفْسِكِ، وَأَنَّ جِسْمَكِ كُلَّهُ عارٍ، لَما عَيَّرْتِ صاحِبَتَكِ بِما هُوَ بِعَيْنِهِ فِيكِ! وَشَأْنُكَ عَجَبٌ، أَيَّتُها الْقَذِرُ ذُو الْعَلاماتِ الْفاضِحَةِ الْقَبِيحةِ، ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ جُرْأَتِكَ عَلَى طَعامِ الْمَلِكِ، وَقِيامِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مَعَ ما بِجِسْمِكَ مِنَ الْقَذَرِ وَالْقُبْحِ، وَمَعَ ما تَعْرِفُهُ أَنْتَ وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ[4]!!.

---

(١) وتسكنوا إلى ذلك: ترتاحوا وتطمئنوا. (٢) تختلج: تضطرب.
(٣) وُسِمت: عُلِّمت. سبى: أسر. حراث: يحرث الأرض ويشقها بالمحراث. (٤) يحتطبون: يجمعون حطبًا.

أَفَتَتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الْجِسْمِ الَّذِي لا عَيْبَ فِيهِ؟! وَلَسْتُ أَنا وَحْدِي أَطَّلِعُ عَلَى عَيْبِكَ، لٰكِنَّ جَمِيعَ مَنْ حَضَرَ قَدْ عَرَفَ ذٰلِكَ، وَقَدْ كَانَ يَحْجزُنِي عَنْ إِظْهارِهِ ما بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّداقةِ. فَأَمَّا إِذ قَدْ كَذَبْتَ عَلَيَّ وَبَهَتَّنِي فِي وَجْهِي، وَقُمْتَ بِعَدَاوَتِي، فَقُلْتَ ما قُلْتَ فِيَّ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَعَلَى رءُوسِ الْحَاضِرِينَ، فَإِنِّي أَقْتَصِرُ عَلَى إِظْهَارِ ما أَعْرِفُ مِن عُيُوبِكَ، وَتَعْرِفُهُ الْجَمَاعةُ، وَحَقَّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكَ مِن اسْتِعْمالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعامِهِ[1].

فَلَوْ كُلِّفْتَ أَن تَعْمَلَ الزِّراعةَ، لَكُنْتَ جَدِيرًا بِالْخِذْلانِ فِيها! فَالْأَحْرَى بِكَ أَلَّا تَدْنُوَ إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمالِ، وَأَلَّا تَكُونَ دَبَّاغًا، وَلا حَجامًا لِعامِّيٍّ، فَضْلًا عَنْ خاصٍّ خِدْمةِ الْمَلِكِ!! قالَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ: أَوَلِي تَقُولُ هٰذِهِ الْمَقالةِ وَتَلْقَانِي بِهٰذا الْمَلْقَى؟! قالَ دِمْنةُ: نَعَمْ وَحَقًّا. قُلْتُ فِيكَ، وَإِيَّاكَ أَعْنِي، أَيُّها الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ الَّذِي فِي وَرِكِهِ النَّاسُورُ ، الْأَفْدَعُ الرِّجْلِ، الْمَنْفُوخُ الْبَطْنِ، الْأَفْلَجُ الشَّفَتَيْنِ، السَّيِّئُ الْمَنْظَرِ وَالْمَخْبَرِ! فَلَمَّا قالَ دِمْنةُ ذٰلِكَ، تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ، وَاسْتَعْبَرَ، وَاسْتَحَى، وَتَلَجْلَجَ لِسانُهُ، وَاسْتَكَانَ، وَفَتَرَ نَشاطُهُ[2].

فقال دمنة حِينَ رَأَى انْكسارَهُ وَبُكاءَهُ: إِنَّما يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكاؤُكَ إِذا اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى قَذَرِكَ وَعُيُوبِكَ؛ فَعَزَلَكَ عَنْ طَعامِهِ، وَحالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خِدْمَتِهِ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْرَتِهِ، ثُمَ إِنَّ شَعْهَرًا كانَ الْأَسَدُ قَدْ جَرَّبَهُ، فَوَجَدَ فِيهِ أَمانةً وَصِدْقًا، فَرَتَّبَهُ فِي خِدْمَتِهِ. أَمَرَهُ أَن يَحْفَظَ ما يَجْرِي بَيْنَهُمْ وَيُطْلِعَهُ عَلَيْهِ، فَقَامَ الشَّعْهَرُ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَحَدَّثَه بِالْحَدِيثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيَّتِهِ[3].

فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِعَزْلِ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ، وَأَمَرَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ ، وَلا يَرَى وَجْهَهُ. وَأَمَرَ بِدِمْنةَ أَنْ يُرَدَّ إِلَى السِّجْنِ، وَقَدْ مَضَى مِنَ النَّهارِ أَكْثَرُهُ؛ وَجَمِيعُ ما جَرَى، وَقالُوا، وَقالَ، كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخاتَمِ النَّمِرِ، وَرَجَعَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ إِنَّ شَعْهَرًا يُقالُ لَهُ: رَوْزَوبةُ كانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كَلِيلةَ إِخاءٌ وَمَوَدَّةٌ، وَكَان عِنْدَ الْأَسَدِ وَجِيهًا، وَعَلَيْهِ كَرِيمًا. وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيلةَ أَخَذَهُ الْوَجْدُ إِشْفاقًا مِنْ أَن يَلْتَطِخَ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ أَخِيهِ، وَحَذَرًا عَلَيْهِ فَمَرِضَ وَمَاتَ. فَانْطَلَقَ هٰذا الشَّعْهَرُ إِلَى دِمْنةَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ كَلِيلةَ، فَبَكَى وَحَزِنَ، وقَالَ : ما أَصْنَعُ بِالدُّنْيا بَعْدَ مُفَارَقةِ الْأَخِ الصَّفِيِّ؟! وا حَرَّ قَلْباهُ! إِنَّ الْإِنْسانَ إِذا ابْتُلِيَ بِبَلِيَّةٍ أَتاهُ الشَّرُّ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَاكْتَنَفَهُ الْهَمُّ والْحُزْنُ مِنْ كُلِّ

---

(١) وبهتني: قلت عني ما ليس فيّ.

(٢) بالخذلان: الخيبة. الناسور: هو عرق به فساد كلما برئ عاد ففسد. الأفدع: معوج الرسغ من اليد أو الرجل. الأفلج: المشقوق. المخبر: خلاف المظهر أي قبيح الظاهر والباطن. واستعبر: جرت عبرته. واستكان: ذل.

(٣) وحال بينك وبين خدمته: اعترض. شعهراً: أي ابن آوى. على جليته: كما هو دون تزييف أو تحريف.

مَكانٍ[1].

وَلٰكِنْ أَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى إِذ لَمْ يَمُتْ كَلِيلةُ حَتَّى أَبْقَى لِي مِنْ ذَوِي قَرابَتِي أَخًا مِثْلَكَ؛ فَإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمةِ اللهِ تَعالَى وَإِحْسانِهِ إِلَيَّ فِيما رَأَيْتُ مِن اهْتِمامِكَ بِي، ومُراعاتك لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجائِي وَرُكْني فِيما أَنا فِيهِ، فَأُرِيدُ مِنْ إِنْعامِكَ أَنْ تَنْطلِقَ إِلى مَكانِ كَذا؛ فَتَنْظُرَ إِلَى ما جَمَعْتُهُ أَنا وَأَخِي بِحِيلتِنا وَسَعْينا وَمَشِيئَةِ اللهِ تَعالَى، فَتَأْتِيَنِي بِهِ[2].

فَفَعَلَ الشَّعْهَرُ ما أَمَرَهُ بِهِ دِمْنةُ. فَلَمَّا وَضَعَ الْمالَ بَيْنَ يَدَيْهِ، أَعْطاهُ شَطْرَهُ، وَقالَ لَهُ: إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ، فَتَفَرَّغْ لِشَأْنِي، وَاصْرِف اهْتِمامَكَ إِلَيَّ، وَاسْمَعْ ما أُذْكَرُ بِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ، إِذا رُفِعَ إِلَيْهِ ما يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ، وَمَا يَبْدُو مِنْ أُمِّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي، وَمَا تَرَى مِنْ مُتابَعةِ الْأَسَدِ لَهَا، وَمُخالَفَتِهِ إِيَّاها فِي أَمْرِي، وَاحْفَظْ ذٰلِكَ كُلَّهُ. فَأَخَذَ الشَّعْهَرُ ما أَعْطاهُ دِمْنةُ، وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هٰذا الْعَهْدِ، فَانْطَلَقَ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَضَعَ الْمالَ فِيهِ[3].

ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَّرَ مِنَ الْغَدِ، فَجَلَسَ حَتَّى إِذا مَضَى مِن النَّهارِ ساعَتانِ، اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحابُهُ فِي الدُّخُولِ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ؛ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، وَوَضَعُوا الْكِتابَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَمَّا عَرَفَ قَوْلَهُمْ، وَقَوْلَ دِمْنةَ، دَعا بِأُمِّهِ فَقَرَأَ عَلَيْها ذٰلِكَ، فَلَمَّا سَمِعتْ ما فِي الْكِتابِ نادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِها: إِنْ أَنا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ؛ فَلا تَلُمْني؛ فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضَرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ! أَلَيْسَ هٰذا مِمَّا كُنْتُ أَنْهاكَ عَنْ سَماعِهِ؟؛ لِأَنَّهُ كَلامُ هٰذا الْمُجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنا الْغادِرِ بِذِمَّتِنا؟ ثُمَّ إِنَّها خَرَجَتْ مُغْضَبةً، وَذٰلِكَ بِعَيْنِ الشَّعْهَرِ الَّذِي آخاهُ دِمْنةُ وَبِسَمْعِهِ، فَخَرَجَ فِي إِثْرِها مُسْرِعًا؛ حَتَّى أَتَى دِمْنةَ فَحَدَّثَهُ بِالحَدِيثِ[4].

فبينما هو عِنْدَهُ إِذ جاءَ فِيجُ الْأَسَدِ فَانْطَلَقَ بِدِمنةَ إِلَى الْمَجْمَعِ عِنْدَ الْقاضِي، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَي الْقاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ الْمَجْلِسِ فَقالَ: يا دِمْنةُ، قَدْ أَنْبَأَنِي عَنْ خَبَرِكَ الْأَمِينُ الصَّادِقُ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْحَصَ عَنْ شَأْنِكَ أَكْثَرَ مِنْ هٰذا؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قالُوا: إِنَّ اللهَ تَعالَى جَعَلَ الدُّنْيا سَبَبًا إِلَى الْآخِرَةِ، وَمِصْداقًا لَهَا؛ لِأَنَّها دارُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِياءِ الدَّالِّينَ عَلَى الْخَيْرِ، الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ، الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفةِ اللهِ تَعالى[5].

---

(١) إخاء: صداقة. الوجد: الحزن: إشفاقا: خوفا. فهاج به مرضه: تحرك واشتد. الصفن: الصادق الإخاء. واحَرّ قلباه!: كلمة تقال عند التوجع والشكوى. واكتنفه: أحاط به.

(٢) ذوى قرابتي: أقاربي. مراعاتك: ملاحظتك. ركني: سندي وعمدتي. (٣) شطره: نصفه. لشأني: لأمري. يبدو: يظهر.

(٤) أغلظت في القول: خشنت وعنفت. إثرها: وراءها.

(٥) فيج الأسد: رسول السلطان القادم على رجليه. سببا: طريقا. مصداقا: شاهدًا صادقاً.

وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا، وَأَخْبَرَنا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنا بِقَوْلِهِ: إِلَّا أَنَّ سَيِّدَنا أَمَرَنا بِالْعَوْدِ إِلَى أَمْرِكَ، وَالْفَحْصِ عَنْ شَأْنِكَ، وَإِنْ كانَ عِنْدَهُ ظاهِرًا بَيِّنًا. قالَ دِمْنةُ: أَراكَ أَيُّها الْقاضِي لَمْ تَتَعَوَّدِ الْعَدْلَ فِي الْقَضاءِ، وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ الْمَظْلُومِينَ، وَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ إِلَى قاضٍ غَيْرِ عادِلٍ، بَلِ الْمُخاصَمةُ لَهُمْ وَالذَّوْدُ عَنْ حُقُوقِهِمْ. فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ، وَلَمْ أُخاصَمْ؟! وَتُعَجِّلَ ذٰلِكَ مُوافَقَةً لِهَواكَ، وَلَمْ تَمْضِ بَعْدُ ثَلاثةُ أَيَّامٍ[1]. وَلٰكِنْ صَدَقَ الَّذِي قالَ: إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدَ عَمَلَ الْبِرِّ هَيِّنٌ عَلَيْهِ عَمَلُهُ، وَإِنْ أَضَرَّ بِهِ. قالَ الْقاضِي: إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ: أَنَّ الْقاضِيَ الْعَدْلَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ، لِيُجازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِساءَتِهِ؛ فَإِذا ذَهَبَ إِلَى هٰذا ازْدادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا عَلَى الْإِحْسانِ، وَالْمُسِيئُونَ اجْتِنابًا لِلذُّنُوبِ. وَالرَّأْيُ إِلَيْكَ يا دِمْنةُ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعْتَ فِيهِ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ، وَتُقِرَّ بِهِ وَتَتُوبَ، فَلَأَنْ يُعاقَبَ الْمَرْءُ فِي الدُّنْيا، خَيْرٌ مِنْ عِقابِ الْآخِرَةِ. فَأَجابَهُ دِمْنةُ: إِنَّ صالِحِي الْقُضاةِ لا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ، وَلا يَعْمَلُونَ بِهِ، لا فِي الْخاصَّةِ وَلا فِي الْعامَّةِ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا[2].

وَأَنْتُمْ إِنْ ظَنَنْتُمْ أَنِّي مُجْرِمٌ فِيما فَعَلْتُ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ؛ وَعِلْمِي بِنَفْسِي يَقِينٌ لا شَكَّ فِيهِ، وَعِلْمُكُمْ بِي غايةُ الشَّكِّ؛ وَإِنَّما قُبْحُ أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي، فَما عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذا سَعَيْتُ بِنَفْسِي كاذِبًا عَلَيْها، فَأَسْلَمْتُها إِلَى الْقَتْلِ وَالْعَطَبِ، عَلَى مَعْرِفةٍ مِنِّي بِبَراءَتِي وَسَلامَتِي مِمَّا قُرِفْتُ بِهِ؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الْأَنْفُسِ عَلَيَّ حُرْمةً[3]، وَأَوْجَبُها حَقًّا. فَلَوْ فَعَلْتُ هٰذا بِأَقْصاكُمْ وَأَدْناكُمْ، لَما وَسِعَنِي فِي دِينِي، وَلا حَسُنَ بِي فِي مُرُوءَتِي، وَلا حُقَّ لِي أَنْ أَفْعَلَهُ فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي؟ فَاكْفُفْ أَيُّها الْقاضِي عَنْ هٰذِهِ الْمَقالَةِ: فَإِنَّها إِنْ كانَتْ نَصِيحةً فَقَدْ أَخْطَأَتْ مَوْضِعَها؛ وَإِنْ كانَتْ خَدِيعةً فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِداعِ ما كانَ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ؛ مَعَ أَنَّ الْخِداعَ وَالْمَكْرَ لَيْسا مِنْ أَعْمالِ صالِحِي الْقُضاةِ، وَلا ثِقاتِ الْوُلاةِ. وَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَّالُ وَالْأَشْرارُ سُنَّةً يَقْتَدُونَ بِها؛ لِأَنَّ أُمُورَ الْقَضاءِ يَأْخُذُ بِصَوابِها أَهْلُ الصَّوابِ، وَبِخَطَئِها أَهْلُ الْخَطَأِ وَالْباطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعِ، وَأَنا خائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّها الْقاضِي مِنْ مَقالَتِكَ هٰذِهِ أَعْظَمَ الرَّزايا وَالْبَلايا. وَلَيْسَ مِنَ الْبَلاءِ وَالْمُصِيبةِ، أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْخاصَّةِ وَالْعامَّةِ فاضِلًا فِي رَأْيِكَ، مُقْنِعًا فِي عَقْلِكَ، مَرْضِيًّا

(١) ثبت شأنك: أمرك. والذود: الدفاع والمحاماة. أخاصم: أجادل.
(٢) والرأي إليك: مُفَوَّض إليك . لا يقطعون: أي لا يحكمون حكما قاطعا. لا يغني: يُنقص.
(٣) سعيت بغيري: أي بلغت الحديث عنه على وجه الإفساد. والعطب: الهلاك. قُرِفْت به: عبت واتهمت. حُرْمةً: عهداً ورعاية.

فِي حُكْمِكَ وَعفَافِكَ وَفَضْلِكَ!؛ وَإِنَّما الْبَلاءُ كَيْفَ أُنْسِيتَ ذٰلِكَ فِي أَمْرِي؟! أَوَ ما بَلَغَكَ عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قالُوا: مَنِ ادَّعَى عِلْمَ ما لا يَعْلَمُ ، وَشَهِدَ عَلَى الْغَيْبِ، أَصابَهُ ما أَصابَ الْبازِيارَ[1] الْقَاذِفِ زَوْجَةَ مَوْلاهُ[2]. قالَ الْقاضِي : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ ؟

مثل البَازِيَار وزوجة المرزبان

وهو مثل من عمل الحيلة ولم ينظر فيها إلى بعيد؛ فلم تنجح ، وعادت عليه !

قال دمنة : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ رَجُلٌ مِنَ الْمَرازِبةِ[3] مَذْكُورٌ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمالٍ وَعَفَافٍ. وَكَانَ لِلرَّجُلِ بازِيارٌ ماهِرٌ، خَبِيرٌ بِعِلاجِ الْبُرَاةِ وَسِياسَتِها، وَكَانَ هٰذا الْبازِيارُ عِنْدَ هٰذا الرَّجُلِ بِمَكَانِ خَلِيلٍ؛ بِحَيْثُ أَدْخَلَهُ دارَهُ وَأَجْلَسَهُ مَعَ حُرَمِهِ. فَاتَّفَقَ أَنْ وَقَعَتْ كَلِمَةٌ مِنَ الْبَازِيارِ لِزَوْجَةِ مَوْلاهُ، فَتَسَخَّطَتْ لِذٰلِكَ، وَنَفَرَتْ؛ فَغَضِبَ وَعَمِلَ عَلَى أَنْ يَكِيدَهَا بِمَكِيدةٍ! فَخَرَجَ يَوْمًا إِلَى الصَّيْدِ عَلَى عادَتِهِ؛ فَأَصابَ فَرْخَيْ بَيْغاءَ، فَأَخَذَهُما، وَجَاءَ بِهِما إِلَى مَنْزِلِهِ، وَرَبَّاهُما؛ فَلَمَّا كَبِرا، فَرَّقَ بَيْنَهُما وَجَعَلَهُما فِي قَفَصَيْنِ وَعَلَّمَ أَحَدَهُما أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ رِيبةً فِي مَوْلاتِي، وَعَلَّمَ الآخَرَ أَنْ يَقُولَ : أَمَّا أَنا فَلا أَقُولُ شَيْئًا! ثُمَّ أَدَّبَهُما عَلَى ذٰلِكَ، حَتَّى أَتْقَناهُ، وَحَذَقاهُ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ[4].

فَلَمَّا بَلَغَ الَّذِي أَرادَ مِنْهُما، حَمَلَهُما إِلَى أُسْتاذِهِ فَلَمَّا رَآهُما أَعْجَباهُ، وَنَطَقَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَطْرَباهُ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ما يَقُولانِ؛ لِأَنَّ الْبَازِيارَ كانَ قَدْ عَلَّمَهُما بِلُغَةِ الْبَلْخِيِّينَ. وَإِنَّ الْمَرْزُبانَ أُعْجِبَ بِالِاحْتِياطِ عَلَيْهِما، وَالِاحْتِفاظِ بِهِما، فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذٰلِك. فَاتَّفَقَ أَنَّهُ بَعْدَ مُدَّةٍ قَدِمَ عَلَى الرَّجُلِ قَوْمٌ مِنْ عُظَماءِ بَلْخَ، فَتَأَنَّقَ لَهُمْ فِي الطَّعامِ وَالشَّرابِ، وَجَمَعَ مِنْ أَصْنافِ الْفَواكِهِ وَالتُّحَفِ شَيْئًا كَثِيرًا[5].

وَحَضَرَ الْقَوْمُ ، فَلَمَّا فَرَغُوا مِنَ الطَّعامِ، وَشَرَعُوا فِي الْحَدِيثِ، أَشارَ الْمَرْزُبانُ إِلَى الْبازِيارِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْبَيْغاءَيْنِ؛ فَأَحْضَرَهُما. فَلَمَّا وُضِعَتَا بَيْنَ يَدَيْهِ صاحَتَا بِما كانَتا عُلِّمَتاهُ، فَعَرَفَ أُولٰئِكَ

---

(١) البازيار : مُربي البازي.
(٢) القاذف زوجة مولاه : الراميها بريبة وفاحشة.
(٣) المرازبة : جمع مرزُبان وهو رئيس الفُرس.
(٤) خليل : صديق. وعمل على : سعى في. ريبة : شكًا وتهمة.
(٥) فتأنق لهم : أي عمله بإتقان وبذل جهدًا في تجميله.

الْعُظَماءُ ما قالَتا، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْض، وَنَكَسُوا رُءُوسَهُمْ حَياءً وَخَجَلًا، وَجَعَلَ يَغْمِزُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا! فَقالَ الرَّجُلُ: ما أَعْلَمُ ما تَقُولانِ، وَلٰكِنِّي يُعْجِبُنِي ذٰلِكَ مِنْهُما[1].

وَسَأَلَهُمْ عَمَّا تَقُولانِ، فَامْتَنَعُوا أَنْ يَقُولُوا ما قالَتا، فَأَلَحَّ عَلَيْهِمْ، وَأَكْثَرَ السُّؤَالَ عَمَّا قالَتا. فَقالُوا إِنَّما تَقُولانِ: كَذا وَكَذا، وَلَيْسَ مِنْ شَأْنِنا أَنْ نَأْكُلَ مِنْ بَيْتٍ يُعْمَلُ فِيهِ الْفُجورُ! فَلَمَّا قالُوا ذٰلِكَ، سَأَلَهُمُ الرَّجُلُ أَنْ يُكَلِّمُوهُما بِلِسانِ الْبَلْخِيَّةِ بِغَيْرِ ما نَطَقَتا بِهِ؛ فَفَعَلُوا ذٰلِكَ فَلَمْ يَجِدُوهُما تَعْرِفانِ غَيْرَ ما تَكَلَّمَتا بِهِ؛ وَبانَ لَهُمْ وَلِلْجَماعَةِ حَصانَةُ الْمَرْأَةِ، وَبَراءَتُها مِمَّا رُمِيَتْ بِهِ، وَوَضَحَ كَذِبُ الْبازِيارِ. فَأَمَرَ بِالْبازِيارِ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيْهِ، وَكانَ عَلَى يَدِهِ بازٍ أَشْهَبُ[2]، فَصاحَتْ بِهِ الْمَرْأَةُ مِنْ داخِلِ الْبَيْتِ: أَيُّها الْعَدُوُّ لِنَفْسِهِ، أَنْتَ رَأَيْتَنِي عَلَى ما ذَكَرْتَ، وَعَلَّمْتَ بِهِ الْبَبْغاءَيْنِ؟! قالَ: نَعَمْ أَنَا رَأَيْتُكِ عَلَى مِثْلِ ما تَقُولانِ! فَوَثَبَ الْبازِي إِلَى وَجْهِهِ، فَفَقَأَ عَيْنَهُ بِمَخالِبِهِ! فَقالَتِ الْمَرْأَةُ: بِحَقِّ أَصابَكَ هٰذا؛ إِنَّهُ لَجَزاءٌ مِنَ اللهِ تَعالَى لِشَهادَتِكَ بِما لَمْ تَرَهُ عَيْنُكَ! **وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ أَيُّها الْقاضِي لِتَزْدادَ عِلْمًا بِوَخامَةِ عاقِبَةِ الشَّهادَةِ بِالْكَذِبِ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ.** فَلَمَّا سَمِعَ الْقاضِي ذٰلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةَ نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى الْأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ، فَنَظَرَ فِيهِ الْأَسَدُ فَدَعا أُمَّهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْها فَقالَتْ حِينَ تَدَبَّرَتْ كَلامَ دِمْنَةَ: لَقَدْ صارَ اهْتِمامِي بِما أَتَخَوَّفُ مِن احْتِيالِ دِمْنَةَ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهائِهِ، حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ، أَعْظَمَ مِنِ اهْتِمامِي بِما سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ إِلَيْكَ فِي الْغَشِّ وَالسِّعايَةِ، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ[3].

فَوَقَعَ قَوْلُها فِي نَفْسِهِ، فَقالَ لَها: أَخْبِرِينِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكِ عَنْ دِمْنَةَ بِما أَخْبَرَكِ فَيَكُونَ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةَ. فَقالَتْ: لَأَكْرَهُ إِفْشاءَ سِرِّ مَنِ اسْتَكْتَمَنِيهِ، فَلا يَهْنِئُنِي سُرُورِي بِقَتْلِ دِمْنَةَ إِذا تَذَكَّرْتُ أَنِّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوبِ ما نَهَتْ عَنْهُ الْعُلَماءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ، وَلٰكِنِّي أُطالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيهِ، أَنْ يُحِلَّنِي مِنْ ذِكْرِهِ وَيَقُومَ هوَ بِعِلْمِهِ، وَمَا سَمِعَ مِنْهُ[4].

ثُمَّ انْصَرَفَتْ وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ وَذَكَرَتْ لَهُ ما يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنَ التَّزْيِينِ لِلْأَسَدِ، وَحُسْنِ مُعاوَنَتِهِ عَلَى الْحَقِّ، وَإِخْراجِ نَفْسِهِ مِنَ الشَّهادَةِ الَّتِي لا يَكْتُمُها مِثْلُهُ مَعَ ما يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ

---

(١) وشرعوا: بدءوا وخاضوا. ونكسوا رُءُوسهم: خفضوها.

(٢) الفجور: الذنوب والمعاصي. حصانة المرأة: عفاف. أشهب: أبيض في سواد.

(٣) بوخامة: برداءة. على وجهه: أي على حكمه بدون مبالاة.

(٤) فوقع قولها في نفسه: أثر فيها. استكتمنيه: طلب مني أن أكتمه. فلا يهنئني سروري: لا أهنأ به. استظهرت: استعنت. بركوب: ارتكاب. يُحِلَّني: يخرجني، ويجعلني في حل من ذكرى إياه. أي يُجلّ إياه.

وَتَثْبِيتِ حُجَّةِ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ. فَإِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ قَالَتْ : مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيِّتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيامةِ. فَلَمْ تَزَلْ بِهِ حَتَّى قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِما سَمِعَ مِنْ إِقْرارِ دِمْنَةَ. فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذٰلِكَ، أَرْسَلَ الْفَهْدُ الْمَسْجُونُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرارَ دِمْنَةَ، وَحَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ[1].

فَقالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهادةً ، فأَخْرِجُوهُ، فَشَهِدَ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرارِهِ فَقالَ لَهُما الْأَسَدُ : ما مَنَعَكُما أَنْ تَقُوما بِشَهادِتِكُما وَقَدْ عَلِمْتُما أَمْرَنَا، وَاهْتِمامَنَا بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ. فَقالَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ شَهادةَ الْواحِدِ لا تُوجِبُ حُكْمًا ، فَكَرِهْتُ التَّعَرُّضَ لِغَيْرِ ما يَمْضِي بِهِ الْحُكْمُ، حَتَّى إِذا شَهِدَ أَحَدُنا قَامَ الْآخَرُ، فَقَبِلَ الْأَسَدُ قَوْلَهُما، وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُقْتَلَ، وَيُصْلَبَ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهادِ، وَنَادَى الْمُنادِي هٰذا جَزاءُ مَنْ يَسْعَى بَيْنَ الْمُلُوكِ وَبَيْنَ أَجْنادِهِمْ وَبِطانَتِهِمْ بِالْكَذِبِ وَالْبُهْتانِ!.

فَمَنْ نَظَرَ فِي هٰذا ؛ فَلْيَعْلَمْ: أَنَّ مَنْ أَرادَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلابةِ وَالْمَكْرِ فَإِنَّهُ سَيُجْزَى عَلَى خِلابَتِهِ وَمَكْرِهِ[2]!.

بابُ
ٱلْحَمَامَةِ ٱلْمُطَوَّقَةِ

وهو مثل إِخوان الصفاء وتعاونهم ، وبدء تواصلهم ونجاتهم من الشدائد بتعاونهم

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ الْمُتَحَابَّيْنِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُما الْكَذُوبُ، وَإِلَى ماذا صارَ عاقِبةُ أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ، فَحَدِّثْنِي - إِنْ رَأَيْتَ - عَنْ إِخْوانِ الصفاءِ كَيْفَ يَبْتَدِئُ تَواصُلُهُمْ، وَيَسْتَمْتِعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ؟! قالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْعاقِلَ لا يَعْدِلُ بِالْإِخْوانِ شَيْئًا؛ فَالْإِخْوانُ هُمُ الْأَعْوانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ ما يَنُوبُ مِنَ الْمَكْرُوهِ. وَمِنْ أَمْثالِ ذٰلِكَ: مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ وَالظَّبْيِ وَالْغُرابِ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟

---

(١) أخطأ حُجته : أي : فاته الصواب فيها.
(٢) وبطانتهم : حاشيتهم. بالخلابة : الخديعة باللسان.
(٣) صار : انتهى. المؤاسون : المعينون. ينوب : ينزل ويصيب.

قالَ بِيْدَبا : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ سَكاوَنْدَجِينَ، عِنْدَ مَدِينةِ داهَرَ، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ، يَنْتابُهُ الصَّيَّادُونَ[1]؛ وَكانَ فِي ذٰلِكَ الْمَكانِ شَجَرَةٌ كَثِيرةُ الأَغْصانِ، مُلْتَفَّةُ الْوَرَقِ، فِيها وَكْرُ غُرابٍ. فَبَيْنَما هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ، إِذ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ سَيِّئِ الْخُلقِ، وَقُبْحُ مَنْظَرِهِ يَدُلُّ عَلَى سُوءِ مَخْبَرِهِ، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ، وَفِي يَدِهِ عَصًا، مُقْبِلًا نَحْوَ الشَّجَرَةِ، فَذُعِرَ مِنْهُ الْغُرابُ؛ وَقالَ: لَقَدْ ساقَ هٰذا الرَّجُلَ إِلَى هٰذَا الْمَكانِ: إِمَّا حَيْنِي، وَإِمَّا حَيْنُ غَيْرِي، فَلَأَثْبُتَنَّ مَكانِي حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ. ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ، وَنَثَرَ عَلَيْها الْحَبَّ، وَكَمَنَ قَرِيبًا مِنْها، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى مَرَّتْ بِهِ حَمامةٌ يُقالُ لَهَا: الْمُطَوَّقةُ، وَكانَتْ سَيِّدةَ الْحَمامِ، وَمَعَهَا حَمامٌ كَثِيرٌ؛ فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَاحِبَاتُها عَنِ الشَّرَكِ ، فَوَقَعْنَ عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِطْنَهُ، فَعَلِقْنَ فِي الشَّبَكَةِ كُلُّهُنَّ، وَأَقْبَلَ الصَّيادُ فَرِحًا مَسْرُورًا[2].

فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمامةٍ تَتَلَجْلَجُ فِي حَبَائِلِها، وَتَلْتَمِسُ الْخَلاصَ لِنَفسِهَا، قالَتِ الْمُطَوَّقةُ: لا تَخاذَلْنَ فِي الْمُعالَجَةِ، وَلا تَكُنْ نَفسُ إِحداكُنَّ أَهَمَّ إِلَيْها مِنْ نَفْسِ صاحِبَتِها؛ وَلٰكِنْ نتعاون جَمِيعُنا، وَنَطِيرُ كَطَائِرٍ وَاحِدٍ، فَيَنْجُو بَعْضُنَا بِبَعْضٍ؛ فَجَمَعْنَ أَنْفُسَهُنَّ، وَوَثَبْنَ وَثْبَةً واحِدةً، فَقَلَعْنَ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعاوُنِهِنَّ، وَعَلَوْنَ بِهَا فِي الْجَوِّ، وَلَمْ يَقْطَعِ الصَّيَّادُ رَجاءَهُ مِنْهُنَّ، وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لا يُجاوِزْنَ إِلَّا قَرِيبًا حَتَّى يَقَعْنَ[3].

فَقالَ الْغُرابُ : لَأَتْبَعُهُنَّ، وَأَنْظُرُ ما يَكُونُ مِنْهُنَّ، فالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقةُ، فَرأَتِ الصَّيَّادَ يَتْبَعُهُنَّ، فَقالَتْ لِلحَمامِ: هٰذَا الصَّيَّادُ جادٌّ فِي طَلَبِكُنَّ، فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنا فِي الْفَضاءِ، لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ أَمْرُنا، وَلَمْ يَزَلْ يَتْبَعُنا، وَإِنْ نَحْنُ تَوَجَّهْنا إِلَى الْعُمْرانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنا، وَانْصَرَفَ. وَبِمَكَانِ كَذا جُرَذٌ هُوَ لِي أَخٌ؛ فَلَوِ انْتَهَيْنا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هٰذا الشَّرَكَ، فَفَعَلْنَ ذٰلِكَ، وَأَيِسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَرَفَ، وَتَبِعَهُنَّ الْغُرابُ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ، لَعَلَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْهُنَّ حِيلةً تَكُونُ لَهُ عُدَّةً عِنْدَ الْحاجةِ[4].

فَلَمَّا انْتَهَتِ الحَمامةُ الْمُطَوَّقةُ إِلى الْجُرَذِ، أَمَرَتِ الْحَمامَ أَنْ يَقَعْنَ، فَوَقَعْنَ؛ وَكانَ لِلْجُرَذِ مِئَةُ جُحْرٍ أَعَدَّها لِلْمَخاوِفِ؛ فَنَادَتْهُ الْمطَوَّقةُ بِاسْمِهِ، وَكانَ اسْمُهُ زَيْرَكَ، فَأَجابَها الْجُرَذُ مِنْ جُحْرِهِ:

---

(١) ينتابه: يتردد عليه.

(٢) مخبره: تجربته واختباره. عاتقه: ما بين الكتف والعنق. فذعر: خاف. حَيْني: هلاكي. وكمن: استخفى. فلم يلبث: فلم يقم. فوقعن: نزلن.

(٣) حبائلها: أشراكها. لا تخاذلن: لا تتركن التعاون.

(٤) جادٌ: مجتهد في سيره. في الفضاء: ما اتسع من الأرض. العمران: اسم لما أقيم من بنيان وأيس: قطع الأمل. عُدَة: عُدَة الشيء ما أعددته أي هيأته لحوادث الدهر.

مَنْ أَنْتِ؟ قالَتْ : أَنا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ. فَأَقْبَلَ إِلَيْها الْجُرَذُ يَسْعَى، فَقالَ لَهَا: ما أَوْقَعَكِ فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ؟ قالَتْ لَهُ: أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَى مَنْ تَصِيبُه الْمَقادِيرُ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْنِي فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ، فَقَدْ لا يَمْتَنِعُ مِنَ الْقَدَرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا، وَقَدْ تَنْكَسِفُ الشَّمْسُ، وَيَنْخَسِفُ الْقَمَرُ، إِذا قُضِيَ ذٰلِكَ عَلَيْهِمَا[1].

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الْعِقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّقَةُ، فَقالَتْ لَهُ الْمُطَوَّقَةُ: ابْدَأْ بِقَطْعِ عُقَدِ سائِرِ الْحَمَامِ، وَبَعْدَ ذٰلِكَ أَقْبِلْ عَلَى عِقْدِي، فَأَعادَتْ عَلَيْهِ ذٰلِكَ مِرارًا وَهُوَ لا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا؛ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ الْقَوْلَ، وَكَرَّرَتْ، قالَ لَها: لَقَدْ كَرَّرْتِ الْقَوْلَ عَلَيَّ كَأَنَّكِ لَيْسَ لَكِ فِي نَفْسِكِ حاجَةٌ، وَلا لَكِ عَلَيْها شَفَقَةٌ، وَلا تَرْعَيْنَ لَها حَقًّا! قالَتْ: إِنِّي أَخافُ إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِقَطْعِ عِقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَكْسَلَ عَنْ قَطْعِ ما بَقِي ، وَعَرَفْتُ أَنَّكَ إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَّ قَبْلِي، وَكُنْتُ أَنا الْأَخِيرَةَ لَمْ تَرْضَ وَإِنْ أَدْرَكَكَ الْفُتُورُ أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرَكِ، قالَ الْجُرَذُ : هٰذا مِمَّا يَزِيدُ الرَّغْبَةَ فِيكِ، وَالْمَوَدَّةَ لَكِ[2].

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَغَ مِنْها، فَانْطَلَقَتِ الْمُطَوَّقَةُ وَحَمامُها مَعَهَا، فَلَمَّا رَأَى الْغُرابُ صُنْعَ الْجُرَذِ رَغِبَ فِي مُصادَقَتِهِ، ؛ فَجاءَ وَنَاداهُ بِاسْمِهِ، فَأَخْرَجَ الْجُرَذُ رَأْسَهُ، فَقالَ لَهُ: ما حاجَتُكَ؟ قالَ : إِنِّي أُرِيدُ مُصادَقَتَكَ، قالَ الْجُرَذُ: لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ تَواصُلٌ؛ وَإِنَّما الْعاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ ما يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَيَتْرُكَ الْتِماسَ مَا لَيْسَ لَهُ إِلَيْهِ سَبِيلٌ؛ كَمَنْ أَرادَ أَنْ يُجْرِيَ السُّفُنَ فِي الْبَرِّ، وَالْعَجَلَ فِي الْبَحْرِ، فَإِنْ أَنْتَ إِلَّا آكِلٌ، وَأَنا طَعامٌ لَكَ[3]. قالَ الْغُرابُ: إِنَّ أَكْلِي إِيَّاكَ، وَإِنْ كُنْتَ لِي طَعامًا، مِمَّا لا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا. وَإِنَّ مَوَدَّتَكَ آنَسُ لِي مِمَّا ذَكَرْتَ، وَلَسْتَ بِحَقِيقٍ إِذا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ أَنْ تَرُدَّنِي خائِبًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ما رَغَّبَنِي فِيكَ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهارَ ذٰلِكَ؛ فَإِنَّ الْعاقِلَ لا يَخْفَى فَضْلُهُ، وَإِنْ هُوَ أَخْفاهُ كَالْمِسْكِ الَّذِي يُكْتَمُ، ثُمَّ لا يَمْنَعُهُ ذٰلِكَ مِنَ النَّشْرِ الطَّيِّبِ وَالْأَرَجِ الْفائِحِ[4].

قالَ الْجُرَذُ : إِنَّ أَشَدَّ الْعَداوَةِ عَداوَةُ الْجَوْهَرِ: وَهِيَ عَداوَتانِ: مِنْها ما هُوَ مُتَكافِئٌ كَعَداوَةِ الْفِيلِ وَالْأَسَدِ، فَإِنَّهُ رُبَّما قَتَلَ الْأَسَدُ الْفِيلَ أَو الْفِيلُ الْأَسَدَ. وَمِنْها ما قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ،

---

(١) على من تصيبه المقادير : جمع مقدور وهو الأمر المحتوم.

(٢) قرض : قطع . العِقد : حبل الشَّرَك . سائر : باقي . ولا ترعين : ولا تحفظين .

(٣) تواصل : أي علاقة . والعجل : جمع عجلة . وهي آلة يجرها الثور محمولا عليها الأثقال . فإن أنت إلا آكل : فما أنت . وإن حرف نفي بمعنى ما .

(٤) لا يغني عني شيئا : لا ينفعني . آنسُ : اسم تفضيل من الأنس وهو ضد الوحشة . النشر : الريح . والأرج : ذكاء الرائحة .

كَالَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَ السِّنَّوْرِ، وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ فَإِنَّ الْعَداوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ، وَإِنَّما ضَرَرُها عَلَيَّ؛ فَإِنَّ الْماءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْخانُهُ لَمْ يَمْنَعْهُ ذٰلِكَ مِنْ إِطْفائِهِ النَّارَ إِذا صُبَّ عَلَيْها. وَإِنَّما مُصاحِبُ الْعَدُوِّ وَمُصالِحُهُ كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ، يَحْمِلُها فِي كُمِّهِ، وَالْعاقِلُ لا يَسْتَأْنِسُ إِلَى الْعَدُوِّ الأَرِيبِ[1].

قالَ الْغُرابُ : قَدْ فَهِمْتُ ما تَقُولُ ، وَأَنْتَ خَلِيقٌ أَنْ تَأْخُذَ بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقالِي، وَلا تُصَعِّب عَلَيَّ الْأَمْرَ بِقَوْلِكَ: لَيْسَ إِلَى التَّواصُلِ بَيْنَنَا سَبِيلٌ؛ فَإِنَّ الْعُقَلاءَ الْكِرامَ لا يَتَغَوْنَ عَلَى مَعْرُوفٍ جَزاءً، وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ سَرِيعٌ اتِّصالُها، بَطِيءٌ انْقِطاعُها، وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ الذَّهَبِ بَطِيءُ الِانْكِسارِ، سَرِيعُ الْإِعادةِ هَيِّنُ الْإِصْلاحِ، إِنْ أَصابَهُ ثَلْمٌ أَوْ كَسْرٌ؛ وَالْمَوَدَّةُ بَيْنَ الْأَشْرارِ سَرِيعٌ انْقِطاعُهَا، بَطِيءٌ اتِّصالُها، وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْكُوزِ الْفَخَّارِ، سَرِيعُ الِانْكِسارِ، يَنْكَسِرُ مِنْ أَدْنَى شَيْءٍ وَلا وَصْلَ لَهُ أَبَدًا. وَالْكَرِيمُ يَوَدُّ الْكَرِيمَ، وَاللَّئِيمُ لا يَوَدُّ أَحَدًا، إِلَّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ[2].

وَأَنا إِلَى وُدِّكَ وَمَعْرُوفِكَ مُحْتاجٌ ؛ لِأَنَّكَ كَرِيمٌ، وَأَنا مُلازِمٌ لِبابِكَ غَيْرُ ذائِقٍ طَعامًا حَتَّى تُؤَاخِيَنِي. وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ كُنْتُ أَشاءُ ضَرَّكَ لَفَعَلْتُ حِينَ كُنْتُ مُحَلِّقًا فَوْقَ رَأْسِكَ، عِنْدَ ما كُنْتَ تَقْطَعُ حَبائِلَ الْحَمَامِ. قالَ الْجُرذُ قَدْ قَبِلْتُ إِخاءَكَ، فَإِنِّي لَمْ أَرْدُدْ أَحَدًا عَنْ حاجة قَطُّ، وَإِنَّما بَلَوْتُكَ بِما بَلَوْتُكَ بِهِ إِرادةَ التَّوَثُّقِ لِنَفْسِي، فَإِنْ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ إِنِّي وَجَدْتُ الْجُرَذَ ضَعِيفَ الرَّأْيِ، سَرِيعَ الِانْخِداعِ! ثُمَّ خَرَجَ مِنْ جُحْرِهِ، فَوَقَفَ عِنْدَ الْبابِ، فَقالَ لَهُ الْغُرابُ: ما يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيَّ وَالِاسْتِئْناسِ بِي؟! أَوَ فِي نَفْسِكَ بَعْدُ مِنِّي رِيبَةٌ[3]؟!.

قالَ الْجُرَذُ : إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيا يَتَعاطَوْنَ فِيما بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ وَيَتَواصَلُونَ عَلَيْهِما وَهُما: ذاتُ النَّفْسِ، وَذَاتُ الْيَدِ. فَالْمُتَبادِلُونَ ذاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِياءُ ، وَأَمَّا الْمُتَبادِلُونَ ذاتَ الْيَدِ، فَهُمُ الْمُتَعاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الِانْتِفاعَ بِبَعْضٍ، وَمَنْ كانَ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنافِعِ الدُّنْيا، فَإِنَّما مَثَلُهُ فِيما يَبْذُلُ وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ، وَإِلْقائِهِ الْحَبَّ لِلطَّيْرِ، لا يُرِيدُ بِذٰلِكَ نَفْعَ الطَّيْرِ وَإِنَّما يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ؛ فَتَعاطِي ذاتِ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ تَعاطِي ذاتِ الْيَدِ[4].

وَإِنِّي واثِقٌ مِنْكَ بِذاتِ نَفْسِكَ، ومَنَحْتُكَ مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذٰلِكَ، وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنٍّ بِكَ؛ وَلٰكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحابًا جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ، وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِيَّ

---

(١) الجوهر: الأصل. متكافئ: متماثل. السِّنور: الهِرّ. الأريب: الذكي.
(٢) خليق: أهل. تأخذ: تعمل. خليقتك: طبيعتك. لا يبتغون: لا يطلبون. ثلم: كسر لحرفه. رهبة: خوف
(٣) تؤاخيني: تصيرني لك أخا أو صديقًا . بلوتك: امتحنتك. التوثق: التثبت والتحفظ والاحتياط. ريبة: شك.
(٤) ذات النفس: السريرة المضمرة. ذات اليد: ما ملكته اليد. الأصفياء: الأحباء الصادقون.

كَرَأْيِكَ. قالَ الْغُرابُ: إِنَّ مِنْ عَلامةِ الصَّدِيقِ، أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ صَدِيقِهِ صَدِيقًا، وَلِعَدُوِّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا؛ وَلَيْسَ لِي بِصاحِبٍ وَلا صَدِيقٍ مَنْ لا يَكُونَ لَكَ مُحِبًّا؛ وَإِنَّهُ يَهُونُ عَلَيَّ قَطِيعةُ مَنْ كانَ كَذٰلِكَ مِنْ جَوْهَرِي؛ فَإِنَّ زارِعَ الرَّيْحانِ إِذا رَأَى بَيْنَهُ عُشْبًا يُفْسِدُهُ قَلَعَهُ، وَرَمَى بِهِ؛ ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الْغُرابِ فَتَصافَحا، وَتَصافَيا، وَأَنِسَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما بِصاحِبِهِ[1].

حَتَّى إِذا مَضَتْ لَهُمْ أَيَّامٌ قالَ الْغُرابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ؛ وَأَخافُ أَنْ يَرْمِيكَ بَعْضُ الصِّبْيانِ بِحَجَرٍ، وَلِي مَكانٌ فِي عُزْلةٍ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلاحِفِ، وَهُوَ مُخْصِبٌ مِنَ السَّمَكِ، وَنَحْنُ واجِدُونَ هُناكَ ما نَأْكُلُ؛ فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ إِلَى هُناكَ لِنَعِيشَ آمِنِينَ! قالَ الْجُرَذُ: وَإِنِّي أَيْضًا كارِهٌ لِمَكانِي هٰذا، وَلِي أَخْبارٌ وَقِصَصٌ، سَأَقُصُّها عَلَيْكَ، إِذا انْتَهَيْنا حَيْثُ تُرِيدُ، فَافْعَلْ ما تَشاءُ[2]. فَأَخَذَ الْغُرابُ بِذَنَبِ الْجُرَذِ، وَطارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ حَيْثُ أَرادَ، فَلَمَّا دَنا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيها السُّلَحْفاةُ، بَصُرَتِ السَّلَحْفاةُ، بِغُرابٍ، وَمَعَهُ جُرَذٌ فَذُعِرَتْ مِنْهُ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صاحِبُها، فَناداها، فَخَرَجَتْ إِلَيْهِ، وَسَأَلَتْهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ فَأَخْبَرَها بِقِصَّتِهِ، حِينَ تَبِعَ الْحَمامَ، وَما كانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيْها! فَلَمَّا سَمِعَتِ السُّلَحْفاةُ شَأْنَ الْجُرَذِ، عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفائِهِ، وَرَحَّبَتْ بِهِ، وَقالَتْ لَهُ: ما ساقَكَ إِلَى هٰذِهِ الْأَرْضِ؟ قالَ الْغُرابُ لِلْجُرَذِ: اقْصُصْ عَلَيَّ الْأَخْبارَ الَّتِي قُلْتَ: إِنَّكَ تُحَدِّثُنِي بِها، فَأَخْبِرْنِي بِها مَعَ جَوابِ ما سَأَلَتِ السُّلَحْفاةُ فَإِنَّها عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي، فَبَدَأَ الْجُرَذُ[3].

وَقالَ: كانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينةِ مارُوتَ، فِي بَيْتِ رَجُلٍ ناسِكٍ، وَكانَ خالِيًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْعِيالِ، وَكانَ يُؤْتَى فِي كُلِّ يَوْمٍ بِجُونةٍ مِنَ الطَّعامِ؛ فَيَأْكُلُ مِنْها حاجَتَهُ، وَيُعَلِّقُ الْباقِيَ. وَكُنْتُ أَرْصُدُ النَّاسِكَ، حَتَّى يَخْرُجَ، وَآتِي إِلَى الْجُونةِ، فَلا أَدَعُ فِيها طَعامًا إِلَّا أَكَلْتُهُ، وَرَمَيْتُ مِنْهُ إِلَى الْجِرْذانِ. فَجُهِدَ النَّاسِكُ مِرارًا أَنْ يُعَلِّقَ الْجُونةَ فِي مَكانٍ لا أَنالُهُ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذٰلِكَ! حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ ضَيْفٌ؛ فَأَكَلا جَمِيعًا، ثُمَّ أَخَذا فِي الْحَدِيثِ، فَقالَ النَّاسِكُ لِلضَّيْفِ مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ؟ وَأَيْنَ تُرِيدُ الْآنَ؟ وَكانَ الرَّجُلُ قَدْ جابَ الْآفاقَ، وَرَأَى عَجائِبَ، فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا وَطِئَ مِنَ الْبِلادِ، وَرَأَى مِنَ الْعَجائِبِ، وَجَعَلَ النَّاسِكُ خِلالَ هٰذا يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ، لِيُنَفِّرَنِي عَنِ

(١) ومنحتك: أعطيتك. قطيعة: مقاطعة. تصافحا: سلم كل منهما على الآخر، وتعانقا: وتصافيا: فتحا صفحة جديدة للمودة.
(٢) في عزلة: أي في ناحية منفردة. (٣) فذعرت: فخافت. ورحبت به: قالت له: مرحباً.

الْجُونةِ؛ فَغَضِبَ الضَّيْفُ وَقالَ[1]:

أَنا أُحَدِّثُكَ ، وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ، فَما حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَأَلْتَني؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْه النَّاسِكُ وَقالَ : إِنَّما أُصَفِّقُ بِيَدِيَّ لِأُنَفِّرَ جُرَذًا قَد تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ، وَلَسْتُ أَضَعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا إِلَّا أَكَلَهُ! فَقالَ: جُرَذٌ واحِدٌ يَفْعَلُ ذٰلِكَ أَمْ جِرْذانٌ كَثِيرةٌ؟! فَقالَ النَّاسِكُ : جِرْذانُ الْبَيْتِ كَثِيرةٌ، لٰكِنَّ فِيها جُرَذًا واحِدًا هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي فَما أَسْتَطِيعُ لَهُ حِيلةً[2].

قالَ الضَّيْفُ : لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قالَ : **لِأَمْرٍ مّا باعَتْ هٰذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِمًا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ!!** قالَ النَّاسِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

مثل المرأة والسِّمْسِم

قالَ الضَّيْفُ نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكانِ كَذَا ، فَتَعَشَّيْنا ثُمَّ فَرَشَ لِي، وَانْقَلَبَ عَلَى فِراشِهِ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ اللَّيْلِ لِامْرَأَتِهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو غَدًا رَهْطًا لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا؛ فَاصْنَعِي لَهُمْ طَعامًا! فَقالَتِ الْمَرْأَةُ: كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى طَعامِكَ؛ وَلَيْسَ فِي بَيْتِكَ فَضْلٌ عَنْ عِيالِكَ، وَأَنْتَ رَجُلٌ لا تُبْقِي شَيْئًا، وَلا تَدَّخِرُهُ؟! قالَ الرَّجُلُ : لا تَنْدَمِي عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمْنَاهُ ، وَأَنْفَقْناهُ ، فَإِنَّ الْجَمْعَ وَالِادِّخارَ رُبَّما كانَتْ عاقِبَتُهُ كَعاقِبَةِ الذِّئْبِ. قالَتِ الْمَرْأَةُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟!.

مثل الذئب ووتر القوس

قالَ الرَّجُلُ : زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ ذغاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ قانِصٌ، وَمَعهُ قَوْسُهُ وَنُشَّابُهُ، فَلَمْ يُجاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ، حَتَّى رَمَى ظَبْيًا، فَحَمَلَهُ ، وَرَجَعَ طالِبًا مَنْزِلَهُ، فَاعْتَرَضَهُ خِنْزِيرٌ بَرِّيٌّ ، فَرَماهُ بِنُشَّابةٍ نَفَذَتْ فِيهِ، فَأَدْرَكَهُ الْخِنْزِيرُ وَضَرَبَهُ بِأَنْيابِهِ ضَرْبةً أَطارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسَ، وَوَقَعَا مَيِّتَيْنِ! فَأَتَى عَلَيْهِمْ ذِئْبٌ، فَقالَ: هٰذا الرَّجُلُ وَالظَّبْيُ وَالْخِنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلُهُمْ مُدَّةً[4].

وَلٰكِنْ أَبْدَأُ بِهٰذا الْوَتَرِ، فَآكُلُهُ فَيَكُونُ قُوتَ يَوْمِي، وَأَدَّخِرُ الْباقِيَ إِلَى غَدٍ، فَما و رَاءَهُ. فَعالَجَ

---

(١) بجونة: سلة صغيرة مغطاة بالجلد. أرصد: أرقب. وأنب: أقفز. فجُهد: أتعب وتحمل المشقة. جاب: قطع. الآفاق: النواحي والجهات كما يفعل السائح. فأنشأ: شرع.

(٢) ما حملك؟ : ماذا دعاك. لأنفر: لأبعد.

(٣) رهطًا: جماعة من ثلاثة إلى عشرة. فضل: زيادة. تدخره: تحتفظ به لوقت الحاجة.

(٤) قانص: صياد. نُشّابة: النُّشاب : النبل، واحدته نُشابة. ظبيا: غزالاً. الوتر: مجرى السهم من القوس.

الْوَتَرَ حَتَّى قَطَعَهُ، فَلَمَّا انْقَطَعَ طارَتْ سِيَةُ الْقَوْسِ، فَضَرَبَتْ حَلْقَهُ فَماتَ! وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكِ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمِي أَنَّ : الْجَمْعَ وَالِادِّخارَ وَخِيمُ الْعاقِبَةِ. فَقالَتِ الْمَرْأَةُ: نِعِمَّا قُلْتَ، وَعِنْدَنا مِنَ الْأُرْزِّ وَالسِّمْسِمِ ما يَكْفِي سِتَّةَ نَفَرٍ، أَوْ أَكْثَرَ، فَأَنا غادِيَةٌ عَلَى صُنْعِ الطَّعامِ؛ فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَأَخَذَتِ الْمَرْأَةُ - حِينَ أَصْبَحَتْ - سِمْسِمًا وَقَشَرَتْهُ وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ، لِيَجِفَّ وَقالَتْ لِغُلامٍ لَهُمْ : اطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلابَ، وَتَفَرَّغَتِ الْمَرْأَةُ لِصُنْعِها، وَتَغافَلَ الْغُلامُ عَنِ السِّمْسِمِ، فَجاءَ كَلْبٌ فَعاثَ فِيهِ، فَاسْتَقْذَرَتْهُ الْمَرْأَةُ؛ وَكَرِهِتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ طَعامًا[1]!.

فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ فَأَخَذَتْ بِهِ مُقايَضَةً سِمْسِمًا غَيْرَ مَقْشُورٍ مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَأَنا واقِفٌ فِي السُّوقِ! فَقالَ رَجُلٌ: لِأَمْرٍ مَّا باعَتْ هٰذِهِ الْمَرْأَةُ سِمْسِمًا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ!! وَكَذٰلِكَ قَوْلِي فِي هٰذا الْجُرَذِ الَّذِي ذَكَرْتَ إِنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ ما يَقْدِرُ عَلَى ما شَكَوْتَ مِنْهُ، فَالْتَمِسْ لِي فَأْسًا لَعَلِّي أَحْتَفِرُ جُحْرَهُ فَأَطَّلِعَ عَلَى بَعْضِ شَأْنِهِ[2].

فَاسْتَعارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ جِيرانِهِ فَأْسًا فَأَتَى بِها الضَّيْفَ، وَأَنا حِينَئِذٍ فِي جُحْرٍ غَيْرِ جُحْرِي أَسْمَعُ كَلامَهُما، وَفِي جُحْرِي كِيسٌ فِيهِ مِئَةُ دِينارٍ لا أَدْرِي مَنْ وَضَعَهَا! فَاحْتَفَرَ الضَّيْفُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الدَّنانِيرِ، فَأَخَذَها، وَقالَ لِلنَّاسِكِ: ما كانَ هٰذا الْجُرَذُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كانَ يَثِبُ إِلَّا بِهٰذِهِ الدَّنانِيرِ؛ فَإِنَّ الْمالَ جُعِلَ قُوَّةً وَزِيادَةً فِي الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ؛ وَسَتَرَى بَعْدَ هٰذا أَنَّهُ لا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كانَ يَثِبُ. فَلَمَّا كانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَتِ الْجِرْذانُ الَّتِي كانَتْ مَعِي، فَقالَتْ: قَدْ أَصابَنَا الْجُوعُ، وَأَنْتَ رَجاؤُنا، فَانْطَلَقْتُ وَمَعِي الْجِرْذانُ إِلَى الْمَكانِ الَّذِي كُنْتُ أَثِبُ مِنْهُ، إِلَى الْجُونَةِ، فَحاوَلْتُ ذٰلِكَ مِرارًا، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ[3]؛ فَاسْتَبانَ لِلْجِرْذانِ نَقْصُ حالِي، فَسَمِعْتُهُنَّ يَقُلْنَ: انْصَرِفْنَ عَنْهُ، وَلا تَطْمَعْنَ فِيما عِنْدَهُ؛ فَإِنَّا نَرَى لَهُ حالًا لا نَحْسَبُهُ إِلَّا قَدِ احْتاجَ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَعُولُهُ! فَتَرَكْنَنِي، وَلَحِقْنَ بِأَعْدائِي،وَجَفَوْنَنِي، وَأَخَذْنَ فِي غِيبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعادِينِي، وَيَحْسُدُنِي، وَأَصْبَحْنَ كَأَنَّهُنَّ لَمْ يَعْرِفْنَنِي، وَكَأَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِنَّ رَئِيسًا قَطُّ[4]. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: ما الْإِخْوانُ، وَلا الْأَعْوانُ، وَلا الْأَصْدِقاءُ إِلَّا بِالْمالِ؛ وَوَجَدْتُ مَنْ لا مالَ لَهُ إِذا أَرادَ أَمْرًا قَعَدَ بِهِ الْعُدْمُ عَمَّا يُرِيدُهُ ، كَالْماءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشِّتاءِ، لا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ، وَلا

(١) سِيَةُ القوس: طرفه. نفر: النفر من الثلاثة إلى العشرة من الناس. غادية: مبكرة. بسطته: نشرته. فعاث فيه، فأفسده بلعابه أو بوله.
(٢) مقايضة: مبادلة. (٣) الوثوب: القفز. أصابنا الجوع: أدركنا وحل بنا.
(٤) يعوله: ينفق عليه ويتولى أمره. جفونني: هجرنني. وأخذن في غيبتي: عبنني وقمن بذمي في غيابي.

يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ إِلَى أَنْ يَفْسُدَ وَيَنْشَفَ، وَلا يُنْتَفَعَ بِهِ! وَوَجَدْتُ مَنْ لا إِخْوانَ لَهُ، لا أَهْلَ لَهُ وَمَنْ لا وَلَدَ لَهُ، لا ذِكْرَ لَهُ، وَمَنْ لا مَالَ لَهُ، لا عَقْلَ لَهُ، وَلا دُنْيا وَلا آخِرةَ لَهُ؛ لِأَنَّ مَنْ نَزَلَ بِهِ الْفَقْرُ لا يَجِدُ بُدًّا مِن تَرْكِ الْحَياءِ، وَمَنْ ذَهَبَ حَياؤُهُ ذَهَبَ سُرُورُهُ، وَمَنْ ذَهَبَ سُرُورُهُ مَقَتَ نَفْسَهُ، وَمَنْ مَقَتَ نَفْسَهُ كَثُرَ حُزْنُهُ، وَمَنْ كَثُرَ حُزْنُهُ قَلَّ عَقْلُهُ، وَارْتَبَكَ فِي أَمْرِهِ، وَمَنْ قَلَّ عَقْلُهُ كانَ أَكْثَرُ قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ عَلَيْهِ لا لَهُ؛ وَمَنْ كانَ كَذٰلِكَ فَأَحْرِ بِهِ أَنْ يَكُونَ أَنْكَدَ النَّاسِ حَظًّا فِي الدُّنْيا والْآخِرَةِ[1]!.

ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ إِذا افْتَقَرَ قَطَعَهُ أَقارِبُهُ وَإِخْوانُهُ وَأَهْلُ وُدِّهِ، وَمَقَتُوهُ وَرَفَضُوهُ وَأَهانُوهُ، وَاضْطُرَّهُ ذٰلِكَ إِلَى أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَ الرِّزْقِ ما يُغَرِّرُ فِيهِ بِنَفْسِهِ، وَيُفْسِدُ فِيهِ آخِرتَهُ؛ فَيَخْسَرُ الدَّارَيْنِ جَمِيعًا. وَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السِّباخِ، الْمَأْكُولةَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، كَحالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتاجِ إِلَى ما فِي أَيْدِي النَّاسِ. وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلاءٍ، وَجالِبًا إِلَى صَاحِبِهِ كُلَّ مَقْتٍ وَمَعْدِنَ النَّمِيمَةِ[2]. وَوَجَدتُ الرَّجُلَ إِذا افْتَقَرَ أَتَّهَمَهُ مَنْ كانَ لَهُ مُؤْتَمِنًا، وَأَساءَ بِهِ الظَّنَّ مَنْ كانَ يَظُنُّ بِهِ حَسَنًا؛ فَإِنْ أَذْنَبَ غَيْرُهُ كانَ هُوَ لِلتُّهمَةِ مَوْضِعًا. وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَدْحٌ إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ. فَإِنْ كانَ شُجاعًا قِيلَ: أَهْوَجُ، وَإِنْ كانَ جَوادًا سُمِّيَ مُبَذِّرًا، وَإِنْ كانَ حَلِيمًا سُمِّي ضَعِيفًا، وَإِنْ كانَ وَقُورًا سُمِّي بَلِيدًا، وَإِنْ كانَ صَمُوتًا سُمِّيَ عَيِيًّا، وَإِنْ كانَ لَسِنًا سُمِّيَ مِهْذَارًا؛ فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحاجةِ الَّتِي تُحْوِجُ صاحِبَها إِلَى الْمَسْأَلَةِ، وَلا سِيَّما مَسْأَلَةَ الْأَشِحَّاءِ وَاللِّئامِ. فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ كُلِّفَ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي فَمِ الْأَفْعَى فَيُخْرِجَ مِنْهُ سُمًّا فَيَبْتَلِعَهُ كانَ ذٰلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّئِيمِ[3].

حَتَّى لَقَدْ جاءَ فِي قَدِيمِ الْأَقَاوِيلِ : أَنَّ مَنِ ابْتُلِيَ بِمَرَضٍ فِي جَسَدِهِ ، لا يُفارِقُهُ حَتَّى يَتَسَلَّطَ عَلَيْهِ ما هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ مِنَ الْحاجةِ وَالْفَقْرِ. وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّيْفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنانِيرَ، فَقاسَمَها النَّاسِكَ جَعَلَ النَّاسِكُ نَصِيبَهُ فِي خَرِيطةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ، فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْها شَيْئًا فَأَرُدَّهُ إِلَى جُحْرِي، وَرَجَوْتُ أَنْ يَزِيدَ ذٰلِكَ فِي قُوَّتِي، أَوْ يُراجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقائِي[4].

فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّاسِكِ وَهُوَ نائِمٌ، حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَوَجَدْتُ الضَّيْفَ يَقْظانَ، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ؛ فَضَرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبةً مُوجِعةً؛ فانْقَلَبْتُ راجِعًا إِلَى جُحْرِي. فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الْأَلَمُ، هَيَّجَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ؛ فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمَعِي الْأَوَّلِ. وَإِذا الضَّيْفُ يَرْصُدُنِي، فَضَرَبَنِي

---

(١) العُدْم: الفقر. مقت نفسه: كرهها أشد الكراهية والبغض. وعمله عليه: عائدا عليه. فأحرِ به: ما أحراه أن يكون أنكد الناس.

(٢) قطعهُ أقاربه: هجروه وأبعدوه. ما يغرر بنفسه: يعرضها للهلكة. في السِّباخ: الأرض غير الصالحة للزراعة.

(٣) جَوَاداً: كريما. صمُوتاً: كثير الصمت. عيياً: بليدًا عاجزاً. لسنا: فصيح اللسان. مِهذاراً: كثير الكلام فيما يعني وما لا يعني.

(٤) خريطة: وعاء من جلد حقيبة صغيرة. جَنّ الليل: أظلم.

بِالْقَضِيبِ ضَرْبةً أَسالَتْ مِنِّي الدَّمَ، فَتحامَلْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَتَقَلَّبْتُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي، فَخَرَرْتُ مَغْشِيًّا عَلَيَّ، فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ ما بَغَّضَ إِلَيَّ الْمالَ، حَتَّى لا أَسْمَعُ بِذِكْرِهِ، إلا تُداخِلُنِي مِنْ ذِكْرِ الْمالِ رِعْدةٌ وَهَيْبَةٌ[1].

ثُمَّ تَذَكَّرْتُ ، فَوَجَدْتُ الْبَلاءَ فِي الدُّنْيا إِنَّما يَسُوقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ؛ لِأَنَّهُما لا يَزَالانِ يُدْخِلانِ صاحِبَهُما مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَالأَشْياءُ لا تَنْفَدُ وَلا تَنْتَهِي؛ وَلا يَزالُ صاحِبُ الدُّنْيا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ وَنَصَبٍ! وَوَجَدْتُ رُكُوبَ الأَهْوالِ، وَتَجَشُّمَ الأَسْفارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ بَسْطِ الْيَدِ إِلَى السَّخِيِّ بِالْمالِ، فَكَيْفَ بِالشَّحِيحِ بِهِ، وَلَمْ أَرَ كَالرِّضَى شَيْئًا. وَوَجَدْتُ الْعُلَماءَ قَدْ قالُوا: لا عَقْلَ كَالتَّدْبِيرِ، وَلا وَرَعَ كَكَفِّ الأَذَى، وَلا حَسَبَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ، وَلا غِنى كَالرِّضَى[2]. وَأَحَقُّ ما صَبَرَ الإِنْسانُ عَلَى الشَّيْءِ نَفْسُهُ، وَأَفْضَلُ الْبِرِّ الرَّحْمةُ، وَرَأْسُ الْمَوَدَّةِ الاِسْتِرْسالُ، وَرَأْسُ الْعَقْلِ مَعْرِفَةُ ما يَكُونُ مِمَّا لا يَكُونُ. وَقالُوا: الْخَرَسُ خَيْرٌ مِنَ اللِّسانِ الْكَذُوبِ، وَالضُّرُّ وَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنَ النِّعْمَةِ وَالسَّعَةِ مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ. فَصَارَ أَمْرِي إِلَي أَنْ رَضِيتُ، وَقَنِعْتُ وَانْتَقَلْتُ مِنْ بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ. وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمامِ فَسِيقَتْ إِلَيَّ بِصَداقَتِهِ صَداقَةُ الْغُرابِ. وَالْتَفَتَ إِلَيَّ السُّلَحْفاةِ فَقالَ : ثُمَّ ذَكَرَ لِيَ الْغُرابُ ما بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَوَدَّةِ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيانَكَ؛ فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيَكَ مَعَهُ، وَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ؛ فَإِنَّهُ لا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيا يَعْدِلُ صُحْبَةَ الإِخْوانِ، وَلا غَمَّ فِيها يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ[3].

وَجَرَّبْتُ فَعَلِمْتُ : أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلْمُلْتَمِسِ مِنَ الدُّنْيا غَيْرُ الْكَفافِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ الأَذَى عَنْ نَفْسِهِ، وَهُوَ يَسِيرٌ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ، إِذا أُعِينَ بِصِحَّةٍ وَسَعَةٍ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وُهِبَتْ لَهُ الدُّنْيا بِما فِيها، لَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعُ مِنْ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحاجَةَ، وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُ إِلَّا ما لِغَيْرِهِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ حَسْبُ[4].

فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرَذُ مِنْ كَلامِهِ، أَجابَتْهُ السُّلَحْفاةُ بِكَلامٍ رَقِيقٍ، وَقالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ كَلامَكَ، وَمَا أَحْسَنَ ما تَكَلَّمْتَ بِهِ! إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَّايا أُمُورٍ هِيَ فِي نَفْسِكَ، مِنْ حَيْثُ قِلَّةُ مالِكَ، وَسُوءُ حالِكَ، وَاغْتِرابُكَ عَنْ مَوْطِنِكَ، فَاطْرَحْ ذٰلِكَ عَنْ قَلْبِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حُسْنَ الْكَلامِ لا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ

---

(١) يقظان: غير نائم. قضيب: عود من خشب أو حديد. تحاملت على نفسي: تحملت وحاولت القيام بما لا تطيقه. فخررت: سقطت. رعدة: اضطراب.

(٢) لا تنفد: لا تفنى. ونَصَب: كدّ وجد. وَتَجَشُّم: تكلف. السَّخِيّ: الكريم. الشحيح: البخيل الحريص.

(٣) الاسترسال: حسن الثقة بالصديق والاستئناس به. (٤) الملتمس: الطالب. الكفاف: مقدار الحاجة. حَسْب: فقط.

الْعَمَلِ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ عَلِمَ دَواءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوَ بِهِ لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا، وَلَمْ يَجِدْ لِدَائِهِ راحةً وَلا خِفَّةً، فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ، وَلا تَحْزَنْ لِقِلَّةِ الْمال، فَإِنَّ الرَّجُلَ ذا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مالٍ، كَالْأَسَدِ الَّذِي يُهابُ وَإِنْ كانَ رابِضًا، وَالْغَنِيُّ الَّذِي لا مُرُوءَةَ لَهُ يُهانُ وَإِنْ كانَ كَثِيرَ الْمالِ، كَالْكَلْبِ لا يُحْفَلُ بِهِ وَإِنْ طُوِّقَ وَخُلْخِلَ بِالذَّهَبِ[1]!.

فَلا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ؛ فَإِنَّ الْعَاقِلَ لا غُرْبَةَ لَهُ، كَالْأَسَدِ الَّذِي لا يَنْقَلِبُ إِلَّا مَعَهُ قُوَّتُهُ. فَلْتُحْسِنْ تَعَهُّدَكَ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّكَ إِذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ، جاءَكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ كَمَا يَطْلُبُ الْماءُ انْحِدارَهُ. وَإِنَّما جُعِلَ الْفَضْلُ لِلحازِمِ الْبَصِيرِ، وَأَمَّا الْكَسْلانُ الْمُتَرَدِّدُ ، فَإِنَّ الْفَضْلَ لا يَصْحَبُهُ. وَقَدْ قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَباتٌ وَلا بَقاءٌ : ظِلِّ الْغَمامةِ فِي الصَّيْفِ. وَخُلَّةِ الْأَشْرارِ؛ وَعِشْقِ النِّساءِ، وَالنَّبَإِ الْكَاذِبِ، وَالْمالِ الْكَثِيرِ[2].

فَالعَاقِلُ لا يَحْزَنُ لِقِلَّتِهِ، وَلٰكِنَّ مالَهُ عَقْلُهُ، وَمَا قَدَّمَ مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، فَهُوَ واثِقٌ أَنَّهُ لا يُسْلَبُ ما عَمِلَ، وَلا يُؤَاخَذُ بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ، وَهُوَ خَلِيقٌ أَلَّا يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لا يَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ أَجَلٌ مَعْلُومٌ، وَأَنْتَ عَنْ مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِما عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ؛ وَلٰكِنْ رَأَيْتُ أَنْ أَقْضِيَ مِنْ حَقِّكَ؛ فَأَنْتَ أَخُونا وَمَا قِبَلَنَا مَبْذُولٌ لَكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرابُ كَلامَ السُّلَحْفاةِ لِلْجُرَذِ، وَمَرْدُودَها عَلَيْهِ، وَإِلْطافَها إِيَّاهُ فَرِحَ بِذٰلِكَ وَقالَ: لَقَدْ سَرَرْتَنِي، وأَنْعَمْتِ عَلَيَّ، وَأَنْتِ جَدِيرةٌ أَنْ تَسُرِّي نَفْسَكِ بِمِثْلِ ما سَرَرْتِنِي! وَإِنَّ أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيا بِشِدَّةِ السُّرُورِ مَنْ لا يَزالُ رَبْعُهُ مِنْ إِخْوانِهِ وَأَصْدِقائِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا، وَلا يَزالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَماعةٌ يَسُرُّهُمْ وَيَسُرُّونَهُ، وَيَكُونُ مِنْ وَراءِ أُمُورِهِمْ وَحاجاتِهِمْ بِالْمِرْصادِ[3].

فَإِنَّ حُسْنَ الثَّناءِ لا يَزالُ صاحِبُهُ فِي عاقِبَتِهِ حَيْثُما تَوَجَّهَ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذا عَثَرَ لا يُقِيلُ عَثْرَتَه وَيَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكِرامُ، كَالْفِيلِ إِذا وَحِلَ لا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفِيَلَةُ! فَبَيْنَمَا الْغُرابُ فِي كَلامِهِ وَالثَّلاثةُ مُسْتَأْنِسُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، إِذ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى مَذْعُورًا، فَذُعِرَتْ مِنْهُ السُّلَحْفاةُ، فَغاصَتْ فِي الْماءِ، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الْأَحْجارِ، وَطَارَ الْغُرابُ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ، وَانْتَهَى الظَّبْيُ إِلَى الْماءِ، فَشَرِبَ مِنْهُ يَسِيرًا، ثُمَّ وَقَفَ خائِفًا يَلْتَفِتُ يَمِينًا وَشِمالًا[4].

---

(١) رقيق: عذب لطيف. رابضا: قاعدًا. لا يحفل به: لا يهتم ولا يُبالي.

(٢) لا ينقلب: لا يرجع. تعهدك لنفسك: إقبالك عليها وتفقدك. انحداره: انحطاطه من علو إلى أسفل. الحازم البصير: العاقل الفَطين. الغمامة: السحابة. خلة: صداقة. والنبأ: الخبر.

(٣) وما قِبَلنا: وما عندنا. وإلطافها: إكرامها وبرها. ربعه: منزلة: بالمرصاد: أي بالطريق والمكان. والمراد أنه يكون مراقبا لهم.

(٤) لا يُقيلُ عثرته: أي لا يأخذ بيده إذا سقط ولا يرفعه. وحِل: وقع في الوحل. مذعوراً: خائفاً. يسيراً: قليلا.

ثُمَّ إِنَّ الْغُرابَ حَلَّقَ فِي السَّماءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّبْيِ طالِبٌ؟ فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا، فَنادَى الْجُرَذَ وَالسُّلَحْفاةَ، فَخَرَجا فَقالَتْ السُّلَحْفاةُ لِلظَّبْيِ، حِينَ رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْماءِ وَلا يَقْرَبُهُ: اشْرَبْ إِنْ كانَ بِكَ عَطَشٌ، وَلا تَخَفْ ؛ فَإِنَّهُ لا خَوْفَ عَلَيْكَ! فَدَنَا الظَّبْيُ، فَرَحَّبَتْ بِهِ السُّلَحْفاةُ، وَحَيَّتْهُ وَقالَتْ لَهُ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ؟ قالَ: كُنْتُ بِهٰذِهِ الصَّحارَى راتِعًا، فَلَمْ تَزَلِ الْأَساوِرةُ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكانٍ إِلَى مَكانٍ، حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَحًا؛ فَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قانِصًا! قالَتْ: لا تَخَفْ؛ فَإِنَّا لَمْ نَرَ هٰهُنا قانِصًا قَطُّ، وَنَحْنُ فِي هٰذا الْمَكانِ مُجْتَمِعُونَ نَتَحَدَّثُ، وَنَتَآنَسُ، وَنَحْنُ نَبْذُلُ لَكَ وُدَّنا وَمَكانَنا، وَالْماءُ وَالْمَرْعَى كَثِيرٌ عِنْدَنا، فَارْغَبْ فِي صُحْبَتِنا[1]. فَأَقامَ الظَّبْيُ مَعَهُمْ، وَكانَ لَهُمْ عَرِيشٌ، يَجْتَمِعُونَ فِيهِ، وَيَتَذاكَرُونَ الْأَحادِيثَ وَالْأَخْبارَ، فَبَيْنَما الْغُرابُ وَالْجُرَذُ وَالسُّلَحْفاةُ ذاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ إِذ غابَ الظَّبْيُ، فَتَوَقَّعُوهُ ساعةً فَلَمْ يَأْتِ. فَلَمَّا أَبْطأَ أَشْفَقُوا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصابَهُ عَنَتٌ، فَقالَ الْجُرَذُ وَالسُّلَحْفاةُ لِلْغُراب: انْظُرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينا شَيْئًا[2]؟.

فَحَلَّقَ الْغُرابُ فِي السَّماءِ فَنَظَرَ فَإِذا الظَّبْيُ فِي الْحَبائِلِ مُقْتَنَصًا، فَانْقَضَّ مُسْرِعًا، فَأَخْبَرَهُما بِذٰلِكَ، فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ وَالْغُرابُ لِلْجُرَذِ: هٰذا أَمْرٌ لا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ فَأَغِثْ أَخاكَ، فَسَعَى الْجُرَذُ مُسْرِعًا، فَأَتَى الظَّبْيَ، فَقالَ لَهُ: كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هٰذِهِ الْوَرْطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَكْياسِ؟! قالَ الظَّبْيُ: ما يُغْنِي حَذَرٌ مِنْ قَدَرٍ، وَلا يُجْدِي الْكَيْسُ مَعَ الْمَقادِيرِ شَيْئًا[3]!.

فَبَيْنَما هُما فِي الْحَدِيثِ إِذ وافَتْهُما السُّلَحْفاةُ فَقالَ لَها الظَّبْيُ: ما أَصَبْتِ بِمَجِيئِكِ إِلَيْنا؛ فَإِنَّ الْقانِصَ لَوِ انْتَهَى إِلَيْنا، وَقَدْ قَطَعَ الْجُرَذُ الْحَبائِلَ سَبَقْتُهُ عَدْوًا. وَلِلْجُرَذِ أَجْحارٌ كَثِيرةٌ، وَالْغُرابُ يَطِيرُ، وَأَنْتِ ثَقِيلةٌ لا سَعْيَ لَكِ وَلا حَرَكَةَ، وَأَخافُ عَلَيْكِ الْقانِصَ! قالَتْ: لا عَيْشَ بَعْدَ فِراقِ الْأَحِبَّةِ!، وَإِذا فارَقَ الْأَلِيفُ أَلِيفَهُ فَقَدْ سُلِبَ فُؤادُهُ، وَحُرِمَ سُرُورُهُ، وَغُشِّيَ بَصَرُهُ. فَلَمْ يَنْتَهِ كَلامُهما حَتَّى وافَى الْقانِصُ، ووافَقَ ذٰلِكَ فَراغَ الْجُرَذِ مِنْ قَطْعِ الشَّرَكِ؛ فَنَجَا الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ، وَطارَ الْغُرابُ مُحَلِّقًا، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الْأَجْحارِ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السُّلَحْفاةِ، وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حَبائِلَهُ مُقَطَّعةً ، فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمالًا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السُّلَحْفاةِ تَدِبُّ، فَأَخَذَها وَرَبَطَها، فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرابُ وَالْجُرَذُ وَالظَّبْيُ أَنِ اجْتَمَعُوا[4]، فَنَظَرُوا الْقانِصَ قَدْ رَبَطَ السُّلَحْفاةَ فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ، وَقالَ الْجُرَذُ: ما

---

(١) راتعاً: آكلا وشاربا ما شئت في خصب وسعة. الأساوره: جمع إسوار: وهو من يجيد الرمي بالسهم. شبحًا: شخصاً.
(٢) عريش: مكان يستظل به. عنت: مشقه وأصابه مكروه. مما يلينا: أي فيما حولنا. مقتنصا: مصطادا. فانقض: وقع بسرعه. فأغِث: فأعن. الورطة: شدة. الأكياس: جمع كيّس. وهو الظريف الفطن. ما يغني: ما يمنع. قدر: قضاء الله. يجدي: ينفع.
(٣) مقتنصًا: مصطادًا. (٤) القانص: الصياد. عَدْواً: ركضاً. وافى: أتى. فلم يلبث: فلم يُبطئ.

أَرانا نُجاوِزُ عَقَبةً مِنَ الْبَلاءِ إِلَّا صِرْنا إِلَى أَشَدَّ مِنْها! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قالَ: لا يَزالُ الْإِنْسانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبالِهِ ما لَمْ يَعْثُرْ، فَإِذا عَثَرَ لَجَّ بِهِ الْعِثارُ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدَدِ الْأَرْضِ، وَحَذَرِي عَلَى السُّلَحْفاةِ خَيْرِ الْأَصْدِقاءِ الَّتِي خُلَّتُها لَيْسَتْ لِلْمُجازاةِ وَلا لِالْتِماسِ مُكافَأَةٍ، وَلٰكِنَّها خُلَّةُ الْكَرَمِ والشَّرَفِ. خُلَّةٌ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ خُلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ. خُلَّةٌ لا يُزِيلُها إِلَّا الْمَوْتُ. وَيْحٌ لِهٰذا الْجَسَدِ الْمُوَكَّلِ بِهِ الْبَلاءُ الَّذِي لا يَزالُ فِي تَصَرُّفٍ ، وَتَقَلُّبٍ وَلا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ، وَلا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ ، كَما لا يَدُومُ لِلطَّالِعِ مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ، ولا للآفلِ مِنها أُفُولٌ، لكن لا يزال الطالعُ مِنْها آفِلًا، وَالْآفِلُ طالِعًا[1].

وَكَما تَكُونُ آلامُ الْكُلُومِ، وَانْتِقاضُ الْجِراحاتِ، كَذٰلِكَ حالِي أَنا الَّذِي ذَكَّرَنِي هٰذا الْبَلاءُ سابِقَ أَحْوالِي، كَالْجُرْحِ الْمُنْدَمِلِ تُصِيبُهُ الضَّرْبَةُ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَلَمانِ: أَلَمُ الضَّرْبَةِ وَأَلَمُ الْجُرْحِ. وَأَخْلِقْ بِمَنْ فَقَدَ إِخْوانَهُ بَعْدَ اجْتِماعِهِ بِهِمْ أَلَّا يَزالَ مُنْقَصِمَ الظَّهْرِ حَزِينَ النَّفْسِ[2]!

فَقالَ الظَّبْيُ وَالْغُرابُ لِلْجُرَذِ: إِنَّ حَذَرَنا وَحَذَرَكَ وَكَلَامَكَ - وَإِنْ كانَ بَلِيغًا- لا تُغْنِي عَنِ السُّلَحْفاةِ شَيْئًا. وَإِنَّهُ كَما يُقالُ: إِنَّما النَّاسُ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَذُو الْأَمانةِ عِنْدَ الْأَخْذِ والْعَطاءِ،وَالْأَهْلُ وَالْوَلَدُ عِنْدَ الْفاقةِ، وَالْإِخْوانُ عِنْدَ النَّوائِبِ! قالَ الْجُرَذُ: أَرَى مِنَ الْحِيلةِ أَنْ تَذْهَبَ أَيُّها الظَّبْيُ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقانِصِ، كَأَنَّكَ جَرِيحٌ، وَيَقَعُ الْغُرابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ. وَأَسْعَى أَنا فَأَكُونُ قَرِيبًا مِنَ الْقانِصِ، مُراقِبًا لَهُ لَعَلَّهُ يَرْمِي ما مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ، وَيَدَعُ السُّلَحْفاةَ، وَيَقْصِدُكَ طامِعًا فِيكَ، رَاجِيًا تَحْصِيلَكَ، فَإِذا دَنا مِنْكَ فَفِرَّ عَنْهُ رُوَيْدًا بِحَيْثُ لا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ فِيكَ، وَأَمْكِنْهُ مِنْ أَخْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، حَتَّى يُبْعِدَ عَنَّا، وَانْحُ مِنْهُ هٰذا النَّحْوَ ما اسْتَطَعْتَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ قَطَعْتُ الْحَبائِلَ عَنِ السُّلَحْفاةِ، وَأَنْجُو بِها[3].

فَفَعَلَ الظَّبْيُ وَالغُرابُ ما أَمَرَهما بِهِ الْجُرَذُ ، وَتَبِعَهُما الْقانِصُ، فَاسْتَطْرَدَ لَهُ الظَّبْيُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرَذِ وَالسُّلَحْفاةِ، وَالْجُرَذُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ الْحَبائِلِ، حَتَّى قَطَعَها وَنَجَا بِالسُّلَحْفاةِ، وَعادَ الْقانِصُ مَجْهُودًا لاغِبًا فَوَجَدَ حَبائِلَهُ مُقَطَّعةً، فَفَكَّرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظَّبْيِ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُولِطَ فِي عَقْلِهِ[4].

---

(١) ما أرانا: ما أرى أنفسنا. عقبة: شدة. والعقبة: المرقى الصعب في الجبل. والمعْنى: أننا لا نكاد نتخلص من شدة إلا ونقع في أشد منها. ما لم يعثر: ما لم يزل يسقط. لجّ به: تمادى. جَدَد الأرض: الأرض الغليظة المستوية. وفي المثل: من سلك الجَدَد أمن العثار. خلّتها: مصادقتها وإخاؤها. الآفل: الغارب.

(٢) الكُلوم: جمع كَلْم وهو الجُرح. انتقاض: انتكاس. منقصم: منكسر.

(٣) النوائب: المصائب. بمنظر من القانص: أي بحيث ينظرك. أمكنه من أخذه: أي سهله عليه. انح: اقصد.

(٤) فاستطرد له: أي أظهر له الانهزام مكيدة. لاغبًا: تعباً جدا. خولط في عقله: اضطرب واختل.

وَفَكَّرَ فِي أَمْرِ الظَّبْيِ وَالْغُرابِ الَّذِي كانَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْهُ، وَتَقْرِيضِ حبائِلِهِ، فَاسْتَوْحَشَ مِنَ الْأَرْضِ وَقالَ: هذِهِ أَرْضُ جِن أَوْ سَحَرَةٍ! فَرَجَعَ مُوَلِّيًا لا يَلْتَمِسُ شَيْئًا، وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَاجْتَمَعَ الْغُرابُ وَالظَّبْيُ وَالْجُرَذُ وَلسُلَحْفاةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سالِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ ما كانُوا عَلَيْهِ[1].

فَإِذا كانَ هذا الْخَلْقُ مَعَ صغَرِهِ وَضُعْفِهِ، قَدْ قَدَرَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ مَرابِطِ الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ، وَخُلُوصِها، وَثَباتِ قَلْبِهِ عَلَيْها، وَاسْتِمْتاعِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ؛ فَالْإِنْسانُ الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ والْفَهْمَ، وَأُلْهِمَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَمُنِحَ التَّمْيِيزَ وَالْمَعْرِفَةَ، أَوْلَى وَأَحْرَى بِالتَّواصُلِ وَالتَّعاضُدِ[2]!

فَهَذَا مَثَلُ إِخْوَانِ الصَّفاءِ وَائْتِلافِهِمْ فِي الصُّحْبَةِ.

بابُ
الْبُومِ وَالْغِرْبانِ

وهو مثل لما ينبغي ألا يغتر بأهل العداوة، وإن هم أظهروا توددًا وتملقًا !

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ إِخْوانِ الصَّفاءِ وَتَعاوُنَهُمْ، **فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعًا وَمَلَقًا، وَأَخْبِرْنِي عَنِ الْعَدُوِّ هَلْ يَصِيرُ صَدِيقًا؟ وَهَلْ يُوثَقُ مِنْ أَمْرِهِ بِشَيْءٍ؟ وَكَيْفَ الْعَداوةُ؟ وَمَا ضَرَرُها؟ وَكَيْفَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَصْنَعَ إِذا طَلَبَ عَدُوُّهُ مُصالَحَتَهُ؟**

قالَ الْفَيْلسُوفُ : مَنِ اغْتَرَّ بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوًّا، أَصَابَهُ ما أَصابَ الْبُومَ مِنَ الْغِرْبانِ!. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[3]؟

---

(١) يأكل منه : أي من الظبي. (٢) استمتاع : انتفاع . والتعاضد : التعاون.
(٣) الصفاء : الإخلاص والمودة . اضرب لي : قل أو احك . ومَلَقًا : توددًا وتلطفًا.

مثل أهل العداوة

وما ينبغي من عدم الاغترار بهم مهما أظهروا من تودد وتملق !

قالَ بَيْدَبا : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ في جَبَلٍ مِنَ الْجِبالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ الدَّوْحِ، فِيها وَكْرُ أَلْفِ غُرابٍ، وَعَليهِنَّ والٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ! وَكانَ عِنْدَ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بُومَةٍ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْهُنَّ!. فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِبَعْضِ غَدَوَاتِهِ وَرَوْحاتِهِ، وَفي نَفْسِهِ الْعَداوةُ لِمَلِكِ الْغِرْبانِ وَفي نَفْسِ الْغِرْبانِ وَمَلِكِها مِثْلُ ذٰلِكَ لِلْبُومِ؛ فَأَغارَ مَلِكُ الْبُومِ في أَصْحابِهِ عَلَى الْغِرْبانِ في أَوْكارِها؛ فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْها خَلْقًا كَثِيرًا! وَكانَتِ الْغارةُ لَيْلًا. فَلَمَّا أَصْبَحَتِ الْغِرْبانُ، اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِها فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ ما لَقِينا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ الْبُومِ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مِنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا، أَوْ جَرِيحًا، أَوْ مَكْسُورَ الْجَناحِ، أَوْ مَنْتُوفَ الرِّيشِ، أَوْ مَقْطُوعَ الذَّنَبِ[1]!

وَأَشَدُّ ما أَصابَنا ضُرًّا جُرْأَتُهُنَّ عَلَيْنا، وَعِلْمُهُنَّ بِمَكانِنا وَهُنَّ عائِداتٌ إِلَيْنا، غَيْرُ مُنقَطِعاتٍ عَنَّا، لِعِلْمِهِنَّ بِمِكانِنا؛ فَإِنَّما نَحْنُ لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ، فَانْظُرْ لَنا وَلِنَفْسِكَ. وَكانَ في الْغِرْبانِ خَمْسَةٌ مُعْتَرَفٌ لَهُنَّ بِحُسْنِ الرَّأْيِ، يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ في الْأُمُورِ، وَتُلْقى إِلَيْهِنَّ مَقالِيدُ الْأَحْوالِ. وَكانَ الْمَلِكُ كَثِيرًا ما يُشاوِرُهُنَّ في الْأُمُورِ، وَيَأْخُذُ آراءَهُنَّ في الْحَوادِثِ وَالنَّوازِلِ، فَقالَ الْمَلِكُ لِلْأَوَّلِ مِنَ الْخَمْسِةِ: ما رَأْيُكَ في هٰذا الْأَمْرِ؟ قالَ: رَأْيِي قَدْ سَبَقْتُنا إِلَيْهِ الْعُلَماءُ؛ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ قالُوا: لَيْسَ لِلْعَدُوِّ الْحَنِقِ الَّذي لا طاقَةَ لَكَ بِهِ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ[2].

قالَ الْمَلِكُ لِلثّاني: ما رَأْيُكَ أَنْتَ في هٰذا الْأَمْرِ؟ قالَ ما رَأَى هٰذا مِنَ الْهَرَبِ. قالَ الْمَلِكُ: لا أَرَى لَكُما ذٰلِكَ رَأْيًا : أَنْ نَرْحَلَ عَنْ أَوْطانِنا، وَنُخْلِيَهَا لِعَدُوِّنا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصابَتْنا مِنْهُ، وَلا يَنْبَغي لَنا ذٰلِكَ، فَنَكُونُ بِهِ لَهُمْ عَوْنًا عَلَيْنا، وَلٰكِنْ نَجْمَعُ أَمْرَنا، وَنَسْتَعِد لِعَدُوِّنا، وَنُذْكِي نارَ الْحَرْبِ فِيما بَيْنَنا وَبَيْنَ عَدُوِّنا، وَنَحْتَرِسُ مِنَ الْغِرَّةِ[3] إِذا أَقْبَلَ إِلَيْنا؛ فَنَلْقاهُ مُسْتَعِدِّينَ، وَنُقاتِلُهُ قِتالًا غَيْرَ مُراجِعِينَ فِيهِ، وَلا حامِينَ مِنْهُ، وَتَلْقَى أَطْرافُنا أَطْرافَ الْعَدُوِّ، وَنَتَحَرَّزُ بِحُصُونِنا، وَنُدافِعُ عَدُوَّنا بِالْأَناةِ مَرَّةً،

---

(١) الدَّوح: جمع دَوْحَة: وهي الشجرة العظيمة . كهف: بيت منقور في الجبل واسع . غدواته: سفراته صباحا وروحاته: سفراته مساء . سَبَى: أسر .

(٢) عائدات: مرتدات . يسند إليهن في الأمور: يعتمد عليهن . مقاليد: مفاتيح . النوازل: المصائب الشداد . الحَنِق: الشديد الغيظ .

(٣) وندكي نار الحرب: نوقدها ونؤججها ونزيدها اشتعالا . الغِرّة: الغفلة .

وَبِالْجِلادِ أُخْرَى، حَيْثُ نُصِيبُ فُرْصَتَنا وَبُغْيَتَنا، وَقَدْ ثَنَيْنا عَدُوَّنا عَنَّا. ثُمَّ قالَ الْمَلِكُ لِلثَّالِثِ: ما رَأْيُكَ أَنْتَ؟ قالَ: لا أَرَى ما قالا رَأْيًا، وَلٰكِنْ نَبُثُّ الْعُيُونَ، وَنَبْعَثُ الْجَواسِيسَ، وَنُرْسِلُ الطَّلائِعَ بَيْنَنا وَبَيْنَ عَدُوِّنا، فَنَعْلَمُ: هَلْ يُرِيدُ صُلْحَنا، أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنا، أَمْ يُرِيدُ الْفِدْيَةَ؟ فَإِنْ رَأَيْنا أَمْرَهُ أَمْرَ طامِعٍ فِي مالٍ لَمْ نَكْرَهِ الصُّلْحَ عَلَى خَراجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنا، وَنَطْمَئِنُّ فِي أَوْطانِنا؛ فَإِنَّ مِنْ آراءِ الْمُلُوكِ إِذا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ عَدُوِّهِمْ، فَخافُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلادِهِمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْوالَ جُنَّةَ الْبِلادِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ(١).

قالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ: فَما رَأْيُكَ فِي هٰذا الصُّلْحِ؟ قالَ لا أَراهُ رَأْيًا بَلْ أَنْ نُفارِقَ أَوْطانَنا، وَنَصْبِرَ عَلَى الْغُرْبَةِ، وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نُضِيعَ أَحْسابَنا، وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ. مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَضْنا ذٰلِكَ عَلَيْهِنَّ لَما رَضِينَ مِنَّا إِلَّا بِالشَّطَطِ(٢).

وَيُقالُ فِي الْأَمْثالِ: قارِبْ عَدُوَّكَ بَعْضَ الْمُقارَبَةِ، لِتَنالَ حاجَتَكَ، وَلا تُقارِبْهُ كُلَّ الْمُقارَبَةِ فَيَجْتَرِئَ عَلَيْكَ، وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ وَتَذِلَّ نَفْسُكَ! وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْخَشَبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ، إِذا أَمَلْتَها قَلِيلًا زادَ ظِلُّها وَإِذا جاوَزْتَ بِها الْحَدَّ فِي إِمالَتِها نَقَصَ الظِّلُّ. وَلَيْسَ عَدُوُّنا راضِيًا مِنَّا بِالدُّونِ فِي الْمُقارَبَةِ، فَالرَّأْيُ لَنا وَلَكَ الْمُحارَبَةُ. قالَ الْمَلِكُ لِلْخامِسِ: ما تَقُولُ أَنْتَ؟ وَمَاذا تَرَى: الْقِتالُ، أَمِ الصُّلْحُ، أَمِ الْجَلاءُ عَنِ الْوَطَنِ؟ قالَ: أَمَّا الْقِتالُ، فَلا سَبِيلَ لِلْمَرْءِ إِلَى قِتالِ مَنْ لا يَقْوَى عَلَيْهِ(٣).

وَقَدْ يُقالُ: إِنَّهُ مَنْ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ، وَقاتَلَ مَنْ لا يَقْوَى عَلَيْهِ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى حَتْفِها، مَعَ أَنَّ الْعاقِلَ لا يَسْتَصْغِرُ عَدُوًّا، فَإِنَّ مَنِ اسْتَصْغَرَ عَدُوَّهُ اغْتَرَّ بِهِ، وَمَنِ اغْتَرَّ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ! وَأَنا لِلْبُومِ شَدِيدُ الْهَيْبَةِ، وَإِنْ أَضْرَبْنَ عَنْ قِتالِنا، وَقَدْ كُنْتُ أَهابُها قَبْلَ ذٰلِكَ؛ فَإِنَّ الْحازِمَ لا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حالٍ. فَإِنْ كانَ بَعِيدًا لَمْ يَأْمَنْ سَطْوَتَهُ، وَإِنْ كانَ مُكْتِبًا لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتَهُ، وَإِنْ كانَ وَحِيدًا لَمْ يَأْمَنْ مَكْرَهُ. وَأَحْزَمُ الْأَقْوامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِهَ الْقِتالَ لِأَجْلِ النَّفَقَةِ فِيهِ؛ فَإِنَّ ما دُونَ الْقِتالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوالِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ(٤).

---

(١) ولا حامين منه: غير آنفين، ولا يداخلنا عار بذلك. ونتحرز: نتحفظ. بالأناة: الرفق والانتظار. بالجلاد: بالضرب بالسيوف. ثنينا عدونا: رددنا. نبث العيون: نوزع المراقبين هنا وهناك. الطلائع: جماعات من الجيش ترسل لتستطلع أحوال العدو وتكون في مقدمة الجيش لتطلع على العدو. الفدية: المال يؤخذ عوضا عما يفدي. اشتدت شوكة عدوهم: قدرته. جُنة: وقاية وسترة.

(٢) أحسابنا: مفاخرنا. الشطط: مجاوزة الحد. (٣) فيجترئ: فيتشجع ويتقوى. بالدون: بالأقل.

(٤) حتفها: هلاكها. أضربن عن قتالنا: أعرَضْن عنه. مكتبا: قريبا. وثبته: هجمته وانقضاضه. وأكيسهم: أعقلهم.

وَالْقِتال النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ، وَرُبَّما اكْتُفِيَ عَنْهُ بِالنَّفَقَةِ الْيَسِيرةِ وَالْكَلامِ اللَّيِّنِ، فَلا يَكُونَنَّ الْقِتالُ لِلْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ أَيُّها الْمَلِكُ؛ فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ مَنْ لا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ. فَإِذا كانَ الْمَلِكُ مُحْصِنًا لِلْأَسرارِ، مُتَخَيِّرًا لِلْوُزَراءِ، مَهِيبًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، بَعِيدًا مِنْ أَنْ يُقْدَرَ عَلَيْهِ، كانَ خَلِيقًا أَلّا يُسْلَبَ صَحِيحَ ما أُوتِيَ مِنَ الْخَيْرِ. وَأَنْتَ أَيُّها الْمَلِكُ كذٰلِكَ، وَالْمَلِكُ يَزْدادُ بِرَأْيِ وُزَرائِهِ بَصِيرةً، كَمَا يَزِيدُ الْبَحْرُ بِمُجاوِرِهِ مِنَ الْأَنْهارِ. وَقَدِ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ جَوابُكَ مِنِّي عَنْهُ: فِي بَعْضِهِ عَلَنِيٌّ ، وَقَدْ أَجَبْتُكَ بِهِ وَفِي بَعْضِهِ سِرِيٌّ[1].

وَلِلْأَسْرارِ مَنازِلُ : مِنْها ما يَدْخُلُ فِيهِ الرَّهْطُ ، وَمِنْها ما يُسْتَعانُ فِيهِ بِالقَوْمِ، وَمِنْها ما يَدْخُلُ فِيهِ الرَّجُلان. وَلَسْتُ أَرَى لِهٰذا السِّرِّ عَلَى قَدرِ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشارَكَ فِيهِ إِلّا أَرْبعُ آذانٍ، وَلِسانانِ. فَنَهَضَ الْمَلِكُ مِنْ ساعتِهِ، وَخَلاَ بِهِ فَاسْتَشارَهُ فَكَانَ أَوَّلَ ما سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قالَ: هَلْ تَعْلَمُ ابْتِداءَ الْعَداوةِ ما بَيْنَا وَبَيْنَ الْبُومِ؟ قالَ: نَعَمْ كَلِمةٌ تَكَلَّمَ بِها غُرابٌ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قالَ الْغُرابُ : زَعَمُوا أَنَّ جَماعةً مِنَ الْكَراكِيِّ لَمْ يَكُنْ لَها مَلِكٌ، فَأَجْمَعَتْ أَمْرَها عَلَى أَنْ تُمَلِّكَ عَلَيْ عَلَيْها مَلِكَ الْبُومِ[2]؛ فَبَيْنَما هِيَ فِي مَجْمَعِها إِذ وَقَعَ لَها غُرابٌ. فَقالَتْ: لَوْ جاءَنا هٰذا الْغُرابُ لاَسْتَشَرْناهُ فِي أَمْرِنا، فَلَمْ يَلْبَثْنَ دُونَ أَنْ جاءَهُنَّ الْغُرابُ فَاسْتَشَرْنَهُ؛ فَقالَ: لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الْأَقالِيمِ، وَفُقِدَ الطَّاوُسُ وَالْبَطُّ وَالنَّعامُ وَالْحَمامُ مِنَ الْعالَمِ ، لَما اضْطُرِرْتُنَّ إِلَى أَنْ تُمَلِّكْنَ عَلَيْكُنَّ الْبُومَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنْظَرًا وَأَسْوَؤُها خَلْقًا، وَأَقَلُّها عَقْلًا، وَأَشَدُّها غَضبًا، وَأَبْعَدُها مِنْ كُلِّ رَحْمةٍ، مَعَ عَماها وَمَا بها مِنَ الْعَشا فِي النَّهارِ ، وَنَتَنِ رائِحَتِها حَتَّى لا يُطِيقُ طائِرٌ أَنْ يَتَقَرَّبَ مِنْها! وَأَشَدُّ مِنْ ذٰلِكَ، وَأَقْبَحُ أُمُورِها سَفَهُها وَسُوءُ أَخْلاقِهَا[3] .

إِلَّا أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمَلِّكْنَها، وَتَكُنَّ أَنْتُنَّ تُدَبِّرْنَ الْأُمُورَ دُونَها بِرَأْيِكُنَّ وَعُقُولِكُنَّ؛ فَإِنَّ وُزَراءَ الْمَلِكِ إِذَا كانوا صالِحِينَ، وَكَانَ يُطِيعُهُمْ فِي آرائِهِمْ، لَمْ يَضُرَّ فِي مُلْكِهِ كَوْنُهُ جاهِلًا، وَاسْتَقَامَ أَمْرُهُ. كَما فَعَلَتِ الْأَرْنَبُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ الْقَمَرَ مَلِكُها، وَعَمِلتْ بِرَأْيِها!. قَالَت الطَّيْرُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) غرّر بنفسه: عرضها للهلاك. مُحصِنًا: كاتما. متخيّرا: منتقيا. ما أوتى: ما أعطى.
(٢) الرهط: قوم الرجل وقبيلته. وخلا به: انفرد : الكراكي: جمع كَرَكى وهو طائر يقرب من الإوزّ.
(٣) بادت: هلكت وفنيت وانقطعت. العَشا: ضعف البصر. سفهها: طيشها وخفتها.

مثل الأرنب وملك الفيلة

وهو مثل الضعيف يحتال على القوى للنجاة من شره دون الإضرار به

قال الغراب : زَعَمُوا أَنَّ أَرْضًا مِنْ أَراضِي الْفِيَلةِ، تَتَابَعَتْ عَلَيْها السِّنونَ وَأَجْدَبَتْ، وَقَلَّ ماؤُها، وَغَارَتْ عُيُونُها، وَذَوَى نَبْتُها، وَيَبِسَ شَجَرُها؛ فَأَصابَ الْفِيَلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ[1]؛ فَشَكَوْنَ ذٰلِكَ إِلَى مَلِكِهِنَّ، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرُوَّادَهُ فِي طَلَبِ الْماءِ فِي كُلِّ ناحِيةٍ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ، فَقالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانِ كَذا عَيْنًا يُقالُ لَها: عَيْنُ الْقَمَرِ، كَثِيرةُ الْماءِ؛ فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيَلةِ بِأَصْحَابِهِ إِلى تِلك العَيْنِ، ليشرب مِنها هُو وفِيلتُه، وكانت العينُ فِي أرضٍ للأَرَانِبِ، فوطِئن الأَرانِبَ فِي أَجْحارِهِنَّ فَأَهْلَكْنَ مِنْهُنَّ كَثِيرًا! فَاجْتَمَعَتِ الْأَرانِبُ إِلَى مَلِكِها فَقُلْنَ لَهُ: قَدْ عَلِمْتَ ما أَصابَنَا مِنَ الْفِيَلةِ!. فَقالَ: لِيَحْضِرْ مِنكُنَّ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ[2]. فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ مِنَ الْأَرانِبِ يُقالُ لَها: فَيْرُوزُ وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُها بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ. فَقالَتْ : إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَبْعَثَنِي إِلَى الْفِيَلةِ، وَيُرْسِلَ مَعِي أَمِينًا لِيَسْمَعَ وَيَرَى ما أَقُولُ؛ وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ. فَقالَ لَها الْمَلِكُ: أَنْتِ أَمِينةٌ ، وَنَرْضَى بِقَوْلِكِ، فَانْطَلِقِي إِلَى الْفِيَلةِ، وَبَلِّغِي عَنِّي ما تُرِيدِينَ . وَاعْلَمِي أَنَّ الرَّسُولَ بِرَأْيِهِ وَعَقْلِهِ، وَلِينِهِ وَفَضْلِهِ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسِلِ. فَعَلَيْكِ بِاللِّينِ وَالرِّفْقِ ، وَالْحِلْمِ وَالتَّأَنِّي، فَإِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورِ إِذا رَفَقَ، وَيُخَشِّنُ الصُّدُورَ إِذا خَرُقَ. ثُمَّ إِنَّ الْأَرْنَبَ انْطَلَقَتْ فِي لَيْلةٍ قَمْراءَ[3]، حَتَى انْتَهَتْ إِلَى الْفِيَلةِ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَدْنُوَ مِنْهُنَّ مَخَافَةَ أَنْ يَطَأْنَها بِأَرْجُلِهِنَّ، فَيَقْتُلْنَها، وإِنْ كُنَّ غَيْرَ مُتَعَمِّداتٍ. فَأَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ، وَنادَتْ مَلِكَ الْفِيَلةِ، وَقالَتْ لَهُ: إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ؛ وَالرَّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيما يُبَلِّغُ، وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ. قالَ مَلِكُ الْفِيَلةِ: فَما الرِّسالةُ؟ قالَتْ: يَقُولُ لَكَ: إِنَّهُ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعَفَاءِ، فَاغْتَرَّ فِي ذٰلِكَ بِالْأَقْوِياءِ قِياسًا لَهُمْ عَلَى الضُّعَفاءِ، كانَتْ قُوَّتُهُ وَبالًا عَلَيْهِ. وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوابِ، فَغَرَّكَ ذٰلِكَ؛ فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي، فَشَرِبْتَ مِنْها، وَرَنَّقْتَهَا. فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ: فَأُنْذِرُكَ أَلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ[4].

---

(١) تتابعت عليها السنون: جمع سنة وهي الجَدْب والجفاف. وأجدبت: أمحلت. وذَوَى نبتها: جفّ وذبل.

(٢) وُرّاده: جمع رائد وهو الرجل الذي يرسله القوم ليتخير لهم مكانا ينزلون فيه وفيه الماء والمرعى. فوطئن الأرانب: دُسن عليها.

(٣) رفق: لان ولطف. خرق: حمق وجهل. قمراء: مقمرة.

(٤) متعمدات: قاصدات. فأشرفت: أطلّت. وبالاً عليه: شدة ووخامة. فعمدت: فقصدت. ورنّقتها: وكدرتها.

وَأَنَّهُ إِنْ فَعَلْتَ يُغَشِّي على بَصَرِكَ، وَيُتْلِفُ نَفْسَكَ! وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رسالتي فَهَلُمَّ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ ساعتِكَ، فَإِنِّي مُوافِيكَ بِها! فَعَجِبَ مَلِكُ الْفِيَلةِ مِنْ قَوْلِ الأَرْنَبِ، فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزَ الرَّسُولِ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْها رَأَى ضَوْءَ الْقَمرِ فِيها، فَقالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولُ : خُذْ بِخُرْطُومِكَ مِنَ الْماءِ فَاغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ. فَأَدْخَلَ الْفِيل خُرْطُومَهُ فِي الْماءِ فَتَحَرَّكَ فَخُيِّلَ إِلَى الْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ[1]! فَقالَ : ما شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ؟ أَتُراهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخالِي خُرْطُومِي فِي الْماءِ؟. قالتْ فَيْرُوزُ الأَرْنَبُ : نَعَمْ. فَسَجَدَ الْفِيلُ لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ، وَشَرَطَ أَنْ لا يَعُودَ إِلَى مِثْلِ ذٰلِكَ هُوَ وَلا أَحَدٌ مِنْ فِيَلتِهِ! قالَ الْغُرابُ: وَمَعَ ما ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْبُومِ فإِنَّ فِيها الْخَبَّ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعةَ، وَشَرُّ الْمُلُوكِ الْمُخادِعُ!؛ وَمَنِ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخادِعٍ، وَخَدَمَهُ أَصابَهُ ما أَصابَ الأَرْنَبَ وَالصِّفْرِدَ حِينَ احْتَكَمَا إِلَى السِّنَّوْرِ. قَالَتِ الْكَراكِيُّ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[2]؟

مثل الصِّفْرِد والأرنب

وهو مثل الخبيث المتظاهر بالتقوى والصلاح حتى استرسل إليه من رآه على ذلك فبطش به

قالَ الْغُرَابُ : كانَ لِي جارٌ مِنَ الصَّفارِدةِ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ قَرِيبةٍ مِنْ وَكْرِي؛ وَكَانَ يُكْثِرُ مُواصَلَتِي. ثُمَّ فَقَدْتُهُ فَلَم أَعْلَمْ أَيْنَ غَابَ؛ وَطَالَتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي فَجَاءَتْ أَرْنَبٌ إِلَى مَكَانِ الصِّفْرِدِ فَسَكَنَتهُ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُخاصِمَ الأَرْنَبَ، فَلَبِثْتُ فِيهِ زَمَانًا. ثُمَّ إِنَّ الصِّفْرِدَ عادَ بَعْدَ زَمانٍ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ فَوَجَدَ فِيهِ الأَرْنَبَ؛ فَقالَ لَها : هٰذَا الْمَكَانُ لِي ، فَانْتَقِلِي مِنْهُ. قالَتِ الأَرْنَبُ : الْمَسْكنُ لِي، وَتَحْتَ يَدِي وَأَنْتَ مُدَّعٍ لَهُ. فَإِن كَانَ لَكَ حَقٌّ فاسْتَعْدِ عليَّ. قَالَ الصِّفْرِدُ: القَاضِي مِنا قريبٌ، فَهلُمِّي بِنا إِلَيهِ. قالَتِ الأَرْنَبُ: وَمَنِ القاضِي[3]؟ قالَ الصِّفْرِدُ : إِنَّ بِساحِلِ الْبَحْرِ سِنَّوْرًا مُتَعَبِّدًا، يَصُومُ النَّهارَ، ويَقُومُ اللَّيْلَ كلَّهُ، وَلَا يُؤْذِي دابَّةً، وَلَا يُهَرِيق دَمًا! عَيْشُهُ مِنَ الْحَشِيشِ، وَمِمَّا يَقْذِفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ. فَإِنْ أَحْبَبْتِ ، تَحاكَمْنا إِلَيْهِ، وَرَضِينا بِهِ. قَالَتِ الأَرْنَبُ: ما أَرْضَانِي بِهِ إِذا كانَ كَما وَصَفْتَ! فَانْطَلَقَا إِلَيْهِ، فَتَبِعْتُهُما لِأَنْظُرَ إِلَى حُكُومةِ الصَّوَّامِ الْقَوَّامِ. ثُمَّ إِنَّهُما ذَهَبا إِلَيْهِ، فَلَمَّا بَصُرَ

---

(١) يغشى: يغطي. ويتلف نفسك: يهلكها. موافيك: ملاقيك. فخيل إليه: توهم.
(٢) وتاب إليه: رجع عن المعصية وندم على ذنبه. الخب: الخبث والخداع. الصُفرد: طائر يضرب به المثل في الجبن. السنور: الهِرّ.
(٣) فلبثت فيه زمانا: أقامت. فاستَعْدِ على : استَعِن.

السِّنَّوْرُ بِالأَرْنَبِ وَالصَّفْرِدِ مُقْبِلَيْنِ نَحْوَهُ، انْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي، و أَظْهَرَ الْخُشُوعَ وَالتَّنَسُّكَ؛ فَعَجِبا لِما رَأَيا مِنْ حالِهِ، وَدَنَوا مِنْهُ هائِبَيْنِ لَهُ، وَسَلَّما عَلَيْهِ، وَسَأَلاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا؛ فَأَمَرَهُما أَنْ يَقُصَّا عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَفَعَلا، فَقالَ لَهُما : قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ، وَثَقُلَتْ أُذُنايَ فَادْنُوَا مِنِّي، فَأَسْمِعانِي ما تَقُولانِ، فَدَنَوَا مِنهُ، وأعادا عَلَيهِ الْقِصَّةَ وَسأَلاهُ الْحُكْمَ[1]. فَقالَ : قَدْ فَهِمْتُ ما قُلْتُما، وَأَنا مُبْتَدِئُكُما بِالنَّصِيحةِ قَبْلَ الْحُكُومَةِ؛ فَأَنا آمُرُكُما بِتَقْوَى اللهِ، وَأَلَّا تَطْلُبا إِلَّا الْحَقَّ؛ فَإِنَّ طالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِح، وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ؛ وَطَالِبَ الْباطِلِ مَخْصُومٌ وَإِنْ قُضِيَ لَهُ. وَلَيْسَ لِصاحِبِ الدُّنْيا مِنْ دُنْياهُ شَيْءٌ، لا مالٌ وَلا صَدِيقٌ سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ؛ فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ سَعْيُهُ فِي طَلَبِ ما يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَدًا؛ وَأَنْ يَمْقُتَ بِسَعْيِهِ ما سِوَى ذٰلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيا[2]؛ فَإِنَّ مَنْزِلَةَ الْمالِ عِنْدَ الْعاقِلِ بِمَنْزِلَةِ الْمَدَرِ، وَمَنْزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيما يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنْزِلَةِ نَفْسِهِ. ثُمَّ إِنَّ السِّنَّوْرَ لَمْ يَزَلْ يَقُصُّ عَلَيْهِما مِنْ جِنْسِ هٰذَا وَأَشْبَاهِهِ حَتَّى أَنِسا إِلَيْهِ، وَأَقْبَلا عَلَيْهِ، وَدَنَوَا مِنْهُ، فَوَثَبَ عَلَيْهِما فَقَتَلَهُما. قالَ الْغُرابُ: ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ تَجْمَعُ - مَعَ ما وَصَفْتُ لَكُنَّ مِنَ الشُّؤْمِ - سَائِرَ الْعُيُوبِ فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِيكُ الْبُومِ مِنْ رَأْيِكُنَّ. فَلَمَّا سَمِعَ الْكَراكِيُّ ذٰلِكَ مِنْ كَلامِ الْغُرابِ أَضْرَبْنَ عَنْ تَمْلِيكِ الْبُومِ[3]. وَكَانَ هُناكَ بُومٌ حاضِرٌ قَدْ سَمِعَ ما قَالُوا، فَقالَ للغُرابِ: لقد وَتَرْتَني أعظم التِّرةِ ولا أعلم أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجَبَ هٰذا! وَبَعْدُ: فَاعْلَمْ أَنَّ الفَأْسَ يُقْطَعُ بِها الشَّجَرُ فَيَعُودُ يَنْبُتُ، وَالسَّيْفَ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَنْدَمِلُ ، وَاللِّسانُ لا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ، وَلا تُؤْسَى مَقاطِعُهُ، وَالنَّصْلُ مِنَ السَّهْمِ يَغِيبُ فِي اللَّحْمِ، ثُمَّ يُنْزَعُ فَيَخْرُجُ! وَأَشْباهُ النَّصْلِ مِنَ الْكَلامِ إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرَجْ، وَلِكُلِّ حَرِيقٍ مُطْفِئٌ: فَلِلنَّارِ الْماءُ ، وَلِلسُّمِّ الدَّواءُ، وَلِلْحُزْنِ الصَّبْرُ، وَلِلْعِشْقِ الْفُرْقَةُ. وَنارُ الْحِقْدِ لا تَخْبُو أَبَدًا! وَقَدْ غَرَسْتُمْ مَعَاشِرَ الْغِرْبانِ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحِقْدِ وَالْعَداوةِ وَالْبَغْضاءِ[4].

فَلَمَّا قَضَى الْبُومُ مَقَالَتَهُ ، وَلَّى مُغْضَبًا، فَأَخْبَرَ مَلِكَ الْبُومِ بِمَا جَرَى، وَبِكُلِّ ما كانَ مِنْ قَولِ الْغُرابِ. ثُمَّ إِنَّ الْغُرابَ نَدِمَ عَلَى ما فَرَطَ مِنْهُ، وَقالَ: وَاللهِ لَقَدْ خَرِقْتُ فِي قَوْلِي الَّذِي جَلَبْتُ بِهِ

(١) ولا يُهريق: ولا يريق. يقذفه: يطرحه. القوام: الذي يقوم الليل متعبدا. ويريد السنور. هائبين له: معظمين إياه. ثقلت أذناي: أي ضعف سمعي.

(٢) يُفْلِح: يفوز عليه وينجح في سعيه. مخصوم: مغلوب في الخصومة. غدا: يقصد يوم القيامة. يمقت: يبغض بغضا شديدا.

(٣) المدر: الطين اليابس. ودنوا منه: قربا. من الشؤم: ضد البركة.

(٤) وترتنى: أصبتني بمكروه والتِّرة: مصدر وتر مثل: وعد يعد عِدَةً. يندمل: يلتئم. تُؤسَى: تُداوَى. النصل: حديد السهم ونحوه.

الْعَدَاوةَ وَالْبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَومِي، وَلَيْتَنِي لَمْ أُخبِرِ الْكَراكِيَّ بِهٰذِهِ الْحَالِ، وَلَمْ أُعْلِمْها بِهٰذا الْأَمْرِ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ، وَعَلِمَ أَضْعاف مَا عَلِمْتُ ، فَمَنَعَها مِنَ الْكَلامِ بِمِثْلِ ما تَكَلَّمْتُ اتِّقاءُ ما لَمْ أَتَّقِ، وَالنَّظَرُ فِيما لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِن حِذارِ الْعَواقِبِ، وَلا سِيَّما إِذَا كَانَ الْكَلامُ أَفْظَعَ كَلام يَلْقَى مِنْهُ سامِعُهُ وَقائِلُهُ الْمَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الْحِقْدَ وَالضَّغِينةَ؛ فَلا يَنْبَغِي أَنْ تُسَمَّى أَشْباهُ هٰذا الْكَلام، وَلٰكِنْ سِهامًا[1]. وَإِنَّ الْكَلامَ الرَّدِيءَ هُوَ الَّذِي يَرْمِي صاحِبَهُ فِي الْحِقْدِ وَالْعَداوةِ. وَالْعَاقِلُ - وَإِنْ كانَ واثِقًا بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ - لا يَنْبَغِي أَنْ يَحْمِلَهُ ذٰلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلُبَ الْعَداوةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكالًا عَلَى ما عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ. كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كانَ عِنْدَهُ التِّرْياقُ، لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السُّمَّ اتِّكالًا عَلَى ما عِنْدَهُ. وَصاحِبُ الْعَمَلِ، وَإِنْ قَصَّرَ بِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ كانَ فَضْلُهُ بَيِّنًا واضِحًا فِي الْعاقِبةِ وَالاخْتِبارِ. وَصاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ، وَإِنَّ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلْأُمُورِ لَمْ تُحْمَدْ مَغَبَّةُ أَمْرِهِ[2].

وَأَنا صاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لا عاقِبةَ لَهُ مَحْمُودةٌ! أَوَ لَيْسَ مِنْ سَفَهِي اجْتِرائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الْأَمْرِ لَمْ أَسْتَشِرْ فِيهِ أَحَدًا، وَلَمْ أُعْمِلْ فِيهِ رَأْيًا؟! وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرِ النُّصَحاءَ وَالْأَوْلِياءَ، وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكْرارِ النَّظَرِ وَالرَّوِيَّةِ لَمْ يَغْتَبِطْ بِمَواقِعِ رَأْيِهِ. فَمَا كانَ أَغْنانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هٰذا، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنَ الْهَمِّ! وَعاتَبَ الْغُرابُ نَفْسَهُ بِهٰذا الْكَلامِ وَأَشْباهِهِ، وَذَهَبَ.

هٰذا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِن ابْتِداءِ الْعَداوة بَيْنَنا وَبَيْنَ الْبُومِ[3].

وَأَمَّا الْقِتالُ فَقَدْ عَلِمْتَ رَأْيِي فِيهِ، وَكَراهَتِي لَهُ؛ وَلٰكِنْ عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ وَالْحِيلةِ غَيْرَ الْقِتالِ ما يَكُونُ فِيهِ الْفَرَجُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى؛ فَإِنَّهُ رُبَّ قَوْمٍ قَدِ احْتالُوا بِآرَائِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِما أَرادُوا. وَمِنْ ذٰلِكَ حَدِيثُ الْجَماعةِ الَّذِين ظَفِرُوا بِالنَّاسِكِ، وَأَخَذُوا عَرِيضَهُ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) ينزع: يُقلع. لا تخبو: لا تطفأ. خَرِقْت: أصبت بالخرق فأصبحت أحمق لا أحسن التصرف مثل هذا يقال له: أخرق. اتقاء: خوف. أفظع: أشنع. الضغينة: الكراهية.

(٢) التِّرياق: دواء يشفي السموم. مغبة أمره: عاقبته.

(٣) سفهي: خفتي وطيشي. والأولياء: الأصدقاء. الرّوية: التفكير في الأمور. لم يغتبط: لم يسعد.

مثل الجماعة والناسك وعَرِيضه

وهو مثل المحتالين على الفِرّ الناسك حتى ظفروا به

قالَ الْغُرابُ : زِعَمُوا أَنَّ ناسِكًا اشْتَرَى عَرِيضًا ضَخْمًا لِيَجْعَلَهُ قُرْبانًا ، فَانْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ، فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكَرَةِ، فَائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ، فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ : أَيُّها النَّاسِكُ، ما هٰذا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ[1]؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الْآخَرُ فَقالَ لِصاحِبِهِ: ما هٰذا ناسِكًا؛ لِأَنَّ النَّاسِكَ لا يَقُودُ كَلْبًا! فَلَمْ يَزالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هٰذا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشُكَّ أَنَّ الَّذِي يَقُودُهُ كَلْبٌ، وَأَنَّ الَّذِي باعَهُ إِياهُ سَحَرَ عَيْنَيْهِ! فَأَطْلَقَهُ مِنْ يَدِهِ، فَأَخَذَهُ الْجَماعَةُ الْمُحْتالُونَ وَمَضَوْا بِهِ. وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ: لِما أَرْجُو أَنْ تُصِيبَ مِنْ حاجَتِنا بِالرِّفْقِ وَالْحِيلَةِ. وَإِنِّي أُرِيدُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَنْقُرَنِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهادِ، وَيَنْتِفَ رِيشِي وَذَنَبِي، ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ، وَيَرْتَحِلَ الْمَلِكُ وَجُنُودُهُ إِلَى مَكانِ كَذا؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنِّي أَصْبِرُ وَأَطَّلِعُ عَلَى أَحْوالِهِمْ وَمَواضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوابِهِمْ؛ فَأُخادِعُهُمْ، وَآتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجُمَ عَلَيْهِمْ، وَنَنالَ مِنْهُ غَرَضَنا إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى[2]. قالَ الْمَلِكُ: أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لِذٰلِكَ؟ قالَ : نَعَمْ وَكَيْفَ لا تَطِيبُ نَفْسِي لِذٰلِكَ، وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ؟! فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرابِ ما ذَكَرَ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ. فَجَعَلَ الْغُرابُ يَئِنُّ، وَيَهْمِسُ حَتَّى سَمِعَتْهُ الْبُومُ، وَرَأَيْنَهُ يَئِنُّ؛ فَأَخْبَرْنَ مَلِكَهُنَّ بِذٰلِكَ، فَقَصَدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغِرْبانِ، فَلَمَّا دَنا مِنْهُ أَمَرَ بُومًا أَنْ يَسْأَلَهُ، فَقالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ[3]؟ وَأَيْنَ الْغِرْبانُ؟ فَقالَ : أَمَّا اسْمِي فَفُلانٌ، وَأَمَّا ما سَأَلْتَنِي عَنْهُ؛ فَإِنِّي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حالِي حالُ مَنْ لا يَعْلَمُ الْأَسْرارَ. فَقِيلَ لِمَلِكِ الْبُومِ: هٰذا الْغُرابُ وَزِيرُ مَلِكِ الْغِرْبانِ، وَصاحِبُ رَأْيِهِ، فَنَسْأَلُهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ ما صُنِعَ؟! فَسُئِلَ الْغُرابُ عَنْ أَمْرِهِ: فَقالَ : إِنَّ مَلِكَنا اسْتَشارَ جَماعَتَنا فِيكُمْ، وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَحْضَرٍ مِنَ الْأَمْرِ؛ فَقالَ: أَيُّها الْغِرْبانُ، ما تَرَوْنَ فِي ذٰلِكَ؟ فَقُلْتُ: أَيُّها الْمَلِكُ، لا طاقَةَ لَنا بِقِتالِ الْبُومِ؛ لِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ بَطْشًا، وَأَحَدُّ قَلْبًا مِنَّا[4]. وَلٰكِنْ أَرَى أَنْ نَلْتَمِسَ الصُّلْحَ، ثُمَّ نَبْذُلَ الْفِدْيَةَ فِي ذٰلِكَ، فَإِنْ قَبِلَتِ الْبُومُ ذٰلِكَ مِنَّا،

---

(١) الفرج: نهاية الحزن، والراحة من الكرب. العريض: ما أتى عليه سنة من المعز، وتناول النبت بعرض شدقيه. قرباناً: ما يتقرب به الإنسان إلى ربه. فائتمروا: تشاوروا.

(٢) نُصِيب: ننال. ينقرني: يعيبني ويضربني.

(٣) يهمس: يتكلم بصوت خفي. (٤) بمحضر من الأمر: أي حاضرا له. بطشا: بأسا وفتكا.

وَإِلَّا هَرَبْنا فِي الْبِلادِ! وَإِذا كانَ الْقِتالُ بَيْنَنا وَبَيْنَ الْبُومِ كانَ خَيْرًا لَهُنَّ وَشَرًّا لَنا! فَالصُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومةِ؛ وَأَمَرْتُهُنَّ بِالرُّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ، وَضَرَبْتُ لَهُنَّ الْأَمْثالَ فِي ذٰلِكَ، وَقُلْتُ لَهُنَّ: إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لا يَرُدُّ بَأْسَهُ مِثْلُ الخُضُوعِ لَهُ. أَلا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ، كَيْفَ يَسْلَمُ مِنْ عاصِفِ الرِّيحِ لِلِينِهِ، وَمَيْلِهِ مَعَها حَيْثُ مالَتْ، وَالشَّجَرُ الْعاتِي يُكْسَرُ بها وَيُحْطَمُ ، فَعَصَيْتَنِي فِي ذٰلِكَ، وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ الْقِتالَ، وَاتَّهَمْتَنِي فِيما قُلْتُ، وَقُلْنَ: إِنَّكَ قَدْ مالَأْتَ الْبُومَ عَلَيْنا، وَرَدَدْنَ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي، وَعَذَّبْتَنِي بِهٰذا الْعَذَابِ، وَتَرَكَنِي الْمَلِكُ وَجُنُودُهُ ، وَارْتَحَلَ، وَلا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذٰلِكَ[1].

فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكُ الْبُومِ مَقالَةَ الْغُرابِ، قالَ لِبَعْضِ وُزَرائِهِ: ما تَقُولُ فِي الْغُرابِ؟ وَما تَرَى فِيهِ؟. قالَ : ما أَرَى إِلَّا الْمُعاجَلَةَ لَهُ بِالْقَتْلِ، فَإِنَّ هٰذا أَفْضَلُ عُدَدِ الْغِرْبانِ، وَفِي قَتْلِهِ لَنا راحةٌ مِنْ مَكْرِهِ. وَفَقْدُهُ عَلَى الْغِرْبانِ شَدِيدٌ. فَإِذا قُتِلَ ثُلَّ مُلْكُهُمْ وَتَقَوَّضَ، وَمَا أَراهُ إِلَّا فَتْحًا قَدْ أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَيْكَ. وَيُقالُ : مَنْ ظَفِرَ بِالسَّاعةِ الَّتِي فِيها يَنْجَحُ الْعَمَلُ، ثُمَّ لا يُعالِجُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ، فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ؛ فَإِنَّ الْأُمُورَ مَرْهُونةٌ بِأَوْقاتِها[2]. وَمَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ فَأَمْكَنَهُ ذٰلِكَ، فَأَغْفَلَهُ، فاتَهُ الأَمْرُ وَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ لا تَعُودَ الْفُرْصةُ ثانِيةً. وَمَنْ وَجَدَ عَدُوَّهُ ضَعِيفًا، وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ، نَدِمَ إِذا اسْتَقْوَى، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ!! قالَ الْمَلِكُ لِوَزِيرٍ آخَرَ: ما تَرَى أَنْتَ فِي هٰذا الْغُرابِ؟ قالَ : أَرَى أَلَّا تَقْتُلَهُ لِأَنَّهُ قَدْ لَقِيَ مِنْ أَصْحابِهِ ما تَراهُ، فَهُوَ خَلِيقٌ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا لَكَ عَلَى عَوْراتِهِمْ وَمُعِينًا لَكَ عَلَى ما فِيهِ هَلاكُهُمْ، وَإِنَّ الْعَدُوَّ الذَّلِيلَ الَّذِي لا ناصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنْ يُؤَمَّنَ، وَلا سِيَّما الْمُسْتَجِيرِ الْخائِفِ. وَالْعَدُوّ إِذا صَدَرَتْ مِنْهُ الْمَنْفَعَةُ وَلَوْ كانَ غَيْرَ مُتَعَمِّدٍ لَها، أَهلٌ لِأَنْ يُصْفَحَ عَنْهُ بِسَبَبِها؛ كَالتَّاجِرِ الَّذِي عَطَفَ عَلَى سارِقٍ لِعَطْفِ امْرَأَتِهِ عَلَيْهِ بِسَبَبِهِ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[3]؟.

مثل التاجر والسارق

قالَ الْوَزِيرُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ تاجِرٌ كَثِيرُ الْمالِ وَالْمَتاعِ، وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ ذاتُ جَمالٍ لَمْ تَكُنْ تَمِيلُ إِلَيْهِ. وَأَنَّ سارِقًا تَسَوَّرَ بَيْتَ التَّاجِرِ، فَدَخَلَ فَوَجَدَهُ نائِمًا، وَوَجَدَ امْرَأَتَهُ مُسْتَيْقِظَةً، فَذُعِرَتْ

(١) نلتمس: نطلب. نبذل: نعطي. العاتي: المرتفع القاسي. مالأت البوم: ساعدتهم وعاونتهم ووقفت معهم.
(٢) عُدَد: ما يعدونه ويعتمدون عليه. ثُلّ: هُدم. وتقوض: انهدم ونُقض. فتحا: نصراً.
(٣) فأغفله: تركه إهمالاً. يُنجز: يُعَجّل. عوارتهم: نقط الضعف فيهم ومواضع الخلل منهم. يُؤمّن: يُعطَى الأمان على نفسه وماله. المستجير: من يطلب المعونة. مُتَعَمد: قاصد. أهل: مُستَحِقّ.

مِنَ السَّارِقِ، وَوَثَبَتْ إِلَى التَّاجِرِ، فَالْتَزَمَتْهُ وَاعْتَنَقَتْهُ، وَقَدْ كانَ بِوُدِّهِ لَوْ دَنَتْ مِنْهُ يَوْمًا ما، فَاسْتَيْقَظَ التَّاجِرُ بِالْتِزامِها إِيَّاهُ، فَقالَ: مِنْ أَيْنَ لِي هٰذِهِ النِّعْمَةُ؟ ثُمَّ بَصُرَ بِالسَّارِقِ، فَقالَ: أَيُّها السَّارِقِ، أَنْتَ فِي حِلٍّ مِمَّا أَخَذْتَ مِنْ مالِي وَمَتَاعِي، وَلَكَ الْفَضْلُ بِما عَطَفْتَ قَلْبَ زَوْجَتِي عَلَى مُعانَقَتِي[1]! قالَ مَلِكُ الْبُومِ؛ لِوَزِيرٍ آخَرَ مِنْ وُزَرائِهِ: ما تَقُولُ فِي أَمْرِ الْغُرابِ؟ قالَ : أَرَى أَنْ تَسْتَبْقِيَهُ، وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ. وَالْعاقِلُ يَرَى مُعاداةَ بَعْضِ أَعْدائِهِ بَعْضًا ظَفَرًا حَسَنًا، وَيَرَى اسْتِغالَ بَعْضِ أَعْدائِهِ بِبَعْضٍ خَلاصًا لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ، وَنَجاةً كَنَجاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللِّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ. قالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[2]؟.

مثل الناسك واللص والشيطان

قالَ الْوَزِيرُ زَعَمُوا أَنَّ ناسِكًا أَصابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حَلُوبَةً، فَانْطَلَقَ بِها يَقُودُها إِلَى مَنْزِلِهِ، فَعَرَضَ لَهُ لِصٌّ أَرادَ سَرِقَتَها، وَتَبِعَهُ شَيْطانٌ يُرِيدُ اخْتِطافَهُ، وَقَدْ تَزَيَّا لَهُ بِزِيِّ إِنْسانٍ، فَقالَ الشَّيْطانُ لِلِّصِّ: مَنْ أَنْتَ؟ قالَ : أَنا اللِّصُّ؛ أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَ هٰذِهِ الْبَقَرَةَ مِنَ النَّاسِكِ إِذا نَامَ. فَمَنْ أَنْتَ؟ قالَ : أَنا الشَّيْطانُ أُرِيدُ اخْتِطافَهُ إِذا نَامَ، وَأَذْهَبُ بِهِ. فَانْتَهَيَا عَلَى هٰذا إِلَى الْمَنْزِلِ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ، وَدَخَلَا خَلْفَهُ، وَأَدْخَلَ الْبَقَرَةَ فَرَبَطَها فِي زاوِيَةِ الْمَنْزِلِ، وَتَعَشَّى وَنَامَ. فَأَقْبَلَ اللِّصُّ وَالشَّيْطانُ يَأْتَمِرانِ فِيهِ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ يَبْدَأُ بِشُغْلِهِ أَوَّلًا[3]؟ فَقالَ الشَّيْطانُ : إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ الْبَقَرَةِ، رُبَّما اسْتَيْقَظَ، وَصَاحَ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ؛ فَلا أَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهِ، فَانْتَظِرْنِي رَيْثَما آخُذُهُ وَشَأْنَكَ وَمَا تُرِيدُ. فَأَشْفَقَ اللِّصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطانُ بِاخْتِطافِهِ، أَنْ يَسْتَيْقِظَ فَلَا يَقْدِرَ عَلَى أَخْذِ الْبَقَرَةِ. فَقالَ : لا بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى آخُذَ الْبَقَرَةَ، وَشَأْنَكَ وَما تُرِيدُ. قالَ الشَّيْطانُ: رُوَيْدًا حَتَّى يَسْتَغْرِقَ النَّاسُ فِي النَّوْمِ، فَنَظْفَرَ بِهِما جَمِيعًا. فَلَمْ يَزَالا فِي الْمُجادَلَةِ هٰكَذا حَتَّى نادَى اللِّصُّ : أَيُّها النَّاسِكُ ، انْتَبِهْ؛ فَهٰذا الشَّيْطانُ يُرِيدُ اخْتِطافَكَ[4].

وَنَادَى الشَّيْطانُ : أَيُّها النَّاسِكُ ، انْتَبِهْ ؛ فَهٰذا اللِّصُّ يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بَقَرَتَكَ! فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ، وَجِيرانُهُ بِأَصْواتِهِما، وَهَرَبَ الْخَبِيثانِ. فقالَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشارَ بِقَتْلِ الْغُرابِ: أَظُنُّ أَنَّ

(١) تسوّر بيته: صعد على حائطه. فذعرت: خافت. فالتزمته: اعتنقته واحتضنته. أنت في حلّ مما أخذت: أي ما أخذت حلال لك.
(٢) تستبقيهُ: تعفو عنه ولا تقتله. (٣) تَزَيَّا: ظهر بهيئة. يأتمران: يتشاوران.
(٤) ريثما: أي مقدار مدة أخذه. فأشفق: خاف. انظرني: أمهلني. رويدًا: مهلاً. يستغرق: يستغل.

الْغُرابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ، وَوَقَعَ كَلامُهُ فِي نَفْسِ الْغَبِيِّ مِنْكُنَّ مَوْقِعَهُ، فَتُرِدْنَ أَنْ تَضَعْنَ الرَّأْيَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ. فَمَهْلًا مَهْلًا أَيُّها الْمَلِكُ، عَنْ هٰذا الرَّأْيِ، وَلاَ تَكُونَنَّ لِما تَسْمَعُ أَشَدَّ تَصْدِيقًا مِنْكَ لِمَا تَرَى ، كَالرَّجُلِ الَّذِي كَذَّبَ بِما رَأَى، وَصَدَّقَ بِما سَمِعَ، وَانْخَدَعَ بِالْمُحالِ! قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[1].

مثل الرجل واللصوص

قالَ الْوَزِيرُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ رَجُلٌ نائِمًا وَحْدَهُ إِحْدَى اللَّيالِي فِي بَيْتِهِ، وَإِذا لُصُوصٌ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْهِ الْبَيْتَ، وَأَخَذُوا فِي جَمْعِ ما فِيهِ مِنَ الْمَتاعِ، حَتَّى أَفْضَوْا إِلَى حَيْثُ هُوَ نائِمٌ؛ فَانْتَبَهَ عَلَيْهِمْ، وَخافَ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِمْ حِذارَ أَنْ يَبْطِشُوا بِهِ. وَكانَ لِلْحُجْرَةِ الَّتِي هُوَ فِيها بابٌ آخَرُ إِلَى الطَّرِيقِ، فَقالَ فِي نَفْسِهِ: الرَّأْيُ أَنْ لا أُشْعِرَهُمْ بِانْتِباهِي، وَلَا أَذَعَرَهُمْ حَتَّى يَفْرَغُوا مِمَّا يُرِيدُونَ أَخْذَهُ وَيُخْرِجُوهُ إِلَى حَيْثُ يُرِيدُون احْتِمالَهُ، فَأَخْرُجُ مِنَ الْبابِ الْآخَرِ، وَأَدْعُو الْجِيرانَ فَنَفْجَأُهُمْ، وَنُوقِعُ بِهِمْ[2].

فَلَبِثَ عَلَى فِراشِهِ مُتَنَاوِمًا حَتَّى فَرَغَ اللُّصُوصُ مِمَّا أَرادُوا جَمْعَهُ، وَخَرَجُوا يُرِيدُونَ حَمْلَهُ، فَهَمَّ الرَّجُلُ بِالْقِيامِ، فَشَعَرُوا بِحَرَكَةٍ مِنْهُ، فَهَمَسَ إِلَيْهِمْ رَئِيسُهُمْ، أَنْ قِفُوا وَلا تَرْتاعُوا، وَتَعَالَوْا نَحْتَلْ لَهُ بِحِيلَةٍ نَخْدَعُهُ بِها، وَلا يَذْهَبُ تَعَبُنا ضَياعًا! وَأَنا الْآنَ رافِعٌ صَوْتِي، وَمُخاطِبُكُمْ بِشَيْءٍ، فَصَوِّبُوا فِيهِ رَأْيِي، وَأَجِيبُونِي إِلَيْهِ. قالُوا : نَعَمْ. فَرَفَعَ اللِّصُّ صَوْتَهُ، بِحَيْثُ يَسْمَعُ الرَّجُلُ، وَقالَ لِأَصْحابِهِ: إِنِّي أَرَى هٰذِهِ الْأَحْمالَ ثَقِيلَةً شاقَّةً، وَمَا أَرَى قِيمَتَها تَفِي بِحَمْلِها، وَالْمُخاطَرَةِ فِيها! وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هٰذا الرَّجُلَ سَيِّئُ الْحالِ، وَقَدْ أَخَذَتْنِي عَلَيْهِ الشَّفَقَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَرَاجَعْتُ رَأْيِي فِيهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ نَدَعَ لَهُ مَتاعَهُ، فَإِنَّهُ يُحْسَبُ عَلَيْنا سرِقَةً، وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ يَسْتَحِقُّ الْعَناءَ، وَلَا لَنا فِيهِ كَبِيرُ فائِدَةٍ[3].

وَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ بَعْضِ مَشاهِيرِ اللُّصُوصِ يَقُولُ : مَنْ عَفَّ عَنْ مَتاعِ فَقِيرٍ فَلَمْ يَسْرِقْهُ، وَهُوَ قادِرٌ عَلَيْهِ غَفَرَ لَهُ ذٰلِكَ سَرِقَةَ مِئَةِ غَنِيٍّ. وَإِنَّ أَوْلَى السَّرِقَةِ، وَأَحَلَّها سرَقَةُ الْأَغْنِياءِ وَلَا سِيَّما ذَوِي الْبُخْلِ وَالْحِرْصِ مِنْهُمُ الَّذِينَ ما بُيُوتُهُمْ وَخَزائِنُهُمْ إِلَّا مَدافِنُ لِأَمْوالٍ حَبَسُوها، فَلَا انْتَفَعوا بِها، وَلا

(١) ووقع كلامه في نفس الغبي: أثر.
(٢) أفضوا إليه: وصلوا. يبطشوا به: يفتكوا به ويأخذوه بالعنف والسطوة. ففجؤهم: فنهجم عليهم بغتة. ونوقع بهم: نبالغ في قتلهم.
(٣) متناوماً: متظاهراً بالنوم. فهمس إليهم: أي كلمهم بصوت خفي. لا ترتاعوا: " لا تخافوا. شاقّة: صعبة.

تَرَكُوها لِلنَّاس! فَهَلُمَّ بِنا إِلى أَحَدِ هٰؤُلاءِ، وَدَعُوا هٰذا الْحُطامَ الَّذِي لا خَيْرَ فِيهِ، وَاغْتَنِمُوا أَجْرَ هٰذا الرَّجُلِ الْمِسْكِينِ! فَقالُوا كُلُّهُمْ: صَدَقْتَ وَأَحْسَنْتَ، وَتَظاهَرُوا أَنَّهُمْ يَفُكُّونَ الْأَحْمالَ، وَخَرَجُوا وَكَمَنُوا يَنْتَظِرُونَ نَوْمَ الرَّجُلِ[1]. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَمَّا سَمِعَ كَلامَهُمْ وَثِقَ بِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ، وَاعْتَقَدَ أَنَّهُمْ خَرَجُوا، فَسَكَنَ وَنَامَ! وَلَبِثَ اللُّصُوصُ، حَتَّى أَيْقَنُوا أَنَّهُ قَدْ نامَ! فَسارُوا إِلَى الْأَحْمالِ، فَاحْتَمَلُوها وَفازُوا بِها! وإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ إِرادَةَ أَنْ لا تَكُونَ كَذٰلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي كَذَّبَ بِما رَأَى، وَصَدَّقَ بِمَا سَمِعَ. فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ إِلَى قَوْلِهِ، وَأَمَرَ بِالْغُرابِ أَنْ يُحْمَلَ إِلَى مَنازِلِ الْبُومِ، وَيُكْرَمَ وَيُسْتَوْصِي بِهِ خَيْرًا[2]!. ثُمَّ إِنَّ الْغُرابَ قالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا، وَعِنْدَهُ جَماعَةٌ مِنَ الْبُومِ، وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَشارَ بِقَتْلِهِ: أَيُّها الْمَلِكُ، قَدْ عَلِمْتَ ما جَرَى عَلَيَّ مِنَ الْغِرْبانِ، وَإِنَّهُ لا يَسْتَرِيحُ قَلْبِي دُونَ الْأَخْذِ بِثَأْرِي مِنْهُنَّ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذٰلِكَ، فَإِذا بِي لا أَقْدِرُ عَلَى ما رُمْتُ؛ لِأَنِّي غُرابٌ! وَقَدْ رُوِيَ عَنِ الْعُلَماءِ أَنَّهُمْ قالُوا: مَنْ طابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يُحْرِقَها، فَقَدْ قَرَّبَ لِلهِ أَعْظَمَ الْقُرْبانِ، لا يَدْعُو عِنْدَ ذٰلِكَ بِدَعْوةٍ إِلَّا اسْتُجِيبَ لَهُ. فَإِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَأْمُرَنِي، فَأُحْرِقَ نَفْسِي، وَأَدْعُوَ رَبِّي أَنْ يُحَوِّلَنِي بُومًا؛ فَأَكُونَ أَشَدَّ عَداوةً لِلْغِرْبانِ، وَأَقْوَى بَأْسًا عَلَيْهِنَّ، لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ[3]. فَقالَ الْوَزِيرُ الَّذِي أَشارَ بِقَتْلِهِ: ما أَشْبَهَكَ فِي خَيْرِ ما تُظْهِرُ، وَشَرِّ ما تُضْمِرُ، بِالْخَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعْمِ، وَالرِّيحِ الْمُنْتَقِعِ فِيها السُّمُّ. أَرَأَيْتَ لَوْ أَحْرَقْنا جِسْمَكَ بِالنَّارِ أَنَّ جَوْهَرَكَ وَطَبْعَكَ مُتَغَيِّرٌ؟! أَوَ لَيْسَتْ أَخْلاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُ دُرْتَ، وَتَصِيرُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى أَصْلِكَ، وَطِينَتِكَ؟! كَالْفَأْرَةِ الَّتِي خُيِّرَتْ فِي الْأَزْواجِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرِّيحِ، وَالسَّحابِ وَالْجَبَلِ، فَلَمْ تَزَلْ تَتَخَيَّرُهُمْ حَتَّى رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِها، وَتَزَوَّجَتِ الْجُرَذَ. قِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[4]؟.

مثل الناسك والفأرة

قالَ: زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ ناسِكٌ مُسْتَجابُ الدَّعْوَةِ، فَبَيْنَما هُوَ ذاتَ يَوْمٍ جالِسٌ عَلَى ساحِلِ الْبَحْرِ، إِذ مَرَّتْ بِهِ حِدَأَةٌ فِي رِجْلِها دِرْصُ فَأْرةٍ، فَوَقَعَتْ مِنْها عِنْدَ النَّاسِكِ، وَأَدْرَكَتْهُ لَها رَحْمةٌ فَأَخَذَها

---

(١) غَفَلَ عنه: لم يطمع فيه وكف عنه وتركه له. حبسوها: كنزوها ولم يستثمروها فيما يعود بالنفع على المجتمع. الحُطام: الشيء الخسيس الذي لا خير فيه. واغتنموا: اكسبوا.

(٢) ولَبِث اللصوص: أقاموا وانتظروا. فثاروا: نهضوا ووثبوا.

(٣) ما رمت: ما قصدت.

(٤) تضمر: تخفي. المنْقَع: المخبوء والموجود. وطينتك: خلقتك وجبلتك. خُيِّرَت: فوّض إليها وأخذ رأيها. تتخيرهم: تختار منهم وتنتقي.

وَلَفَّها فِي وَرَقَةٍ، وَذَهَبَ بِها إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ خافَ أَنْ تَشُقَّ عَلَى أَهْلِهِ تَرْبِيتُها، فَدَعَا رَبُّهُ أَنْ يُحَوِّلَها جارِيةً، فَتَحَوَّلَتْ جارِيةً حَسْناءَ، فَانْطَلَقَ بِها إِلَى امْرَأَتِهِ فَقالَ لَها: هٰذِهِ ابْنَتِي، فَاصْنَعِي مَعَها صَنِيعَكِ بِوَلَدِي، فَلَمَّا كَبِرَتْ قالَ لَهَا النَّاسِكُ: يا بُنَيَّةُ، اخْتارِي مَنْ أَحْبَبْتِ حَتَّى أُزَوِّجَكِ إِيَّاهُ[1]. فَقالَتْ: أَمَّا إِذا خَيَّرْتَنِي فَإِنِّي أَخْتارُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْياءِ، فَقالَ النَّاسِكُ: لَعَلَّكِ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ! ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقالَ : أَيُّها الْخَلْقُ الْعَظِيمُ، لِي جارِيةٌ وَقَدْ طَلَبَتْ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْياءِ؛ فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُها؟ فَقالتِ الشَّمْسُ: أَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي؛ السَّحابُ الَّذِي يُغَطِّينِي، وَيَرُدُّ جِرْمَ شُعاعِي، وَيَكْسِفُ أَشِعَّةَ أَنْوارِي! فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحابِ، فَقالَ لَهُ ما قالَ لِلشَّمْسِ. فَقالَ السَّحابُ : وَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، فَاذْهَبْ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَتُدْبِرُ، وَتَذْهَبُ بِي شَرْقًا وَغَرْبًا؛ فَجاءَ النَّاسِكُ إِلَى الرِّيحِ، فَقالَ لَها كَقَولِهِ لِلسَّحابِ[2]. فَقالَتْ: وَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، وَهُوَ الْجَبَلُ الَّذِي لا أَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِهِ. فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقالَ لَهُ الْقَوْلَ؛ فَأَجابَهُ الْجَبَلُ، وَقالَ لَهُ: أَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي: الْجُرذِ لا أَسْتَطِيعُ الِامْتِناعَ مِنْهُ إِذا خَرَقَنِي، وَاتَّخَذَنِي مَسْكَنًا. فَانْطَلَقَ النَّاسِكُ إِلَى الْجُرذِ فَقالَ لَهُ: هَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هٰذِهِ الْجارِيةَ؟ فَقالَ : وَكَيْفَ أَتَزَوَّجُها وَمَسْكَنِي ضَيِّقٌ؟! وَإِنَّما يَتَزَوَّجُ الْجُرَذُ الْفَأْرَةَ. فَدَعَا النَّاسِكُ رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَها فَأْرَةً كَما كانَتْ، وَذٰلِكَ بِرِضَى الْجارِيةِ! فَأَعادَها اللهُ إِلَى عُنْصُرِها الْأَوَّلِ[3] فَانْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرَذِ. **فَهٰذَا مَثَلُكَ أَيُّها الْمُخَادِعُ** . فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْبُومِ إِلَى ذٰلِكَ الْقَوْلِ، وَرَفَقَ بِالْغُرابِ وَلَمْ يَزْدَدْ لَهُ إِلَّا إِكْرامًا. حَتَّى إِذا طَابَ عَيْشُهُ، وَنَبَتَ رِيشُهُ، وَاطَّلَعَ عَلَى ما أَرادَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ راغَ رَوْغَةً؛ فَأَتَى أَصْحابَهُ بِما رَأَى وَسَمِعَ. فَقالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ فَرَغْتُ مِمَّا كُنْتُ أُرِيدُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ. قالَ لَهُ: أَنا وَالْجُنْدُ تَحْتَ أَمْرِكَ، فَاحْتَكِمْ كَيْفَ شِئْتَ. قالَ الْغُرابُ: إِنَّ الْبُومَ بِمَكانِ كَذا فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْحَطَبِ، وَفِي ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ مَعَ رَجُلِ راعٍ، وَنَحْنُ مُصِيبُونَ هُناكَ نارًا وَنُلْقِيها فِي أَثْقابِ الْبُومِ، وَنَقْذِفُ عَلَيْها مِنْ يابِسِ الْحَطَبِ، وَنَتَرَوَّحُ عَلَيْها ضَرْبًا بِأَجْنِحَتِنا، حَتَّى تَضْطَرِمَ النَّارُ فِي الْحَطَبِ، فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُنَّ احْتَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ ماتَ بِالدُّخانِ مَوْضِعَهُ[4]. فَفَعَلَ الْغِرْبانُ ذٰلِكَ، فَأَهْلَكْنَ الْبُومَ قاطِبَةً وَرَجَعْنَ إِلَى مَنازِلِهِنَّ سالِماتٍ آمِناتٍ.

---

(١) حدأة: طائر يصطاد الجرذان والكتاكيت. يشبه الصقر. الدّرصُ: ولد الفأرة. تشق: تصعب.
(٢) جرم: جسد. تُقبل وتدبر بي: تأتي وتولى. (٣) عنصرها الأول: أصلها.
(٤) راغ روْغة: مال بحيلة مكرا وخديعة. فاحتكم: اطلب منا ما تريد. في أثقاب: جمع ثقب وهو الخرق النافذ.

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الْغِرْبانِ، قالَ لِذٰلِكَ الْغُرابِ: كَيْفَ صَبَرتَ عَلَى صُحْبَةِ الْبُومِ، وَلا صَبْرَ للأَخْيارِ عَلَى صُحْبَةِ الأَشْرارِ؟! قالَ الْغُرابُ: إِنَّ ما قُلْتَهُ أَيُّها الْمَلِكُ لَكَذٰلِكَ، فَإِنَّهُ يُقالُ لَذْعُ النّارِ أَيْسَرُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ صُحْبَةِ الأَشْرارِ وَالإِقامَةِ مَعَهُمْ(١).

وَلٰكِنَّ الْعاقِلَ إِذا أَتاهُ الأَمْرُ الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ، الَّذِي يَخافُ مِنْ عَدَمِ تَحَمُّلِهِ الْجائِحَةَ عَلَى نَفْسِهِ وَقَوْمِهِ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ لِما يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ صَبْرُهُ حُسْنَ الْعاقِبَةِ، وَكَثِيرَ الْخَيْرِ، فَلَمْ يَجِدْ لِذٰلِكَ أَلَمًا، وَلَمْ تَكْرَهْ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونَهُ حَتّٰى يَبْلُغَ حاجَتَهُ فَيَغْتَبِطَ بِخاتِمَةِ أَمْرِهِ، وَعاقِبَةِ صَبْرِهِ. فَقالَ الْمَلِكُ: أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ الْبُومِ(٢).

قالَ الْغُراب: لَمْ أَجِدْ عاقِلًا إِلَّا الَّذِي كانَ يَحُثُّهُنَّ عَلَى قَتْلِي، وَكانَ حَرَضَهُنَّ عَلَى ذٰلِكَ مِرارًا، فَكُنَّ أَضْعَفَ شَيْءٍ رَأْيًا، فَلَمْ يَنْظُرْنَ فِي أَمْرِي، وَيَذْكُرْنَ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذا مَنْزِلَةٍ فِي الْغِرْبانِ، وَأَنِّي أُعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ، وَلَمْ يَتَخَوَّفْنَ مَكْرِي وَحِيلَتِي وَلا قَبِلْنَ مِنَ النّاصِحِ الشَّفِيقِ، وَلا أَخْفَيْنَ دُونِي أَسْرارَهُنَّ. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ: يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ، وَلا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَواضِعِ سِرِّهِ. وَقَدْ قِيلَ: يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَحَفَّظَ مِنْ عَدُوِّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتّٰى فِي الْماءِ الَّذِي يَشْرَبُهُ، وَيَغْتَسِلُ بِهِ، وَالْفِراشِ الَّذِي يَنامُ عَلَيْهِ، وَالْحُلَّةِ الَّتِي يَلْبَسُها، وَالدَّابَّةِ الَّتِي يَرْكَبُها، وَلا يَأْمَنَ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا الثِّقَةَ الأَمِينَ السّالِمَ الْباطِنِ وَالظّاهِرِ، وَيَكُونَ بَعْدَ ذٰلِكَ كُلِّهِ عَلَى حَذَرٍ مِنْهُ؛ لِأَنَّ عَدُوَّهُ لا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ ثِقاتِهِ، فَرُبَّما كانَ أَحَدُهُمْ لِعَدُوِّهِ صَدِيقًا؛ فَيَصِلُ الْعَدُوُّ إِلَى مُرادِهِ مِنْهُ(٣)!.

فَقالَ الْمَلِكُ: ما أَهْلَكَ الْبُومَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ، وَضَعْفُ رَأْيِ الْمَلِكِ، وَمُوافَقَتُهُ وُزَراءَ السُّوءِ. فَقالَ الْغُرابُ: صَدَقْتَ أَيُّها الْمَلِكُ: إِنَّهُ قَلَّما ظَفِرَ أَحَدٌ بِغِنًى وَلَمْ يَطْغَ، وَقَلَّما حَرَصَ الرَّجُلُ عَلَى النِّساءِ وَلَمْ يَفْتَضِحْ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الطَّعامِ وَلَمْ يَمْرَضْ، وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِوُزَراءِ السُّوءِ، وَسَلِمَ مِنْ أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهالِكِ، وَكانَ يُقالُ: لا يَطْمَعَنَّ ذُو الْكِبْرِ فِي حُسْنِ الثَّناءِ، وَلا الْخِبُّ فِي حُسْنِ الصَّدِيقِ، وَلا السَّيِّئُ الآدابِ فِي الشَّرَفِ، وَلا الشَّحِيحُ فِي الْبِرِّ، وَلا الْحَرِيصُ فِي قِلَّةِ الذُّنُوبِ، وَلا الْمَلِكُ الْمُخْتالُ الْمُتَهاوِنُ بِالأُمُورِ، الضَّعِيفُ الْوُزَراءِ فِي ثَباتِ مُلْكِهِ، وَصَلاحِ رَعِيَّتِهِ(٤)، قالَ

---

(١) قاطبة: جميعا. للأخيار: جمع خيّر وهو الصالح غير الشرير.
(٢) الجائحة: الشدة العظيمة، والآفة الخطيرة التي تجتاح الناس وتهلكهم وتستأصلهم.
(٣) تتحفظ: تتحرس. ثقاته: جمع ثقة. من يثق بهم ويطمئن إليهم. (٤) في نفسي: في رأيي. المختال: المتكبر. رعيته: شعبه.

الْمَلِكُ : لَقَدِ احْتَمَلْتَ مَشَقَّةً شَدِيدةً فِي تَصَنُّعِكَ لِلْبُومِ، وَتَضَرُّعِكَ إِلَيْهِنَّ. قالَ الْغُرابُ : إِنَّهُ مَنِ احْتَمَلَ مَشَقَّةً يَرْجُو نَفْعَها، وَنَحَّى عَنْ نَفْسِهِ الْأَنَفَةَ وَالْحَمِيَّةَ، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ، حَمِدَ غِبَّ رَأْيِهِ. كَما صَبَرَ الْأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفادِعِ عَلَى ظَهْرِهِ، وشَبَعَ بِذٰلِكَ وَعاشَ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذٰلِكَ[1]؟

مَثَلُ الأَسْودِ وملك الضفادع

قالَ الْغُرابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَّاتِ كَبِرَ ، وضَعُفَ بَصَرُهُ، وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعامٍ. وَأَنَّهُ انْسابَ يَلْتَمِسُ شَيْئًا يَعِيشُ بِهِ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ كَثِيرةِ الضَّفادِعِ قَدْ كانَ يَأْتِيها قَبْلَ ذٰلِكَ، فَيُصِيبُ مِنْ ضَفادِعِها رِزْقَهُ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنْهُنَّ مُظْهِرًا لِلْكَآبَةِ وَالْحُزْنِ. فَقالَ لَهُ أَحَدُها : مالِي أَراكَ أَيُّها الْأَسْوَدُ كَئِيبًا حَزِينًا؟ قالَ: وَمَنْ أَحْرَى بِطُولِ الْحُزْنِ مِنِّي؟! وَإِنَّما كانَ أَكْثَرُ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ أُصِيبُ مِنَ الضَّفادِعِ، فابْتُلِيتُ بِبَلاءٍ حُرِّمَتْ عَلَيَّ الضَّفادِعُ مِنْ أَجْلِهِ حَتَّى إِنِّي إِذا الْتَقَيْتُ بِبَعْضِها لا أَقْدِرُ عَلَى إِمْساكِهِ[2]. فَانْطَلَقَ الضِّفْدِعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفادِعِ، فَبَشَّرَهُ بِما سَمِعَ مِنَ الْأَسْوَدِ. فَأَتَى مَلِكُ الضَفادِعِ إِلَى الْأَسْوَدِ فَقالَ لَهُ: كَيْفَ كَانَ أَمْرُكَ؟ قالَ: سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضِفْدِعٍ، وَذٰلِكَ عِنْدَ الْمَساءِ، فَاضْطَرَرْتُهُ إِلَى بَيْتِ ناسِكٍ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ فِي الظُّلْمةِ، وَفِي الْبَيْتِ ابْنٌ لِلنَّاسِكِ، فأَصَبْتُ إِصْبَعَهُ، فَظَنَنْتُ أَنَّها الضِّفْدِعُ، فَلَدَغْتُهُ فَماتَ[3]! فَخَرَجْتُ هارِبًا، فَتَبِعَنِي النَّاسِكُ فِي أَثَرِي، وَدَعا عَلَيَّ وَلَعَنَنِي وَقالَ: كَما قَتَلْتَ ابْنِي البَرِيءَ ظُلْمًا وَتَعَدِّيًا، أَدْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرْكَبًا لِمَلِكِ الضَّفادِعِ، فَلا تَسْتَطِيعُ أَخْذَها، وَلا أَكْلَ شَيْءٍ مِنْها إِلَّا ما يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُها! فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي مُقِرًّا بِذٰلِكَ رَاضِيًا بِهِ؛ فَرَغِبَ مَلِكُ الضَّفادِعِ فِي رُكُوبِ الْأَسْوَدِ، وَظَنَّ أَنَّ ذٰلِكَ فَخْرٌ لَهُ، وَشَرَفٌ وَرِفْعةٌ، فَرَكِبَهُ وَاسْتَطابَ ذٰلِكَ؛ فَقالَ لَهُ الْأَسْوَدُ : قَدْ عَلِمْتَ أَيُّها الْمَلِكُ أَنِّي مَحْرُومٌ، فَاجْعَلْ لِي رِزْقًا أَعِيشُ بِهِ. قالَ مَلِكُ الضَّفادِعِ : لَعَمْرِي لا بُدَّ لَكَ مِنْ رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ إِذا كُنْتَ مَرْكَبِي، فَأَمَرَ لَهُ بِضِفْدِعَيْنِ يُؤْخَذان فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَيُدْفَعانِ إِلَيْهِ، فَعَاشَ بِذٰلِكَ وَلَمْ يَضُرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعَدُوِّ الذَّلِيلِ،

---

(١) في تصنعك: إظهارك عن نفسك ما ليس فيك. ونحّى: أبعد. الأنفة: عزة النفس . ووطّنها على الصبر: مهّدها لتقبّله وأقرها عليه. غبّ: عاقبة. الأسود: الحية العظيمة وفيها سواد.

(٢) انساب: تحرك وسعى. أحرى: أولى. (٣) طلب ضفدع: اصطياده. فاضطررته: فألجأته.

بَلِ انْتَفَعَ بِذٰلِكَ وَصَارَ لَهُ رِزْقًا وَمَعِيشَةً[1].

وَكَذٰلِكَ كانَ صَبرِي عَلَى ما صَبَرْتُ عَلَيْهِ الْتِماسًا لِهٰذا النَّفْعِ الْعَظِيمِ، الَّذِي اجْتَمَعَ لَنا فِيهِ الْأَمْنُ وَالظَّفَرُ، وَهَلاكُ الْعَدُوِّ وَالرَّاحةُ مِنْهُ. وَوَجَدْتُ صَرْعةَ اللِّينِ وَالرِّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ اسْتِئْصالًا لِلْعَدُوِّ مِنْ صَرْعةِ الْمُكابَرةِ وَالْعِنادِ؛ فَإِنَّ النَّارَ لا تَزِيدُ بِحِدَّتِها وَحَرِّها إِذا أَصابتِ الشَّجَرَةَ، عَلَى أَنْ تُحْرِقَ ما فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْها! وَالْماءَ بِلِينِهِ وَبَرْدِهِ يَسْتَأْصِلُ ما تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْها[2].

وَيُقالُ: أَرْبَعةُ أَشْياءَ لا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُها: النَّارُ، وَالْمَرَضُ والْعَدوُّ، وَالدَّينُ. قالَ الْغُرابُ: وَكُلُّ ذٰلِكَ كانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَدَبِهِ وَسَعادةِ جَدِّهِ. وَإِنَّهُ كانَ يُقالُ: إِذا طَلَبَ اثْنانِ أَمْرًا ظَفِرَ بِهِ مِنهُما أَفْضَلُهُما مُرُوءَةً. فَإِنِ اعْتَدَلا فِي الْمُرُوءَةِ، فَأَشَدُّهُما عَزْمًا. فإِنِ اسْتَوَيا فِي الْعَزْمِ، فَأَسْعَدُهُما جَدًّا. وَكَانَ يُقالُ: مَنْ حَارَبَ الْمَلِكَ الْحازِمَ الْأَرِيبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ وَلا تُذْهِشُهُ الضَّرَّاءُ، كانَ هُوَ داعِيَ الْحَتْفِ إِلَى نَفْسِهِ، وَلا سِيَّما إِذا كانَ مِثْلَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْعالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمالِ وَمَواضِعِ الشِّدَّةِ وَاللِّينِ، وَالْغَضَبِ وَالرِّضَى، وَالْمُعاجَلَةِ وَالْأَناةِ، النَّاظِرُ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ وَعَواقِبِ أَعْمالِهِ[3]. قالَ الْمَلِكُ لِلْغُرابِ: بَلِ بِرَأْيِكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحتِكَ وَيُمْنِ طالِعِكَ كانَ ذٰلِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ الرَّجُلِ الْعاقِلِ الْواحِدِ الْحازِمِ أَبْلَغُ فِي هَلاكِ الْعَدُوِّ مِنَ الْجُنُودِ الْكَثِيرةِ، مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالنَّجدةِ وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ. وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُولَ لُبْثِكَ بَيْنَ ظَهْرانَيِ الْبُومِ، تَسْمَعُ الْكَلامَ الْغَلِيظَ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ[4]. قالَ الْغُرابُ: لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بِأَدَبِكَ أَيُّها الْمَلِكُ: أَصْحَبُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ بِالرِّفْقِ وَاللِّينِ وَالْمُبالَغَةِ وَالْمُؤاتاةِ. قالَ الْمَلِكُ: أَصْبَحْتُ وَقَدْ وَجَدْتُكَ صاحِبَ الْعَمَلِ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الْوُزَراءِ أَصْحابَ أَقاوِيلَ لَيْسَ لَها عاقِبةٌ حَمِيدةٌ. فَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا بِكَ مِنَّةً عَظِيمةً، لَمْ نَكُنْ قَبْلَها نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ وَلا النَّوْمِ وَلا الْقَرارِ. وَكَانَ يُقالُ: لا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعامِ وَالنَّوْمِ حَتَّى يَبْرَأَ، وَلا الرَّجُلُ الشَّرِهُ الَّذِي قَدْ أَلَحَّ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ وَهُوَ يَخافُهُ صَباحًا وَمَساءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ، وَمَنْ وَضَعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدِهِ أَراحَ نَفْسَهُ، وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ ثَلَجَ صَدْرُهُ[5]. قالَ الْغُرابُ: أَسْأَلُ اللهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ، أَنْ يُمَتِّعَكَ بِسُلْطانِكَ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذٰلِكَ صَلاحَ رَعِيَّتِكَ، وَيُشْرِكَهُمْ فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذا لَمْ يَكُنْ فِي

(١) لعمري: وحياتي. (٢) التماساً: طلباً. صرعة اللين: إهلاكه وتأثيره. استئصالا: قطعاً كاملاً من أصله وجذره.
(٣) من رأي الملك: أي من رأيك أنت. جَدّ: حَظّه. اعتدلا: تناسبا وتساويا. الأريب: الحاذق بكل عمل. الحتف: الهلاك. والأناة: التأني والتمهل.
(٤) ويمن طالعك: بركة وسعادة أيامك. بين ظهراني اليوم: في وسطه. (٥) والمؤاتاة: الملاينة والموافقة. ثلج صدره: اطمأن.

مُلْكِهِ قُرَّةُ عُيُونِ رَعِيَّتِهِ، فَمَثَلُهُ مَثَلُ زَنَمَةِ الْعَنْزِ الَّتِي يَمُصُّها الْجَدْيُ، وَهُو يَحْسَبُها حَلَمَةَ الضَّرْعِ؛ فَلا يُصادِفُ فِيها خَيْرًا[1]. قالَ الْمَلِكُ: أَيُّها الْوَزِيرُ الصَّالِحُ، كَيْفَ كانَتْ سِيرةُ الْبُومِ وَمَلِكِها فِي حُروبِها، وَفِيما كانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِها؟ قالَ الْغُرابُ : كانَتْ سِيرتُهُ سِيرةَ بَطَرٍ وأَشَرٍ وَخُيَلاءَ وَعَجْزٍ وَفَخْرٍ مَعَ ما فِيهِ مِنَ الصِّفاتِ الذَّمِيمةِ! وَكُلُّ أَصْحابِهِ وَوُزَرائِهِ شَبِيهٌ بِهِ إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي كانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي؛ فَإِنَّه كانَ حَكِيمًا أَرِيبًا فَيْلَسُوفًا حازِمًا، قَلَّما يُرَى مِثْلُهُ فِي عُلُوِّ الْهِمَّةِ، وَكَمالِ الْعَقْلِ، وَجَودةِ الرَّأْيِ. قالَ الْمَلِكُ: وَأَيُّ خَصْلَةٍ كانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِهِ؟ قالَ : خَلَّتانِ: إِحْداهُما رَأْيُهُ فِي قَتْلِي، وَالأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَكْتُمُ صاحِبَهُ نَصِيحتَهُ وَإِن اسْتَقَلَّها. وَلَمْ يَكُنْ كَلامُهُ كَلامَ عُنْفٍ وَقَسْوةٍ، وَلٰكِنَّهُ كَلامُ رِفْقٍ وَلِينٍ؛ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّما أَخْبَرَهُ بِبَعْضِ عُيُوبِهِ، وَلا يُصَرِّحُ بِحَقِيقةِ الْحالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الأَمْثالَ، وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ، فَلا يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ عَلَيْهِ سَبِيلًا[2]. وَكانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ أَنَّه قالَ : لا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِهِ؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ لا يَظْفَرُ بِهِ مِنَ النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ، وَلا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزْمِ. فَإِنَّ الْمُلْكَ عَزِيزٌ فَمَنْ ظَفِرَ بِهِ فَلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وَتَحْصِينَهُ. فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: إِنَّهُ فِي قِلَّةِ بَقائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النِّيلُوفَرِ وَهُوَ فِي خِفَّةِ زَوالِهِ وَسُرْعةِ إِقْبالِهِ وَإِدْبارِهِ كَالرِّيحِ، وَفِي قِلَّةِ ثَباتِهِ كَاللُّبِيبِ مَعَ اللِّئامِ وَفِي سُرْعةِ اضْمِحْلالِهِ كَحَبَابِ الْماءِ مِنْ وَقْعِ الْمَطَرِ[3].

فَهٰذا مَثَلُ أَهْلِ الْعَداوةِ الَّذِينَ لا يَنْبَغِي أَنْ يُغْتَرَّ بِهِمْ وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا وَتَضَرُّعًا.

بابُ

الْقِرْدِ وَالْغَيْلَمِ

قالَ دبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ، فَاضْرِب لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحاجةَ؛ فَإِذا ظَفِرَ بها أَضاعَها[4]!

قال الفيلسوف : إِنَّ طَلَبَ الْحاجةِ أَهْوَنُ مِنَ الِاحْتِفاظِ بِها، وَمَنْ ظَفِرَ بِالْحاجةِ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيامَ بِها أَصابَهُ ما أَصابَ الْغَيْلَمَ. قالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

---

(١) أن يمتعك بسلطانك: دعاء بطول البقاء. في قرة العين: السرور. زنمة: قطعة لحم تتدلى من عنق العنز. حلمة الضرع: الضرع لذات الظلف كالثدي للمرأة والخِلْفُ للناقة.

(٢) أشر: بمعنى بطر. خُيَلاء: تكبر وعجب.

(٣) حَباب الماء: «فقاقيع» تظهر على شكل كرات تعلوه ممتلئة هواء.

(٤) الغَيْلم: ذكر السلحفاة.

قال بيدبا : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا كانَ مَلِكَ الْقِرَدةِ، يُقالُ لَهُ : ماهِرٌ وَكانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ، فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ وَأَخَذَ مَكانَهُ ، فَخَرَجَ هارِبًا عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ، فَوَجَدَ شَجَرةً مِنْ شَجَرِ التِّينِ؛ فَارْتَقَى إِلَيْها وَجَعَلَها مُقامَهُ[1]. فَبَيْنَما هُوَ ذاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذٰلِكَ التِّينِ؛ إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِينةٌ فِي الْماءِ، فَسَمِعَ لَها صَوْتًا وَإِيقاعًا، فَجَعَلَ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْماءِ، فَأَطْرَبَهُ ذٰلِكَ، فَأَكْثَرَ مِنْ تَطْرِيحِ التِّينِ فِي الْماءِ. وَثَمَّ غَيْلَمٌ كُلَّما وَقَعَتْ تِينةٌ أَكَلَها، فَلَمَّا كَثُرَ ذٰلِكَ ظَنَّ أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّما يَفْعَلُ ذٰلِكَ لِأَجْلِهِ، فَرَغِبَ فِي مُصادَقَتِهِ وَأَنِسَ إِلَيْهِ، وَكَلَّمَهُ، وَأَلِفَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما صاحِبَهُ. وَطالَتْ غَيْبةُ الْغَيْلَمِ عَنْ زَوْجَتِهِ؛ فَجَزِعَتْ عَلَيْهِ، وَشَكَتْ ذٰلِكَ إِلَى جارةٍ لَها، وَقالَتْ: قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عارِضُ سُوءٍ فَاغْتالَهُ[2]! فَقالَتْ لَها: إِنَّ زَوْجَكِ فِي السَّاحِلِ، قَدْ أَلِفَ قِرْدًا، وَأَلِفَهُ الْقِرْدُ، فَهُوَ مُؤَاكِلُهُ وَمُشارِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكِ، وَلا يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكِ حَتَّى تَحْتالِي لِهَلاكِ الْقِرْدِ، قالَتْ: وَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ قالَتْ جارتُها: إِذا وَصَلَ إِلَيْكِ، فَتَمارَضِي، فَإِذا سَأَلَكِ عَنْ حالِكِ، فَقُولِي: إِنَّ الأَطِبَّاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ، ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلَمَ انْطَلَقَ بَعْدَ مُدَّةٍ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَوَجَدَ زوجتَهُ سَيِّئَةَ الْحالِ مَهْمُومةً ، فَقالَ لَها: مالِي أَراكِ هٰكَذا!؟ فَأَجابَتْهُ جارتُها، وَقالَتْ : إِنَّ زَوْجَتَكَ مَرِيضةٌ مِسْكِينةٌ!؛ وَقَدْ وَصَفَ لَها الأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ،وَلَيْسَ لَها دَواءٌ سِواهُ[3]. **قال الغيلم** : هذا أَمْرٌ عَسِيرٌ؛ مِنْ أَيْنَ لَنا قَلْبُ قِرْدٍ؟ وَنحْنُ فِي الْماءِ، وَبَقِي مُتَحَيِّرًا؛ ثُمَّ قالَ فِي نَفْسِهِ: ما لِي قُدْرةٌ عَلَى ذٰلِكَ، إِلَّا أَنْ أَغْدِرَ بِخَلِيلِي وَصَاحِبِي، وَإِثْمُهُ عِنْدِي شَدِيدٌ، وَأَشَدُّ مِنْ ذٰلِكَ هَلاكُ زَوْجَتِي؛ لِأَنَّ الزَّوْجَةَ الصالِحَةَ لا يَعْدِلُها شَيْءٌ؛ لأَنَّها عَوْنٌ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيا وَالآخِرةِ!. ثُمَّ عادَ إِلَى السَّاحِلِ حَزِينًا كَئِيبًا مُفَكِّرًا فِي نَفْسِهِ، كَيْفَ يَصْنَعُ[4]؟! فَقالَ لَهُ الْقِرْدُ: يا أَخِي ، ما حَبَسَكَ عَنِّي؟ قالَ لَهُ الْغَيْلَمُ : ما حَبَسَنِي عَنْكَ إِلَّا حَيائِي، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أُكافِئُكَ عَلَى إِحْسانِكَ إِلَيَّ؟! وَأُرِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسانَكَ إِلَيَّ بِزِيارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي، فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرةٍ طَيِّبَةِ الْفاكِهةِ؛ فَارْكَبْ ظَهْرِي، لأَسْبَحَ بِكَ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ ما يَلْتَمِسُهُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِلَّائِهِ أَنْ يَغْشَوْا مَنْزِلَهُ، وَيَنالُوا مِنْ طَعامِهِ وَشَرابِهِ، وَيَعْرِفَهُمْ أَهْلُهُ وَوَلَدُهُ وَجِيرانُهُ. وَأَنْتَ لَمْ تَطَأْ مَنزِلِي، وَلَمْ تَذُقْ لِي طَعامًا وَلا شَرابًا، وَذٰلِكَ مَنْقَصَةٌ وَعارٌ عَلَيَّ! قالَ لَهُ الْقِرْدُ: وَمَا يُرِيدُ الْمَرْءُ مِنْ خَلِيلِهِ إِلَّا أَنْ يَبْذُلَ لَهُ وُدَّهُ، وَيُصْفِيَ لَهُ قَلْبَهُ، وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَفُضُولٌ[5]. قالَ الْغَيْلَمُ : نَعَمْ. غَيْرَ أَنَّ الاجْتِماعَ عَلَى

---

(١) وأخذ مكانه: استولى على مملكته وتولى بدلا منه. ارتقى إليها: صعد. مُقامه: محل إقامته.

(٢) وإيقاعاً: نغمة جميلة. وثمّ غيلم: وهناك. ألف: صادقه واطمأن إليه. فجزعت: خافت.

(٣) مؤاكله ومشاربه: آكل وشارب معه. (٤) وإثمه: ذنبه. أي ذنب هذا الغدر وجزاؤه. لا يعدلها: لا يساويها.

(٥) ما حَبَسك؟: ما منعك؟ . يغشوا منزله: يزوروه ويحلوا ضيوفا عليه ويتزلوا به. منقصة: أمر ينقص من قدري. ففضول: زيادة بلا فائدة.

الطَّعامِ وَالشَّرابِ آكَدُ لِلْمَوَدَّةِ وَالْأُنْسِ؛ لِأَنَّا نَرَى الدَّوابَّ إِذا اعْتَلَفَتْ مَعًا أَلِفَ بَعْضُها بَعْضًا. وَكانَ يُقالُ : لا يَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ يَلَجَّ عَلَى إِخْوانِهِ فِي الْمَسْأَلَةِ فَإِنَّ الْعِجْلَ إِذا أَكْثَرَ مَصَّ ضَرْعِ أُمِّهِ نَطَحَتْهُ؛ فَرَغِبَ الْقِرْدُ فِي الذَّهابِ مَعَهُ فَقالَ: حُبًّا وَكَرامةً، وَنَزَلَ فَرَكِبَ ظَهْرَ الْغَيْلَمِ، فَسَبَحَ بِهِ حَتَّى تَجاوَزَ قَلِيلًا عَرَضَ لَهُ قُبْحُ ما أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَدْرِ، فَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَوَقَفَ، وَقالَ فِي نَفْسِهِ: كَيْفَ أَغْدِرُ بِخَلِيلِي لِكَلِمةٍ قالَتْها امْرَأَةٌ مِنَ الْجاهِلاتِ؟! وَمَا أَدْرِي لَعَلَّ جارتِي قَدْ خَدَعَتْنِي وَكَذَبَتْ بِما رَوَتْ[1] عَنِ الْأَطِبَّاءِ! فَإِنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بِالنَّارِ، وَالرِّجالَ بِالْأَخْذِ وَالْعَطاءِ، وَالدَّوابِ بِالْحَمْلِ وَالْجَرْيِ، وَلا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُجَرِّبَ مَكْرَ النِّساءِ الشِّرِّيراتِ، وَلا يَقْدِرُ عَلَى كَيْدِهِنَّ وَكَثْرَةِ حِيَلِهِنَّ!! فَقالَ لَهُ الْقِرْدُ : ما لِي أَراكَ مُهْتَمًّا؟! قالَ الْغَيْلَمُ : إِنَّما هَمِّي لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدةُ الْمَرَضِ؛ وَذٰلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرامِتِكَ وَمُلاطَفَتِكَ. قالَ الْقِرْدُ : إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كَرامتِي يَكْفِيكَ مَئُونةَ التَّكَلُّفِ. قالَ الْغَيْلَمُ : أَجَلْ. وَمَضَى بِالْقِرْدِ ساعةً، ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثانِيةً[2] فَساءَ ظَنُّ الْقِرْدِ، وَقالَ فِي نَفْسِهِ ما احْتِباسُ الْغَيْلَمِ وَإِبْطاؤُهُ إِلَّا لِأَمْرٍ، وَلَسْتُ آمِنًا أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّرَ لِي، وَحالَ عَنْ مَوَدَّتِي، فَأَرادَ بِي سُوءًا؛ فَإِنَّهُ لا شَيْءَ أَخَفُّ وَأَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ الْقَلْبِ! وَقَدْ يُقالُ : يَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ لا يَغْفُلَ عَنِ الْتِماسِ ما فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوانِهِ وَصَدِيقِهِ عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ، وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ، وَعِنْدَ الْقِيامِ وَالْقُعُودِ، وَعَلَى كُلِّ حالٍ. فَإِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلى ما فِي الْقُلُوبِ[3]. وَقَدْ قالَتِ الْعُلَماءُ : إِذا دَخَلَ قَلْبَ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رِيبةٌ؛ فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْمِ فِي التَّحَفُّظِ مِنْهُ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذٰلِكَ فِي لَحَظاتِهِ وَحالاتِهِ؛ فَإِنْ كانَ ما يَظُنُّ حَقًّا ظَفِرَ بِالسَّلامةِ، وَإِنْ كانَ باطِلًا ظَفِرَ بِالْحَزْمِ، وَلَمْ يَضُرَّهُ ذٰلِكَ. ثُمَّ قالَ لِلْغَيْلَمِ: ما يَحبِسُكَ؟ وَمالِي أَراكَ مُهْتَمًّا كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى؟! قالَ : يُهِمُّنِي أَنَّكَ تَأْتِي مَنْزِلِي، فَلا تَجِدُ أَمْرِي، كَما أُحِبُّ ، لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضةٌ. قالَ الْقِرْدُ : لا تَغْتَمَّ؛ فَإِنَّ الْغَمَّ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. وَلٰكِنِ الْتَمِسْ ما يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ؛ فَإِنَّهُ يُقالُ : لِيَبْذُلْ ذَوُو الْمالِ مالَهُمْ فِي أَرْبَعَةِ مَواضِعَ : فِي الصَّدَقةِ، وَفِي وَقْتِ الْحاجةِ، وَعَلَى الْبَنِينَ، وَعَلَى الْأَزْواجِ، وَلا سِيَّما إِذا كُنَّ صالِحاتٍ[4]. قالَ الْغَيْلَمُ : صَدَقْتَ! وَقَدْ قالَتِ الْأَطِبَّاءُ : إِنَّهُ لا دَواءَ لَها إِلَّا قَلْبُ قِرْدٍ ؛ فَقالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ: وَاسَوْءَتَاهُ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحِرْصُ وَالشَّرَهُ عَلَى كِبَرِ سِنِّي؛

---

(١) آكد للمودة: يعمل على تأكيدها وتقويتها وتوثيقها. اعتلفت: طعمت العلف هو أكل الدواب. الضرع: للبقر كالثدي للمرأة. روت: نقلت.

(٢) أبلغه: أي أصل إليه. مؤنة التكلف: ثقل وشدة. أجَلْ: نعم. (٣) وحال عن مودتي: تحول وانقلب.

(٤) ريبة: شك. الحزم: ضبط الأمر والأخذ فيه بالثقة. لا تغتمّ: لا تحزن. لا يغني عنك: لا ينفعك.

حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرٍّ وَرْطَةٍ! وَلَقَدْ صَدَقَ الَّذِي قالَ : يَعِيشُ الْقانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا، وَذُو الْحِرْصِ وَالشَّرَهِ يَعِيشُ ما عاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ. وَإِنِّي قَدِ احْتَجْتُ الآنَ إِلَى عَقْلِي فِي الْتِماسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ[1]. ثُمَّ قالَ لِلْغَيْلَمِ: وَمَا مَنَعَكَ - أَصْلَحَكَ اللهُ - أَنْ تُعْلِمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي حَتَّى كُنْتُ أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي؛ فَإِنَّ هٰذِهِ سُنَّةٌ فِينا مَعَاشِرَ الْقِرَدَةِ إِذا خَرَجَ أَحَدُنا لِزِيارَةِ صَدِيقٍ لَهُ خَلَّفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ، لِنَنْظُرَ إِذا نَظَرْنا إِلَى حُرَمِ الْمَزُورِ، وَلَيْسَ قُلُوبُنا مَعَنا. قالَ الْغَيْلَمُ : وَأَيْنَ قَلْبُكَ الآنَ؟ قالَ: خَلَّفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ، فَإِنْ شِئْتَ فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ حَتَّى آتِيَكَ بِهِ. فَفَرِحَ الْغَيْلَمُ بِذٰلِكَ، وَقالَ : لَقَدْ وافَقَنِي صاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدِرَ بِهِ. ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ إِلَى مَكانِهِ، فَلَمَّا قارَبَ السَّاحِلَ، وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ، فَارْتَقَى الشَّجَرَةَ. فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلَمِ ناداهُ : يا خَلِيلِي، احْمِلْ قَلْبَكَ وَانْزِلْ فَقَدْ حَبَسْتَنِي. فَقالَ الْقِرْدُ : هَيْهاتِ[2]! أَتَظُنُّ أَنِّي كَالْحِمارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنانِ؟! قالَ الْغَيْلَمُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

مثل ابن آوى والأسد والحمار

قال القرد : زَعَمُوا أَنَّه كانَ أَسَدٌ فِي أَجَمَةٍ، وَكانَ مَعَهُ ابْنُ آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَضَلاتِ طَعامِهِ، فَأَصابَ الأَسَدَ جَرَبٌ، وَضَعُفَ شَدِيدًا وَجُهِدَ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ! فَقالَ لَهُ ابْنُ آوَى : ما بالُكَ يا سَيِّدَ السِّباعِ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوالُكَ؟ قالَ: هٰذا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي، وَلَيْسَ لَهُ دَواءٌ إِلَّا قَلْبُ حِمارٍ وَأُذُناهُ. قالَ ابْنُ آوَى : ما أَيْسَرَ هٰذا! وَقَدْ عَرَفْتُ بِمَكانِ كَذا حِمارًا مَعَ قَصَّارٍ، يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيابَهُ، وَأَنا آتِيكَ بِهِ، ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْحِمارِ، فَأَتاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقالَ لَهُ : مالِي أَراكَ مَهْزُولًا؟ قالَ : لِسُوءِ تَدْبِيرِ صاحِبِي فَإِنَّهُ لا يَزالُ يُجِيعُ بَطْنِي، وَيُثْقِلُ ظَهْرِي[3]. وَمَا تَجْتَمِعُ هاتانِ الْحالَتانِ عَلَى جِسْمٍ إِلَّا أَنْحَلَتَاهُ وَأَسْقَمَتَاهُ! فَقالَ لَهُ : كَيْفَ تَرْضَى الْمُقامَ مَعَه عَلَى هٰذا؟! قالَ : مالِي حِيلَةٌ لِلْهَرَبِ مِنْهُ؛ فَلَسْتُ أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا أَضَرَّ بِي إِنْسانٌ ، فَكَدَّنِي وَأَجاعَنِي! قالَ ابْنُ آوَى : فَأَنا أَدُلُّكَ عَلَى مَكانٍ مَعْزُولٍ عَنِ النَّاسِ ، لا يَمُرُّ بِهِ إِنْسانٌ، خَصِيبُ الْمَرْعَى، فِيهِ عانَةٌ مِنَ الْحُمُرِ، تَرْعَى آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً[4]. قالَ الْحِمارُ : وَمَا يَحْبِسُنا عَنْها؛ فَانْطَلِقْ بِنا إِلَيْها، فَانْطَلَقَ بِهِ نَحْوَ الأَسَدِ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى، وَدَخَلَ الْغابَةَ عَلَى الأَسَدِ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكانِ الْحِمارِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ، وَأَرادَ أَنْ يَثِبَ

---

(١) وَاسَوءتاه: واحزني. ونصَب: إعياء.
(٢) سنّة: عادة وطريقة. هيهات: بَعُد نزولي إليك.
(٣) أجمة: شجر كثير ملتف والجمع أجم. وجُهد: أُتعِبَ. قصار: مبيض الثياب ومحوّرها. دلف: أسرع. ويُثقل ظهري: يحملني فوق طاقتي.
(٤) أنحلتاه: جعلتاه نحيلا هزيلا سقيما. فكدّني: أتعبني. عانة: قطيع من الحُمُرُ. والحُمُرُ جمع حمار.

عَلَيْهِ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِضَعْفِهِ، وَتَخَلَّصَ الْحِمارُ مِنْهُ، فَأَفْلَتَ هَلِعًا عَلَى وَجْهِهِ . فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحِمارِ، قالَ لَهُ : يا سَيِّدَ السِّباعِ أَعَجَزْتَ إِلَى هٰذِهِ الْغايةِ؟! فَقالَ لَهُ : إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى فَلَنْ يَنْجُوَ مِنِّي أَبَدًا؛ فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمارِ، فَقالَ لَهُ : ما الَّذِي جَرَى عَلَيْكَ؟ إِنَّ أَحَدَ الْحُمرِ رَآكَ غَرِيبًا، فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّبًا بِكَ، وَلَوْ ثَبَتَّ لَآنَسَكَ، وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحابِهِ[1]. فَلَمَّا سَمِعَ الْحِمارُ ذٰلِكَ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَدًا قَطُّ، صَدَّقَ ما قالَهُ ابْنُ آوَى، وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسَدِ. فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ وَأَعْلَمَهُ بِمَكانِهِ، وَقالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لَهُ ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ، فَلا يُدْرِكَنَّكَ الضَّعْفُ فِي هٰذِهِ النَّوْبةِ، فَإِنَّهُ إِنْ أَفْلَتَ لَنْ يَعُودَ مَعِي أَبَدًا، وَالْفُرَصُ لا تُصابُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ فَجاشَ جأْشُ الْأَسَدِ لِتَحْرِيضِ ابْنِ آوَى لَهُ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ الْحِمارِ، فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ عاجَلَهُ بِوَثْبةٍ افْتَرَسَهُ بها. ثُمَّ قالَ : قَدْ ذَكَرَتِ الْأَطِبَّاءُ : أَنَّهُ لا يُؤْكَلُ إِلَّا بَعْدَ الِاغْتِسالِ وَالطُّهُورِ[2]. فَاحْتَفِظْ بِهِ، حَتَّى أَعُودَ فَآكُلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ، وَأَتْرُكَ ما سِوَى ذٰلِكَ قُوتًا لَكَ. فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَسَدُ لِيَغْتَسِلَ عَمَدَ ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمارِ، فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذُنَيْهِ رَجاءَ أَنْ يَتَطَيَّرَ الْأَسَدُ مِنْهُ، فَلا يَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا! ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكانِهِ، فَقالَ لِابْنِ آوَى : أَيْنَ قَلْبُ الْحِمارِ وَأُذُناهُ؟ قالَ ابْنُ آوَى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كانَ لَهُ قَلْبٌ يَعْقِلُ بِهِ، وَأُذُنانِ يَسْمَعُ بِهِما، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَما أَفْلَتَ وَنَجا مِنَ الْهَلَكَةِ[3]!.

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ كَذٰلِكَ الْحِمارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلا أُذُنانِ. وَلٰكِنَّكَ احْتَلْتَ عَلَيَّ، وَخَدَعْتَنِي فَخَدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ وَاسْتَدْرَكْتُ فارِطَ أَمْرِي. وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الْحِلْمُ لا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْعِلْمُ. قالَ الْغَيْلَمُ: صَدَقْتَ إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ، وَإِذا أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ يَسْتَحْيِ أَنْ يُؤَدِّبَ لِصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ. وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطةٍ أَمْكَنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْها بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ، كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْثُرُ عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَيْها يَعْتَمِدُ فِي نُهُوضِهِ[4].

فَهٰذا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحاجةَ فَإِذا ظَفِرَ بها أَضاعَها!

---

(١) وما يحبسنا عنها؟ : وما يمنعنا . هلعاً : مسرعاً مضطربا . إلى هذه الغاية : أي إلى هذا الحد .

(٢) النوبة : الفرصة . لا تصاب : لا توجد . فجاش جأش الأسد : هاج وحميت نفسه .

(٣) يتطير : يتشاءم . أي يعتقد الشؤم وهو ضد البركة .

(٤) واستدركت فارط أمري : طلبت ما فاتني وعملت على تداركه . ورطة : شدة . يعثر : يسقط .

بابُ

النَّاسِكِ وَابْنِ عِرْس

(وهو مثل من يهجم على الأمور ، ويعجل في القضاء قبل التثبت ؛ فتصير عاقبة أمره إلى الندامة والخسارة!)

قالَ دَبْشَليمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي : **مَثَلَ الرَّجُلِ الْعَجْلانِ فِي أَمْرِهِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلا نَظَرٍ فِي الْعَواقِبِ**(١).

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ مُتَثَبِّتًا لَمْ يَزَلْ نادِمًا، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى ما صارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ مِنْ قَتْلِ ابْنِ عِرْسٍ، وَقَدْ كانَ لَهُ وَدُودًا. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قال الفيلسوف : زَعَمُوا أَنَّ ناسِكًا مِنَ النُّسَّاكِ كانَ بِأَرْضِ جُرْجانَ وَكانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ لَهَا مَعَهُ صُحْبَةٌ ، فَمَكَثَا زَمانًا لَمْ يُرْزَقَا وَلَدًا. ثُمَّ حَمَلَتْ بَعْدَ الْإِياسِ، فَسُرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسُرَّ النَّاسِكُ بِذٰلِكَ وَحَمِدَ اللهَ تَعالَى وَسَأَلَهُ: أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا، وَقالَ لِزَوْجَتِهِ: أَبْشِرِي، ؛ فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلامًا، فِيهِ لَنا مَنافِعُ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ، أَخْتارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْماءِ، وَأُحْضِرَ لَهُ جَمِيعَ الْمُؤَدِّبِينَ(٢). فَقالَتِ الْمَرْأَةُ: ما يَحْمِلُكَ أَيُّها الرَّجُلُ عَلَى أَنْ تَتَكَلَّمَ بِما لا تَدْرِي، أَيَكُونُ أَمْ لا؟! وَمَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ أَصابَهُ ما أَصابَ النَّاسِكَ الَّذِي أَهْرَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ! قالَ لَها: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قالَتْ : زَعَمُوا أَنَّ ناسِكًا كانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ تاجِرٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ رِزْقٌ مِنَ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، وَكانَ يَأْكُلُ مِنْهُ قُوتَهُ وَحاجَتَهُ، وَيَرْفَعُ الْباقِيَ وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ فَيُعَلِّقُها فِي وَتِدٍ فِي ناحِيَةِ الْبَيْتِ، حَتَّى امْتَلَأَتْ(٣). فَبَيْنَما النَّاسِكُ ذَاتَ يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ، وَالْجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ فَوْقَ رَأْسِهِ، تَفَكَّرَ فِي غَلاءِ السَّمْنِ وَالْعَسَلِ، فَقالَ : سَأَبِيعُ ما فِي هٰذِهِ الْجَرَّةِ بِدِينارٍ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشَرَةَ أَعْنُزٍ(٤)؛ فَيَحْبَلْنَ، وَيَلِدْنَ فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ مَرَّةً ، وَلا تَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ مَعْزًا كَثِيرًا إِذا وَلَدَتْ أَوْلادُها. ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هٰذا النَّحوِ بِسِنِينَ، فَوَجَدَ ذٰلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ عَنْزٍ. فَقالَ : أَنا أَشْتَرِي بِها مِئَةً مِنَ الْبَقَرِ؛ بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَعْنُزٍ ثَوْرًا أَوْ بَقَرَةً، وَأَشْتَرِي أَرْضًا

---

(١) العَجْلان : المتسرع . روية : تفكر وتأمل .

(٢) الإياس : قطع الأمل والرجاء . أبشري : أفرحي . قرة عين : أي سرور . (٣) أهرق : أراق وصب . (٤) أعنز : جمع عنز .

وَبَذْرًا، وَأَسْتَأْجِرُ أَكَرَةً، وَأَزْرَعُ عَلَى الثِّيرانِ، وَأَنْتَفِعُ بِأَلْبانِ الْإِناثِ وَنَتَائِجِها، فَلا تَأْتِي عَلَيَّ خَمْسُ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ مِنَ الزَّرْعِ مالًا كَثِيرًا؛ فَأَبْنِي بَيْتًا فاخِرًا، وَأَشْتَرِي إِماءً وَعَبِيدًا؛ وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً جَمِيلةً ذاتَ حُسْنٍ، فَتَحْبَلُ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلامٍ سَرِيٍّ نَجِيبٍ، فَأَخْتارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْماءِ؛ فَإِذا تَرَعْرَعَ أَدَّبْتُهُ وَأَحْسَنْتُ تَأْدِيبَهُ، وَأُشَدِّدُ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ فَإِنْ قَبِلَ مِنِّي وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ بِهٰذِهِ الْعُكَّازةِ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَرَّةِ فَكَسَرَهَا، فَسالَ ما فِيها عَلى وَجْهِهِ[1].

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِكَيْلَا تَعْجَلَ بِذِكْرِ ما لا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ، وَما لا تَدْرِي : أَيَصِحُّ أَمْ لا يَصِحُّ؟ وَلٰكِنِ ادْعُ رَبَّكَ وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ التَّصاوِيرَ فِي الْحائِطِ إِنَّما هِيَ ما دامَ بِناؤُهُ قائِمًا؛ فَإِذا وَقَعَ وَتَهَدَّمَ لَمْ يُقْدَرْ عَلَيْها. فَاتَّعَظَ النَّاسِكُ بِما حَكَتْ زَوْجَتُهُ !

ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلامًا جَمِيلًا، فَفَرِحَ بِهِ أَبُوهُ، وَبَعْدَ أَيَّامٍ حانَ لَهَا أَنْ تَتَطَهَّرَ. فَقالَتِ الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ: أَقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ، فَأَغْتَسِلَ وَأَعُودَ؛ ثُمَّ إِنَّها انْطَلَقَتْ إِلَى الْحَمَّامِ، وَخَلَّفَتْ زَوْجَها وَالْغُلامَ[2]. فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جاءَ رَسُولُ الْمَلِكِ يَسْتَدْعِيهِ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يُخَلِّفُهُ عِنْدَ ابْنِهِ غَيْرَ ابْنَ عِرْسٍ داجِنٍ عِنْدَهُ، كانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيرًا، فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلُ وَلَدِهِ. فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِما الْبَيْتَ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ، فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَحْجارِ الْبَيْتِ حَيَّةٌ سَوْداءُ، فَدَنَتْ مِنَ الْغُلامِ، فَضَرَبَها ابْنُ عِرْسٍ، فَوَثَبَتْ عَلَيْهِ فَقَتَلَها، ثُمَّ قَطَّعَها وَامْتَلأَ فَمُهُ مِنْ دَمِها.

ثُمَّ جاءَ النَّاسِكُ وَفَتَحَ الْبابَ، فَالْتَقَاهُ ابْنُ عِرْسٍ، كَالْمُشِيرِ لَهُ بِما صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ! فَلَمَّا رَآهُ مُلَوَّثًا بِالدَّمِ، وَهُوَ مَذْعُورٌ، طارَ عَقْلُهُ،وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ، وَلَمْ يَتَثَبَّتْ فِي أَمْرِهِ، وَلَمْ يَتَرَوَّ فِيهِ حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْحالِ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ ما ظَنَّ مِنْ ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ عَجَّلَ عَلَى ابْنِ عِرْسٍ، وَضَرَبَهُ بِعُكَّازةٍ كانَتْ فِي يَدِهِ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ فَماتَ[3].

وَدَخَلَ النَّاسِكُ ، فَرَأَى الْغُلامَ سَلِيمًا حَيًّا، وَعِنْدَهُ أَسْوَدُ مُقَطَّعٌ. فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ، وَتَبَيَّنَ لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ، وَقالَ : لَيْتَنِي لَمْ أُرْزَقْ هٰذا الْوَلَدَ، وَلَمْ أَغْدِرْ هٰذا الْغَدْرَ! وَدَخَلَتِ امْرَأَتُهُ فَوَجَدَتْهُ عَلَى تِلْكَ الْحالِ فَقالَتْ لَهُ : مَا شَأْنُكَ؟ فَأَخْبَرَها بِالْخَبَرِ مِنْ حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عِرْسٍ، وَسُوءِ مُكافَأَتِهِ لَهُ. فَقالَتْ : هٰذِهِ ثَمَرَةُ الْعَجَلَةِ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ إِذا فَرَطَ ، مِثْلُ

---

(١) أكرة: حراثين. إماء: جمع أمة وهي الجارية. سَرِيّ: شريف. نجيب: كريم.

(٢) وتوسّل: أي اعمل عملا تقرّب به إلى الله تعالى. فاتعظ: قَبِل الموعظة. حان لها: آن أوان غسلها.

(٣) خلّفت: تركت. فلم يلبث: فلم يبطئ. داجن: أليف. عديل ولده: مثل. فدنت من الغلام: قربت إليه. مذعور: خائف. ولم يتثبت: لم يتأنّ. لم يَتَروّ: لم يفكر. أم رأسه: دماغه.

الْكَلامِ إِذا خَرَجَ، وَالسَّهْمِ إِذا مَرَقَ لا مَرَدَّ لَهُ!

فَهَذا مَثَلُ مَنْ لا يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ بَلْ يَفْعَلُ أَغْراضَهُ بِالسُّرْعة[1].

بابُ

الْجُرَذِ وَالسِّنَّوْرِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْداؤُهُ ، وَأَحْدَقُوا بِهِ مِنْ كُلِّ جانِبٍ؛ فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلاكِ فَالْتَمَسَ النَّجاةَ وَالْمَخْرَجَ بِمُوالاةِ بَعْضِ أَعْدائِهِ، وَمُصالَحَتِهِ، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ ، ثُمَّ وَفَى لِمَنْ صالَحَهُ مِنْهُمْ. وَأَخْبِرْنِي عَنْ مَوْضِعِ الصُّلْحِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ[2]؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَداوةَ لا تَثْبُتانِ عَلَى حالَةٍ أَبَدًا، وَرُبَّما حالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى الْعَداوةِ، وَصارَتِ الْعَداوةُ وِلايةً وَصَداقةً؛ وَلِهذا حَوادِثُ وَعِلَلٌ وَتَجارِبُ. وذُو الرَّأْيِ يُحْدِثُ لِكُلِّ ما يَحْدُثُ مِنْ ذٰلِكَ رَأْيًا جَدِيدًا؛ أَمَّا مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَأْسِ؛ وَأَمَّا مِنْ قِبَلِ الصَّدِيقِ فَبِالِاسْتِئْناس[3]، وَلَا تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَداوةٌ كانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ، مِنْ مُقارَبَتِهِ وَالِاسْتِنْجادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ مَرْهُوبٍ، أَوْ جَرِّ مَرْغُوبٍ، وَمَنْ عَمِلَ فِي ذٰلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفِرَ بِحاجَتِهِ.

وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ الْجُرَذِ وَالسِّنَّوْرِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرْطَةِ، فَنَجَوَا بِاصْطِلاحِهِما جَمِيعًا مِنَ الْوَرْطَةِ وَالشِّدَّةِ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ ؟

قالَ بَيْدَبا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمةً كانَ فِي أَصْلِها جُحْرُ سِنَّوْرٍ يُقالُ لَهُ : رُومِيٌّ. وَكانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ جُرَذٍ يُقالُ لَهُ فَرِيدُونُ، وَكانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيرًا ما يَتَداوَلُونَ ذٰلِكَ الْمَكانَ، يَصِيدُونَ فِيهِ الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ[4]. فَأَتَى ذاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ فَنَصَبَ حِبالَتَهُ قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِيٍّ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيها. فَخَرَجَ الْجُرَذُ يَدِبُّ، وَيَطْلُبُ ما يَأْكُلُ وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِيٍّ. فَبَيْنَما هُوَ يَسْعَى إِذ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرَكِ فَسُرَّ وَاسْتَبْشَرَ. ثُمَّ الْتَفَتَ فَرَأَى خَلْفَهُ ابْنَ عِرْسٍ يُرِيدُ أَخْذَهُ، وَفِي الشَّجَرَةِ بُومًا يُرِيدُ

---

(١) ما شأنك؟ : ما أمرك؟ وما قصتك؟ . فَرَطَ : سبق من غير روية . مرق : نفذ في الرمية .

(٢) السُّنور : الهِرّ . وأحدقوا : أحاطوا . فأشرف : اطلع وقارب . النجاة : طلب الخلاص . بموالاة : بمصادقة .

(٣) حالت : تحولت وانقلبت . ولاية : نُصرة ومحبة . فبالبأس : الشجاعة والشدة في الحرب . فبالاستئناس : الألفة .

(٤) والاستنجاد به : الاستعانة . مرهوب : مخوف . ظفر : فاز . ما يتداولون : يتعاقبونه مرة بعد أخرى .

اخْتِطافَهُ. فَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ، وَخافَ إِنْ رَجَعَ وَرَاءَهُ أَخَذَهُ ابْنُ عِرْسٍ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِينًا أَوْ شِمالًا اخْتَطَفَهُ الْبُومُ، وَإِنْ تَقَدَّمَ أَمامَهُ افْتَرَسَهُ السِّنَّوْرُ. فَقالَ فِي نَفْسِهِ: هٰذا بَلاءٌ قَدِ اكْتَنَفَنِي، وَشُرُورٌ تَظاهَرَتْ عَلَيَّ، وَمِحَنٌ قَدْ أَحاطَتْ بِي[1]! وَبَعْدَ ذٰلِكَ فَمَعِي عَقْلِي، فَلا يُفْزِعُنِي أَمْرِي، وَلا يَهُولُنِي شَأْنِي، وَلا يَلْحَقُنِي الدَّهَشُ، وَلا يَذْهَبُ قَلْبِي شَعاعًا؛ فَالْعاقِلُ لا يَفْرَقُ عِنْدَ سَدادِ رَأْيِهِ، وَلاَ يَعْزُبُ عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حالٍ؛ وَإِنَّما الْعَقْلُ شَبِيهٌ بِالْبَحْرِ الَّذِي لا يُدْرَكُ غَوْرُهُ، وَلا يَبْلُغُ الْبَلاءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ مَجْهُودَهُ، فَيُهْلِكُهُ وَتَحَقُّقُ الرَّجاءِ لا يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغًا يُبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ، فَيَعْمَى عَلَيْهِ أَمْرُهُ. وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هٰذا الْبَلاءِ مَخْلَصًا إِلَّا مُصالَحَةَ السِّنَّوْرِ، فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلاءِ مِثْلُ ما قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ. وَلَعَلَّه إِنْ سَمِعَ كَلامِيَ الَّذِي أُكَلِّمُهُ بِهِ، وَوَعَى عَنِّي صَحِيحَ خِطابِي، وَمَحْضَ صِدْقِي الَّذِي لا خِلافَ فِيهِ، وَلا خِداعَ مَعَهُ، فَفَهِمَهُ وَطَمِعَ فِي مَعُونَتِي إِيَّاهُ، نَخْلُصُ جَمِيعًا[2].

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ دَنا مِنَ السِّنَّوْرِ فَقالَ لَهُ : كَيْفَ حالُكَ ؟ قالَ لَهُ السِّنَّوْرُ : كَما تُحِبُّ فِي ضَنْكٍ وَضِيقٍ. قالَ : وَأَنا الْيَوْمَ شَرِيكُكَ فِي الْبَلاءِ. وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلاصًا إِلَّا بِالَّذِي أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلاصَ، وَكَلامِي هٰذا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلا خَدِيعَةٌ. وَابْنُ عِرْسٍ ها هُوَ كامِنٌ لِي، وَالْبُومُ يَرْصُدُنِي ، وَكِلاهُما لِي وَلَكَ عَدُوٌّ[3]. وَإِنِّي وَإِيَّاكَ وَإِنْ كُنَّا مُخْتَلِفَى الطِّباعِ، لَكِنَّنا مُتَّفِقا الْحالَةِ، وَالَّذِينَ حالَتُهُمْ واحِدَةٌ ، وَطِباعُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، تَجْمَعُهُمُ الْحالَةُ، وَإِنْ فَرَّقَتْهُمُ الطِّباعُ. فَإِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِيَ الْأَمانَ قَطَّعْتُ حَبائِلَكَ، وَخَلَّصْتُكَ مِنْ هٰذِهِ الْوَرْطَةِ، فَإِنْ كانَ ذٰلِكَ تَخَلَّصَ كُلُّ واحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صاحِبِهِ، كَالسَّفِينَةِ وَالرُّكَّابِ فِي الْبَحْرِ، فَبِالسَّفِينَةِ يَنْجُونَ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ. فَلَمَّا سَمِعَ السِّنَّوْرُ كَلامَ الْجُرَذِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صادِقٌ قالَ لَهُ: إِنَّ قَوْلَكَ هٰذا لَشَبِيهٌ بِالْحَقِّ، وَأَنا أَيْضًا راغِبٌ فِيما أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي الْخَلاصَ. ثُمَّ إِنِّي إِنْ فَعَلْتَ ذٰلِكَ سَأَشْكُرُكَ ما بَقِيتُ[4]. قالَ الْجُرَذُ. فَإِنِّي سَأَدْنُو مِنْكَ فَأَقْطَعُ الْحَبائِلَ كُلَّها إِلَّا حَبْلًا واحِدًا؛ أُبْقِيهِ لِأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ، وَأَخَذَ فِي تَقْرِيضِ حَبائِلِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ وَابْنَ عِرْسٍ، لَمَّا رَأَيا دُنُوَّ الْجُرَذِ مِنَ السِّنَّوْرِ، أَيِسا مِنْهُ وَانْصَرَفا. ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِيٍّ فِي قَطْعِ الْحَبائِلِ. فَقالَ لَهُ : مالِي لا أَراكَ جادًّا فِي قَطْعِ

---

(١) حبالته: مصيدته. يدب: يمشي الهويني. حذر: خائف. اكتنفني: أحاط به. تظاهرت: تعاونت.

(٢) ولا يهولني: ولا يفزعني. الدهش: الحيرة. شعاعا: مُتَبَدِّدًا من الخوف. لا يفرق: أي لا يخاف. سداد: إصابة وتوفيق. يعزب: يغيب. غوره: قعره. مجهوده: غاية جهده. فيعمى: يلتبس. نزل به: حَلّ. ووعى: حفظ. محض صدقي: خالص صدقي .

(٣) ضنك: ضعف. كامن: مستتر. يرصدني: يرقبني.

(٤) الورطة: الشدة.

حَبائِلِي؟! فَإِنْ كُنْتَ قَدْ ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ، فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ، وَتَوَانَيْتَ فِي حاجتِي فَما ذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ لا يَتَوانَى فِي حَقِّ صاحِبِهِ[1]، وَقَدْ كانَ لَكَ فِي سابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدةِ وَالنَّفْعِ، ما قَدْ رَأَيْتَ وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكافِئَنِي بِذٰلِكَ، وَلا تَذْكُرَ الْعَداوةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ. فَالَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيَكَ ذٰلِكَ مَعَ ما فِي الْوَفاءِ مِنَ الْفَضْلِ وَالأَجْرِ، وَمَا فِي الْغَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعاقِبةِ. فَإِنَّ الْكَرِيمَ لا يَكُونُ إِلَّا شَكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْواحِدَةُ مِنَ الإِحْسانِ الْخِلالَ الْكَثِيرةَ مِنَ الإِساءَةِ. وَقَدْ يُقالُ : إِنَّ أَعْجَلَ الْعُقُوبةِ عُقُوبةُ الْغَدْرِ، وَمَنْ إِذا تُضُرِّعَ إِلَيْهِ وَسُئِلَ الْعَفْوَ، فَلَمْ يَرْحَمْ وَلَمْ يَعْفُ فَقَدْ غَدَرَ. قالَ الْجُرَذُ: إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقانِ: طائِعٌ، وَمُضْطَرٌّ، وَكِلاهُما يَلْتَمِسانِ الْمَنْفَعَةَ وَيَحْتَرِسانِ مِنَ الْمَضَرَّةِ[2] : فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ، وَيُؤْمَنُ فِي جَمِيعِ الأَحْوالِ، وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَفِي بَعْضِ الأَحْوالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ، وَفِي بَعْضِها يَتَحَذَّرُ مِنْهُ، وَلا يَزَالُ الْعاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعضَ حاجاتِهِ لِبَعْضِ ما يَتَّقِي وَيَخَافُ، وَلَيْسَ غايةُ التَّواصِلِ مِنْ كُلٍّ مِنَ الْمُتَواصِلَيْنِ إِلَّا طَلَبَ عاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغَ مَأْمُولِهِ. وَأَنَا وافٍ لَكَ بِما وَعَدْتُكَ، وَمُحْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذٰلِكَ مِنْ حَيْثُ أَخافُكَ تَخَوُّفَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ ما أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلَى مُصالَحَتِكَ، وَأَلْجَأَكَ إِلَى قَبُولِ ذٰلِكَ مِنِّي، فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا[3]. فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ فِي حِينِهِ فَلا حُسْنَ لِعاقِبَتِهِ، وَأَنا قاطِعٌ حَبائِلَكَ كُلَّها، غَيْرَ أَنِّي تارِكٌ عُقْدةً أَرْتَهِنُكَ بِها، وَلاَ أَقْطَعُها إِلَّا فِي السَّاعةِ الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيها عَنِّي مَشْغُولٌ، وَذٰلِكَ عِنْدَ مُعايَنَتِي الصَّيَّادَ. ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبائِلِ السِّنَّوْرِ، فَبَيْنَما هُوَ كَذٰلِكَ إِذ وافَى الصَّيَّادُ. فَقالَ لَهُ السِّنَّوْرُ: الآنَ جاءَ وَقْتُ الجِدِّ فِي قَطْعِ حَبائِلِي، فَجَهَدَ الْجُرَذُ نَفْسَهُ فِي الْقَرْضِ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السِّنَّوْرُ إِلَى الشَّجَرةِ عَلَى دَهَشٍ مِنَ الصَّيَّادِ، وَدَخَلَ الْجُرَذُ بَعْضَ الأَجْحارِ وَجاءَ الصَّيَّادُ، فَأَخَذَ حَبائِلَهُ مُقَطَّعَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ خائِبًا[4]! ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ بَعْدَ ذٰلِكَ، وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُوَ مِنَ السِّنَّوْرِ، فَنَاداهُ السِّنَّوْرُ: أَيُّها الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ذُو الْبَلاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي، ما مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ لِأُجازِيَكَ بِأَحْسَنِ ما أَسْدَيْتَ إِلَيَّ؟! هَلُمَّ إِلَيَّ، وَلا تَقْطَعْ إِخائِي، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّخَذَ صَدِيقًا ، وَقَطَعَ إِخاءَهُ، وَأَضاعَ صَداقَتَهُ حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخائِهِ، وَأَيِسَ مِنْ نَفْعِهِ الإِخْوانُ وَالأَصْدِقاءُ. وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لا تُنْسَى، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكافَأَةَ ذٰلِكَ مِنِّي،

---

(١) لاستوثق لنفسي: لأستأمن عليها. تقريض حبائله: تقطيع. أيسا: قطعا الرجاء. وتوانيت: لم تهتم.
(٢) وأنت حقيق: أهل. الخَلَّة: الخصلة. مضطر: محتاج.
(٣) فيسترسل إليه: يركن إليه ويوثق به. يرتهن: يأخذها رهنا. مأموله: أي ما يرجوه.
(٤) فجهد الجرذ نفسه: جد وبذل قدرته. القرض: القطع. بعض الأجحار: الأوكار.

وَمِنْ إِخْوانِي وَأَصْدِقائِي، وَلا تَخافَنَّ مِنِّي شَيْئًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ ما قِبَلِي لَكَ مَبْذُولٌ[1]. ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيما قالَ . فَناداهُ الْجُرَذُ : رُبَّ صَداقةٍ ظاهِرةٍ باطِنُها عَداوةٌ كامِنةٌ، وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعَداوةِ الظَّاهِرَةِ! وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِسْ مِنْها وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نابَ الْفِيلِ الْهائِجِ، ثُمَّ يَغْلُبُهُ النُّعاسُ فَيَسْتَيْقِظُ تَحْتَ فَراسِنِ الْفِيلِ، فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ. وَإِنَّما سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا، لِما يُرْجَى مِنْ صِدْقِهِ وَنَفْعِهِ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا لِما يُخافُ مِنْ اعْتِدائِهِ وَضَرَرِهِ. وَالعاقِلُ إِذا رَجا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّداقةَ؛ وَإِذا خافَ ضَرَّ الصَّدِيقِ أَظْهَرَ لَهُ الْعَداوةَ؛ أَلَا تَرَى تَتَبُّعَ الْبَهائِمِ أُمَّاتِها رَجاءَ أَلْبانِها، فَإِذا انْقَطَعَ ذٰلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْها[2]. وَرُبَّما قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كانَ يَصِلُهُ مِنْهُ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَداوةً. فَأَمَّا مَنْ كانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَداوةً جَوْهَرِيَّةً، ثُمَّ أَحْدَثَ صَداقةً لِحاجةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ إِذا زالَتِ الْحاجةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذٰلِكَ زالَتْ صَداقَتُهُ، فَتَحَوَّلَتْ وَصارَتْ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ كَالْماءِ الَّذِي يَسْخُنُ بِالنَّارِ، فَإِذا رُفِعَ عَنْها عادَ بارِدًا: وَلَيْسَ مِنْ أَعْدائِي عَدُوٌّ أَضَرُّ لِي مِنْكَ. وَقَدِ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حاجةٌ إِلَى ما أَحْدَثْنا مِنَ الْمُصالَحَةِ، وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي احْتَجْتَ إِلَيَّ وَاحْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ[3]. وَأَخافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهابِهِ عَوْدُ الْعَداوةِ، وَلا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ، وَلا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ! وَلا أَعْلَمُ لَكَ قِبَلِي حاجةً إِلَّا أَن تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي، وَلا أَعْلَمُ لِي قِبَلَكَ حاجةً، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقةٌ؛ فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُحْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِي أَقْرَبُ إِلَى السَّلامةِ مِنَ الْقَوِيِّ إِذا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ. وَالْعاقِلُ يُصالِحُ عَدُوَّهُ إِذا اضْطُرَّ إِلَيْهِ، وَيُصانِعُهُ وَيُظْهِرُ لَهُ وُدَّهُ وَيُرِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الِاسْتِرْسالَ إِلَيْهِ إِذا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذٰلِكَ بُدًّا، ثُمَّ يُعَجِّلُ الِانْصرافَ عَنْهُ حِينَ يَجِدُ إِلَى ذٰلِكَ سَبِيلًا[4].

وَاعْلَمْ أَنَّ سَرِيعَ الِاسْتِرْسال لا تُقالُ عَثْرَتُهُ، وَالْعاقِلُ يَفِي بِمَنْ صالَحَهُ مِنْ أَعْدائِهِ بِما جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَلا يَثِقُ بِهِ كُلَّ الثِّقةِ وَلا يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ، وَيَنْبَغِي أَنْ يُبْعِدَ عَنْهُ ما اسْتَطاعَ. وَأَنا أَودُّكَ مِنْ بَعِيدٍ، وَأُحِبُّ لَكَ مِنَ الْبَقاءِ وَالسَّلامةِ ما لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ وَلَيْسَ عَلَيْكَ أَنْ تُجازِيَنِي عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذٰلِكَ إِذْ لا سَبِيلَ إِلَى اجْتِماعِنا، وَالسَّلامُ[5].

---

(١) ذو البلاء: الاختبار والامتحان. أسديت: أحسنت. هلم إلى : تعال. إخائي: صداقتي. يدك عندي: إحسانك: ما قبلي: ما عندي. مبذول: موهوب.

(٢) فراسن: جمع فرس. وهو للجمل والفيل كالقدم للإنسان. (٣) جوهرية: أصلية. حملته: أغرته وحرّضته. فتحولت: انصرفت.

(٤) ويصانعه: يداهنه ويداريه. (٥) الاسترسال: الركون. لا تقال عثرته: لا يرفع منها. صنيعي: إحساني.

بابُ
الْمَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنْزَةَ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ ؛ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التِّراتِ الَّذِينَ لا بُدَّ لِبَعْضِهِمْ مِنِ اتِّقَاءِ بَعْضٍ :

قالَ بَيْدَبا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ كانَ يُقالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكانَ لَهُ طائِرٌ يُقالُ لَهُ : فَنْزَةُ، وَكانَ لَهُ فَرْخٌ، وَكانَ هٰذا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقانِ بِأَحْسَنِ مَنْطِقٍ، وَكانَ الْمَلِكُ بِهِما مُعْجَبًا، فَأَمَرَ بِهِما أَنْ يُجْعَلا عِنْدَ امْرَأَتِهِ، وَأَمَرَها بِالْمُحافَظَةِ عَلَيْهِما[1]. وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ كانَتْ حامِلًا، فَوَلَدَتْ غُلامًا فَأَلِفَ الْفَرْخُ الْغُلامَ، وَكِلاهُما طِفْلانِ يَلْعَبانِ جَمِيعًا. وَكانَ فَنْزَةُ يَذْهَبُ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْجَبَلِ فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لا تُعْرَفُ ، فَيُطْعِمُ ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا، وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَها. فَأَسْرَعَ ذٰلِكَ فِي نَشْأَتِهِمَا وَشَبابِهِما، وَبانَ عَلَيْهِما أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ، فَازْدادَ لِفَنْزَةَ إِكْرامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً[2]. حَتَّى إِذا كانَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ، وَفَنْزَةُ غائِبٌ فِي اجْتِناءِ الثَّمَرَةِ، وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ الْغُلامِ حَدَثَ مِنَ الْفَرْخِ ما أَغْضَبَ الْغُلامَ، فَأَخَذَهُ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَماتَ! ثُمَّ إِنَّ فَنْزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولاً؛ فَصاحَ وَحَزِنَ! وَقالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لا عَهْدَ لَهُمْ وَلا وَفاءَ! وَوَيْلٌ لِمَنِ ابْتُلِيَ بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلا حُرْمَةَ، وَلا يُحِبُّونَ أَحَدًا، وَلَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذا طَمِعُوا فِيما عِنْدَهُ مِنْ غَناءٍ، وَاحْتاجُوا إِلَى ما عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ؛ فَيُكْرِمُونَهُ لِذٰلِكَ. فَإِذا ظَفِرُوا بِحاجَتِهِمْ مِنْهُ فَلا وُدَّ وَلا إِخاءَ وَلا إِحْسانَ وَلا غُفْرانَ ذَنْبٍ، وَلا مَعْرِفَةَ حَقٍّ[3]. هُمُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى الرِّياءِ وَالْفُجُورِ، وَهُمْ يَسْتَصْغِرُونَ ما يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ الذُّنُوبِ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الْيَسِيرَ؛ إِذا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْواؤُهُمْ. وَمِنْهُمْ هٰذا الْكَفُورُ الَّذِي لا رَحْمَةَ لَهُ، الْغادِرُ بِإِلْفِهِ وَأَخِيهِ. ثُمَّ وَثَبَ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلامِ فَفَقَأَ عَيْنَيْهِ! ثُمَّ طارَ فَوَقَفَ عَلَى شَجَرَةٍ عالِيَةٍ، وَبَلَغَ الْمَلِكَ ذٰلِكَ، فَجَزِعَ أَشَدَّ الْجَزَعِ ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتالَ لَهُ؛ فَيُهْلِكَهُ فَرَكِبَ مِنْ ساعَتِهِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى ناحِيَةِ الطَّائِرِ؛ حَتَّى وَقَفَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَناداهُ وَقالَ لَهُ: إِنَّكَ آمِنٌ فَانْزِلْ يا فَنْزَةُ[4]. فَقالَ لَهُ : أَيُّها الْمَلِكُ ، إِنَّ الْغادِرَ

---

(١) التراث: أصحاب الدم والحقد. جمع ترة. اتقاء: حذر. معجبا: مسروراً. (٢) شطرها: نصفها.
(٣) حجر الغلام: حضنه. حدث: حصل. ابتلى: جُرب وامتحن. ولا حرمة منه: ولا كرامة لهم تحفظ، ولا حقوق تصان.
(٤) الرياء: التظاهر بخلاف ما في الباطن. اليسير: القليل. الكفور: الجاحد النعمة.

مَأْخُوذٌ بِغَدْرِهِ. وَإِنَّهُ إِنْ أَخْطَأَهُ عاجِلُ الْعُقُوبةِ؛ لَمْ يُخْطِئْهُ الآجِلُ حَتَّى إِنَّهُ يُدْرِكُ الأَعْقابَ وَأَعْقَابَ الأَعْقَابِ!. وَإِنَّ ابْنَكَ غَدَرَ بِابْنِي؛ فَعَجَّلْتُ لَهُ الْعُقُوبةَ. قالَ الْمَلِكُ : قَدْ لَعَمْرِي غَدَرَ ابْنِي بِابْنِكَ، وَقَدْ تَناصَفْنا جَمِيعًا؛ فَلَيْسَ لَكَ قِبَلَنَا، وَلا لَنَا قِبَلَكَ وِتْرٌ مَطْلُوبٌ؛ فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِنًا وَلَا تَخَفْ. قالَ فَنْزَةُ: لَسْتُ بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَدًا؛ فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمَوْتُورِ؛ فَإِنَّهُ لا يَزِيدُكَ لُطْفُ الْحَقُودِ وَلِينُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلَّا وَحْشةً مِنْهُ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ؛ فَإِنَّكَ لا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمَوْتُورِ أَمانًا هُوَ أَوْثَقُ لَكَ مِن الذُّعْرِ مِنْهُ، وَلا أَجْوَدُ مِنْ الْبُعْدِ عَنْهُ، وَالِاتِّقاءُ لَهُ أَوْلَى[1]. وَقَدْ كانَ يُقالُ : إِنَّ الْعاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ أَصْدِقَاءَ، وَالإِخْوةَ رُفَقاءَ، وَالأَزْواجَ أُلَفَاءَ، وَالْبَنِينَ ذِكْرًا، وَالْبَنَاتِ خُصَماءَ، وَالأَقارِبَ غُرَماءَ، وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيدًا وَحِيدًا! وَأَنا الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ عِبْئًا ثَقِيلًا لا يَحْمِلُهُ مَعِي أَحَدٌ ، وَأَنا ذاهِبٌ فَعَلَيْكَ مِنِّي السَّلامُ[2]. قالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ قَدِ اجْتَزَيْتَ مِنَّا فِيما صَنَعْناهُ بِكَ، أَوْ كانَ صَنِيعُكَ بِنا مِنْ غَيْرِ ابْتِداءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ، كانَ الأَمْرُ كَما ذَكَرْتَ. وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ قَدْ بادَأْنَاكَ فَما ذَنْبُكَ؟! وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنا؟! هَلُمَّ فَارْجِعْ فَإِنَّكَ آمِنٌ. قالَ فَنْزَةُ: اعْلَمْ أَنَّ الأَحْقادَ لَها فِي الْقُلُوبِ مواضِعُ مُمَكَّنةٌ مُوجِعةٌ! فَالأَلْسُنُ لا تَصْدُقُ فِي خَبَرِها عَنِ الْقُلُوبِ، وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهادةً عَلَى اللِّسانِ مِنَ اللِّسانِ عَلَى الْقَلْبِ .

وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ قَلْبِي لا يَشْهَدُ لِلِسانِكَ بِصِدْقِهِ، وَلا قَلْبَكَ لِلِساني! قالَ الْمَلِكُ: أَلا تَعْلَمُ أَنَّ الضَّغائِنَ، وَالأَحْقادَ تَكُونَ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ؟! فَمَنْ كَانَ ذَا عَقْلٍ كانَ عَلَى إِماتةِ الْحِقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ[3]. قال فَنْزَةُ : إِنَّ ذٰلِكَ لَكَما ذَكَرْتَ، وَلٰكِنْ لا يَنْبَغِي لِذِي الرَّأْيِ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمَوْتُورَ الْحَقُودَ ناسٍ ما وُتِرَ بِهِ، أَوْ مَصْرُوفٌ عَنْهُ. وَذُو الرَّأْيِ يَتَخَوَّفُ الْمَكْرَ وَالْخَدِيعةَ وَالْحِيَلَ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لا يُسْتَطاعُ بِالشِّدَّةِ وَالْمُكابَرَةِ، حَتَّى يُصادَ بِالرِّفْقِ وَالْمُلايَنَةِ، كَما يُصْطادُ الْفِيلُ الْوَحْشِيُّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ.

قالَ الْمَلِكُ: إِنَّ العاقِلَ الْكَرِيمَ لا يَتْرُكُ إِلْفَهُ، وَلا يَقْطَعُ إِخْوانَهُ، وَلا يُضَيِّعُ الْحِفاظَ، وَإِنْ هُوَ خافَ عَلَى نَفْسِهِ، حَتَّى إِنَّ هٰذا الْخُلُقَ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ الدَّوابِّ مَنْزِلةً ، فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّابِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلابِ، ثُمَّ يَذْبَحُونَها، وَيَأْكُلُونَها، وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلِفَهُمْ ذٰلِكَ، فَيَمْنَعُهُ مِنْ

---

(١) أخطأه: لم يصبه. الآجل: المتأخر. الأعقاب: الأولاد. لعمري: قسم. تناصفنا: أنصف كل منا الآخر من نفسه أي استوفى حقه منه. قبلنا: عندنا. وتر: ثأر. الموتور: من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه. الذعر: الخوف. الاتقاء: التحفظ.

(٢) ألفاء: جمع أليف، وهو الصديق المؤنس. غرماء: جمع غريم وهو الخصم. الطريد: المنفي والهارب.

(٣) اجتزيت: أخذت الجزاء. الضغائن: الأحقاد.

مُفارَقَتِهِمْ أُلْفَتُهُ إِيَّاهُمْ! قالَ فَنْزةُ : إِنَّ الْأَحْقادَ مَخُوفَةٌ حَيْثُ كانَتْ وَأَخْوَفُها وَأَشَدُّها ما كانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ؛ فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالِانْتِقامِ، وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ وَالطَّلَبَ بِالْوِتْرِ مَكْرُمَةً وَفَخْرًا، وَإِنَّ الْعاقِلَ لا يَغْتَرُّ بِسُكُونِ الْحِقْدِ إِذا سَكَنَ، فَإِنَّما مَثَلُ الْحِقْدِ فِي الْقَلْبِ إِذا لَمْ يَجِدْ مُحَرِّكًا مَثَلُ الْجَمْرِ الْمَكْنونِ ما لَمْ يَجِدْ حَطَبًا[1]. فَلَيْسَ يَنْفَكُّ الْحِقْدُ مُطَّلِعًا إِلَى الْعِلَلِ كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ. فَإِذا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَ اسْتِعَارَ النَّارِ، فَلا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلامٍ، وَلَا لِينٌ وَلا رِفْقٌ ، وَلَا خُضُوعٌ وَلا تَضَرُّعٌ، وَلا مصانَعةٌ وَلا شَيْءٌ دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ وَذَهَابِ الْأَرْواحِ. مَعَ أَنَّهُ رُبَّ واتِرٍ يَطْمَعُ فِي مُراجَعةِ الْمَوْتُورِ لِما يَرْجُو أَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ وَالدَّفْعِ عَنْهُ. وَلٰكِنِّي أَنا أَضْعَفُ مِنْ أَنْ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ ما فِي نَفْسِكَ. وَبَعْدُ فَلَوْ كانَتْ نَفْسُكَ لِي عَلَى ما تَقُولُ ما كانَ ذٰلِكَ عَنِّي مُغْنِيًا أَيْضًا[2]، ولا أَزالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ وَسُوءِ ظَنٍّ ما اصْطَحَبْنا. فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْفِراقَ، وَأَنا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ. قالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًّا وَلا نَفْعًا، وَأَنَّهُ لا شَيْءَ مِنَ الْأَشْياءِ صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا يُصِيبُ أَحَدًا إِلَّا بِقَضاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وَكَما أَنَّ خَلْقَ ما يُخْلَقُ ، وَوِلادةَ ما يُولَدُ ، وَبَقاءَ ما يَبْقَى لَيْسَ لِلْخَلائِقِ مِنْهُ شَيْءٌ[3]، كَذٰلِكَ فَناءُ ما يَفْنَى،و هَلاكُ ما يَهْلِكُ. وَلَيْسَ لَكَ فِي الَّذِي فَعَلْتَ بِابْنِي ذَنْبٌ، وَلا لِابْنِي فيما صَنَعَ بِابْنِكَ ذَنْبٌ؛ إِنَّما كانَ ذٰلِكَ كُلُّهُ قَدَرًا مَقْدُورًا، وَكِلانا لَهُ عِلَّةٌ، وَسَبَبٌ، فَلا نُؤَاخَذُ بِما أَتانا بِهِ الْقَدَرُ. قالَ فَنْزةُ: إِنَّ الْقَدَرَ لَكَما ذَكَرْتَ. لٰكِنْ لا يَمْنَعُ ذٰلِكَ الْحازِمَ مِنْ تَوَقِّي الْمَخاوِفِ وَالِاحْتِراسِ مِنَ الْمَكارِهِ، وَإِلَّا كانَ الْمَرِيضُ غَيْرَ مُصِيبٍ فِي طَلَبِهِ الطَّبِيبَ، وَكانَ أَهْلُ الْمَصائِبِ يَتْرُكُونَ النَّظَرَ فِيما فِيهِ الْفَرَجُ لَهُمْ. وَلا يَنْفَعُ الْحَذَرُ وَالِاحْتِراسُ مَعَ الْقَضاءِ، لٰكِنِ الْعاقِلَ يَجْمَعُ مَعَ التَّصْدِيقِ بِالْقَدَرِ الْأَخْذَ بِالْحَزْمِ وَالْقُوَّةِ؛ لَعَلَّ ما يَسْتَسْلِمُ إِلَيْهِ يَكُونُ مَقْدُورًا عَلَيْهِ[4]. وَأَنا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ ما فِي نَفْسِكَ، وَالْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ؛ لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي، وَأَنا فَقَأْتُ عَيْنَ ابْنِكَ. وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسْتَفِيَ بِقَتْلِي وَتَخْتُلَنِي عَنْ نَفْسِي، وَالنَّفْسُ تَأْبَى الْمَوْتَ. وَقَدْ كانَ يُقالُ: الْفاقَةُ بَلاءٌ، وَالْحُزْنُ بَلاءٌ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلاءٌ، وَفِراقُ الْأَحِبَّةِ بلاءٌ، وَالسُّقْمُ بَلاءٌ، وَالْهَرَمُ بَلاءٌ، وَرَأْسُ الْبَلايا

---

(١) ما وتر به : اصيب . المكابرة : المعاندة والمنازعة . أوْضع : أخسّ وأدنى . يدينون : يجعلون دينهم الانتقام . الدّرك : اللحاق . لا يغتر : لا ينخدع . المكنون : المستتر .

(٢) مُطّلعاً : مديما النظر . العلل : الأسباب . استعر : اتقد واشتعل واضطرم . مصانعة : مداراة ومداهنة . تلف : هلاك . مُغْنياً : كان ذلك يجديني نفعا .

(٣) أقرأ عليك السلام : أبلغك إياه . للخلائق : للمخلوقات .

(٤) يستسلم : ينقاد . مقدوراً : محتوماً .

كُلِّها الْمَوْتُ[1]. وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ بِما فِي نَفْسِ الْمُوجَعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ ما بِهِ. فَأَنا مِمَّا فِي نَفْسِي عالِمٌ بِما فِي نَفْسِكَ لِلْمِثْلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ ذٰلِكَ، وَلا خَيْرَ لِي في صُحْبَتِكَ، فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي بِابْنِكَ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ابْنِكَ بِابْنِي إِلَّا أَحْدَثَ ذٰلِكَ لِقُلُوبِنا تَغييرًا. قالَ الْمَلِكُ : لا خَيْرَ فِيمَنْ لا يَسْتَطِيعُ الْإِعْراضَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ، وَلا يَنْساهُ وَيُهْمِلُهُ بِحَيْثُ لا يَذْكُرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلا يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ. قالَ فَنْزَةُ. : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي باطِنِ قَدَمِهِ قُرْحَةٌ ، إِنْ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ، فلا بُدَّ أَنْ تُنْكَأَ قُرْحَتُهُ. وَالرَّجُلَ الْأَرْمَدَ الْعَيْنِ إِذا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ، تَعَرَّضَ لِأَنْ تَزْدادَ رَمَدًا. وَكَذٰلِكَ الْواتِرُ إِذا دَنَا مِنَ الْمَوْتُورِ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهِ لِلْهَلاكِ. وَلا يَنْبَغِي لِصاحِبِ الدُّنْيا إِلَّا تَوَقِّي الْمَهالِكِ وَالْمَتالِفِ، وَتَقْدِيرُ الْأُمُورِ وَقِلَّةُ الِاتِّكالِ عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَقِلَّةُ الِاغْتِرارِ بِمَنْ لا يَأْمَنُ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ، فَحَمَلَهُ ذٰلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ[2].

وَمَنْ لَا يُقَدِّرُ لِطاقَتِهِ طَعامَهُ وَشَرابَهُ وَحَمَّلَ نَفْسَهُ ما لا تُطِيقُ وَلا تَحْمِلُ فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ، وَمَنْ لَمْ يُقَدِّرْ لُقْمَتَهُ وَعَظْمَهَا فَوْقَ ما يَسَعُ فُوهُ فَرُبَّما غَصَّ بِها فَماتَ. وَمَنِ اغْتَرَّ بِكَلامِ عَدُوِّهِ وَانْخَدَعَ لَهُ وَضَيَّعَ الْحَزْمَ فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ النَّظَرُ فِي الْقَدَرِ الَّذِي لَا يَدْرِي ما يَأْتِيهِ مِنْهُ، وَلا ما يُصْرَفُ عَنْهُ. وَلٰكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ، وَالْأَخْذُ بِالْقُوَّةِ وَمُحاسَبَةُ نَفْسِهِ فِي ذٰلِكَ. وَالْعاقِلُ لا يَثِقُ بِأَحَدٍ ما اسْتَطاعَ، وَلَا يُقِيمُ عَلَى خَوْفٍ يَجِدُ عَنْهُ مَذْهَبًا[3].

وَأَنا كَثِيرُ الْمَذاهِبِ، وَأَرْجُو أَنْ لا أَذْهَبَ وَجْهًا إِلَّا أَصَبْتُ فِيهِ ما يُغْنِينِي؛ فَإِنَّ خِلَالًا خَمْسًا مَنْ تَزَوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ، وَآنَسْنَهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ، وَقَرَّبْنَ لَهُ الْبَعِيدَ، وَأَكْسَبْنَهُ الْمَعاشَ وَالْإِخْوانَ: أُولاهُنَّ كَفُّ الْأَذَى، وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الْأَدَبِ، وَالثَّالِثَةُ مُجانَبَةُ الرِّيَبِ، وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ، وَالْخامِسَةُ النُّبْلُ فِي الْعَمَلِ. وَإِذا خافَ الْإِنسانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا طابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْوَطَنِ، فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخَلَفَ مِنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ، وَلا يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ[4] خَلَفًا. وَشَرُّ الْمالِ ما لا إِنْفاقَ مِنْهُ، وَشَرُّ الْأَزْواجِ الَّتِي لا تُواتِي بَعْلَها، وَشَرُّ الْوَلَدِ العاصِي العاق لِوالِدَيْهِ، وشَرُّ الْإِخْوانِ الْخاذِلُ لِأَخِيهِ عِنْدَ النَّكَباتِ وَالشَّدائِدِ[5]، والَّذِي يُحْصِي السَّيِّئاتِ، وَيَتْرُكُ الْحَسَناتِ ، وَشَرُّ

---

(١) تشتفي: تنال حاجتك فتطيب نفسك. وتختلني: تخدعني. الفاقة: الفقر. والهَرم: الشيخوخة.

(٢) قرحة: جراحة متقادمة. تنكأ: تقشر. المتَالِف: بمعنى المهالك. وتقدير: قياس. الحَوْل: القدرة. حتف نفسه: هلاكها.

(٣) ما لا تطيق: ما يصعب عليها تحمله. أعدى: أشد عداوة. القدر: قضاء الله وحكمه. مذهبا: مفرا وطريقًا آمنا.

(٤) خلالا: خصالا. الأذى: التعدي. الريب: الشكوك. النُبل: الذكاء والنجابة.

(٥) العاق: الذي لا يعرف فضل أبويه ولا يفيهما حقهما. الخاذل: المتخلي عنه عند الشدائد.

الْمُلُوكِ الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيءُ، وَلا يُواظِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَشَرُّ الْبِلادِ بِلادٌ لا خِصْبَ فِيها وَلا أَمْنَ. وَإِنَّهُ لا أَمْنَ لِي عِنْدَكَ أَيُّها الْمَلِكُ، وَلا طُمَأْنِينَةَ لِي فِي جِوارِكَ ثُمَّ وَدَّعَ الْمَلِكَ وَطَارَ.

فَهٰذا مَثَلُ ذَوِي الْأَوْتارِ الَّذِينَ لا يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ يَثِقَ بِبَعْضٍ!

باب

الْأَسَدِ وَابْنِ آوَى النَّاسِكِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبِيدَبا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْمَلِكِ الَّذِي يُراجِعُ مَنْ أَصابَتْهُ مِنْهُ عُقُوبَةٌ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ أَوْ جَفْوَةٌ مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ!

قال الفيلسوف: إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يُراجِعْ مَنْ أَصابَتْهُ مِنْهُ جَفْوَةٌ عَنْ ذَنْبٍ، أَوْ عَنْ غَيْرِ ذَنْبٍ ظُلِمَ، أَوْ لَمْ يُظْلَمْ لَأَضَرَّ ذٰلِكَ بِالْأُمُورِ[1]. وَلٰكِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حالِ مَنِ ابْتُلِيَ بِذٰلِكَ، وَيَخْبُرَ ما عِنْدَهُ مِنَ الْمَنافِعِ؛ فَإِنْ كانَ مِمَّنْ يُوَثَّقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمانَتِهِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ بِالْحِرْصِ عَلَى مُراجَعَتِهِ. فَإِنَّ الْمُلْكَ لا يُسْتَطاعُ ضَبْطُهُ إِلَّا مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ، وَهُمُ الْوُزَراءُ وَالْأَعْوانُ، وَلا يُنْتَفَعُ بِالْوُزَراءِ وَالْأَعْوانِ، إِلَّا بِالْمَوَدَّةِ وَالنَّصِيحَةِ، وَلا مَوَدَّةَ وَلا نَصِيحَةَ، إِلَّا لِذَوِي الرَّأْيِ وَالْعَفافِ. وَأَعْمالُ السُّلْطانِ كَثِيرَةٌ، وَالَّذِينَ يَحْتاجُ إِلَيْهِمْ مِنَ الْعُمَّالِ وَالْأَعْوانِ كَثِيرُونَ، وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ ما ذَكَرْتُ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالعَفافِ[2] قَلِيلٌ. فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَخْبُرَ وُزَراءَهُ، وَذَوِي رَأْيِهِ، وَيَرَى ما عِنْدَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ ما يَصْلُحُ أَنْ يُفَكِّرَ فِيهِ، وَيُدَبِّرَهُ وَأَلَّا يُوَجِّهَ إِلَى الْأَعْمالِ إِلَّا مَنْ يَثِقُ بِدِينِهِ وَأَمانَتِهِ وَعِفَّتِهِ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذٰلِكَ إِنْفاذُ مَنْ يَثِقُ بِهِ لِلْكَشْفِ عَنْ أَعْمالِهِمْ، وَتَفَقُّدِ أُمُورِهِمْ بِالسِّرِّ الْخَفِيِّ، حَتَّى لا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسانُ مُحْسِنٍ، وَلا إِساءَةُ مُسِيءٍ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ تَهاوَنَ الْمُحْسِنُ، وَاجْتَرَأَ الْمُسِيءُ، وَفِي عُرْضِ ذٰلِكَ تَهْلِكُ الرَّعِيَّةُ، وَيَفْسُدُ الْمُلْكُ[3]. وَالْمَثَلُ فِي ذٰلِكَ مَثَلُ الْأَسَدِ وَابْنِ آوَى النَّاسِكِ. قالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قال الفيلسوف: زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى، كانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ الدِّحالِ وَكانَ مُتَزَهِّدًا مُتَعَفِّفًا مَعَ بَناتِ آوَى، وَذِئابٍ وَثَعالِبَ، وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ ما يَصْنَعْنَ، وَلا يُغِيرُ، كَما يُغِرْنَ، وَلا يُهرِيقُ دَمًا، وَلا يَأْكُلُ لَحْمًا، وَلا يَظْلِمُ طَرْفَةَ عَيْنٍ. فَخاصَمَهُ تِلْكَ السِّباعُ، وَقُلْنَ: نَحْنُ لا نَرَى سِيرَتَكَ، وَلا

(١) جفوة: قطيعة. (٢) ويخبر: يختبر. والأعوان: المساعدون.
(٣) إنفاذ: إرسال. تهاون: استخف وأهمل. عُرض: جانب.

رَأْيَكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ، مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا، وَأَنْتَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا كَأَحَدِنا، تَسْعَى مَعَنا، وَتَفْعَلُ فِعْلَنا، وَأَيُّ شَيْءٍ يُشْبِهُ كَفُّكَ عَنِ الدِّماءِ، وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ[1].

قالَ ابْنَ آوَى : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ لا تُؤَثِّمُنِي إِذا لَمْ أُؤَثِّمْ نَفْسِي؛ لِأَنَّ الْآثامَ لَيْسَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَماكِنِ وَالْأَصْحابِ، وَلٰكِنَّها مِنْ قِبَلِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمالِ. وَلَوْ كانَ صاحِبُ الْمَكانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحًا، وَصاحِبُ الْمَكانِ السَّيِّيءِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئًا كانَ حِينَئِذٍ مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مِحْرابِهِ لَمْ يَأْثَمْ، وَمَنِ اسْتَحْياهُ فِي مَعْرَكَةِ الْقِتالِ أَثِمَ. وَإِنِّي إِنَّمَا صَحِبْتُكُنَّ بِنَفْسِي،وَلَمْ أَصْحَبْكُنَّ بِقَلْبِي وَأَعْمالِي؛ لِأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الْأَعْمالِ، فَلَزِمْتُ حالِي، وَإِنَّما صَحِبْتُكُنَّ مَوَدَّةً مِنِّي لَكُنَّ[2].

فَإِنْ كانَتْ صُحْبَتِي تَضُرُّكُنَّ، فَالْأَماكِنُ وَالْمَواضِعُ كَثِيرَةٌ. وَثَبَتَ ابْنُ آوى عَلَى حالِهِ تِلْكَ، واشْتَهَرَ بِالنُّسْكِ وَالتَّزَهُّدِ، حَتَّى بَلَغَ ذٰلِكَ أَسَدًا كانَ مَلِكَ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، فَرَغِبَ فِيهِ لِما بَلَغَهُ عَنْهُ مِنَ الْعَفافِ وَالنَّزاهَةِ وَالزُّهْدِ وَالْأَمانَةِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ يَسْتَدْعِيهِ، فَلَمَّا حَضَرَ كَلَّمَهُ وَآنَسَهُ، فَوَجَدَهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ عَلَى غَرَضِهِ. ثُمَّ دَعاهُ بَعْدَ أَيَّامٍ إِلَى صُحْبَتِهِ، وَقالَ لَهُ: تَعْلَمُ أَنَّ عُمَّالِي كَثِيرٌ وَأَعْوانِي جَمٌّ غَفِيرٌ، وَأَنا مَعَ ذٰلِكَ إِلَى الْأَعْوانِ مُحْتَاجٌ . وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْكَ عَفافٌ وَأَدَبٌ وَعَقْلٌ وَدِينٌ، وَقَدِ اخْتَبَرْتُكَ فَوَجَدْتُكَ كَذٰلِكَ، فَازْدَدْتُ فِيكَ رَغْبَةً، وَأَنا مُوَلِّيكَ مِنْ عَمَلِي جَسِيمًا، وَرافِعُكَ إِلَى مَنْزِلَةٍ شَرِيفَةٍ، وَجاعِلُكَ مِنْ خاصَّتِي[3]. قالَ ابْنُ آوَى : إِنَّ الْمُلُوكَ أَحِقَّاءُ بِاخْتِيارِ الْأَعْوانِ، فِيما يَهْتَمُّونَ بِهِ مِنْ أَعْمالِهِمْ وَأُمُورِهِمْ مِمَّنْ لَهُمُ الْخِبْرَةُ بِذٰلِكَ، وَهُمْ أَحْرَى أَلَّا يُكْرِهُوا عَلَى ذٰلِكَ أَحَدًا؛ فَإِنَّ الْمُكْرَهَ لا يَسْتَطِيعُ الْمُبالَغَةَ فِي الْعَمَلِ. وَإِنِّي لِعَمَلِ السُّلْطَانِ كارِهٌ، وَلَيْسَ لِي بِهِ تَجْرِبَةٌ وَلا بِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ ، وَأَنْتَ مَلِكُ السِّباعِ، وَعِنْدَكَ مِنْ أَجْناسِ الْوُحُوشِ عَدَدٌ كَثِيرٌ فِيهِمْ أَهْلُ نُبْلٍ وَقُوَّةٍ، وَلَهُمْ عَلَى الْعَمَلِ حِرْصٌ، وَعِنْدَهُمْ بِهِ وَبِالسُّلْطَانِ رِفْقٌ[4]، فَإِنِ اسْتَعْمَلْتَهُمْ أَغْنَوْا عَنْكَ، وَاغْتَبَطُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِما أَصابَهُمْ مِنْ ذٰلِكَ. قالَ الْأَسَدُ : دَعْ عَنْكَ هٰذا فَإِنِّي غَيْرُ مُعْفِيكَ مِنَ الْعَمَلِ! قالَ ابْنُ آوَى: إِنَّما يُقْدِمُ عَلَى خِدْمَةِ السُّلْطانِ غَيْرَ هائِبٍ رَجُلانِ لَسْتُ بِواحِدٍ مِنْهُما: إِمَّا مُصانِعٌ يَنالُ حاجَتَهُ بِفُجُورِهِ، وَيَسْلَمُ بِمُصانَعَتِهِ. وَإِمَّا هَيِّنٌ لا يَحْسُدُهُ أَحَدٌ. وَأَمَّا مَنْ أَرادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالصِّدْقِ وَالْعَفافِ غَيْرَ خالِطٍ ذٰلِكَ بِمُصانَعَتِهِ، فَقَلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذٰلِكَ، لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَداوةِ وَالْحَسَدِ[5]. أَمَّا الصَّدِيقُ فَيُنافِسُهُ فِي مَنْزِلَتِهِ، وَيَبْغِي عَلَيْهِ

---

(١) الدِّحال: جمع دِحْل. وهو ثقب فمه ضيق وأسفله متسع. يُغير: يغزو. لا نرى سيرتك: لا نعتقد سلوكك.

(٢) لا تُؤَثِّمُني: لا تجعلني آثما خاطئا. محرابه: مكان تعبده. استحياه: استبقاه حيا.

(٣) عمالي: جمع عامل. الولاة الذي أوليهم. جم غفير: كثيرون. مُولِّيك: جاعلك واليا. خاصتي: أي المقربين إلَى.

(٤) أحقاء: جمع حقيق بمعنى جدير. أحرى: أولى. يكرهوا: يجبروا. (٥) مصانع: مداهن مدلس مُدار. هيّن: ضعيف ذليل.

فِيها، وَيُعادِيهِ لِأَجْلِها وَيَمْشِي عَلَيْهِ كَذِبًا. فَإِذا لَقِيَتِ الْوِشايةُ أُذُنًا واعِيةً مِنَ الْمَلِكِ كانَ فِي ذٰلِكَ هَلاكُهُ. وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطانِ، فَيَضْطَغِنُ عَلَيْهِ لِنَصِيحتِهِ لِسُلْطانِهِ وَإِغْنائِهِ عَنْهُ فَيَعْمَلُ عَلَى هَلاكِهِ، وَيَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ. فَإِذا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هٰذان الصِّنْفَانِ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلاكِ. قالَ الْأَسَدُ: لا يَكُونَنَّ بَغْيُ أَصْحابِي عَلَيْكَ وَحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ، وَعَداوةُ أَعْدائِي لَكَ مِمَّا يَعْرِضُ فِي نَفْسِكَ فَأَنْتَ مَعِي، وَأَنا أَكْفِيكَ ذٰلِكَ، وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجاتِ الْكَرامةِ وَالْإِحْسانِ عَلَى قَدرِ هِمَّتِكَ[1]. قالَ ابْنُ آوَى: إِنْ كانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الْإِحْسانَ إِلَيَّ، فَلْيَدَعْنِي فِي هٰذِهِ الْبَرِّيَّةِ أَعِيشُ آمِنًا، قَلِيلَ الْهَمِّ، رَاضِيًا بِعَيْشِي مِنَ الْماءِ وَالْعُشْبِ. فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صاحِبَ السُّلْطانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى وَالْخَوْفِ فِي ساعةٍ واحِدةٍ ما لا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ عُمْرِهِ، وَأَنَّهُ يَتَّصِلُ إِلَيْهِ النفْعُ ساعةً واحِدةً، ثُمَّ هُوَ فِي الْخَوْفِ سَرْمَدًا. وَإِنَّ قَلِيلًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ[2]. قالَ الْأَسَدُ: قَدْ سَمِعْتُ مَقالَتَكَ؛ فَلا تَخَفْ شَيْئًا مِمَّا أَراكَ تَخافُ مِنْهُ. وَلَسْتُ أَجِدُ بُدًّا مِنَ الِاسْتِعانةِ بِكَ فِي أَمْرِي. قالَ ابْنُ آوَى: أَمَّا إِذَا أَتَى الْمَلِكُ إِلَّا ذٰلِكَ؛ فَلْيَجْعَلِ الْمَلِكُ لِي عَهْدًا إِنْ بَغَى عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْ أَصْحابِهِ مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي مَخافةً عَلَى منْزِلَتِهِ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ دُونِي لِيُنازِعَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذاكِرٌ بِلِسانِهِ، أَوْ عَلَى لِسانِ غَيْرِهِ ما يُرِيدُ بِهِ تَحْرِيشَ الْمَلِكِ عَلَيَّ أَلَّا يَعْجَلَ فِي أَمْرِي، وَأَنْ يَتَثَبَّتَ فِيما يُرْفَعُ إِلَيْهِ، وَيُذْكَرُ عِنْدَهُ مِنْ ذٰلِكَ، وَيَفْحَصَ عَنْهُ؛ ثُمَّ لِيَصْنَعْ ما بَدا لَهُ. فَإِذا وَثِقْتُ مِنْهُ بِذٰلِكَ أَعْنَتُّهُ بِنَفْسِي فِيما يَجِبُ إِطاعةً لَهُ، وَعمِلْتُ لَهُ فِيما أَوْلانِي بِنَصِيحةٍ وَاجْتِهادٍ، وَحَرَصتُ عَلَى أَلَّا أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي سَبِيلًا[3]. قالَ الْأَسَدُ: لَكَ عَلَيَّ ذٰلِكَ وَزِيادةٌ. ثُمَّ وَلَّاهُ خَزَائِنَهُ، وَاخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحابِهِ، وَزَادَ فِي كَرامَتِهِ. فَلَمَّا رَأَى أَصْحابُ الْأَسَدِ ذٰلِكَ غاظَهُمْ وَساءَهُمْ؛ فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يُحَرِّشُوا عَلَيْهِ الْأَسَدَ. وَكَانَ الْأَسَدُ قَدِ اسْتَطابَ لَحْمًا فَعَزَلَ مِنْهُ مِقدارًا، وَأَمَرَ ابْنَ آوَى بِالِاحْتِفاظِ بِهِ، وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعِ طعامِهِ، وَأَحرَزِهِ، لِيُعادَ عَلَيْهِ[4].

فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ، وَحَمَلُوه إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى فَخَبَّئُوهُ فِيهِ، وَلا عِلْمَ لَهُ بِهِ، ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُونَهُ إِذا جَرَتْ فِي ذٰلِكَ حالٌ. فَلَمَّا كانَ مِنَ الْغَدِ، دَعا الْأَسَدُ بِغَدائِهِ، فَفَقَدَ ذٰلِكَ اللَّحْمَ، وَالْتَمَسَهُ فَلَمْ يَجِدْهُ! وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنَ الْمَكِيدةِ، وَهُوَ غَائِبٌ فِي خِدْمةِ

---

(١) ينافسه في منزلته: يريد أن يغلبه عليها. يشي عليه: من الوشاية وهي الإفساد. يضطغن: يحقد. المنون: الموت.
(٢) فليدعني: يتركني. سرمدا: دائما. ونصب: تعب. (٣) أبى: رفض. ينازعني: يخاصمني.
(٤) ولاه خزانته: جعل له السلطة عليها. واختص به: فضله على غيره وأحبه.. أجمعوا كيدهم: وحدوا كلمتهم. فعزل: نحى وأفرد. أحرزه: أمنعه.

الْأَسَدِ وَأَشْغالِهِ، فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ، وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِس. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ، وَشَدَّدَ فِيهِ وَفِي السُّؤَالِ عَنْهُ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ: فَقالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ: إِنَّهُ لا بُدَّ لَنا أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِما يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ، وَإِنْ شَقَّ ذٰلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ[1]. وَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي ذَهَب بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ، لِيَأْكُلَهُ دُونَ الْمَلِكِ. قالَ الْآخَرُ: ما أَراهُ يَفْعَلُ هٰذا! وَلٰكِنِ انْظُرُوا وَافْحَصُوا؛ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخَلائِقِ شَدِيدَةٌ. فَقالَ الْآخَرُ: لَعَمْرِي ما تَلْبَثُ السَّرائِرُ أَنْ تُعْرَفَ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَحَصْتُمْ عَنْ هٰذا وَجَدْتُمُ اللَّحْمَ فِي بَيْتِ ابْنِ آوَى، وَكُلُّ شَيْءٍ يُذكَرُ مِنْ عُيُوبِهِ وَخِيانَتِهِ، نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ. قالَ الْآخَرُ: لَئِنْ وَجَدْنَا هٰذا حَقًّا لَمْ تَكُنْ بِالْخِيانَةِ فَقَطْ، وَلٰكِنْ مَعَ الْخِيانَةِ كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَالْجراءَةُ عَلَى الْمَلِكِ. قالَ الْآخَرُ: أَنْتُمْ أَهلُ الْفَضْلِ، لا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُكَذِّبَكُمْ[2]. وَلٰكِنْ سَيَبِينُ هٰذا لَوْ أَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ يُفَتِّشُهُ. قالَ الْآخَرُ: إِنْ كانَ الْمَلِكُ مُفَتِّشًا مَنْزِلَهُ، فَلْيَعْجَلْ؛ فَإِنَّ عُيُونَهُ وَجَواسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكانٍ. وَلَمْ يَزَالُوا فِي هٰذا الْكَلامِ وَأَشْباهِهِ حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ ذٰلِكَ. فَأَمَرَ بِابْنِ آوَى، فَحَضَرَ. فَقالَ لَهُ: أَيْنَ اللَّحْمُ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالِاحْتِفاظِ بِهِ؟ قالَ: دَفَعْتُهُ إِلَى صاحِبِ الطَّعامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ، فَدَعَا الْأَسَدُ بِصاحِبِ الطَّعامِ، وَكانَ مِمَّنْ شايَعَ وَبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى ابْنِ آوَى، فَقالَ: ما دَفَعَ إِلَيَّ شَيْئًا[3]! فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ أَمِينًا إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى لِيُفَتِّشَهُ، فَوَجَدَ فِيهِ ذٰلِكَ اللَّحْمَ؛ فَأَتَى بِهِ الْأَسَدَ، فَدَنَا مِنَ الْأَسَدِ ذِئْبٌ لَمْ يَكُنْ يَتَكَلَّمُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ، وَكانَ يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعُدُولِ الَّذِين لا يَتَكَلَّمُونَ فِيما لا يَعْلَمُونَ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. فَقالَ: بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيانَةِ ابْنِ آوَى لا يَعْفُوَنَّ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ إِنْ عَفا عَنْهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْمَلِكُ بَعْدَها عَلَى خِيانَةِ خائِنٍ، وَلا ذَنْبِ مُذْنِبٍ. فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى أَنْ يُخْرَجَ، وَأَلَّا يُحْتَفَظَ بِهِ[4]. فَقالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ الْمَلِكِ: إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ، كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرُ هٰذا، وَلَمْ يَعْرِفْ حِبَّهُ وَمُخادَعَتَهُ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ هذا أَنِّي أَراهُ سَيَصْفَحُ عَنْهُ بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ. فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُولًا إِلَى ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ الْعُذْرَ عَنْ أَمْرِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسالَةٍ كاذِبَةٍ اخْتَلَقَها. فَغَضِبَ الْأَسَدُ مِنْ ذٰلِكَ وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ، فَعَلِمَتْ أُمُّ الْأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجِلَ فِي أَمْرِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أَمَرُوا بِقَتْلِهِ أَنْ يُرْجِئُوهُ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِها

---

(١) لم يشعر: لم يعلم. المكيدة: المكر والاحتيال. شَقَّ: صعب.

(٢) السرائر: الخفايا. نصدقه: نأتي بما يكون مصداقاً له.

(٣) مبثوثة: منتشرة. وقع في نفس الأسد: أثر. دفعته: أعطيته. شايع: تابع ووالى. بايع: عاهد واتفاد.

(٤) العدول: محل ثقة الناس. لا يعفون عنه: لا يتركن عقوبته وألا يحتفظ به: أي لا يجعل تحت الحفظ.

فَقالَتْ: يا بُنَيَّ بِأَيِّ ذَنْبٍ أَمَرْتَ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى؟ فَأَخْبَرَها بِالْأَمْرِ. فَقالَتْ: يا بُنَيَّ عَجِلْتَ، وَإِنَّما يَسْلَمُ الْعاقِلُ مِنَ النَّدامةِ بِتَرْكِ الْعَجَلةِ وَبِالتَّثَبُّتِ[1]. وَالْعَجَلَةُ لا يَزالُ صاحِبُها يَجْتَني ثَمَرَةَ النَّدامةِ بِسَبَبِ ضُعْفِ الرَّأْيِ. وَمَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي أُمُورِهِ نَظَرَ مُفَكِّرٍ، كانَ نَظَرُهُ كَنَظَرِ الَّذِي يَكُونُ بِعَيْنَيْهِ سَبَلٌ؛ فَيُخَيَّلُ لَهُ أَنَّ أَمامَهُما كَهَيْئَةِ شَعْرةٍ. وَكانَ كَالرَّجُلِ الْجاهِلِ الَّذِي يَسْمَعُ صَوْتَ الْبَعُوضةِ فِي اللَّيْلِ؛ فَيَظُنُّها لِشِدَّةِ صَوْتِها شَيْئًا، فَإِذا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عَلِمَ أَنَّها لَيْسَتْ بِشَيْءٍ. وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التُّؤَدَةِ وَالتَّثَبُّتِ مِنَ الْمُلُوكِ؛ فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِها، وَالْوَلَدَ بِوالِدَيْهِ، وَالْمُتَعَلِّمَ بِالْمُعَلِّمِ، وَالْجُنْدَ بِالْقائِدِ، وَالنَّاسِكَ بِالدِّينِ، وَالْعامَّةَ بِالْمُلُوكِ، وَالْمُلُوكَ بِالتُّقْوَى، وَالتُّقْوَى بِالْعَقْلِ، وَالْعَقْلَ بِالتَّثَبُّتِ وَالْأَناةِ[2].

وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ مَعْرِفةُ أَصْحابِهِ، وَإِنْزالُهُمْ مَنازِلَهُمْ عَلَى طَبَقاتِهِمْ، وَاتِّهامُهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا لَفَعَلَ. وَقَدْ جَرَّبْتَ ابْنَ آوَى، وَبَلَوْتَ رَأْيَهُ وَأَمانَتَهُ ومُرُوءَتَهُ، ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مادِحًا لَهُ رَاضِيًا عَنْهُ، وَقَدْ اتَّهَمْتَهُ بِشَيْءٍ لا صِحَّةَ لَهُ، وَلا تَعْلَمُ صِدْقَهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَلَعَلَّ ذٰلِكَ عَمَلُ أَهْلِ الْكَذِبِ وَالْحَسَدِ وَالْخِيانةِ مِنْ وُزَارائِكَ. لِأَنَّ الْمَلِكَ إِذا تَهاوَنَ فِي أَمْرِ وُزَرائِهِ، وَتَغافَلَ عَنْهُمْ، دَخَلَ عَلَيْهِ فِي ذٰلِكَ ما تُكْرَهُ عاقِبَتُهُ. وَالْمَلِكُ أَخْبَرُ مِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ أَنَّ الْأَشْرارَ يَحْسُدُونَ الْأَخْيارَ، وَيَرْقُبُونَهُمْ؛ لِيُوقِعُوا بِهِمْ. وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَسْتَخِينَهُ بَعْدَ ارْتِضائِهِ إِيَّاهُ ، وَائْتِمانِهِ لَهُ[3]. وَمُنْذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ يَطَّلِعْ لَهُ عَلَى خِيانةٍ إِلَّا عَلَى الْعِفَّةِ وَالنَّصِيحةِ، وَمَا كانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ أَنْ يُعَجِّلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طابَقِ لَحْمٍ! وَأَنْتَ أَيُّها الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ تَنْظُرَ فِي حالِ ابْنِ آوَى. وَلْتَعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتَعَرَّضُ لِلَّحْمِ وَلا يَأْكُلُهُ فَكَيْفَ بِلَحْمٍ اسْتَوْدَعْتَهُ إِيَّاهُ؟! وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذٰلِكَ، ظَهَرَ لَهُ أَنَّ ابْنَ آوَى لَهُ خُصَماءُ هُمُ الَّذِينَ ائْتَمَرُوا بِهٰذا الْأَمْرِ، وَهُمُ الَّذِينَ ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ، فَوَضَعُوهُ فِيهِ[4]. فَإِنَّ الْحِدَأَةَ إِذا كانَ فِي رِجْلِها قِطْعةُ لَحْمٍ، اجْتَمَعَ عَلَيْها سائِرُ الطَّيْرِ، وَالْكَلْبَ إِذا كانَ مَعَهُ عَظْمٌ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلابُ. وَابْنُ آوَى مُنْذُ كانَ إِلَى الْيَوْمِ نافِعٌ، وَكانَ مُحْتَمِلًا لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبِ مَنْفَعةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ، وَلِكُلِّ عَناءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ راحةٌ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا. فَبَيْنَما أُمُّ الْأَسَدِ تَقُصُّ عَلَيْهِ هٰذِهِ الْمَقالةَ، إِذ دَخَلَ عَلَيْهِ

(١) خبه: خبثه وغشه. اختلقها: افتراها. يرجئوه: يؤجلوه.
(٢) سَبَل: شبه غشاوة تعرض للعين. فيخيل له: يتوهم.
(٣) طبقاتهم: مراتبهم. واتهامه: إدخاله التهمة والظن. وبلوت رأيه: اختبرته. ليوقعوا بهم: ليهلكوهم. يستخينه: يحاول خيانته.
(٤) طابق لحم: وعاء يطبخ فيه.

بَعْضُ ثِقاتِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى فَقالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ: إِنَّ الْمَلِكَ بَعْدَ أَنِ اطَّلَعَ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى حَقِيقٌ أَلَّا يَتَساهَلَ مَعَ مَنْ سَعَى بِهِ لِئَلَّا يَتَجَرَّءُوا عَلَى ما هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ، وَلٰكِنْ يُعاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكَيْلَا يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ[1]. وَلا تَحْتَقِرْ مَا فَعَلُوا مَعَكَ؛ فَإِنَّ الْعُشْبَ وَإِنْ كانَ لا قُوَّةَ لَهُ يُصْنَعُ مِنْهُ الْحَبْلُ الَّذِي يُوثَقُ بِهِ الْفِيلُ؛ فَإِنَّهُ لا يَنْبَغِي لِلْعاقِلِ أَنْ يُراجِعَ فِي أَمْرِ الْكَفُورِ لِلْحُسْنَى، وَالْجَرِيءِ عَلَى الْغَدْرِ، وَالزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ، وَالَّذِي لا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ، وَيَنْبَغِي أَنَّهُ يُجْزَى بِعَمَلِهِ. وَقَدْ عَرَفْتُ سُرْعَةَ الْغَضَبِ، وَفَرْطَ الْهَفْوَةِ، وَمَنْ سَخِطَ بِالْيَسِيرِ لَمْ يَبْلُغْ رِضاهُ بِالْكَثِيرِ، وَالْأَوْلَى لَكَ أَنْ تُراجِعَ ابْنَ آوَى، وَتَعْطِفَ عَلَيْهِ، وَلا يُوئِسَنَّكَ مِنْ مُناصَحَتِهِ، ما فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ مِنَ الْإِساءَةِ؛ فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لا يَنْبَغِي تَرْكُهُ عَلَى حالٍ مِنَ الْأَحْوالِ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلاحِ وَالْكَرَمِ، وَحُسْنِ الْعَهْدِ وَالشُّكْرِ وَالْوَفاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ، وَالسَّلامَةِ مِنَ الْحَسَدِ، وَالْبُعْدِ مِنَ الْأَذَى وَالِاحْتِمالِ لِلْإِخْوانِ وَالْأَصْحابِ، وَإِنْ ثَقُلَتْ عَلَيْهِ مِنْهُمُ الْمَئُونَةُ[2].

وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ ؛ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّراسَةِ، وَلُؤْمِ الْعَهْدِ، وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفاءِ، وَالْبُعْدِ عَنِ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ، وَاتَّصَفَ بِالْجُحُودِ لِثَوابِ الْآخِرَةِ وَعِقابِها. وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَّبْتَهُ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمُواصَلَتِهِ. فَدَعَا الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كانَ مِنْهُ، وَوَعَدَهُ خَيْرًا وَقالَ : إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ، وَرادُّكَ إِلَى مَنْزِلَتِكَ[3]. فَقالَ ابْنِ آوَى: لِهٰذا الَّذِي خِفْتُ مِنْهُ فِي أَوَّلِ اتِّصالِي بِكَ، وَالَّذِي لِأَجْلِهِ امْتَنَعْتُ مِمَّا عَرَضْتَهُ عَلَيَّ مِنْ صُحْبَتِكَ، وَتَوَلِّي خِدْمَتِكَ. وَإِنْ شَرَّ الْأَخِلَّاءِ مَنِ الْتَمَسَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضَرِّ أَخِيهِ، وَمَنْ كانَ غَيرَ ناظِرٍ لَهُ كَنَظَرِهِ لِنَفْسِهِ، أَوْ كانَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَهُ بِغَيْرِ الْحَقِّ لِأَجْلِ اتِّباعِ هَواهُ، وَكَثِيرًا ما يَقَعُ ذٰلِكَ بَيْنَ الْأَخِلَّاءِ.

وَقَدْ كانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَيَّ ما عَلِمَ ، وَلا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَطْمَئِنَّ إِلَى مَنْ عاقَبَهُ أَشَدَّ الْعُقُوبَةِ مِنْ نَزْعِهِ عَنْ عَمَلِهِ، أَوْ أَخْذِ مالِهِ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، أَوْ مَنْ كانَ لِلْكَرامَةِ أَهْلًا، فَلَمْ يَعْرِفْ لَهُ ذٰلِكَ، وَلَمْ يُعْطِهِ ما هُوَ أَهْلُهُ، أَوْ كانَ مَظْلُومًا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي أَمْرِهِ، أَوْ كانَ مِنْ أَهْلِ الطَّمَعِ، فَلْ يُصِبْ ما يَرْجُوهُ، أَوْ كانَ بَيْنَ قَوْمٍ، قَدِ اجْتَرَمُوا جَرِيمَةً هُوَ مِنْها بَرِيءٌ، فَأُخِذَ هُوَ بِها مِنْ بَيْنِهِمْ، وَخُلِّيَ سَبِيلُهُمْ[4].

---

(١) عناه: تعب. يطوى دونك بيرًا: يكتمه عنك. سعى به: نمّ عليه ووشى به.

(٢) يوثق به: يقيد. الكفور: الجاحد والمنكر. لا يوقن: لا يعلم. فرط: سبق وعجلة. الهفوة: السقطة والزلة. يوئسنك: يقطع أملك. فرط: سبق وتقدم.

(٣) الورع: التقوى. الجحود: الإنكار. الثواب: الجزاء.

(٤) يطمئن إلى ذلك: يسكن ويؤمن. أهلا: مستحقا. اجترموا جريمة: أذنبوا ذنبا. فأخذ: عوقب. خُلّى سبيلهم: تركوا.

فَأَمْثالُ هٰؤُلاءِ لا يَنْبَغِي لِلمَلِكِ أَنْ يَصْحَبَهُمْ، وَأَنا أَيُّها الْمَلِكُ أَحَدُ هؤُلاءِ، فَلَعَلَّ الْمَلِكَ يَقُولُ : إِنَّ ابْنَ آوَى لا يَنْسَى الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الْهَوانِ فَيَقْتَصُّ مِنِّي. وَأَنا - يَعْلَمُ اللهُ - أَنْ لَيْسَ فِي قَلْبِي شَيْءٌ مِنْ قِبَلِ هٰذا، وَإِنَّما خَوْفِي أَنْ يَفْعَلُوا بِي ذٰلِكَ مَرَّةً أُخْرَى؛ فَلا يَغْلُظَنَّ عَلَى نَفْسِ الْمَلِكِ ما أُخْبِرُهُ أَنِّي بِهِ غَيْرُ واثِقٍ، وَأَنَّهُ لا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ[1]. وأَنَّ الْمَلِكَ لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَصْحَبَ مَنْ كانَ مِثْلِي، وَلا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرْفُضَهُ أَصْلًا؛ فَإِنَّ ذا السُّلْطَانِ إِذا عُزِلَ كانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرامةِ فِي حالةِ إِبْعادِهِ، وَالْإِقصاءِ لَهُ. فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْأَسَدُ إِلَى كَلامِهِ، ثُمَّ قالَ لَهُ: إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِباعَكَ وَأَخْلاقَكَ وَجَرَّبْتُ أَمانَتَكَ وَوَفاءَكَ، وَعَرَفْتُ كَذِبَ مَنْ مَحَلَ بِكَ، وَإِنِّي مُنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي مَنْزِلَةَ الْأَخْيارِ الْكُرَماءِ، وَالْكَرِيمُ تُنْسِيهِ الْخَلَّةُ الْواحِدةُ مِنَ الْإِحْسانِ الْخِلالَ الْكَثِيرةَ مِنَ الْإِساءَةِ[2]. وَقَدْ عُدنا إِلَى الثِّقةِ بِكَ، فَعُدْ إِلَى الثِّقةِ بِنا؛ فَإِنَّهُ كائِنٌ لَنا وَلَكَ بِذٰلِكَ غِبْطَةٌ وَسُرُورٌ. فَعادَ ابْنُ آوَى إِلَى وِلايةِ ما كانَ يَلِي، وَضاعَفَ لَهُ الْأَسَدُ الْكَرامةَ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْأَيَّامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنْهُ .

بابُ

إِيلاذَ وَبَلاذَ وَإِيراخْتَ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ ؛ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي الْأَشْياءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ يُلْزِمَ بِهَا نَفْسَهُ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ ، وَيُثَبِّتَ بِهَا سُلْطَانَهُ ، وَيَكُونُ ذٰلِكَ رَأْسَ أَمْرِهِ، ومِلاكَهُ ، أهو الحِلْمُ ، أَمْ الْمُرُوءَةُ ، أَمِ الشَّجاعةُ، أَمِ الْجُودُ[3]؟

قالَ بَيْدَبا: إِنَّ أَحَقَّ ما يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ - الْحِلْمُ -، وَبِهِ تَثْبُتُ السُّلْطَنَةُ. وَالْحِلْمُ رَأْسُ الْأُمُورِ، وَمِلاكُها وَأَجْوَدُ ما كانَ فِي الْمُلُوكِ .

كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كانَ مَلِكٌ يُدْعَى بَلاذَ، وَكانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيلاذَ، وَكانَ مُتَعَبِّدًا ناسِكًا. وَإِنَّ الْمَلِكَ نامَ ذاتَ لَيْلةٍ فَرَأَى فِي مَنامِهِ ثَمانِيةَ أَحْلامٍ أَفْزَعَتْهُ، فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوبًا. فَدَعَا بِالْبَراهِمَةِ، وَهُمُ النُّسَّاكُ لِيَعْبُرُوا رُؤْياهُ؛ فَلَّما حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ، قَصَّ عَلَيْهِم مَا رَأَى، فَقالُوا بِأَجْمَعِهِمْ: لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَبًا، فَإِنْ أَمْهَلَنَا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْناهُ بِتَأْوِيلِهِ[4]. قالَ الْمَلِكُ : قَدْ أَمْهَلْتُكُمْ؛ فَخَرَجُوا مِنْ

---

(١) الهوان: الذل والاحتقار. لا يغلظن: لا يصعبن.

(٢) ذا السلطان: صاحب السلطة. والإقصاء: الإبعاد. محل بك: كادك بسماية. الخلّة: الخصلة. (٣) يلي: يتولى. ملاكه: قوامه.

(٤) مُلكه: ما يملكه ويلي عليه. السلطنة: المملكة. البراهمة: كما عرفت من قبل كهنة. ليعبروا رؤياه: يفسروا حلمه الذي رآه في النوم أخير هو أم شر؟!.

عِنْدِهِ ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ؛ وَائْتَمَرُوا بَيْنَهُمْ وَقَالُوا : قَدْ وَجَدْتُمْ عِلْمًا وَاسِعًا تُدْرِكُونَ بِهِ ثَأْرَكُمْ ، وَتَنْتَقِمُونَ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ قَتَلَ مِنَّا بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا. وَهَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنا عَلَى سِرِّهِ، وَسَأَلَنا تَفْسِيرَ رُؤْياهُ. فَهَلُمَّ نُغْلِظْ لَهُ الْقَولَ، وَنُخِفْهُ حَتَّى يَحْمِلَهُ الْفَرَقُ وَالْجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ. وَنَأْمُرُهُ؛ فَنَقُولُ : ادْفَعْ إِلَيْنا أَحِبَّاءَكَ، وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نَقْتُلَهُمْ؛ فَإِنَّا قَدْ نَظَرْنا فِي كُتُبِنا، فَلَمْ نَرَ أَنْ يُدْفَعَ عَنْكَ ما رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ، وَمَا وَقَعْتَ فِيهِ مِنْ هٰذا الشَّرِّ، إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ[1]. فَإِنْ قَالَ الْمَلِكُ : وَمَنْ تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا؟ سَمُّوهُمْ لِي . قُلْنا: نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِبْراخْتَ أُمَّ جُوبِرَ الْمَحْمُودَةَ، أَكْرَمَ نِسائِكَ عَلَيْكَ. وَنُرِيدُ جُوبِرَ أَحَبَّ بَنِيكَ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ، وَنُرِيدُ ابْنَ أَخِيكَ الْكَرِيمَ، وَإِيْلاذَ خَلِيلَكَ، وَصاحِبَ أَمْرِكَ. وَنُرِيدُ كالا الْكاتِبَ صاحِبَ سِرِّكَ، وَسَيْفَكَ الَّذِي لا يُوجَدُ مِثْلُهُ، وَالْفِيلَ الْأَبْيَضَ الَّذِي لا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرْكَبُكَ فِي الْقِتالِ، وَنُرِيدُ الْفِيلَيْنِ الْآخَرَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ يَكُونانِ مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ، وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَّ السَّرِيعَ الْقَوِيَّ، وَنُرِيدُ كَبارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفاضِلَ الْعالِمَ بِالْأُمُورِ لِنَنْتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنا[2]. ثُمَّ نَقُولُ لَهُ : إِنَّما يَنْبَغِي لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ ، أَنْ تَقْتُلَ هٰؤُلاءِ الَّذِينَ سَمَّيْناهُمْ لَكَ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِماءَهُمْ فِي حَوْضٍ، تَمْلَؤُهُ، ثُمَّ تَقْعُدَ فِيهِ. فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ، اجْتَمَعْنا نَحْنُ مَعاشِرَ الْبَراهِمَةِ مِنَ الْآفاقِ الْأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ، فَنَرْقِيكَ، وَنَتْفِلُ عَلَيْكَ، وَنَمْسَحُ عَنْكَ الدَّمَ، وَنَغْسِلُكَ بِالْماءِ وَالدُّهْنِ الطَّيِّبِ. ثُمَّ تَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ الْبَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللهُ بِذٰلِكَ الْبَلاءَ الَّذِي نَتَخَوَّفُهُ عَلَيْكَ[3].

فَإِنْ صَبَرْتَ أَيُّها الْمَلِكُ ، وَطابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَّائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنا لَكَ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاكَ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلاءِ، وَاسْتَقامَ لَكَ مُلْكُكَ وَسُلْطانُكَ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ. وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ تَخَوَّفْنا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهلكَ. فَإِنْ هُوَ أَطاعَنا فِيما نَأْمُرُهُ قَتَلْناهُ شَرَّ قِتْلَةٍ. فَلَمَّا أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى ما ائْتَمَرُوا فِيهِ، رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ وَقالُوا لَهُ : أَيُّها الْمَلِكُ إِنَّا نَظَرْنا فِي كُتُبِنا تَفْسِيرَ ما رَأَيْتَ ، وَفَحَصْنا عَنِ الرَّأْيِ فِيما بَيْنَنا[4]. فَلْتَكُنْ لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الطَّاهِرُ الصَّالِحُ - الْكَرامَةُ . وَلَسْنا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِمَكَ بِما رَأَيْنا إِلَّا أَنْ تَحْلُوَ بِنا وَتُؤَمِّنَنا؛ فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ

(١) وائتمروا: تشاوروا كما سبق. نغلظ له القول: نخشن ونسيء. الفَرَق: الخوف.
(٢) البُخْتي: واحد البُخت وهي الإبل الخُراسانية.
(٣) معاشر: جماعة. الآفاق: الجهات. ونتفل عليك: كما يفعل السحرة الذين ينفثون في العقد (وينفخون نفخا ممزوجًا بريقهم). البهي: الجميل.
(٤) يغصب ملكك: يأخذه ويستولي عليه غيرك قهرا.

كانَ عِنْدَهُ، وَخَلَا بِهِمْ؛ فَحَدَّثُوهُ بِالَّذِي ائْتَمَرُوا فِيهِ، فَقالَ لَهُمْ: الْمَوْتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَياةِ؛ إِنْ أَنا قَتَلْتُ هٰؤُلاءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي! وَأَنا مَيِّتٌ لا مَحالَةَ، وَالْحَياةُ قَصِيرةٌ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي وَفِراقَ الْأَحْبابِ سَواءٌ، فَضْلًا عَمَّا أَرْتَكِبُهُ مِنَ الْإِثْمِ فِي قَتْلِهِمْ! قالَ لَهُ الْبَرْهَمِيُّونَ: إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ أَخْبَرْناكَ؛ فَأَذِنَ لَهُمْ، فَقالُوا : أَيُّها الْمَلِكُ ، إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ صَوابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ[1]، فَاحْتَفِظْ بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ وَاعْمَلْ هٰذا الَّذِي فِيهِ لَكَ الرَّجاءُ الْعَظِيمُ عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ، وَقَرَّ عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ الَّذِينَ شَرُفْتَ وَكَرُمْتَ بِهِمْ، وَلا تَدَعِ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ، وَتَأْخُذْ بِالضَّعِيفِ، فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِيثارًا لِمَنْ تُحِبُّ.

وَاعْلَمْ أَيُّها الْمَلِكُ ، أَنَّ الْإِنْسانَ إِنَّما يُحِبُّ الْحَياةَ مَحَبَّةً لِنَفْسِهِ، وَأَنَّهُ لا يُحِبُّ مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأَحْبابِ، إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِ فِي حَياتِهِ. وَإِنَّما قِوامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللهِ بِمُلْكِكَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَنَلْ مُلْكَكَ إِلَّا بِالْمَشَقَّةِ وَالْعَناءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ، وَيَهُونَ عَلَيْكَ. فَاسْتَمِعْ كَلامَنا، وَانْظُرْ لِنَفْسِكَ مُناها؛ وَدَعْ ما سِواها؛ فَإِنَّهُ لا خَطَرَ لَهُ[2].

فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرْهَمِيِّينَ قَدْ أَغْلَظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ، وَاسْتَجْرَءُوا عَلَيْهِ فِي الْكَلامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ، وَقامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرانَيْهِمْ، وَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ، فَخَرَّ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي ، وَيَتَقَلَّبُ كَما تَتَقَلَّبُ السَّمَكَةُ إِذا خَرَجَتْ مِنَ الْماءِ وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: ما أَدْرِي أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي : الْهَلَكَةُ، أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي؟! وَلَنْ أَنالَ الْفَرَحَ ما عِشْتُ ، وَلَيْسَ مُلْكِي بِباقٍ عَلَيَّ إِلَى الْأَبَدِ، وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي[3]! وَإِنِّي لَزاهِدٌ فِي الْحَياةِ إِذا لَمْ أَرَ إِبراخْتَ وَجُوبِرَ. وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيامِ بِمُلْكِي إِذا هَلَكَ وَزِيرِي إِيلاذُ؟! وَكَيْفَ أَضْبِطُ أَمْرِي إِذا هَلَكَ فِيلِي الْأَبْيَضُ، وَفَرَسِي الْجَوادُ وَكَيْفَ أُدْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ مَنْ أَشارَ الْبَراهِمَةِ بِقَتْلِهِ؟! وَمَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيا بَعْدَهُمْ؟!.

ثُمَّ إِنَّ الْحَدِيثَ فَشا فِي الْأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِكِ وَهَمِّهِ! فَلَمَّا رَأَى إِيلاذُ ما نالَ الْمَلِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ، فَكَّرَ فِي حِكْمَتِهِ، وَنَظَرَ، وَقالَ: ما يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْمَلِكَ، فَأَسْأَلَهُ عَنْ هٰذا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ نالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي[4]. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِبراخْتَ فَقالَ : إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الْآنَ، لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا إِلَّا بِمَشُورَتِي وَرَأْيِي. وَأَراهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْرًا لا أَعْلَمُ ما هُوَ، وَلا أَراهُ يُظْهِرُ مِنْهُ

---

(١) تخلو بنا: تنفرد، عديل نفسي: مثلها. (٢) العناء: المعاناة والتعب.
(٣) ظهرانيهم: من وسطهم. فخر على وجهه: سقط. سُولي: تَطْلبي. (٤) فشا: شاع وانتشر.

شَيْئًا! وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خالِيًا مَعَ جَماعةِ الْبَرْهَمِيِّينَ مُنْذُ لَيالٍ، وَقَدِ احْتَجَبَ عَنَّا فِيها، وَأَنا خائِفٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرارِهِ، فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُشِيرُوا عَلَيْهِ بِما يَضُرُّهُ، وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ السُّوءُ. فَقُومِي وَادْخُلِي عَلَيهِ، فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ، وَأَخْبِرِينِي بِما هُوَ عَلَيْهِ، وَأَعْلِمِينِي، فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ؛ فَلَعَلَّ الْبَرْهَمِيِّينَ قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْرًا، وَحَمَلُوهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيحةٍ[1]. وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذا غَضِبَ لا يَسْأَلُ أَحَدًا، وَسَواءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ الْأُمُورِ وَكَبِيرُها. فَقالتْ إِيراخْتُ : إِنَّهُ كانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ بَعْضُ الْعِتابِ، فَلَسْتُ بِداخِلةٍ عَلَيْهِ فِي هٰذِهِ الْحالِ! فَقالَ لَها إِيْلاذُ : لا تَحْمِلِي عَلَيْهِ الْحِقْدَ فِي مِثْلِ هٰذا، وَلا يَخْطُرَنَّ ذٰلِكَ عَلَى بَالِكِ، فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِواكِ. وَقَدْ سَمِعْتُهُ كَثِيرًا يَقُولُ : ما اشْتَدَّ غَمِّي، وَدَخَلَتْ عَلَيَّ إِيراخْتُ إِلَّا سُرِّيَ ذٰلِكَ عَنِّي؛ فَقُومِي إِلَيْهِ، وَاصْفَحِي عَنْهُ، وَكَلِّمِيهِ بِما تَعْلَمِينَ أَنَّهُ تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ، وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ، وَأَعْلِمِينِي بِما يَكُونُ جَوابُهُ؛ فَإِنَّ بِذٰلِكَ لَنا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَعْظَمَ الرَّاحةِ[2]. فَانْطَلَقَتْ إِيراخْتُ، فَدَخَلَتْ عَلَى الْمَلِكِ، فَجَلَسَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَقالَتْ : ما الَّذِي بِكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْمَحْمُودُ؟ وَما الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَراهِمةِ؟ فَإِنِّي أَراكَ مَحْزُونًا! فَأَعْلِمْنِي ما بِكَ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَحْزَنَ مَعَكَ، وَنُؤَاسِيَكَ بِأَنْفُسِنا. فَقالَ الْمَلِكُ: أَيَّتُها الْمَرأَةُ، لا تَسْأَلِينِي عَنْ أَمرِي، فَتَزِيدِينِي غَمًّا وَحُزْنًا!؛ فَإِنَّهُ أَمْرٌ لا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلِينِي عَنْهُ. قالَتْ: أَوَ قَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنْزِلَةً مِنْ يَسْتَحِقُّ هٰذا؟! إِنَّما أَحْمَدُ النَّاسِ عَقْلًا مَنْ إِذا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلاتُ كانَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ ضَبْطًا، وَأَكْثَرَهُمُ اسْتِمَاعًا مِنْ أَهْلِ النُّصْحِ حَتَّى يَنْجُو مِنْ تِلْكَ النَّازِلةِ بِالْحِيلةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالْمُشاوَرةِ، فَعَظِيمُ الذَّنْبِ لا يُقْنِطُ مِنَ الرَّحْمةِ[3].

وَلا تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ؛ فَإِنَّهُما لا يَرُدَّانِ شَيْئًا مَقْضِيًّا إِلَّا أَنَّهُما يُنْحِلانِ الْجِسْمَ، وَيَشْفِيانِ الْعَدُوَّ. وَالصَّبْرُ عِنْدَ نُزُولِ الْمُصِيبةِ عِبادةٌ، وَسَوْفَ تَحْمَدُ أَمْرَكَ إِنْ أَخْبَرْتَنِي. قالَ لَهَا الْمَلِكُ : لا تَسْأَلِينِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتِ عَلَيَّ. وَالَّذِي تَسْأَلِينَنِي عَنْهُ لا خَيْرَ فِيهِ؛ لِأَنَّ عاقِبَتَهُ هَلاكِي وَهَلاكُكِ وَهَلاكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي، وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي[4]!، وَذَاكَ أَنَّ الْبَراهِمةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لا بُدَّ مِنْ قَتْلِكِ، وَقَتْلِ جويرَ، وَكَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي، وَلا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ

(١) لست آمنهم: لا أطمئن لهم. زينوا له أمرًا: حببوه إليه وجعلوه يقدم عليه. وحملوه: دفعوه.
(٢) لا تحملي: لا تُظهري. سُرِّيَ: كُشِفَ عني.
(٣) ونؤاسيك: من المؤاساة وهي نُزُل الإنسان غيره منزلة نفسه في النفع له. والدفع عنه. النازلات: مصائب الدهر. لا يقنط: لا ييئس.
(٤) يُنحلان الجسم: يصيبانه بالضعف والسقم. شققت على: أصبتني بالمشقة وأوقعتني فيها.

بَعْدَكُمْ، وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهٰذا إِلَّا اعْتَراهُ الْحُزْنُ؟! فَلَمَّا سَمِعَتْ ذٰلِكَ إِبراخْتُ جَزِعَتْ، وَمَنَعَها عَقْلُها أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزَعًا فَقالَتْ : أَيُّها الْمَلِكُ ، لا تَجْزَعْ فَنَحْنُ لَكَ الْفِداءُ، وَلَكَ فِي سِوايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوارِي ما تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ. وَلٰكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ أَيُّها الْمَلِكُ حاجةً يَحْمِلُني عَلَى طَلَبِتِها حُبِّي لَكَ، وَإِثارِي إِيَّاكَ، وَهِيَ نَصِيحتِي لَكَ. قالَ الْمَلِكُ : وَمَا هِيَ؟ قالَتْ: أَطْلُبُ مِنكَ أَلَّا تَثِقَ بَعْدَها بِأَحَدٍ مِنَ الْبَراهِمةِ، وَلا تُشَاوِرْهُمْ فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَثَبَّتَ فِي أَمْرِكَ، ثُمَّ تُشاوِرَ فِيهِ ثِقاتِكَ مِرارًا، فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ، وَلَسْتَ تَقْدَرُ عَلَى أَنْ تُحْيِيَ مَنْ قَتَلْتَ[1]. وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ: إِذا لَقِيتَ جَوْهَرًا لا خَيْرَ فِيهِ، فَلا تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ ، وَأَنْتَ أَيُّها الْمَلِكُ لا تَعْرِفُ أَعْداءَكَ. وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَراهِمةَ لا يُحِبُّونَكَ، وَقَدْ قَتَلْتَ مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَلا تَظُنَّ أَنَّ هٰؤُلاءِ لَيْسُوا مِنْ أُولٰئِكَ. وَلَعَمْرِي ما كُنْتَ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْياكَ، وَلا أَنْ تُطْلِعَهُمْ عَلَيْها. وَإِنَّما قالُوا لَكَ ما قالُوا لِأَجْلِ الْحِقْدِ الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؛ لَعَلَّهُمْ يُهْلِكُونَكَ وَيُهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ؛ فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ. وَأَظُنُّكَ لَوْ قَبِلْتَ مِنْهُمْ، فَقَتَلْتَ مَنْ أَشارُوا بِقَتْلِهِ، ظَفِرُوا بِكَ وَغَلَبُوكَ عَلَى مُلْكِكَ، فَيَعُودُ الْمُلْكُ إِلَيْهِمْ كَما كانَ. فَإِنَّ الشَّجَرَةَ إِذا أُرِيدَ قَلْعُها عُمِدَ أَوَّلًا إِلَى أُصُولِها وَمَا تَثَبَّتَ بِهِ فِي الْأَرْضِ فَقُطِعَتْ ثُمَّ قُلِعَتْ فَهَانَ قَلْعُها[2]. فَانْطَلِقْ إِلَى كَبارِيُونَ الْحَكِيمِ، فَهُوَ فَطِنٌ عالِمٌ؛ فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْياكَ، وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِها.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ سُرِّيَ عَنْهُ ما كانَ يَجِدُهُ مِنَ الْغَمِّ، فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأُسْرِجَ، فَرَكِبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كَبارِيُونَ الْحَكِيمِ . فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ، وَسَجَدَ لَهُ وقَامَ مُطَأْطِئًا الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ: ما بَالُكَ أَيُّها الْمَلِكُ، وَمَالِي أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ[3]؟ . فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنامِ ثَمانِيةَ أَحْلامٍ قَصَصْتُها عَلَى الْبَراهِمةِ وَأَنا خائِفٌ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ ذٰلِكَ عَظِيمُ أَمرٍ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَعْبِيرِهِمْ لِرُؤْيايَ، وَأَخْشَى أَنْ يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي، أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ! فَقالَ لَهُ الْحَكِيمُ: إِنْ شِئْتَ قَصَصْتَ عَلَيَّ أَحْلامَكَ، وَإِنْ شِئْتَ قَصَصْتُها عَلَيْكَ، وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا رَأَيْتَ جَمِيعِهِ. قالَ الْمَلِكُ : بَلْ مِنْ فِيكَ أَحْسَنُ. قالَ الْحَكِيمُ : لا يُحْزِنْكَ أَيُّها الْمَلِكُ هذا الْأَمْرُ ، وَلا تَخَفْ مِنْهُ .

أَمَّا السَّمَكَتَانِ الْحَمْراوانِ اللَّتانِ رَأَيْتَهُما قائِمَتَيْنِ عَلَى ذَنَبِهِما ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكِ

---

(١) يحملني: يدفعني. ثقاتك: من تعتمد عليهم من أمنائك.
(٢) تطلعهم عليها: تظهرهم عليهم. عُمِدَ : قصد. (٣) وتأويلها: تفسيرها. مطأطئا: خافضا.

هَيْمُونَ بِعِقْدَيْنِ مُكَلَّلَيْنِ[1] بِالدُّرِّ وَالْياقُوتِ الْأَحْمَرِ قِيمَتُهُما أَرْبَعَةُ آلافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ. وَأَمَّا الْوَزَّتانِ اللَّتانِ رَأَيْتَهُما طارَتا مِنْ وَراءِ ظَهْرِكَ فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ بَلْخٍ فَرَسانِ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مِثْلُهُما فَيَقُومانِ بَيْنَ يَدَيْكَ.

وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَها تَدِبُّ عَلَى رِجْلِكَ الْيُسْرَى، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ صِنْجِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خالِصِ الْحَدِيدِ لا يُوجَدُ مِثْلُهُ.

وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ كازْرونَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِباسٍ مُعْجِبٍ يُسَمَّى حلَّةَ أُرْجُوانٍ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ[2].

وَأَمَّا ما رَأَيْتَ مِنْ غَسْلِكَ جِسْمَكَ بِالْماءِ؛ فَإِنَّهُ يأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ رِهْزِينَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِثِيابٍ كَتَّانٍ مِنْ لِباسِ الْمُلُوكِ.

وَأَمَّا ما رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ كَيْدُورَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَبْيَضَ لا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ.

وَأَمَّا ما رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ شَبِيهًا بِالنَّارِ، فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكِ الْأَرْزَنِ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِإِكْلِيلٍ مِنذ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالدُّرِّ وَالْياقُوتِ[3].

وَأَمَّا الطَّائِرُ الَّذِي رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقارِهِ فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذٰلِكَ الْيَوْمَ، وَلَيْسَ بضارِّكَ، فَلا تَوْجَلَنَّ مِنْهُ، وَلٰكِنَّ فِيهِ بَعْضَ السُّخْطِ وَالْإِعْراضِ عَمَّا تُحِبُّهُ. فَهٰذا تَفْسِيرُ رُؤْياكَ أَيُّها الْمَلِكُ. وَأَمَّا هٰذِهِ الْبُرُدُ وَالرُّسُلُ؛ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَيَقُومُونَ بَيْنَ يَدَيْكَ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ سَجَدَ لِكَبارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى مَنْزِلِهِ. فَلَمَّا كانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جاءَتِ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ، فَخَرَجَ الْمَلِكُ فَجَلَسَ عَلَى التَّخْتِ وَأَذِنَ لِلْأَشْرافِ وَجاءَتْهُ الْهَدايا كَما أَخْبَرَهُ كَبارِيونُ الْحَكِيمُ. فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذٰلِكَ اشْتَدَّ عَجَبُهُ وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ كَبارِيُونَ، وَقالَ: ما وُفِّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ رُؤْيايَ عَلَى الْبَراهِمَةِ، فَأَمَرُونِي بِما أَمَرُونِي بِهِ[4]. وَلَوْلا أَنَّ اللهَ تَعالَى تَدارَكَنِي لَهَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ. وَكَذٰلِكَ لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنَ الْأَخِلَّاءِ ذَوِي الْعُقُولِ.

---

(١) بل من فيك: من فمك. أي: أحب أن أسمعها منك. مكلّلين: مزينين.

(٢) يقوم بين يديك: يقف منتصبا. تدب: تسري. خُضب: صُبغ ولوّن. حُلّة أرجوان: ثوب أحمر.

(٣) إكليل: تاج، وعصابة تزين بالجوهر، وطاقة من الورود والأزهار على هيئة التاج تكلل الرأس أو تطوق العنق للتزيين.

(٤) تَوْجَلَنَّ منه: تخافن. البُرُد: جمع بريد بمعنى رسول يحمل رسالة شفهية أو خطية، وقد كان البريد يأتي على الخيل. التخت: سرير الملك.

وَإِنَّ إِيراخْتَ أَشارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ، وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجاحَ، فَضَعُوا الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْها لِتَأْخُذَ مِنْها ما اخْتارَتْ. ثُمَّ قالَ لِإِيلاذَ: خُذِ الْإِكْلِيلَ وَالثِّيابَ، وَاحْمِلْها، وَاتْبَعْني بِها إِلَى مَجْلِسِ النِّساءِ، وَدَعَا الْمَلِكُ إِيراخْتَ، وَحُورَقْناه أَكْرَمَ نِسائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقالَ لِإِيلاذَ: دَعِ الْكُسْوةَ وَالْإِكْلِيلَ بَيْنَ يَدَيْ إِيراخْتَ، لِتَأْخُذَ أَيَّا شاءَتْ[1]. فَوُضِعَتِ الْهَدَايا بَيْنَ يَدَيْ إِيراخْتَ، فَأَخَذَتْ مِنْها الْإِكْلِيلَ، وَأَخَذَتْ حُورَقْناهُ كُسْوةً مِنْ أَفْخَرِ الثِّيابِ وَأَحْسَنِها. وَإِنَّ الْمَلِكَ زارَ بَعْدَ ذٰلِكَ إِيراخْتَ، فَصَنَعَتْ لَهُ أُرْزًا بِحَلاوةٍ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ بِالصَّحْفَةِ وَالْإِكْلِيلُ عَلَى رَأْسِها، فَعَلِمَتْ حُورَقْناهُ بِذٰلِكَ، فَغارَتْ مِنْ إِيراخْتَ، فَلَبِسَتْ تِلْكَ الْكُسْوةَ، وَمَرَّتْ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ، وَتِلْكَ الثِّيابُ تُضِيءُ عَلَيْها مَعَ نُورِ وَجْهِها، كَما تُضِيءُ الشَّمْسُ فَلَمَّا رَآها الْمَلِكُ أَعْجَبَتْهُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى إِيراخْتَ فَقالَ: إِنَّكِ جاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتِ الْإِكْلِيلَ، وَتَرَكْتِ الْكُسْوةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزائِنِنا مِثْلُها[2]. فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيراخْتُ مَدْحَ الْمَلِكِ لِحُورَقْناهَ، وَثَناءَهُ عَلَيْها، وَتَجْهِيلَها هِيَ، وَذَمَّ رَأْيِها، أَخَذَها مِنْ ذٰلِكَ الْغَيْرةُ وَالْغَيْظُ، فَضَرَبَتْ بِالصَّحْفَةِ رَأْسَ الْمَلِكِ، فَسالَ الْأُرْزُ عَلَى وَجْهِهِ، وَكانَ ذٰلِكَ تَمام تَعْبِيرِ الرُّؤْيا الَّتِي عَبَّرَها كَبارِيُونُ. فَقامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكانِهِ، وَدَعَا بِإِيلاذَ وَقالَ: أَلَا تَرَى وَأَنا مَلِكُ الْعالَمِ كَيْفَ حَقَرَتْنِي هٰذِهِ الْجاهِلَةُ وَفَعَلَتْ بِي ما تَرَى؟! فَانْطَلِقْ بِها، وَاقْتُلْها وَلا تَرْحَمْها. فَخَرَجَ إِيلاذُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ وَقالَ: لا أَقْتُلُها حَتَّى يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ، فَالْمَرْأَةُ عاقِلَةٌ سَدِيدةُ الرَّأْيِ مِنَ الْمَلِكاتِ الَّتِي لَيْسَ لَها عَدِيلٌ فِي النساءِ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصابِرٍ عَنْها، وَقَدْ خَلَّصَتْهُ مِنَ الْمَوْتِ، وَعَمِلَتْ أَعْمالًا صالِحةً، وَرَجاؤُنا فِيها عَظِيمٌ[3]، وَلَسْتُ آمَنُهُ أَنْ يَقُولَ: لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَها حَتَّى تُراجِعَنِي؟ فَلَسْتُ قاتِلَها حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيها ثانِيةً، فَإِنْ رَأَيْتُهُ نادِمًا حَزِينًا عَلَى ما فَعَلَ جِئْتُ بِها حَيَّةً، وَكُنْتُ قَدْ عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا، وَأَنْجَيْتُ إِيراخْتَ مِنَ الْقَتْلِ، وَحَفِظْتُ قَلْبَ الْمَلِكِ، وَاتَّخَذْتُ عِنْدَ عامَّةِ النَّاسِ بِذٰلِكَ يَدًا. وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ فِي الَّذِي فَعَلَهُ فَقَتْلُها لا يَفُوتُ[4]. ثُمَّ انْطَلَقَ بِها إِلَى مَنْزِلِهِ، وَوَكَّلَ بِها خادِمًا مِنْ أُمَنائِهِ، وَأَمَرَهُ بِخِدْمَتِها وَحِراسَتِها، حَتَّى يَنْظُرَ ما يَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْمَلِكِ. ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالدَّمِ، وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكَئِيبِ الْحَزِينِ فَقالَ: أَيُّها الْمَلِكُ، إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيراخْتَ. فَلَمْ يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ، وَذَكَرَ

---

(١) دع الكسوة: اتركها. (٢) بالصحفة: إناء الطعام. طبق: «صحن».
(٣) يسكن عنه الغضب: يهدأ. عديل: شبيه ونظير.
(٤) وأنجيت: خلصت. يدا: جميلا لا ينسى وأكبروا هذا العمل مني. مصوبا رأيه: حاكما له بالصواب.

جَمَال إيراخْتَ، وَفَضْلَهَا، وَاشْتَدَّ أَسَفُهُ عَلَيْها، وَجعَلَ يُعَزِّي نَفْسَهُ عَنْها، وَيَتَجَلَّدُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ إيلاذَ: أَحَقًّا أَمْضَى أَمْرَهُ فِيها أَمْ لا؟ وَرَجا لِما عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إيلاذ أَنْ لا يَكُونَ قَدْ فَعَلَ ذٰلِكَ! وَنَظَرَ إِلَيْهِ إيلاذ بِفَضْلِ عَقْلِهِ، فَعَلِمَ الَّذِي بِهِ فقالَ لَهُ : لا تَهْتَمَّ وَلا تَحْزَنْ أَيُّها الْمَلِكُ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنْفَعةٌ، وَلٰكِنَّهُما يُنْحِلانِ الْجِسْمَ وَيُفْسِدانِهِ. فَاصْبِرْ أَيُّها الْمَلِكُ عَلَى ما لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَدًا[1]. وَإِنْ أَحَبَّ الْمَلِكُ أَنْ أُحَدِّثَهُ بِحَدِيثٍ يُسَلِّيهِ. قالَ : حَدِّثْنِي.

قالَ إيلاذُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمامَتَيْنِ : ذَكَرًا وَأُنْثَى ملأَ عُشَّهُما مِنَ الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ، فَقالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْثَى: إِنَّا إِذا وَجَدْنَا فِي الصَّحارَى ما نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنا نَأْكُلُ مِمَّا هٰهُنا شَيْئًا. فَإِذا جاءَ الشِّتاءُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحارَى شَيْءٌ رَجَعْنا إِلَى ما فِي عُشِّنا فَأَكَلْناهُ. فَرَضِيَتِ الْأُنْثَى بِذٰلِكَ وَقالَتْ لَهُ : نِعِمَّا رَأَيْتَ. وَكانَ ذٰلِكَ الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعاهُ فِي عُشِّهِما؛ فَانْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغابَ ، فَلَمَّا جاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الْحَبُّ وَتَضَمَّرَ[2].

فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى الْحَبَّ ناقِصًا. فَقالَ لَها: أَلَيْسَ كُنَّا جَمَعْنا رَأْيَنا عَلَى أَلَّا نَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَلِمَ أَكَلْتِهِ؟! فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّها ما أَكَلَتْ مِنْهُ شَيْئًا، وَجَعَلَتْ تَتَنَصَّلُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُصَدِّقْها، وَجَعَلَ يَنْقُرُها حَتَّى ماتَتْ! فَلَمَّا جاءَتِ الْأَمْطارُ وَدَخَلَ الشِّتاءُ تَنَدَّى الْحَبُّ وَامْتَلأَ الْعُشُّ كَما كانَ[3]! فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذٰلِكَ: نَدِمَ! ثُمَّ اضْطَجَعَ إِلَى جانِبِ حَمامَتِهِ وَقالَ : ما يَنْفَعُنِي الْحَبُّ وَالْعَيشُ بَعْدَكِ، إِذا طَلَبْتُكِ فَلَمْ أَجِدْكِ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكِ!! وَإِذا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكِ وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكِ وَلا أَقْدِرُ عَلَى تَدارُكِ ما فاتَ!! ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ، فَلَمْ يَطْعَمْ طَعامًا وَلا شرابًا حَتَّى ماتَ إِلَى جانِبِها!.

وَالْعاقِلُ لا يَعْجَلُ فِي الْعَذابِ وَالْعُقُوبةِ، وَلا سِيَّما مَنْ يَخافُ النَّدامةَ كَما نَدِمَ الْحَمامُ الذَّكَرُ. وَقَدْ سَمِعْتُ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ طَبَقٌ مِنَ الْعَدَسِ، فَوَضَعَ الطَّبَقَ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَسْتَرِيحَ. فَنَزَلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ مِلْءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ، وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ، فَسَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ حَبَّةٌ ، فَنَزَلَ فِي طَلَبِهَا فَلَمْ يَجِدْها، وَانْتَثَرَ ما كانَ فِي يَدِهِ مِنَ الْعَدَسِ أَجْمَعُ[4]. وَأَنْتَ أَيْضًا

---

(١) خضب سيفه بالدم: لونه وصبغه. كالكئيب: كالحزين. يتجلد: يتكلف الجلادة وهي الصبر.

(٢) الحنطة: القمح. نِعِمّا رأيت: من أساليب المدح أي نعم الرأيُ رأيك. نَدِيّاً: مبللا بالندى. تضمر: جفّ وصغر وانكمش.

(٣) تتنصل: تتبرأ، وتنكر. ينقرها: يضربها بمنقاره.

(٤) تدارك ما فات: إصلاح ما مرّ ومضى. فَلَمْ يطعم: لم يذق. وانتثر: تناثر وتساقط متفرقا.

أَيُّها الْمَلِكُ عِنْدَكَ نِساءٌ كَثِيرةٌ، تَدَعُهُنَّ وَتَطْلُبُ الَّتي لا تَجِدُ!.

فَلَما سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِبراخْتُ قَدْ هَلَكَتْ ، فَقالَ : إِيهًا إِيلاذُ مِنْ كَلِمَةٍ واحِدةٍ فَعَلْتَ ما أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ ساعَتِكَ، وَتَعَلَّقْتَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ كانَ مِنِّي، وَلَمْ تَتَثَبَّتْ فِي الْأَمْرِ! قالَ إِيلاذُ : إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لا يَخْتَلِفُ، هُوَ اللهُ الَّذِي لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِهِ، وَلا اخْتِلافَ لِقَوْلِهِ. قالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ أَفْسَدْتَ أَمْرِي، وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِبراخْتَ[1]. قالَ إِيلاذُ : اثْنانَ يَنْبَغِي لَهُما أَنْ يَحْزَنا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، وَالَّذِي لا يَعْمَلُ الْخَيْرَ قَطُّ؛ لِأَنَّ فَرَحَهُما فِي الدُّنْيا ونَعِيمَهُما قَلِيلٌ، وَنَدَامَتَهُما إِذا يُعايِنانِ الْجَزاءَ طَوِيلةٌ لا يُسْتَطاعُ إِحْصاؤُها. قالَ الْمَلِكُ : لَئِنْ رَأَيْتُ إِبراخْتَ حَيَّةً لا أَحْزَنُ عَلَى شَيْءٍ أَبَدًا. قالَ إِيلاذُ : اثْنانِ لا يَنْبَغِي لَهُما أَنْ يَحْزَنا : الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلَّ يَوْمٍ، وَالَّذِي لَمْ يَأْثَمْ قَطُّ. قالَ الْمَلِكُ : ما أَنا بِناظِرٍ إِلَى إِبراخْتَ أَكْثَرَ مِمَّا نَظَرْتُ . قالَ إِيلاذُ : اثْنانِ لا يَنْظُرانِ : الْأَعْمَى، وَالَّذِي لا عَقْلَ لَهُ. وَكَما أَنَّ الْأَعْمَى لا يَنْظُرُ السَّماءَ وَنُجُومَهَا، وَلا يَنْظُرُ الْبُعْدَ وَالْقُرْبَ، كَذٰلِكَ الَّذِي لا عَقْلَ لَهُ لا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ، وَلا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ[2]. قالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِبراخْتَ لاشْتَدَّ فَرَحِي. قالَ إِيلاذُ : اثْنانِ هُما الْفَرِحانِ : الْبَصِيرُ، وَالْعالِمُ ؛ فَكَما أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعالَمِ، وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيادةِ وَالنُّقْصانِ، وَالْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ، فَكَذٰلِكَ الْعالِمُ يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِثْمَ، وَيَعْرِفُ أَعْمالَ الْآخِرَةِ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجاتُهُ، وَيُهْدَى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. قالَ الْمَلِكُ : إِنِّي لَمْ أَشْتَفِ مِنَ النَّظَرِ إِلَى إِبراخْتَ بَعْدُ! قالَ إِيلاذُ : اثْنانِ لا يَشْتَفِيانِ أَبَدًا: مَنْ يَكُونَ هَمُّهُ جَمْعَ الْمالِ وَادِّخارَهُ، وَمَنْ يَأْمُلُ ما لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَيَسْأَلُ ما لا يَجِدُ[3].

قالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنا أَنْ نَتَباعَدَ مِنْكَ يا إِيلاذُ ، وَنَأْخُذُ الْحَذَرَ، وَنَلْزَمَ الاتِّقاءَ. قالَ إِيلاذُ : اثْنانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَباعَدَ مِنْهُما : الَّذِي يَقُولُ لا بِرَّ، وَلا إِثْمَ، وَلا عِقابَ، وَلا ثَوابَ، وَلا شَيْءَ عَلَيَّ مِمَّا أَنا فِيهِ. وَالَّذِي لا يَكادُ يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمُحَلَّلٍ، وَلا أُذُنَهُ عَنِ اسْتِماعِ السُّوءِ، وَلا نَفْسَهُ عَنْ نِساءِ غَيْرِهِ، وَلا قَلْبَهُ عَمَّا تَهُمُّ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحِرْصِ! قالَ الْمَلِكُ : صارَتْ يَدِي مِنْ إِبراخْتَ صِفْرًا. قالَ إِيلاذُ : أَرْبَعَةُ أَشْياءَ أَصْفارٌ : النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ ماءٌ ، وَالْأَرْضُ الَّتِي لَيْسَ فِيها

---

(١) تدعهن : تتركهن . إيهاً : كلمة تقال عند الاستغراب وتكون للإسكات والكف . بمعنى حسبك . فتقول : إيهاً لا تحدث . إيلاذ . أي : يا إيلاذ . لم تثبت : لم تتأن .

(٢) يعاينان : يريان بأعينهما . البرّ : الصلاح والخير والعدل . لم يأثم : لم يعمل مالا يحل . (٣) صراط : طريق .

مَلِكٌ، وَالْمَرْأَةُ الَّتي لَيْسَ لَها بَعْلٌ ، وَالْجاهِلُ الَّذِي لا يَعْرِفُ الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ[1].

قالَ الْمَلِكُ : إِنَّكَ يا إِيلاذُ لَتُلَقَّي الْجَوابَ. قالَ إِيلاذُ : ثَلاثَةٌ يُلَقَّوْنَ الْجَوابَ: الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطِي وَيَقْسِمُ مِنْ خَزائِنِهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُهْداةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذوِي الْحَسَبِ ، وَالرَّجُلُ الْعالِمُ الْمُوَفَّقُ لِلْخَيْرِ.

قالَ الْمَلِكُ : أَهْلَكْتَ إِيراخْتَ يا إِيلاذُ ، بِغَيْرِ حَقٍّ. قالَ إِيلاذُ : ثَلاثَةٌ هُمُ الزَّائِغُونَ عَنِ الْحَقِّ، الَّذِي يَلْبَسُ الثِّيابَ الْبِيضَ ثُمَّ يَنْفُخُ بِالْكِيرِ فَيُسَوِّدُها بِالدُّخانِ، وَالْقَصَّارُ الَّذِي يَلْبَسُ الْجَوْرَبَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ وَرِجْلاهُ أَبَدًا فِي الْماءِ، وَالَّذِي يَقْتَنِي الْفَرَسَ الْكَرِيمَ لِلرُّكُوبِ ثُمَّ يَلْتَهِي عَنْهُ فَلا يَرْكَبُهُ فَيَبْطَرُ[2].

قالَ الْمَلِكُ : لَيْتَنِي أَنْظُرُ إِلَى إِيراخْتَ قَبْلَ فِراقِ الدُّنْيا! قالَ إِيلاذُ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ ما لا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ثَلاثَةٌ : مَنْ لا وَرَعَ لَهُ وَهُوَ يَرْتَجِي ثَوابَ الأَبْرارِ، وَالْبَخِيلُ الَّذِي يَلْتَمِسُ بِبُخْلِهِ أَنْ يَنالَ مَنْزِلَةَ السَّخِيِّ، وَالْفاجِرُ الَّذِي يَسْفِكُ الدِّماءَ وَيَأْمُلُ أَنَّ رُوحَهُ مِنْ أَرْواحِ الشُّهَداءِ. قالَ الْمَلِكُ : أَنا الَّذِي جَنَيْتُ عَلَى نَفْسِي ، وَجَرَرْتُ الْبَلاءَ إِلَيْها. قالَ إِيلاذُ : أُولٰئِكَ فِي النَّاسِ خَمْسَةٌ : الَّذِي يَتَعَرَّضُ لِلْقِتالِ وَهُوَ أَعْزَلُ، وَالْبَخِيلِ يَجْمَعُ مالَهُ فِي مَنْزِلِهِ، وَلا أَحَدَ مَعَهُ، فَيَقْصِدُهُ اللُّصُوصُ فَيَقْتُلُونَهُ، وَيَأْخُذُونَ مالَهُ[3]، وَالْكَبِيرُ يَخْطُبُ الصَّغِيرةَ، وَالْقَبِيحُ يَخْطُبُ الْجَمِيلَةَ. وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تُحِبُّ وَلَدَها وَهُوَ شاطِرٌ خَبِيثٌ فَهِيَ تَسْتُرُ أُمُورَهُ، وَتُخْفِيها ثُمَّ هُوَ يَكُونُ تَعَبًا لَها، وَوَبالًا عَلَيْها. قالَ الْمَلِكُ : قَدْ وَضَعْتُ الأَمْرَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ فِي قَتْلِي إِيراخْتَ! قالَ إِيلاذُ: مَنْ يَفْعَلُ ذٰلِكَ ثَلاثَةٌ، وَهُمْ : الطَّائِرُ الَّذِي يَرْفَعُ رِجْلَيْهِ نَحْوَ السَّماءِ خَوفًا مِنْ سُقُوطِها عَلَيْهِ، وَالْكُرْكِيُّ الَّذِي يَقُومُ عَلَى رِجْلٍ واحِدةٍ وَلا يَضَعُ الثَّانِيةَ عَلَى الأَرْضِ خَوْفَ أَنْ يَخْسِفَها، وَالْغَنَيُّ الْبَخِيلُ إِذا أَكَلَ لا يَشْبَعُ يَخافُ عَلَى مالِهِ مِنَ النَّفادِ كَالْخَراطِينِ التي طَعامُها التُّرابُ تَقْصِدُ الإِقْلالَ مِنَ الأَكْلِ مِنْهُ لِقَلَّا يَنْفَدَ، وَيَفْنَى، وَكَالْكَلْبِ الَّذِي يَلَغُ مِنَ النَّهْرِ بِلِسانِهِ وَلا يَعُبُّ مِنْهُ حِذارَ أَنْ يَجِفَّ، وَالْخُفَّاشُ الَّذِي يَطِيرُ بِاللَّيْلِ لا يَفْعَلُ ذٰلِكَ بِالنَّهارِ مَخافَةَ أَنْ يَصْطادَهُ النَّاسُ لِحُسْنِهِ، وَهُوَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ[4]! قالَ الْمَلِكُ : لَمْ

---

(١) الاتقاء: الوقاية والسلامة والتحفظ. تهم به نفسه: تقصده وتعزم عليه ولم تفعله.

(٢) تُلَقَّى الجواب: توفق له وتُلْهَمه. المهداة: المزفوفة. الحسب: المفاخر. الزائغون عن الحق: المائلون. الكير: الزق الذي ينفخ فيه الحداد. القَصّار: الذي يدق الثياب وييبضها. والجوربين: مثنى جورب: ما يلبس في الرجل. فيبطر: فيكره أن يركب ويثقل عليه الركوب.

(٣) السخيّ: الكريم. الشهداء: جمع شهيد وهو القتيل في سبيل الله. أعزل: بدون سلاح.

(٤) شاطر: خبيث. عارم: شرس مؤذ. وبالا: شرا عليها في مستقبل أيامها. يخسفها: يغرقها أو يخرقها. الخراطين: الديدان الحمر التي تكون في التراب الندى. ينفد: ينتهي ويفرغ. يلغ: يحرك لسانه في الماء. يعب: يشرب كالدواب. الخفاش: الوطواط.

أَحْزَنْ قَطُّ حُزْنِي عَلَى إِيراخْتَ. قالَ إيلاذُ : خَمْسَةُ أَشْياءَ إِذا كُنَّ فِي الْمَرْأَةِ كانَتْ أَهْلًا أَنْ يُحْزَنَ عَلَيْها: إِذا كانَتْ عَفِيفَةً ، كَرِيمَةَ الْحَسَبِ وَالنَّسَبِ، عاقِلَةً، جَمِيلَةً، مُوافِقَةً لِزَوْجِها مُحِبَّةً لَهُ[1].

قَالَ الْمَلِكُ : لَيْسَ تَأْخُذُنِي سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ مِنْ حُزْنِي عَلَى إِيراخْتَ! قَال إيلاذُ : اثْنانِ لا يَهْجَعانِ وَلا يَسْتَرِيحانِ : الْكَثِيرُ الْمالِ ، وَلَيْسَ لَهُ خازِنٌ وَلا أَمِينٌ ، وَالشَّدِيدُ الْمَرَضِ، وَلا طَبِيبَ لَهُ!

ثُمَّ إِنَّ إِيلاذَ لَمَّا رَأَى الْمَلِكَ قَدِ اشْتَدَّ بِهِ الأَمْرُ ، سَكَتَ فَقالَ لَهُ الْمَلِكُ : مَا بالُكَ يا إِيلاذُ سَكَتَّ؟! قالَ : أَيها الْمَلِكُ إِنِّي قَدْ تَطاوَلْتُ عَلَيْكَ فِيما امْتَحَنْتَكَ بِهِ، إِرادةَ أَنْ أَعْلَمَ ما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُكَ فِي إِيراخْتَ، وَأَرانِي قَدْ تَجاوَزْتُ طَوْرِي فِي ذٰلِكَ، وَبَانَ لِي مِنْ حِلْمِكَ وَعَقْلِكَ ما أَذْهَلَنِي؛ إِذ لَمْ يَبْدُ مِنْكَ مَعَ ما اجْتَرَأْتُ بِهِ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنَ الْغَضَبِ، وَلا تَغَيَّرْتَ عَنْ حالِكَ[2]. وَهاءِ أَنا شاكِرٌ لِعَفْوِكَ وَصَفْحِكَ، وَتَجاوُزِكَ عَنِّي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنِّي إِلَّا نُصْحًا لِلْمَلِكِ وَاسْتِطْلاعًا لِأَمْرِهِ، فَاعْفُ عَنِّي إِنْ شِئْتَ أَوْ فَعاقِبْنِي بِما تَراهُ ، فَإِنَّ إِيراخْتَ بِالْحَياةِ. فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذٰلِكَ اشْتَدَّ فَرَحُهُ، وَقالَ: يا إِيلاذُ إِنَّما مَنَعَنِي مِنَ الْغَضَبِ ما أَعْرِفُ مِنْ نَصِيحَتِكَ، وَصِدْقِ حَدِيثِكَ، وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِعِلْمِكَ أَنْ لا تَكُونَ قَدْ قَتَلْتَ إِيراخْتَ، فَإِنَّها وَإِنْ تَكُنْ أَتَتْ عَظِيمًا وَأَغْلَظَتْ فِي الْقَوْلِ لَمْ تَأْتِهِ عَداوةً، وَلا طَلَبَ مَضَرَّةٍ، وَلٰكِنَّها فَعَلَتْ ذٰلِكَ لِلْغَيْرَةِ. وَقَدْ كانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعْرِضَ عَنْ ذٰلِكَ وَأَحْتَمِلَهُ[3]. وَلٰكِنَّكَ يا إِيلاذُ أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَنِي وَتَتْرُكَنِي فِي شَكٍّ مِنْ أَمْرِها. وَقَدِ اتَّخَذْتَ عِنْدِي أَفْضَلَ الأَيادِي، وَأَنا لَكَ شاكِرٌ ؛ فَانْطَلِقْ فَأْتِنِي بِها، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَأَتَى إِيراخْتَ وَأَمَرَها أَنْ تَتَزَيَّنَ ، فَفَعَلَتْ ذٰلِكَ ، وَانْطَلَقَ بِها، فَلَمَّا دَخَلَتْ، سَجَدَتْ لِلْمَلِكِ، ثُمَّ قامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقالَتْ : أَحْمَدُ اللهَ تَعالَى ثُمَّ أَحْمَدُ الْمَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ. قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِلْبَقاءِ أَهْلًا بَعْدَهُ فَوَسِعَهُ حِلْمُهُ وَكَرَمُ طَبْعِهِ وَرَأْفَتُهُ[4]. ثُمَّ أَحْمَدُ إِيلاذَ الَّذِي أَخَّرَ أَمْرِي، وَأَنْجانِي مِنَ الْهَلَكَةِ لِعِلْمِهِ بِرَأْفَةِ الْمَلِكِ ، وَسَعَةِ حِلْمِهِ وَجُودِهِ، وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ وَوَفاءِ عَهْدِهِ. وَقالَ الْمَلِكُ لِإِيلاذَ: ما أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي، وَعِنْدَ إِيراخْتَ، وَعِنْدَ الْعامَّةِ!؛ إِذ قَدْ أَحْيَيْتَها بَعْدَ ما أَمَرْتُ بِقَتْلِها. فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَها لِيَ الْيَوْمَ؛ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ واثِقًا بِنَصِيحَتِكَ وَتَدْبِيرِكَ، وَقَدِ ازْدَدْتَ الْيَوْمَ عِنْدِي كَرامةً وَتَعْظِيمًا. وَأَنْتَ مُحَكَّمٌ فِي مُلْكِي تَعْمَلُ فِيهِ

---

(١) أهلا: مستحقة.

(٢) سنة: نعاس. لا يهجعان: لا ينامان. ليس له خازن: من يتولى حفظ ماله وإنفاقه. آل: رجع وصار. طورى: قدري وحدي.

(٣) وتجاوزك عني: عفوك وعدم مؤاخذتك إياي: واستطلاعاً لأمره: طلبا للإطلاع عليه.

(٤) اتخذت عندي أفضل الأيادي: قدمت من المعروف والخدمات مالا أنساه واظل أقدره لك.

بِما تَرَى، وَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِما تُرِيدُ ، فَقَدْ جَعَلْتُ ذٰلِكَ إِلَيْكَ، وَوَثِقْتُ بِكَ[1]. قَالَ إِيْلاذُ: أَدامَ اللهُ لَكَ أَيُّها الْمَلِكُ الْمُلْكَ وَالسُّرُورَ، فَلَسْتُ بِمَحْمُودٍ عَلَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا أَنا عَبْدُكَ. لٰكِنَّ حاجَتِي أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ الَّذِي يَنْدَمُ عَلَى فِعْلِهِ وَتَكُونُ عاقِبَتُهُ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ وَلا سِيَّما فِي مِثْلِ هٰذِهِ الْمَرْأَةِ النَّاصِحَةِ الْمُشْفِقَةِ، الَّتِي لا يُوجَدُ فِي الْأَرْضِ مِثْلُها. فَقالَ الْمَلِكُ: بِحَقٍّ قُلْتَ يا إِيلاذُ، وَقَدْ قَبِلْتُ قَوْلَكَ، وَلَسْتُ عامِلًا بَعْدَها عَمَلًا صَغِيرًا وَلا كَبِيرًا فَضْلًا عَنْ مِثْلِ هٰذا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي سَلِمْتُ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ الْمُؤَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ، وَمُشاوَرَةِ أَهْلِ الْمَوَدَّةِ وَالرَّأْيِ.

ثُمَّ أَحْسَنَ الْمَلِكُ جائِزَةَ إِيْلاذَ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أَولٰئِكَ الْبَراهِمَةِ الَّذِينَ أَشارُوا بِقَتْلِ أَحْبابِهِ فَأَطْلَقَ فِيْهِمِ السَّيْفَ، وَقَرَّتْ عَيْنُ الْمَلِكِ، وَعُيُونُ عُظَماءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، وَحَمِدُوا اللهَ، وَأَثْنَوْا عَلَى كَبَارِيُونَ لِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَفَضْلِ حِكْمَتِهِ ؛ لِأَنَّ بِعِلْمِهِ خَلَصَ الْمَلِكُ وَوَزِيرُهُ الصَّالِحُ وَامْرَأَتُهُ الصَّالِحةِ[2]!

بابُ

اللَّبُوَةِ وَالْإِسْوارِ وَالشَّحْبَرِ[3]

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبِيدَبا الْفَيْلَسوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذَا الْمَثَلَ، **فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنِ مَنْ يَدَعُ ضُرَّ غَيْرِهِ إِذا قَدَرَ عَلَيْهِ بِما يُصِيبُهُ مِنَ الضَّرَرِ، وَيَكُونُ لَهُ مِمَّا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ عَنِ ارْتِكابِ الظُّلْمِ وَالْعَداوةِ لِغَيْرِهِ.** قالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ لا يُقْدِمُ عَلَى طَلَبِ ما يُضَرُّ بِالنَّاسِ، وَما يَسُؤُهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَهالةِ وَالسَّفَهِ، وَسُوءِ النَّظَرِ فِي الْعَواقِبِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ، وَقِلَّةِ الْعِلْمِ بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذٰلِكَ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ، وَبِما يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَبِعَةِ ما اكْتَسَبُوا مِمَّا لا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ. وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ مِنْ ضَرَرِ بَعْضٍ باتِّفاقٍ ، عَرَضَ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبالُ مَا صَنَعَ لَمْ يَسْلَمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ؛ **فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الْعَواقِبِ لَمْ يَأْمَنِ الْمَصائِبَ، وَكَانَ حَقِيقًا أَنْ لا يَسْلَمَ مِنَ الْمَعَاطِبِ**[4]. وَرُبَّمَا اتَّعَظَ الْجاهِلُ، وَاعْتَبَرَ بِما يُصِيبُهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ مِنَ الْغَيْرِ، فَارْتَدَعَ عَنْ أَنْ يَغْشَى أَحَدًا بِمِثْلِ ذٰلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوانِ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعُ ما كَفَّ عَنْهُ مِنْ ضَرَرِهِ لِغَيْرِهِ فِي

---

(١) جوهره: أصله ومعدنه. جعلت ذلك إليك: اسندته إليه وتركت لك حرية التصرف فيه.
(٢) المؤامرة: التشاور. (٣) اللبوة: أنثى الأسد. الإسوار: الصياد الجيد الرمي بالسهام.
(٤) المعاطب: المهالك.

الْعاقِبةِ. وَمَثَلُ ذٰلِكَ حَدِيثُ اللَّبُوَةِ وَالإِسْوارِ وَالشَّغْبَرِ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ لَبُوَةً كانَتْ فِي غَيْضةٍ ، وَلَهَا شِبْلانِ[1]، وَأَنَّها خَرَجَتْ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَخَلَّفَتْهُما فِي كَهْفِهِما فَمَرَّ بِهِما إِسوارٌ فَحَمَلَ عَلَيْهِما، وَرَماهُما فَقَتَلَهُما، وَسَلَخَ جِلْدَيْهِما، فَاحْتَقَبَهُما، وَانْصَرَفَ بِهِما إِلَى مَنْزِلِهِ. ثُمَّ إِنَّها رَجَعَتْ فَلَمَّا رَأَتْ ما حَلَّ بِهِما مِنَ الأَمْرِ الْفَظِيعِ، اضْطَرَبَتْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ، وَصَاحَتْ وَضَجَّتْ ، وَكانَ إِلَى جَنْبِها شَغْبَرٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذٰلِكَ مِنْ صِياحِها، قالَ لَها: ما هٰذا الَّذِي تَصْنَعِينَ؟ وَمَا نَزَلَ بِكِ أَخْبِرِينِي بِهِ! قالَتِ اللَّبُوَةُ : شِبلايَ مَرَّ بِهِما إِسْوارٌ فَقَتَلَهُما، وَسَلَخَ جِلْدَيهِما، فَاحْتَقَبَهُما وَنَبَذَهُما فِي الْعَراءِ[2]. قالَ لَها الشَّغْبَرُ : لا تَضِجِّي ، وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكِ، وَاعْلَمِي أَنَّ الدُّنْيا دارُ مُكافَأَةٍ؛ فَفَاعِلُ الْخَيْرِ يَحْمَدُهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ يَجْنِي ثَمَرَهُ. وَإِنَّ هٰذا الإِسْوارَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْكِ شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ كُنْتِ تَفْعَلِينَ بِغَيْرِكِ مِثْلَهُ،وَتَأْتِينَ مِثْلَ ذٰلِكَ غَيْرَ واحِدٍ مِمَّنْ كانَ يَجِدُ بِحَمِيمِهِ، وَمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلَ ما تَجِدِينَ بِشِبْلَيْكِ ، فَاصْبِرِي مِنْ غَيْرِكِ عَلَى ما صَبَرَ غَيْرُكِ عَلَيْهِ مِنْكِ. فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: كَما تَدِينُ تُدانُ، وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرةٌ مِنَ الثَّوابِ وَالْعِقابِ ، وَهُما عَلَى قَدْرِهِ فِي الْكَثْرةِ وَالْقِلَّةِ ، كالزَّرْعِ إِذا حَضَرَ الْحَصَادُ أُعْطِيَ عَلى حَسَبِ بَذْرِهِ[3]. قالَتِ اللَّبُوَةُ : بَيِّنْ لِي ما تَقُولُ، وَأَفْصِحْ لِي عَنْ إِشارَتِهِ. قالَ الشَّغْبَرُ : كَمْ أَتَى لَكِ مِنَ الْعُمْرِ؟ قالَتِ اللَّبُوَةُ: كَذا ، وَكَذا سَنةً. قالَ الشَّغْبَرُ : ما كانَ قُوتُكِ فِيهِ. قالتِ اللَّبُوَةُ : لَحْمَ الْوَحْشِ. قالَ الشَّغْبَرُ: وَمَنْ كانَ يُطْعِمُكِ إِيَّاهُ؟ قالَتِ اللَّبُوَةُ : كُنْتُ أَصِيدُ الْوَحْشَ وَآكُلُهُ. قالَ الشَّغْبَرُ: أَرَأَيْتِ الْوُحُوشَ التِي كُنْتِ تَأْكُلِينَ؟ أَمَا كانَ لَها آباءٌ وَأُمَّاتٌ؟! قالَتْ : بَلَى. قالَ الشَّغْبَرُ : فَما بالِي لا أَرَى وَلا أَسْمَعُ لِأُولٰئِكَ الآباءِ وَالأُمَّهاتِ مِنَ الْجَزَعِ ما أَرَى وَأَسْمَعُ لَكِ؟! أَما إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِكِ ما نَزَلَ، إِلَّا لِسُوءِ نَظَرِكِ فِي الْعَواقِبِ، وَقِلَّةِ تَفَكُّرِكِ فِيها وَجَهالَتِكِ فِيما يَرْجِعُ عَلَيْكِ مِنْ ضُرِّها[4]. فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبُوَةُ ذٰلِكَ مِنْ كَلامِ الشَّغْبَرِ، عَرَفَتْ أَنَّ ذٰلِكِ مِمَّا جَنَتْ عَلَى نَفْسِها، وَأَنَّ عَمَلَها كانَ جَوْرًا وَظُلْمًا، فَتَرَكَتِ الصَّيْدَ، وَانْصَرَفَتْ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ إِلَى أَكْلِ الثِّمارِ، وَالنُّسْكِ وَالْعِبادةِ. فَلَمَّا رَأَى ذٰلِكِ وَرَشانٌ كانَ صاحِبَ تِلْكَ الْغَيْضةِ، وَكانَ عَيْشُهُ مِنَ الثِّمارِ، قالَ لَها: قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الشَّجَرَ عامَنا هٰذا لَمْ تَحْمِلْ لِقِلَّةِ الْماءِ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُكِ تَأْكُلِينَها، وَأَنْتِ آكِلةُ اللَّحْمِ،

---

(١) اعتبر : اتعظ وتعلم واستفاد. فارتدع : فكف، وامتنع. غيضة : أجمة وموضع يكثر فيه الشجر ويلتف. شبلان : الشبل ابن الأسد.
(٢) فحمل عليهما : هجم. احتقبهما : ربطهما خلفه على ركوبته. نبذهما : طرحهما. العراء : الفضاء.
(٣) بحميمه : بصديقه وقريبه الذي يهتم بأمره. (٤) أثنات : جمع أم.

فَتَرَكْتِ رِزْقَكِ، وَطَعَامَكِ، وَما قَسَمَ اللهُ لَكِ وَتَحَوَّلْتِ إِلَى رِزْقِ غَيْرِكِ فَانْتَقَصْتِهِ[1]، وَدَخَلْتِ عَلَيْهِ فِيهِ، عِلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ الْعامَ أَثْمَرَتْ كَما كانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ الْيَوْمِ؛ وَإِنَّمَا أَتَتْ قِلَّةُ الثمرِ مِنْ جِهَتِكِ! فَوَيْلٌ للشَّجَرِ، وَوَيْلٌ للثِّمارِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ عَيْشُهُمْ مِنْها! ما أَسْرَعَ هَلاكَهُمْ إِذا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزاقِهِمْ، وَغَلَبَهُمْ مَنْ لَيسَ لَهُ فِيها حَظٌّ، وَلَمْ يَكُنْ مُعْتادًا لِأَكْلِها! فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبُؤَةُ ذٰلِكَ مِنْ كَلامِ الْوَرَشانِ تَرَكَتْ أَكْلَ الثِّمارِ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ الْعُشْبِ وَالْعِبادةِ! **وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجاهِلَ رُبَّما انْصَرَفَ بِضُرٍّ يُصِيبُهُ عَنْ ضُرِّ النَّاسِ، كَاللَّبُؤَةِ الَّتِي انْصَرَفَتْ لِما لَقِيَتْ فِي شَبْلَيْها عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ، ثُمَّ عَنْ أَكْلِ الثِّمارِ بِقَوْلِ الْوَرَشانِ وَأَقْبَلَتْ عَلَى النُّسْكِ وَالْعِبادةِ**[2]!.

وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذٰلِكَ؛ فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ: **ما لا تَرْضاهُ لِنَفْسِكَ لا تَصْنَعْهُ لِغَيْرِكَ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ الْعَدْلَ، وَفِي الْعَدْلِ رِضَى اللهِ تَعَالَى، وَرِضَى النَّاسِ**[3]!.

بابُ
النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبِيدَبا الْفَيْلَسوفِ: **قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ: الَّذِي يَدَعُ صُنْعَهُ الَّذِي يَلِيقُ بِهِ وَيُشاكِلُهُ، وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ، فَلا يُدْرِكُهُ، وَيَرْجِعُ إِلَى الَّذِي كانَ عَلَيْهِ فَلا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيَبْقَى حَيْرانَ مُتَرَدِّدًا!!**

قالَ الْفَيْلَسُوفِ: زَعَمُوا أَنَّهُ كانَ بِأَرْضِ الْكَرْخِ ناسِكٌ عابِدٌ مُجْتَهِدٌ، فَنَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ ذاتَ يَوْمٍ، فَدَعا النَّاسِكُ لِضَيْفِهِ بِتَمْرٍ لِيُطْرِفَهُ بِهِ، فَأَكَلا مِنْهُ جَمِيعًا. ثُمَّ قالَ الضَّيْفُ: ما أَحْلَى هٰذا التَّمْرَ وَأَطْيَبَهُ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بِلادِي الَّتِي أَسْكُنُها، وَلَيْتَهُ كانَ فِيها[4]. ثُمَّ قالَ: أَرَى أَنْ تُساعِدَنِي عَلَى أَنْ آخُذَ مِنْهُ ما أَغْرِسُهُ فِي أَرْضِنا، فَإِنِّي لَسْتُ عارِفًا بِثِمارِ أَرْضِكُمْ هٰذِهِ، وَلا بِمَواضِعِها. قالَ لَهُ النَّاسِكُ: لَيْسَ لَكَ فِي ذٰلِكَ راحةٌ؛ فَإِنَّهُ يَثْقُلُ عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ ذٰلِكَ لا يُوافِقُ أَرْضَكُمْ، مَعَ أَنَّ بِلادَكُمْ كَثِيرةُ الْأَثْمارِ، فما حاجةٌ مَعَ كَثْرةِ ثِمارِها إِلَى التَّمْرِ مَعَ وَخامَتِهِ، وَقِلَّةِ مُناسَبَتِهِ لِلْجَسَدِ؟! ثُمَّ قالَ لَهُ

---

(١) ورشان: طائر. فانتقصته: أي أخذت منه. (٢) انصرفت: امتنعت وكفت.
(٣) العدل: إعطاء كل ذي حق حقه. والمساواة بينك وبين غيرك.
(٤) الكرخ: قال ياقوت: وكرخ سامرّا منسوب إلى فيروز بن قباذ الملك.

النَّاسِكُ : إِنَّهُ لا يُعَدُّ سَعِيدًا مَنْ طَلَبَ ما لا يَجِدُ. وَإِنَّكَ سَعِيدُ الْجَدِّ إِذا قَنِعْتَ بِالَّذِي تَجِدُ، وَتَزْهَدُ فِيما لا تَجِدُ. وَكَانَ هٰذا النَّاسِكُ يُحْسِنُ الْعِبرانِيَّةِ، فَسَمِعَهُ الضَّيْفُ يَتَكَلَّمُ بِها مَرَّةً فَاسْتَحْسَنَ كَلَامَهُ، وَأَعْجَبَهُ، فَتَكَلَّفَ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ، وَعَالَجَ فِي ذٰلِكَ نَفْسَهُ أَيَّامًا[1]، فَقالَ النَّاسِكُ لَهُ: ما أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرَكْتَ مِنْ كَلامِكَ، وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلامِ الْعِبرانِيَّةِ فِي مِثْلِ ما وَقَعَ فِيهِ الْغُرابُ ! قالَ الضيفُ : وَكَيفَ كانَ ذٰلِكَ ؟

مثل الغراب والحَجَلة

قالَ النَّاسِكُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرابًا رَأَى حَجَلةً تَدْرُجُ وَتَمْشِي ، فَأَعْجَبَتْهُ مَشْيَتُها، وَطَمِعَ أَنْ يَتَعَلَّمَها، فَراضَ عَلَى ذٰلِكَ نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْطامِها، وَأَيِسَ مِنْها، وَأَرادَ أَنْ يَعُودَ إِلَى مِشْيَتِهِ الَّتِي كانَ عَلَيْها، فَإِذا هُوَ قَدِ اخْتَلَطَ مَشْيُهُ، وَتَخَلَّعَ فِيهِ، وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْيًا[2]!

وَإِنَّما ضَرَبْتُ لَكَ هٰذا الْمَثَلَ لِما رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرَكْتَ لِسانَكَ الَّذِي طُبِعْتَ عَلَيْهِ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى لِسانِ الْعِبرانِيَّةِ، وَهُوَ لا يُشاكِلُكَ، وَأَخافُ أَنْ لا تُدْرِكَهُ، وَتَنْسَى لِسانَكَ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسانًا! فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ يُعَدُّ جاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْأُمُورِ ما لا يُشاكِلُهُ وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ، وَلَمْ يُؤَدِّبْهُ عَلَيْهِ آباؤُهُ وَأَجْدادُهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَمْ يُعْرَفْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ وَذَوِي قَرابَتِهِ فَإِنَّ الْعاقِلَ لا يَتَعَدَّى طَوْرَه!

وَالْوُلاةُ أَيُّها الْمَلِكُ، وَأَرْبابُ الْأَمْرِ أَوْلَى بِالِانْتِباهِ إِلَى هٰذا الشَّأْنِ، وَمَنْعِ حُدُوثِهِ بَيْنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ فِيهِ مَضَرَّةً لَهُمْ بِما يُجَرِّئُ[3] الْأَنْفُسَ عَلَى مُنازَعَتِهِمْ فِي مَنازِلِهِمْ، وَيُغْرِيها بِمُقاوَمَتِهِمْ فِي أَحْكامِهِمْ؛ لِما فِيهِ مِنْ إِطْماعِ السَّفِلَةِ فِي مَراتِبِ أَهْلِ الطَّبَقَةِ الْعالِيَةِ، وَمُزاحَمَةِ اللَّئِيمِ لِلْكَرِيمِ، وَالْجاهِلِ لِلْعالِمِ، وَالْخامِلِ لِلنَّسِيبِ، وَالدَّنِيءِ لِلشَّرِيفِ، إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَى تَشَوُّشِ الْعالَمِ ، وَفَسادِ الْأُمُورِ، وَاخْتِلاطِ الطَّبَقاتِ، وَضَياعِ الْمَراتِبِ وَالْأَقْدارِ. وَالْأُمُورُ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ تَجْرِي عَلَى مِثالٍ واحِدٍ، يَنْتَهِي إِلَى الْأَمْرِ الْخَطِيرِ الْجَسِيمِ، مِنْ مُزاحَمَةِ الْمَلِكِ عَلَى مُلْكِهِ وَمُضادَّتِهِ فِيهِ[4]!.

---

(١) وخامته : عدم موافقته . الجَدّ : الحظ . فتكلف أن يعلمه : حاول . عالج : مارَس واشتغل .

(٢) ما أخلقك : ما أولاك وما أحقك! الحجلة : طائر في حجم الحمام أحمر المنقار طيب اللحم . إحكامها : إتقانها . وأيس : يئس . تخلع : تفكك .

(٣) لا يشاكلك : لا يوافقك ولا يشبهك . طَوْره : حده . أرباب : أصحاب . يجرئ : يشجع .

(٤) ويغريها : يحرضها . السفلة : الأدنياء . الطبقة : الرتبة . يفضي : يبلغ وينتهي . الخامل : الساقط المنزلة .

بابُ

السّائِحِ وَالصّائِغِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبِيدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي **مَثَلَ الَّذِي يَضَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ**[1].

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : **أَيُّها الْمَلِكُ لَيْسَ أَضْيَعُ مِنْ جَمِيلٍ يُصْنَعُ مَعَ غَيْرِ شَاكِرٍ؛ وَلا أَخْسَرُ مِنْ صانِعِهِ، كَما أَنَّهُ لا بَذْرَ أَنْمَى مِنْ بَذْرِ الْجَمِيلِ فِي قُلُوبِ الشَّاكِرِينَ، وَلا تِجارَةَ أَرْبَحَ مِنْ تِجارَتِهِ**، وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنَّ الْمَرْءَ جَدِيرٌ أَنْ يَصْنَعَ الْمَعْرُوفَ إِلَى كُلِّ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ إِنْ ضاعَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ النَّاسِ لا يَضِيعُ عِنْدَ اللهِ! وَلاسِيَّما إِلَى ذَوِي الشُّكْرِ وَالْوَفاءِ، كَيْفَ كَانَتْ مَنْزِلَتُهُمْ ، فَلَعَلَّهُ احْتاجَ إِلَيْهِمْ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ فَيُكافِئُهُ عَلَيْهِ.

غَيْرَ أَنَّ الْمُلُوكَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ ذَوِي الْعُقُولِ إِذا تَعَمَّدُوا بِمَعْرُوفِهِمْ أَحَدًا يَخْتَصُّونَهُ بِهِ يَنْبَغِي لَهُمْ أَن يَضَعُوهُ مَوْضِعَهُ، وَلا يُضَيِّعُوهُ عِنْدَ مَنْ لا يَحْتَمِلُهُ، وَلا يَقُومُ بِشُكْرِهِ[2]. فَيَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ لا يَصْطَفُوا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْخِبْرَةِ بِطَرائِقِهِ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوَفائِهِ وَمَوَدَّتِهِ وَشُكْرِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى الْمَشْهُورِ بِالِاسْتِقامَةِ وَالْعِفَّةِ، وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِ اخْتِبارٍ، وَلَا تَجْرِبَةٍ كانَ مُخاطِرًا فِي ذٰلِكَ، مُشْرِفًا مِنْهُ عَلَى هَلاكٍ وَفَسادٍ. أَلَّا تَرَى أَنَّ الطَّبِيبَ الرَّفِيقَ الْعاقِلَ لا يَكْتَفِي فِي مُداواةِ الْمَرِيضِ بِالْمُعايَنَةِ فَقَطْ، لٰكِنَّهُ لا يُقْدِمُ عَلَى عِلاجِهِ إِلَّا بَعْدَ تَعَرُّفِ أَحْوالِهِ، وَالْجَسِّ لِعُرُوقِهِ، وَمَعْرِفَةِ طَبِيعَتِهِ، وَسَبَبِ عِلَّتِهِ، فَإِذا عَرَفَ ذٰلِكَ كُلَّهُ أَقْدَمَ عَلَى مُعالَجَتِهِ، وَلا يَنْبَغِي أَنْ يَخْتَصُّوا بِذٰلِكَ قَرِيبًا لِقَرابَتِهِ، وَلا أَحَدًا مِنْ خاصَّتِهِمْ لِشَرَفِهِ، إِذا كانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ ؛ فَإِنَّهُ إِنَّما شَرُفَ بِتَشْرِيفِهِمْ إِيَّاهُ[3].

وَلا أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهُمْ وَجَمِيلَهُمْ عَنْ بَعِيدٍ لِبُعْدِهِ، أَوْ خامِلٍ لِخُمُولِهِ، إِذا كانَ عارِفًا بِحَقِّ ما يُصْطَنَعُ إِلَيْهِ، مُؤَدِّيًا لِشُكْرِ ما أُنْعِمَ عَلَيْهِ. وَقَدْ قِيلَ: لا يَنْبَغِي لِذِي الْعَقْلِ أَنْ يَحْتَقِرَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ حَتَّى الْبَهائِمِ، وَلٰكِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَبْلُوهُمْ وَيَخْتَبِرَهُمْ وَيَكُونَ ما يَصْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ ما يَرَى مِنْهُمْ ، فَقَدْ يَكُونُ الْخَيْرُ عِنْدَ مَنْ يُظَنُّ بِهِ الشَّرُّ، وَالشَّرُّ عِنْدَ مَنْ يُظَنُّ بِهِ الْخَيْرُ[4]!

---

(١) في غير موضعه : يصنعه مع من لا يستحقه ولا يقدره من اللئام.
(٢) يحتمله : يتقلده ويشكره.
(٣) يصطفوا : يختاروا.
(٤) يبلُوَهم : يختبرهم.

وَأَنَّ طَبائِعَ الْخَلْقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، مُخْتَلِفَةٌ ، وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، أَوْ عَلَى رِجْلَيْنِ، أَوْ يَطِيرُ بِجَناحَيْنِ، أَوْ يَسْبَحِ فِي الْماءِ شَيْءٌ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْسانِ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَرُبَّما تَحَذَّرَ الْعاقِلُ مِنَ النَّاسِ ، فَلَمْ يَأْمَنْ أَحَدًا مِنْهُمْ، وَأَخَذَ ابْنَ عِرْسٍ فَأَدْخَلَهُ فِي كُمِّهِ، وَأَخْرَجَهُ مِنَ الْآخَرِ، وَأَخَذَ الطَّيْرَ الْجارِحَ فَوَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ، فَإِذا صَادَ شَيْئًا أَبْقَى لَهُ مِنْهُ نَصِيبًا. وَمِنَ النَّاسِ الْبَرُّ وَالْفاجِرُ؛ وَمِنْ هٰؤُلاءِ كُلُّ كَفُورٍ كَنُودٍ، حَتَّى لَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَهائِمِ وَالسِّباعِ وَالطَّيْرِ ما هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً ، وَأَشَدُّ مُحاماةً عَنْ حُرْمَةٍ ، وَأَشْكَرُ لِلْمَعْرُوفِ وَأَقْوَمُ بِهِ. وَقَدْ مَضَى فِي ذٰلِكَ مَثَلٌ ضَرَبَهُ بَعْضُ الْحُكَماءِ. قالَ الْمَلِكُ: وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ[1]؟!

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جَماعَةً اخْتَفَرُوا رَكِيَّةً ، فَوَقَعَ فِيها رَجُلٌ صائِغٌ، وَحَيَّةٌ، وَقِرْدٌ ، وَبَيْرٌ، وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سائِحٌ، فَأَشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ ، فَبَصِرَ بِالرَّجُلِ، وَالْحَيَّةِ وَالْقِرْدِ وَالْبَيْرِ، فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِآخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أُخَلِّصَ هٰذا الرَّجُلَ مِنْ بَيْنِ هؤُلاءِ الْأَعْداءِ! فَقَدْ قِيلَ: لَمْ يُؤْجَرْ مَأْجُورٌ بِأَعْظَمَ مِنْ أَجْرِ مَنِ اسْتَحْيا نَفْسًا هالِكَةً، وَلا عُوقِبَ مُعاقَبٌ بِأَشَدَّ مِنْ عِقابِ مَنْ كَفَّ عَنْ ذٰلِكَ، وَهُوَ قادِرٌ عَلَيْهِ، وَلَوْ بِمَشَقَّةٍ مِمَّا خَلا ذَهابَ نَفْسِهِ[2]. فَأَخَذَ حَبْلًا وَأَدْلاهُ إِلَى الْبِئْرِ، فَتَعَلَّقَ بِهِ الْقِرْدُ لِخِفَّتِهِ، فَخَرَجَ، ثُمَّ أَدْلاهُ ثانِيَةً فَالْتَفَّتْ به الحيَّةُ ، فَخَرَجَتْ، ثُمَّ أَدْلاه ثالِثَةً فَتَعَلَّقَ بِهِ البَيْرُ، فأخرجهُ، فشكرن صَنِيعَهُ، وَقُلْنَ لَهُ لا تُخْرِجْ هٰذا الرَّجُلَ مِنَ الرَّكِيَّةِ فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقَلَّ مِنْ شُكْرِ الْإِنْسانِ! ثُمَّ قالَ لَهُ الْقِرْدُ : إِنَّ مَنْزِلِي فِي جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَةٍ يُقالُ لَها: نُوادَرَخْتُ . فَقالَ لَهُ الْبَيْرُ: أَنا أَيْضًا فِي أَجَمَةٍ إِلَى جانِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ[3]. قالَتِ الْحَيَّةُ: وَأَنا فِي سُورِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ، فَإِنَّ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنا يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ وَاحْتَجْتَ إِلَيْنا فَصَوِّتْ عَلَيْنا، حَتَّى نَأْتِيَكَ، فَنَجْزِيَكَ بِما أَسْدَيْتَ إِلَيْنا مِنَ الْمَعْرُوفِ. فَلَمَّ يَلْتَفِتِ السَّائِحُ إِلَى ما ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسانِ، وَأَدْلَى الْحَبْلَ، فَأَخْرَجَ الصَّائِغَ، فَسَجَدَ لَهُ وَقالَ : لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا؛ فَإِنْ مَرَرْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِينَةِ نُوادَرَخْتَ، فَاسْأَلْ عَنْ مَنْزِلِي، فَأَنا رَجُلٌ صائِغٌ وَاسْمِي فُلانٌ، لَعَلِّي أُكافِئُكَ بِما صَنَعْتَ إِلَيَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ. فَانْطَلَقَ الصَّائِغُ إِلَى مَدِينَتِهِ، وَانْطَلَقَ السَّائِحُ إِلَى وِجْهَتِهِ، فَعَرَضَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنَّ السَّائِحَ اتَّفَقَتْ لَهُ حاجَةٌ إِلَى تِلْكَ الْمَدِينَةِ، فَانْطَلَقَ فَاسْتَقْبَلَهُ الْقِرْدُ فَسَجَدَ لَهُ، وَقَبَّلَ رِجْلَيْهِ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ، وَقالَ : إِنَّ الْقُرُودَ لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا، وَلٰكِنِ اقْعُدْ حَتَّى آتِيَكَ، وَانْطَلَقَ الْقِرْدُ ،

(١) تحذر: اتخذ حذره. كنود: كفور.
(٢) ركية: بئراً. البير: النمر.
(٣) صنيعه: معروفه وجميله.

وَأَتاهُ بِفاكِهةٍ طَيِّبةٍ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدِيْهِ، فَأَكَلَ مِنْها حاجتَهُ[1].

ثُمَّ إِنَّ السَّائِحَ انْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ الْمَدِينةِ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْبَيْرُ، فَخَرَّ لَهُ ساجِدًا وَقالَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا، فَاطْمَئِنَّ ساعَةً، حَتَّى آتِيَكَ، فَانْطَلَقَ الْبَيْرُ، فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الْحِيطانِ إِلَى بِنْتِ الْمَلِكِ فَقَتَلَها، وَأَخَذَ حُلِيَّها، فَأَتاهُ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْلَمَ السَّائِحُ مِنْ أَيْنَ هُوَ فَقالَ فِي نَفْسِهِ: هٰذِهِ الْبَهَائِمُ قَدْ أَوْلَتْنِي[2] هٰذا الْجَزاءَ، فَكَيْفَ لَوْ أَتَيْتُ إِلَى الصَّائِغِ؟! فَإِنَّهُ إِنْ كانَ مُعْسِرًا لا يَمْلِكُ شَيْئًا فَسَيَبِيعُ هٰذا الْحَلْيَ، فَيَسْتَوفِي ثَمَنَهُ، فَيُعْطِينِي بَعْضَهُ وَيَأْخُذُ بَعْضَ وَهُوَ أَعْرَفُ بِثَمَنِهِ، فَانْطَلَقَ السَّائِحُ فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ فَلَمَّا رَآهُ رَحَّبَ بِهِ، وَأَدْخَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ. فَلَمَّا بَصُرَ بِالْحُلِيِّ مَعَهُ عَرَفَهُ، وَكَانَ هُوَ الَّذِي صاغَهُ لِابنةِ الْمَلِكِ. فَقالَ الصَّائِغُ: اطْمَئِنَّ حَتَّى آتِيَكَ بِطَعامٍ، فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ ما فِي الْبَيْتِ، ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ : قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي. أُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْمَلِكِ، وَأَدُلَّهُ عَلَى ذٰلِكَ فَتَحْسُنُ مَنْزِلَتِي عِنْدَهُ[3] . فَانْطَلَقَ إِلَى بابِ الْمَلِكِ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ، وَأَخَذَ حُلِيَّها عِنْدِي، فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ، وَأَتَى بالسَّائِحِ، فَلَّما نَظَرَ الْحلِيَّ مَعهُ لَمْ يُمْهِلْهُ، وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ، وَيُطافَ بِهِ فِي الْمَدِينةِ وَيُصْلَبَ. فَلّما فَعَلُوا بِهِ ذٰلِكَ، جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: لَوْ أَنِّي أَطَعْتُ الْقِردَ وَالْحَيَّةَ وَالْبَيْرَ فِيما أَمَرَتْنِي بِهِ، وَأَخْبَرَتْنِي مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسانِ، لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هٰذا الْبَلاءِ، وَجَعَلَ يُكَرِّرُ هٰذا الْقَوْلَ. فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الْحَيَّةُ، فَخَرَجَتْ مِنْ جُحْرِها فَعَرَفَتْهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْها أَمْرُهُ فَجَعَلَتْ تَحْتالُ فِي خَلاصِهِ. فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتِ ابْنَ الْمَلِكِ، فَدَعَا الْمَلِكُ أَهْلَ الْعِلْمِ فَرَقَوْهُ، لِيَشْفُوهُ، فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُ شَيْئًا[4]! ثُمَّ مَضَتِ الْحَيَّةُ إِلَى أُخْتٍ لَها مِنَ الْجِنِّ فَأَخْبَرَتْها بِما صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْها مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَمَا وَقَعَ فِيهِ، فَرَقَّتْ لَهُ وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ الْمَلِكِ وَتَراءَتْ لَهُ، وَقالَتْ: إِنَّكَ لا تَبْرَأُ حَتَّى يَرْقِيَكَ هٰذا الرَّجُلُ، الَّذِي قَدْ عَاقَبْتُمُوهُ ظُلْمًا. وَانْطَلَقَتِ الْحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ إِلَيْهِ السِّجْنَ وَقالَتْ لَهُ : هٰذا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِنَ اصْطِناعِ الْمَعْرُوفِ إِلَى هٰذا الْإِنْسانِ، وَلَمْ تُطِعْنِي، وَأَتَتْهُ بِوَرَقٍ يَنْفَعُ مِنْ سُمِّها، وَقالَتْ لَهُ : إِذَا جاءُوا بِكَ لِتَرْقِيَ ابْنَ الْمَلِكَ، فَاسْقِهِ مِنْ ماءِ هٰذا الْوَرَقِ، فَإِنَّهُ يَبْرَأُ، وَإِذا سَأَلَكَ الْمَلِكُ عَنْ حالِكَ فَاصْدُقْهُ؛ فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى[5]! وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ أَخْبَرَ أَباهُ أَنَّهُ سَمِعَ قائِلًا يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْقِيَكَ

---

(١) أسديت: قدمت. أوليتني: صنعت إلي. وجهته: الجهة التي يقصدها.
(٢) دنا: قرب. أولتني: منحتني وقد إلي. (٣) فتحسن منزلتي منزلتي عنده: فتكون لي مكانة عنده.
(٤) لم يصر أمري: لم يتحول إلى ما أنا فيه من بلاء. تحتال في خلاصة: تحاول إنقاذه. لم يغنوا عنه شيئا: لم تنفع وسائلهم ولم تفده.
(٥) وتراءت له : ظهرت بحيث يراها .

السَّائِحُ الَّذِي حُبِسَ ظُلْمًا. فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِحِ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ ، فَقالَ : لَا أُحْسِنُ الرُّقَى، وَلٰكِنْ أَسْقِيهِ مِنْ ماءِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ، فَيَبْرأُ بِإِذنِ اللهِ تَعالَى، فَسَقَاهُ فَبَرِئَ الْغُلامُ. فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذٰلِكَ، وَسأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ فَأَخْبَرَهُ فَشَكَرَهُ الْمَلِكُ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصْلَبَ فَصَلَبُوهُ لِكَذِبِهِ، وَلِانْحِرافِهِ عَنِ الشُّكْرِ، وَمُجازَاتِهِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ بِالْقَبِيحِ[1]!.

ثُمَّ قالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِكِ: فَفِي صَنِيعِ الصَّائِغِ بِالسَّائِحِ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَاذِهِ إِيَّاهُ، وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ، وَتَخْلِيصِ بَعْضِها إِيَّاهُ عِبْرةٌ لِمَنِ اعْتَبَرَ، وَفِكْرةٌ لِمَنِ افْتَكَرَ، وَأَدَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفاءِ وَالْكَرَمِ، قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ صَوابِ الرَّأْيِ، وَجَلْبِ الْخَيْرِ، وَصَرْفِ الْمَكْرُوهِ.!.

بابُ

ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحابِهِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ: قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ. **فَإِنْ كانَ الرجُلُ لا يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ وَتَثَبُّتِهِ فِي الْأُمُورِ كَما يَزْعُمُونَ فَما بالُ الرَّجُلِ الْجاهِلِ يُصِيبُ الرِّفْعَةَ وَالْخَيْرَ، وَالرَّجُلِ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ قَدْ يُصِيبُ الْبَلاءَ وَالضُّرَّ؟!** قالَ بَيْدَبا : كَما أَنَّ الْأَعْمَى لا يُبْصِرُ إِلَّا بِقَلْبِهِ، وَلا يَمْشِي إِلَّا بِحَسَّهِ مَعَ الْمُهْلَةِ وَالتَّأَنِّي. كَذٰلِكَ يَنْبَغِي لِلْإِنْسانِ أَنْ يَسْلُكَ فِي الْأُمُورِ بِعَيْنِ الْعَقْلِ وَالْبَصِيرةِ وَالْعِلْمِ، وَبِالتَّثَبُّتِ وَالْأَناة، فَقَلَّ أَنْ يَعْثِرَ عَلَى هٰذا[2]! غَيْرَ أَنَّ الْقَضاءَ وَالْقَدَرَ قَدْ يَغْلِبانِ عَلَى ذٰلِكَ، كَما قَدْ يَعْثُرُ الْبَصِيرُ، وَيَسْلَمُ الضَّرِيرُ! وَمَثَلُ ذٰلِكَ مَثَلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحابِهِ. قالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كانَ ذٰلِكَ؟

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ ، اصْطَحَبُوا فِي طَرِيقٍ واحِدةٍ: أَحَدُهُمُ ابْنُ مَلِكٍ، وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ، وَالثَّالِثُ ابْنُ شَرِيف ، ذُو جَمالٍ، والرَّابِعُ ابْنُ أَكَّارٍ. وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتاجِينَ، وَقَدْ أَصابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعٍ غُرْبةٍ ، لا يَمْلِكُونَ إِلَّا ما عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيابِ[3]. فَبَيْنَما هُمْ يَمْشُونَ إِذ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ، وَكانَ كُلُّ إِنْسانٍ مِنْهُمْ راجِعًا إِلَى طِباعِهِ، وَمَا كانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ الْخَيْرُ.

(١) فيبرأ: فيشفى. (٢) وتثبته: تأنيه. بحسه: بلمسه.
(٣) الضرير: الذاهب البصر. أكار: حَرّاث فلاح زرّاع. وجَهد: تعب.

فَقالَ ابْنُ الْمَلِكِ: إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيا كُلَّهُ بِالْقَضاءِ وَالْقَدَرِ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الْإِنْسانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حالٍ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضاءِ وَالقَدَرِ وَانْتِظارُهُما أَفْضَلُ الْأُمُورِ.

وَقالَ ابْنُ التَّاجِرُ: الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

وَقالَ ابْنُ الشَّرِيفِ: الْجَمالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذُكِرَ. ثُمَّ قالَ الْأَكَّارُ: لَيْسَ فِي الدُّنْيا أَفضَلُ مِنَ الِاجْتِهادِ فِي الْعَمَلِ[1]. فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ مَدِينةٍ يُقالُ لَها: مِطْرُونُ جَلَسُوا فِي ناحِيةٍ مِنْها يَتَشاوَرُونَ. فَقالُوا لِابْنِ الْأَكَّارِ: انْطَلِقْ فَاكْتَسِبْ لَنا بِاجْتِهادِكَ طَعامًا لِيَوْمِنا هٰذا. فانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذا عَمِلَهُ الْإِنْسانُ يَكْتَسِبُ فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعةِ نَفَرٍ، فَعَرَّفُوهُ أَنْ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينةِ شَيْءٌ أَعَزُّ مِنَ الْحَطَبِ. وَكانَ الْحَطَبُ مِنْها عَلَى فَرْسَخٍ، فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ فَاحْتَطَبَ طُنًّا مِنَ الْحَطَبِ. وَأَتَى بِهِ الْمَدِينةَ فَباعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَامًا،وَكَتَبَ عَلَى بابِ الْمَدِينةِ: **عَمَلُ يَوْمٍ واحِدٍ إِذا جَهَدَ بِهِ الرَّجُلُ بَدَنُهُ قِيمتُهُ دِرْهَمٌ**[2]. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحابِهِ بِالطَّعامِ فَأَكَلُوا. فَلَمَّا كانَ مِنَ الْغَدِ قالُوا: يَنْبَغِي لِلَّذِي قالَ: إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ مِنَ الْجَمالِ أَنْ تَكُونَ نَوْبتُهُ. فَانْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ، لِيَأْتِيَ الْمَدِينةَ فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقالَ: أَنا لَسْتُ أُحْسِنُ عَمَلًا، فَما يُدْخِلُنِي الْمَدِينةَ؟! ثُمَّ اسْتَحَى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحابِهِ بِغَيْرِ طَعامٍ،وَهَمَّ بِمُفارَقَتِهِمْ، فَانْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمةٍ ، فَغَلَبَهُ النَّوْمُ، فَنَامَ فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مُصَوِّرٌ وَبَصُرَ بِهِ، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهُ أَنْ يُصَوِّرَهُ،و يَكْتَسِبَ مِنْ صُورتِهِ إِذا عَمِلَ مِنْها صُوَرًا، وَباعَها فَأَيْقَظَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيُصَوِّرَهُ. فَلَمَّا كانَ الْمَساءُ أَجازَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ وَكَتَبَ عَلَى بابِ الْمَدِينةِ: **جمالُ يَوْمٍ واحِدٍ يُساوِي مِئةِ دِرْهَمٍ**[3]. وَأَتَى بِالدَّراهِمِ إِلَى أَصْحابِهِ. فَلَمَّا أَصْبَحُوا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ قالُوا لِابْنِ التَّاجِرِ: انْطَلِقْ أَنْتَ، فَاطْلُبْ لَنا بِعَقْلِكَ وَتِجارَتِكَ لِيَوْمِنا هٰذا شَيْئًا . فَانْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصُرَ بِسَفِينةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرةِ الْمَتاعِ، قَدْ قَدِمَتْ إِلى السَّاحِلِ، فَخَرَجَ إِلَيْها جَماعةٌ مِنَ التُّجَّارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَبْتاعُوا مِمَّا فِيها مِنَ الْمَتاعِ، فَجَلَسُوا يَتَشاوَرُونَ فِي ناحِيةٍ مِنَ الْمَرْكَبِ وَقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ارْجِعُوا يَوْمَنا هٰذا لا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتاعُ عَلَيْهِمْ، فَيُرْخِصُوهُ عَلَيْنا مَعَ أَنَّنا مُحْتاجُونَ

---

(١) بالقضاء والقدر: بما قضاه الله وقدره على عباده.

(٢) أعز: أقل وأندر وجودًا. الفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال. والميل: أربعة آلاف ذراع، وهو بري وبحري فالبري ١٦٠٩ من الأمتار، والبحري ١٨٥٢ من الأمتار. طُنًّا: حزمة.

(٣) وبَصُر به: رآه. أجازه: منحه جائزة.

إِلَيْهِ،وَسَيَرْخُصُ[1]. فَخالَفَ ابْنُ التَّاجِرِ الطَّرِيقَ، وَجَاءَ إِلَى أَصْحابِ الْمَرْكَبِ، فَابْتاعَ مِنْهُمْ ما فِيهِ بِمِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ نَسِيئَةً،وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذٰلِكَ، خافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذٰلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ، فَأَرْبَحُوهُ عَلَى ما اشْتَراهُ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَأَحالَ عَلَيْهِمْ أَصْحابَ الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحابِهِ، وَكَتَبَ عَلَى بابِ الْمَدِينَةِ : عَقْلُ يَوْمٍ واحِدٍ ثَمَنُهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ[2]. فَلَمَّا كانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ قالُوا لِابْنِ الْمَلِكِ: انْطَلِقْ أَنْتَ واكْتَسِبْ لَنَا بِقَضائِكَ وَقَدَرِكَ فَانْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بابِ الْمَدِينَةِ فَجَلَسَ عَلَى دَكَّةٍ فِي بابِ الْمَدِينَةِ. وَاتَّفَقَ بِالْقَدَرِ أَنْ ماتَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ، وَلَمْ يُخَلِّفْ وَلَدًا وَلا أَحَدًا ذا قَرَابَةٍ، فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجِنازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنْهُ، وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكْتَرِثْ لِما هُمْ فِيهِ. فَأَنْكَرُوا حالَهُ، وَشَتَمَهُ الْبَوَّابُ، وَقالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ يا لَئِيمُ؟ وَما يُجْلِسُكَ عَلَى بابِ الْمَدِينَةِ؟ ولا نَراكَ تَحْزَنُ لِمَوْتِ الْمَلِكِ، وَلا تَهْتَمُّ، وَطَرَدَهُ الْبَوَّابُ عَنِ الْبابِ! فَلَمَّا ذَهَبُوا عادَ الْغُلامُ ، فَجَلَسَ مَكَانَهُ، فَلَمَّا دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بَصُرَ بِهِ الْبَوَّابُ، فَغَضِبَ وَقالَ لَهُ: أَلَمْ أَنْهَكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هٰذا الْمَوْضِعِ؟! وَأَخَذَهُ فَحَبَسَهُ[3]. فَلَمَّا كانَ مِنَ الْغَدِ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشاوَرُونَ فِيمَنْ يُمَلِّكُونَهُ عَلَيْهِمْ، وَيَخْتَلِفُونَ بَيْنَهُم، إِذ دَخَلَ الْبَوَّابُ فَقالَ لَهُمْ: إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسِ غُلامًا جالِسًا عَلَى الْبابِ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنا، كَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ عِنْدَهُ بِعَظِيمٍ، وَتَلُوحُ عَلَيْهِ لَوائِحُ الْعِزَّةِ وَالشَّرَفِ، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي، فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبابِ، فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جالِسًا، فَأَدْخَلْتُهُ السِّجْنَ مَخافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا، فَبَعَثَتْ أَشْرافُ الْمَدِينَةِ إِلَى الْغُلامِ، فَجاءُوا بِهِ وَسَأَلُوهُ عَنْ حالِهِ، وَما أَقْدَمَهُ إِلَى مَدِينَتِهِمْ[4]؟ فَقالَ : أَنا ابْنُ مَلِكِ فَوِيرانَ، وَإِنَّهُ لَمَّا ماتَ والِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى الْمُلْكِ، وَقَدْ كانَ أَبِي عَهِدَ إِلَيَّ فِيهِ، فَغَصَبَنِي إِيَّاهُ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَرًا عَلَى نَفْسِي، حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هٰذِهِ الْغايَةِ. فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلامُ ما ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ بَعْضُ مَنْ كانَ يَغْشَى بِلادَ أَبِيهِ مِنْهُمْ، وَأَثْنَوا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا. ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرافَ اخْتارُوا الْغُلامَ أَنْ يُمَلِّكُوهُ عَلَيْهِمْ، وَرَضُوا بِهِ، وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ إِذا مَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فِيلٍ أَبْيَضَ، وَطافُوا بِهِ حَوالَيِ الْمَدِينَةِ! فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذٰلِكَ مَرَّ بِبابِ

---

(١) المتاع : ما ينتفع به من الحوائج والأدوات والأطعمة . يكسد : لا يجد من يشتريه . فيرخصوه : يجعلوه رخيصا بناء على قانون العرض والطلب .

(٢) نسيئة : إلى أجل . وأحال عليهم : أي نقل الدين الذي في ذمته إلى ذممهم .

(٣) دَكّة : بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه مِصْطَبة . فأنكروا : جهلوا .

(٤) لوائح أمارات وعلامات . عينا : جاسوساً .

الْمَدِينةِ، فَرَأَى الْكِتابةِ عَلَى الْبابِ، **فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ: إِنْ الإِجْتِهَادَ، والْجَمالَ، والْعَقْلَ، وَما أَصابَ الإِنْسانَ فِي هٰذِهِ الدُّنْيا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، إِنَّما هُوَ بِقَضاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**[1]. وَقَدِ اعْتُبِرَ ذٰلِكَ بِما ساقَ اللهُ إِلَيَّ مِنَ الْكَرامةِ وَالْخَيْرِ. ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ فَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ، وَأَرْسَلَ إِلَى أَصْحابِهِ الَّذِينَ كانَ مَعَهُمْ، فَأَحْضَرَهُمْ فَأَشْرَكَ صاحِبَ الْعَقْلِ مَعَ الْوُزَراءِ، وَضَمَّ صاحِبَ الإِجْتِهادِ إِلَى أَصْحابِ الزَّرْعِ، وَوَلَّى صاحِبَ الْجَمالِ إِحْدَى مَصالِحِهِ!

ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقالَ لَهُمْ : أَمَّا أَصْحابِي فَقَدْ تَيَقَّنوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ ، إِنّما هُوَ بِقَضاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ[2]. وَإِنَّما أُحِبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذٰلِكَ وَتَسْتَيْقِنُوهُ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللهُ وَهَيَّأَهُ لِي إِنَّما كانَ بِقَدَرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بِجَمالٍ، وَلا عَقْلٍ، وَلا اجْتِهادٍ، وَمَا كُنْت أَرْجُو إِذ طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي ما يُعَيِّشُنِي مِنَ الْقُوتِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ أُصِيبَ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةَ، وَمَا كُنْتُ أُؤَمِّلُ أَنْ أَكُونَ بِها؛ لِأَنِّي قَدْ رَأَيتُ فِي هٰذِهِ الأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمالًا، وأَشَدُّ اجْتِهادًا، وَأَحْزَمُ رَأْيًا، فَساقَنِي الْقَضاءُ إِلَى أَنِ اعتَزَزْتُ بِقَدَرٍ مِنَ اللهِ[3]. وَكَانَ فِي ذٰلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ ، فَنَهَضَ حَتَّى اسْتَوَى قائِمًا وَقالَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلامِ عَقْلٍ وَحِكْمةٍ ، وَلٰكِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذٰلِكَ وُفُورُ عَقْلِكَ، وَحُسْنُ ظَنِّكَ، وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنا فِيكَ وَرَجاءَنا لَكَ، وَقَدْ عَرَفْنا ما ذَكَرْتَ، وَصَدَّقْناكَ فِيما وَصَفْتَ ! وَالَّذِي ساقَ اللهُ إِلَيْكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْكَرامةِ، كُنْتَ أَهْلًا لَهُ لِما قَسَمَ اللهُ تَعالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، وَإِنَّ أَسْعَدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيا والآخِرةِ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ رَأْيًا وَعَقْلًا، وَإِنَّما أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْنا بِقَضائِهِ، إِذ وَفَّقَكَ لَنا عِنْدَ مَوْتِ مَلِكِنا، وَكَرَّمَنا بِكَ. ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ فَحَمِدَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقالَ : إِنَّ شَأْنَ الْقَضاءِ وَالْقَدَرِ لَكَما ذَكَرْتَ[4]. وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ أَحَدَ السُّيَّاحِ حَدَّثَ عَنْ نَفْسِهِ فَقالَ :

إِنِّي كُنْتُ أَخدُمُ وَأَنا غُلامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ سائِحًا رَجُلًا مِنْ أَشْرافِ النَّاسِ، فَلَمَّا بَدا لِي رَفْضُ الدُّنْيا، فَارَقْتُ ذٰلِكَ الرَّجُلَ، وَقَدْ كانَ أَعْطانِي مِنْ أُجْرَتِي دِينارَيْنِ؛ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِما، وَأَسْتَبْقِيَ الآخَرَ، فَأَتَيْتُ السُّوقَ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجَيْ هُدْهُدٍ، فَساوَمْتُهُ فِيهِما؛

---

(١) سنة: تقليد وعادة. عهد إلى: أوحي لي. حذرا على نفسي: خوفا عليها. (٢) سرير ملكه: تخت. وذوي: وأصحاب.
(٣) وتستيقنوه: تعلموه وتتحققوا من صحته. منحني: أعطاني إياه. وأحزم: أخكم. اعتززت: تشرفت وتمسكت. استوى: استقام واعتدل.
(٤) استوى قائما: استقام واعتدل. وفور: كمال. أهلا: مستحقاً. وفقك: هيأك لنا. وأثنى عليه: مدحه.

لِأُطْلِقَهُما، وَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهُما إِلَّا بِدِينارَيْنِ، فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَنِيهِما بِدِينارٍ واحِدٍ فَأَبَى[1]. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَشْتَرِي أَحَدَهُما ، وَأَتْرُكُ الْآخَرَ. ثُمَّ قُلْتُ : لَعَلَّهُما يَكُونانِ زَوْجَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى، فَأُفَرِّقَ بَيْنَهُما، فَأَدْرَكَنِي لَهُما رَحْمَةٌ ، فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، وَابْتَعْتُهُما بِدِينارَيْنِ، وَأَشْفَقْتُ إِنْ أَرْسَلْتُهُما فِي أَرْضٍ عامِرَةٍ أَنْ يُصادا، وَلا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرا مِمَّا لَقِيا مِنَ الْجُوعِ وَالْهُزالَ وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِما الْآفاتِ. فَانْطَلَقْتُ بِهِما إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعَى ، وَالْأَشْجارِ، بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ وَالْعُمْرانِ، فَأَرْسَلْتُهُما فَطارا وَوَقَعا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ ، فَلَمَّا صارا فِي أَعْلاها شَكَرا لِي، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُما يَقُولُ لِلْآخَرِ: لَقَدْ خَلَّصَنا هٰذا السَّائِحُ مِنَ الْبَلاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، وَاسْتَنْقَذَنا وَنَجَّانا مِنَ الْهَلَكَةِ، وَإِنَّا لَخَلِيقانِ أَنْ نُكافِئَهُ بِفِعْلِهِ، وَإِنَّ فِي أَصْلِ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوءَةً دَنانِيرَ، أَفَلا نَدُلُّهُ عَلَيْها فَيَأْخُذَها[2]؟! فَقُلْتُ لَهُما : كَيْفَ تَدُلَّانِنِي عَلَى كَنزٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ ، وَأَنْتُما لَمْ تُبْصِرا الشَّبَكَةَ؟! فَقالا : إِنَّ الْقَضاءَ وَالْقَدَرَ الَّذِي يَتَسَلَّطُ عَلى الْقَمَرِ والشَّمْسِ فَيُكْسِفُهُما، وَعَلى الْحُوتِ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ فَيُصْطادُ ، إِذا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ، وَغَشَّى الْبَصَرَ! وَإِنَّما صَرَفَ الْقَضاءُ أَعْيُنَنا عَنِ الشَّرَكِ، وَلَمْ يَصْرِفْها عَن هٰذا الْكَنْزِ، لِتَنْتَفِعَ أَنْتَ بِهِ، فَاحْتَفَرْتُ وَاسْتَخْرَجْتُ الْبُرْنِيَّةَ وَهِيَ مَمْلُوءَةٌ دَنانِيرَ، فَدَعَوْتُ لَهُما بِالْعافِيَةِ، وَقُلْتُ لَهُما : الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي عَلَّمَكُما مَا لَمْ تَعْلَمَا، وَأَنْتُما تَطِيرانِ فِي السَّماءِ، وَأَخْبَرْتُماني بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ ، فَقالا لِي : أَيُّها الْعاقِلُ ، أَما تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَتَجاوَزَهُ[3]؟.

فَلْيَعْرِفْ أَهْلُ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ : أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْياءِ بِقَدَرِ اللهِ وَقَضائِهِ، وَأَنَّ الْإِنْسانَ لا يَجْلُبُ إِلَى نَفْسِهِ مَحْبُوبًا وَلا يَدْفَعُ عَنْها مَكْرُوهًا إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ تَعالى. فَلْتَثِقْ نُفُوسُ أَهْلِ الْفِكَرِ بِذٰلِكَ وَتَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ راحَةً لِلْمُبْتَلَى وَداعِيًا لِمَنْ تُؤَاتِيهِ الْمَقادِيرُ إِلَى شُكْرِ رَبِّ الْعالَمِينَ[4]!.

---

(١) هُدْهُد: طائر ذو خطوط وألوان جاء ذكره في القرآن في قصة سيدنا سليمان. فساومه: عرضت عليه ثمنا منتظرا قبوله.
(٢) أشفقت: خفت. والهُزال: الضعف. الآفات: العاهات أو الأعراض المفسدة.
(٣) لخليقان: لجديران. لمستحقان. دنانير: جمع دينار. وهو قطعة ذهبية من العملات القديمة. البرنية: الجرة.
(٤) للمبتلى: لمن أصيب وكان محل ابتلاء واختبار من الله.

بابُ
الْحَمامةِ وَالثَّعْلَبِ وَمالِكِ الْحَزِينِ
وهُوَ آخِرُ الْكِتابِ

قالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هٰذا الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي : شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلا يَراهُ لِنَفْسِهِ. قالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ مَثَلَ ذٰلِكَ مَثَلُ الْحَمامةِ وَالثَّعْلَبِ وَمالِكِ الْحَزِينِ. قالَ الْمَلِكُ : وَما مَثَلُهُنَّ؟.

قالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمامةً كانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ نَخْلةٍ طَوِيلةٍ ذاهِبةٍ فِي السَّماءِ ، فَكانَتِ الْحَمامةُ تَشْرَعُ فِي نَقْلِ الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلةِ فَلا يُمْكِنُها أن تنقل ما تَنَقُّلُ مِنَ الْعُشِّ وَتَجعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشقَّةٍ لِطُولِ النَّخْلَةِ وَسُحْقِها[1]. وَكانَتْ إِذَا فَرَغَتْ مِنَ النَّقْلِ باضَتْ، ثُمَّ حَضَنَتْ بَيْضَها، فَإِذا فَقَسَتْ وَأَدْرَكَ فِراخُها، جاءَها ثَعْلَبٌ قَدْ تَعَهَّدَ ذٰلِكَ مِنْها لِوَقْتٍ قَدْ عَلِمَهُ، رَيْثَما يَنْهَضُ فِراخُها، فَوَقَفَ بِأَصْلِ النَّخْلةِ، فَصاحَ بِها وَتَوَعَّدَها ، أَنْ يَرْقَى إِلَيْها، أَوْ تُلْقِيَ إِلَيْهِ فِراخَها، فَتُلْقِيها إِلَيْهِ. فَبَيْنَما هِيَ ذاتَ يَوْم - وَقَدْ أَدْرَكَ لَها فَرْخانِ - إِذ أَقْبَلَ مالِكٌ الْحَزِينُ فَوَقَعَ عَلَى النخْلةِ[2]، فَلَمَّا رَأَى الْحَمامةَ كَئِيبةً حَزِينةً شَدِيدةَ الْهَمِّ قالَ لَها : يا حَمامةُ ، مالِي أَراكِ كاسِفةَ الْبالِ، سَيِّئَةَ الْحالِ؟! فَقالَتْ لَهُ : يا مالِكُ الْحَزِينُ ، إِنَّ ثَعْلَبًا دُهِيتُ بِهِ، كُلَّما كانَ لِي فَرْخانِ جاءَنِي يَتَهَدَّدُنِي، وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلةِ، فَأَفْرَقُ مِنْهُ، فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرْخِي! قالَ لَها مالِكُ الْحَزِينُ: إِذا أَتاكِ لِيَفْعَلَ ما تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ : لا أُلْقِي إِلَيْكَ فَرْخِي، فَارْقَ إِلَيَّ، وَغَرِّرْ بِنَفْسِكَ، فَإِذا فَعَلْتَ ذٰلِكَ، وَأَكَلْتُ فَرْخِي، طِرْتُ عَنْكَ، وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي، فَلَمَّا عَلَّمَها مالِكُ الْحَزِينُ هٰذِهِ الْحِيلةَ طارَ فَوَقَعَ عَلَى شاطِئِ نَهْرٍ[3]. وَأَقْبَلَ الثَّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ، فَوَقَفَ تَحْتَ النَّخْلةِ، ثُمَّ صاحَ كَما كانَ يَفْعَلُ، فَأَجابَتْهُ الْحَمامةُ بِمَا عَلَّمَها مالِكُ الْحَزِينُ، فَقال لَها: أَخْبِرِينِي مَنْ عَلَّمَكِ هٰذا؟ قالَتْ: عَلَّمَنِي مالِكُ الْحَزِينُ. فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مالِكًا الْحَزِينَ عَلَى شاطِئِ النَّهْرِ، فَوَجَدَهُ واقِفًا. فَقالَ لَهُ الثَّعْلَبُ : يا مالِكُ الْحَزِينُ، إِذا أَتَتْكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ،

---

(١) مالك الحزين: طائر من طيور الماء. وسُحقها: وعُلُوّها.

(٢) حضنت بيضها: ضمته تحت جناحيها ورخمت عليه للتفريخ. وأدرك فراخها: كبرت. تعهد: تفقد وعرف. ريثما: إلى أن.. أو حتى. وتوعدها: تهددها. يرقي: يصعد. تلقى: تطرح. فوقع: نزل.

(٣) كاسفة البال: كئيبة النفس. سيئة الحال. وغرر بنفسك: عرضها للهلاك والتلف.

فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ؟ قالَ: عَنْ شِمالِي. قالَ : فَإِذا أَتَتْكَ عَن شِمالِكَ، أَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ! قالَ : أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِيني، أَوْ خَلْفِي، قالَ : فَإِذا أَتَتْكَ الرِّيحُ مِنْ كُلِّ مَكَان وَكُلِّ ناحيةٍ أَيْنَ تَجْعَلُهُ؟ قالَ : أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَناحِيَّ. قالَ : وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَناحَيْكَ؟ ما أَراهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ[1].

قالَ : بَلَى . قالَ : فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ ، فَلَعَمْرِي يا مَعْشَرَ الطَّيْرِ، لَقَدْ فَضَّلَكُمُ اللهُ عَلَيْنا، إِنَّكُنَّ تَدْرِينَ فِي ساعةٍ واحِدةٍ مِثْلَ ما نَدْرِي فِي سَنَةٍ، وَتَبْلُغْنَ ما لا نَبْلُغُ، وَتُدْخِلْنَ رُءُوسَكُنَّ تَحْتَ أَجْنِحَتِكُنَّ مِنَ الْبَرْدِ وَالرِّيحِ، فَهَنِيئًا لَكُنَّ، فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ؟ فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَناحَيْهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ مَكَانَهُ، فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّ عُنُقَهُ[2]. ثُمَّ قالَ : يا عَدُوَّ نَفْسِهِ تَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمامةِ، وَتُعَلِّمُها الْحِيلَةَ لِنَفْسِها، وَتَعْجِزُ عَنْ ذٰلِكَ لِنَفْسِكَ حَتَّى يَتَمَكَّنَ مِنْكَ عَدُوُّكَ! ثُمَّ قَتَلَهُ وَأَكَلَهُ! أَلْهَمَنِي اللهُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْتَمِرِينَ لِما يَأْمُرُونَ،والْمُنْتَصِحِينَ بِما يَنْصَحُون.

فَلَمَّا انْتَهَى الْمَنْطِقُ بِالْفَيْلَسُوفِ إِلَى هٰذا الْمَوْضِعِ ، سَكَتَ الْمَلِكُ . فَقالَ لَهُ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّها الْمَلِكُ عِشْتَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمُلِّكْتَ الأَقالِيمَ السَّبْعةَ، وَأُعْطِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَظًّا، وَبَلَغْتَ ما أَمَّلْتَهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيا والآخِرةِ فِي سُرُورٍ مِنْك، وَقُرَّةِ عَيْنٍ مِنْ رَعِيَّتِكَ بِكَ وَمُساعَدةِ الْقَضاءِ وَالْقَدَرِ لَكَ[3]، فَإِنَّهُ قَدْ كَمُلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ وَحَسُنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالنِّيَّةُ، وَتَمَّ فِيكَ الْبَأْسُ وَالْجُودُ، وَاتَّفَقَ مِنْكَ الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ، فَلا يُوجِدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ، وَلا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ، وَلا عَيْبٌ. وَقَدْ جَمَعْتَ النَّجْدَةَ وَاللِّينَ فَلا تُوجَدُ جَبانًا عِنْدَ اللِّقاءِ، وَلا ضَيِّقَ الصَّدْرِ عِنْدَ ما يَنُوبُكَ مِنَ الأَشْياءِ[4]!.

وَقَدْ جَمَعْتُ لَكَ فِي هٰذا الْكِتابِ شَمْلَ بَيانِ الأُمورِ، وَشَرَحْتُ لَكَ جَوابَ ما سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْها تَزَلُّفًا إِلَى رِضاكَ ، وَابْتِغاءَ لِطاعِتِكَ، فَأَبْلَغْتُكَ فِي ذٰلِكَ غايةَ نُصْحِي، وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ فِطْنَتِي، وَاللهُ تَعالَى يَقْضِي حَقِّي بِحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ فِي إِعْمالِ فِكْرِكَ وَعَقْلِكَ فِيما وَضَعْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحةِ وَالْمَوْعِظةِ ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْمَنْصُوحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِيحةِ مِنَ النَّاصِحِ وَلا الآمِرُ بِالْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُطِيعِ لَهُ فِيهِ. فَافْهَمْ ذٰلِكَ أَيُّها الْمَلِكُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ[5].

انْتَهَى

(١) ما أراه يتهيأ لك: ما أظنه يمكنك. (٢) فهمزه همزة: ضغطه وعصره. دق: كسر.
(٣) المؤتمرين: المُمْتَثِلين المستجيبين المنفذين. المنطلق: النطق. ما أمّلته: ما رجوته وتمنيت أن تناله وتحقق أملك.
(٤) النجدة: الشجاعة. والإقدام. ينوبك: يصيبك.
(٥) تزلفاً: تقربا. وابتغاء: طلب. ومبلغ فطنتي: نهاية فهمي. ولا حول: الحول القدرة على التصرف. والله أعلم.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
هذا الكتاب	٤
شخصيات الحوار	٧
باب : مقدمة الكتاب	١١
باب : بعثة الملك كسرى أنوشروان إلى بلاد الهند في تحصيل هذا الكتاب	٢٧
باب : عرض الكتاب لعبد الله بن المقفع معرب هذا الكتاب	٤٠
مثل الرجل واللص	٤٢
مثل الفقير واللص	٤٤
مثل الشريكين والأعدال	٤٦
مثل اللص والتاجر	٤٧
مثل الأخوة الثلاثة	٤٧
مثل الصياد والصدفة	٤٨
أغراض هذا الكتاب وأهدافه	٤٩
باب : برزويه لبزرجمهر بن البختكان	٥٠
مثل الرجل واللص	٥٢
مثل الرجل والبئر	٥٩
باب : الأسد والثور	٦٠
محاورة كليلة ودمنة بشأن الأسد	٦٣
مثل القرد والنجار	٦٣
مثل الثعلب والطبل	٦٨
مثل الناسك واللص	٧١

مثل الغراب والأسود ٧٥
مثل الأرنب والأسد ٧٧
مثل السمكات الثلاث ٧٩
مثل القملة والبرغوث ٨١
مثل البطة وضوء الكوكب ٨٤
مثل الذئب والغراب وابن آوى مع الجمل والأسد ٨٦
مثل الطيطوى ووكيل البحر ٩٠
مثل السلحفاة والبطتين ٩٠
مثل القردة والطائر والرجل ٩٣
مثل الخب والمغفل ٩٤
مثل العلجوم والحية ٩٥
مثل التاجر والحديد ٩٦
باب : الفحص عن أمر دمنة ٩٨
مثل الخازن والمصور ١٠١
مثل ابنة الملك والمطبب ١٠٦
مثل الحراث وامرأتيه ١٠٧
مثل البازيار وزوجة المرزبان ١١١
باب : الحمامة المطوقة ١١٣
مثل المرأة والسمسم ١١٨
مثل الذئب ووتر القوس ١١٨
باب : البوم والغربان ١٢٥
مثل أهل العداوة ١٢٦
مثل الأرنب وملك الفيلة ١٢٩
مثل الصفرد والأرنب ١٣٠

مثل الجماعة والناسك وعريضه ١٣٣
مثل التاجر والسارق ١٣٤
مثل الناسك واللص والشيطان ١٣٥
مثل الرجل واللصوص ١٣٦
مثل الناسك والفأرة ١٣٧
مثل الأسود وملك الضفادع ١٤٠
باب : القرد والغيلم ١٤٢
مثل ابن آوى والأسد و الحمار ١٤٥
باب : الناسك وابن عرس ١٤٧
باب : الجرذ والسنور ١٤٩
باب : الملك والطائر فنزة ١٥٣
باب : إيلاذ وبلاذ وإيراخت ١٦٣
باب : اللبؤة والإسوار والشغبر ١٧٤
باب : الناسك والضيف ١٧٦
مثل الغراب والحجلة ١٧٧
باب : السائح و الصائغ ١٧٨
باب : ابن الملك وأصحابه ١٨١
باب : الحمامة والثعلب ومالك الحزين ١٨٦